الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء السابع والأربعون

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

لايرفض البابا الأسقف المنتخب لعدم الكفاءة، أو بالحري حتى يبدو جديراً بمثل هذا المقام الرفيع، سعى الملك، مستخدماً جميع الوسائل التي تحت سلطانه، لرفع شأن بونيفيس المذكور، وزيادة شهرته، وهو الذي انتخب الآن، أو أنه سوف ينتخب، فأمر بكتابة ورقة، أثنى فيها على بونيفيس المذكور إلى أبعد الحدود، وكشاهد على صدقها، وضع خاتمه على تلك الكتابة المذكورة، ثم إنه أرسلها إلى الأساقفة، وإلى رعاة الديرة، آمراً إياهم، أو بالحري رجاهم بشكل ملكي بأن يضعوا أيضاً أختامهم عليها، وأن يكونوا شهوداً على ما أكده، وقد رفض عدد منهم —على كل حال— خرق تماسك ضميرهم، وخافوا من مخالفة أمر الرب في قوله: «أنت لن تكون شاهد زور»، ولذلك رفضوا بإصرار طاعته، وكان هناك على كل حال، بعضاً من رجال الدين من ذوي المراتب العالية، أي بعض الأساقفة ورعاة الديرة، قد خافوا، وضعفوا أمام تهديدات الملك، فوضعوا جانباً خوفهم من الرب، وأظهروا احتراماً نحو الإنسان، أكثر من الاحترام نحو الرب، فوضعوا أختامهم عليها كضمانة، وشهادة على إيمانهم، ورضاهم بقبول بونيفيس ليكون رئيسهم.

ومع أنه كان من أصل نبيل، وصديقاً مقرباً من أمراء المملكتين، وهو شخصياً مكون بشكل جيد، ومؤهل بما فيه الكفاية، فقد كان رهبان كانتربري آسفين إلى أقصى الحدود، لأنهم غلبوا من قبل توسلات الملك، فوافقوا على طلبه في هذه القضية، وبعدما تفكر بعضهم في أنفسهم، وعرفوا الشقاء المخبأ لهم، انسحبوا من كنيستهم، ولكي يقوموا بتوبة دائمة، حملوا أنفسهم وانتقلوا إلى طائفة الرهبان الكارثوشيان Carthusian.

اضطهاد كونت بروفانس

أرسل في هذه الآونة، ريموند كونت بروفانس، والد ملكتي

الفرنسيين والانكليز، عدة رسل خاصين، إلى صهره ملك فرنسا، مع توسلات مستعجلة، حتى يمنحه مساعدة فعالة بحكم كونه ختنه وحليفه، لأن كونت طولوز، قد شنّ الحرب ضده، بناء على أمر من الامبراطور، وضيق عليه حتى أوصله إلى الدمار الشامل، وهو الآن مجرد تماماً من امكانات المقاومة، حيث أنفق المال الذي أرسل إليه من ملك انكلترا، وبناء على هذا، كتب الملك الفرنسي بلطف ظاهري إلى الامبراطور، وكذلك، إلى كونت طولوز، رجاهما، صدوراً عن احترامهما له وعاطفتهما نحوه، اظهار الرحمة نحو ختنه، وكتب ملك انكلترا، وأخوه رتشارد، ايرل كورنوول رسائل إلى الاثنين نفسيهما من أجل هذه الغاية نفسها، وبهذه الوسائط نال كونت بروفانس، بعد وقت طويل، الهدوء، وسمح له بالتمتع به.

كيف ضايق البنادقة الإمبراطور

أضر البنادقة خلال هذا الوقت كله بعناد على إلحاق كل أذى ممكن لهم، وبكل وسيلة، يمكنهم ابداعها بالبر وبالبحر، للانتقام لرئيسهم عمدة ميلان، الذي كما ذكرنا من قبل، قد أسره الامبراطور، أثناء قتاله ضد ميلان، والذي بعدما أودع السجن، أدين، وأعدم بناء على أوامر الامبراطور.

يقظة الإمبراطور في الدفاع عن نفسه ضد أعدائه المتنوعين

واستولى في هذه الآونة الامبراطور فردريك بالقوة على مدينة فيانزا، وهي التي وقعت تحت الحصار لمدة طويلة، والتي باتت الآن غير قادرة على متابعة الصمود، واستمر الحصار لحوالي السنة، وقد أنفق الامبراطور مبلغاً كبيراً من المال عليه، آه، أي قلق، وأية اضطرابات مضاعفة أثرت على دماء قلب الامبراطور، في الدفاع عن امبراطوريته لأنه امتلك ستة جيوش كبيرة وكثيرة التعداد ومرعبة، وقد قاد هو أولها،

الفـرنسيين والانكليز، عـدة رسل خاصين، إلى صهـره ملك فرنسـا، مع توسـلات مستعجلة، حتى يمنحـه مسـاعـدة فعـالة بحكم كـونه ختنه وحليفـه، لأن كـونت طولوز، قـد شنّ الحرب ضـده، بناء على أمـر من الامبراطور، وضيق عليــه حتى أوصله إلى الدمـار الشـامل، وهو الآن مجرد تمامـاً من امكانات المقاومـة، حيث أنفق المال الذي أرسل إليـه من ملك انكلترا، وبناء على هـذا، كتب الملك الفـرنسي بلطـف ظاهري إلى الامبراطور، وكذلك، إلى كونت طولوز، رجاهما، صدوراً عن احترامهما له وعـاطفتهما نحـوه، اظهـار الرحمة نحـو ختنه، وكتب ملك انكلترا، وأخوه رتشارد، ايرل كورنوول رسائل إلى الاثنين نفسيهما من أجل هذه الغاية نفسهـا، وبهذه الوسائط نال كـونت بروفانس، بعـد وقت طويل، الهدوء، وسمح له بالتمتع به.

كيف ضايق البنادقة الإمبراطور

أضر البنادقـة خلال هـذا الوقت كله بعناد على إلحاق كل أذى ممكن لهم، وبكل وسيلة، يمكنهم ابداعهـا بـالبر وبالبحـر، للانتقـام لرئيسهم عمدة ميـلان، الذي كما ذكرنا من قبل، قـد أسره الامبراطور، أثناء قتاله ضد ميـلان، والذي بعدمـا أودع السجن، أدين، وأعدم بنـاء على أوامر الامبراطور.

يقظة الإمبراطور في الدفاع عن نفسه ضد أعدائه المتنوعين

واستولى في هذه الآونة الامبراطور فردريك بالقـوة على مدينةِ فيانزا، وهي التي وقعت تحت الحصار لمدة طويلـة، والتي باتت الآن غير قادرة على متــابعــة الصمــود، واستمــر الحصــار لحوالي السنة، وقــد أنفق الامبراطور مبلغــاً كبيراً من المال عليــه، آه، أي قلق، وأيـة اضطرابات مضـاعفة أثرت على دمـاء قلب الامبراطور، في الدفاع عن امبراطوريتـه لأنه امتلك ستة جيوش كبيرة وكثيرة التعداد ومرعبة، وقد قاد هو أولها،

وكان الثاني جيشاً مزدوجاً، موجوداً في الأراضي الجنوية، أي كان قوة بحرية، لتعترض بالقوة في البحر طريق عبور النواب البابويين والأساقفة، الذي استخفوا بنصائحه، وقوة أخرى عملت بالبر، قرب ساحل البحر، تحت قيادة ابنه هنري ملك غالوري Gallury, وتوري Torres, التي تابعت باستمرار نهب الحقول والكروم التابعة للجنويين، وكان هناك جيش ثالث تحت قيادة ابنه كونراد، ولي عهد مملكة القدس، الذي كان قد حشد تحت قيادته جيشاً لايمكن تعداده، من ألمانيا ومن المناطق المجاورة لها والخاضعة للحكم الامبراطوري، وقد أرسله ضد التتار، على أساس أن ابنه كونراد هو القائد الأعلى، غير أنه كان مرافقاً بدوقات النمسا، وسكسوني، وبافاريا، مع نبلاء آخرين، وأساقفة،-وآخرين عددهم كبير جداً لايمكن تعدادهم، وقد تبعهم حشد كبير من الناس تطوعوا لهدف واحد، وبتشوق حملوا الصليب، وكانوا مستعدين للقتال حتى الموت ضد التتار المذكورين، لصالح الكنيسة العالمية، وجرى استخدام الجيش الرابع في تخوم تريفيسو Treviso, وكان تحت قيادة ثيوبولد، الذي قيل بأنه من أصل فرنسي، وكان حليفاً خاصاً للامبراطور، وكان عمل الجيش الخامس في تخوم أنكونا ووادي سبوليتو، وكان الجيش السادس في الأرض المقدسة، تحت إمرة مارشاله رالف، الذي إليه أسند الايرل رتشارد المسؤولية عن الأرض المقدسة، التي استحوذ عليها، أو تهدنت من قبله، وبشكل خاص قلعة عسقلان، التي تولى الايرل رتشارد المذكور تقويتها بشكل فخم على حسابه، وذلك في سبيل تقوية المسيحية ورفع مكانتها بشكل عام.

ثبات رهبان وينكستر والظلم الذي مورس ضدهم

وفي هذه الآونة كان هناك بعض الذين يدورون بفلك البلاط، والواثقين بأوامر الملك، والذين اعتادوا على أن يعملوا من الأشياء

التافهة أشياء عظيمة، وقد ذهب هؤلاء إلى وينكستر، وبرعونة طلبوا الرهبان الذين رفضوا اطاعة أوامر الملك في قضية الانتخاب أو طالبوا بانتخاب أسقف وينكستر، والذين كانوا بشكل وقح غير مطيعين للملك، وعملوا ذلك الطلب إلى وليم دي ريلي Rele, أسقف نورويك، ولم يتنازلوا بالتخلي عن مقصدهم لابالتهديدات ولابالالتماسات، فهكذا كان فخارهم الرهباني، وهكذا كانت وضاعة هؤلاء الناس الجبناء، وبناء عليه جرى بحث بالقضية من قبل رئيس الرهبان، الذي أرغم من قبلهم، والذي كان أصل هذا الاضطراب كله، والرهبان الذين وجدوهم قد تصرفوا على هذه الصورة، جرى طردهم من الدير، من قبل هؤلاء الرسل، من دون اعطاء تقدير إلى العمر، أو الجنس، أو الطائفة، أو للاحترام المتوجب للكنيسة أو للدير، وسجنوا فيها بعد، وأجيعوا، وتعرضوا لكل نوع من أنواع الملامة، والإهانة، والإذلال، مما سبب إلحاق الإهانة بالنظام الرهباني كله.

استيلاء الإمبراطور على مدينة فيانزا وإظهاره الرحمة نحو السكان

وفي هذه الآونة خضعت أخيراً مدينة فيانزا الملكية، التي كما ذكرنا كانت مطوقة ومحاصرة من قبل الامبراطور فردريك، واستسلمت إليه بتحفظ، فقد أنهكت المجاعة السكان، ورافقها كثير من الاضطرابات المضاعفة، فجاءوا محتشدين، وسقطوا عند قدمي الامبراطور، وهم يتنهدون ويبكون، ورجوه من أجل الرحمة، وليس من أجل الحساب، وبينما كان هؤلاء الناس الذين أثاروا لمدة طويلة غضب الامبراطور إلى أعلى الدرجات، يتوقعون الموت بأقسى أنواع العذاب، وذلك بسبب مااقترفوه من ذنوب، تمت الاشارة إليها من قبل، وبسبب نفقات طول حصار مدينتهم من قبل الامبراطور، الذي تكبد إنفاق مبلغ كبير من المال، ومع ذلك قام المنتصر، برحمته الكريمة، بالحفاظ عليهم، وبفعله ذلك كسب عواطف الكثيرين، لأنه عندما رأى أنه حقق أخيراً الانتصار

على رعاياه العصاة، مال بدمه الكريم إلى الرحمة، وذلك تبعاً لكلمات الشاعر:

العدو جرى تدميره، والأسد النبيل استراح راضياً،

والمعركة انتهت، وغضبه الناري قد تلاشى.

والذئاب، والدببة، والوحوش الأصغر، اقتادتهم مشاعرهم المتدنية.

بالانتقام فظلوا غير مشبعين لنهمهم من ضحاياهم الميتة.

الانتقام المخيف الذي اقترف من قبل التتار

أثناء هذه الآونة نزل أولئك الناس الذين هم من غير البشر، والمتوحشين، والخارجين على القانون،وغير المدجنين، من التتار، في اندفاعهم وعنفهم الرهيب، على المقاطعات الشمالية للمسيحية، واجتاحوها بشكل مرعب ومدمّر، وأوقعوا الخوف والرعب بين جميع المسيحيين، وكانوا قد تمكنوا بطغيان لم يسمع بمثله، من تحويل بلدان كثيرة إلى صحراء مثل فريزلاند، وغوثلاند، وبولاندا، وبوهيميا، وشطري هنغاريا معاً حيث قتلوا الأمراء والأساقفة، وسكان المدن والفلاحين، أو أرغموهم على الفرار، وقد أكدت وقوع هذه الوقائع وشهدت عليها الرسالة التالية، التي أرسلت إلى هذه المناطق.

رسالة كتبت إلى دوق برابانت حول القوم أنفسهم

«من هنري، الذي هو بفضل الرب كونت اللورين، والأمير الملكي لسكسوني إلى مولاه المحبوب جداً، والذي سيظل دوماً محبوباً، وختنه، الدوق المشهور لبرابانت، الذي نحن على استعداد لخدمته متى طلب ذلك: إن المخاطر التي تقدم الحديث عنها في الكتابات المقدسة في العصور القديمة، آخذة الآن بالتفجر والتدفق بسبب ذنوبنا، لأن قطيعاً من الناس المتوحشين، الذين لاعدّ لهم ولاحصر، ومن المتمردين،

والهمج، يقومون الآن بغزو المناطق المجاورة لمناطقنا، والاستيلاء عليها، وقامـوا الآن بعدمـا عاثوا فسـاداً في كثير من البلدان الأخرى، وبعـدما أهلكوا سكانها، فمدوا غزواتهم حتى الأراضي البولندية.

وحصلنا حول هذه القضايا على أخبار كاملة من رسلنا، ومن رسائل من ابن عمنا المحبـوب ملك بوهيميا، وقد طلب منـا إعداد أنفسنا بكل سرعـة للسير إلى مسـاعـدته، وللدفـاع عـن المسيحيـة، ذلك أننا أخبرنا بصدق وبوضوح من قبله، بأن هذا الجنس من الناس، أي التتار، سوف يتولى في حوالي ثمانية الفصح بوحشية وهمجية، غزو الأراضي البوهيمية، وإذا لم تقـدم مساعـدة في وقتهـا إلى البـوهيميين، سوف تقـع مذبحـة لم يسمع بمثلهـــا، وبما أن البيت المجــاور لبيتنـا يحترق الآن، وبحكم أن المنطقة المجـاورة عرضـة للاجتياح، وفي الوقت الذي فيـه بعض المناطق هي الآن تحت الاجتياح، إننا نيابة عـن الكنيسة المسكونية، نطلب بقلق، ونرجو المساعدة، والتسديد من الرب، ومن جيراننا الأخوة الأمراء، وبما أن التأخير يولـد الخطر نرجـوكـم القيــام بكل يقظـة ممكنة، أن تحملوا السلاح، وأن تسرعـوا إلى نجدتنا، وكذلك في سبيـل حريتنا ومثل ذلك في سبيل حريتكم، وأن تستخـدموا مسعى قـوياً لإعداد قـوة قوية، وأن تثيروا النبلاء الأقوياء والشجعان مع الناس الخاضعين لهم، وأن تحتفظوا بهم مستعدين وجاهزين حتى نرسل إليكم رسلنا ثانية.

ونحن الآن نثير بوساطـة جهود أساقفتنا، والمبشرين لدينـا، والرهبان الفـرنسيسكان الدعــوة إلى حملة صليبيـة عـامـة (لأن القضيــة مـرتبطة بالمسيح)، ونبشر، ونصلي، ونصوم من أجل فـرضها، وبلادنا بشكل عام قد نهضت وثارت للحرب في سبيل يسوع المسيح.

وإلى هذا يمكن أن نضيف بأن قطيعاً كبيراً من هذا الجنس المقيت من الناس، يقـوم الآن بالتعـاون مع جيـش آخـر متحـالف معـه، باجتيـاح هنغاريا بوحشيـة لم يسمع بمثلها، إلى حد قيل فيـه بأن الملك قد احتفظ

فقط بقطعة صغيرة من البلاد لنفسه، ولنجمل القضية في كلمات قليلة فقط:

إن الكنيسة والناس في البلدان الشمالية، قد قمعوا وقهروا بكثير من أمثال هذه الاضطرابات الكبيرة والمصاعب إلى حد أنهم لم يعانوا قط بشدة من مثل هذا العذاب منذ بداية الدنيا. صدر في سنة النعمة ١٢٤١، في اليوم الذي يرتل فيه بـ «دعوا القدس تبتهج».

وأرسلت رسائل أخرى، لها المحتوى نفسه، من قبل دوق برابانت إلى أسقف باريس، وكتب أيضاً رئيس أساقفة كولون إلى ملك انكلترا حول المقصد نفسه.

وبناء عليه، ومن أجل معالجة هذا المرض الخطير، ولتسوية الخلافات الّتي قامت بين البابا والامبراطور، جرى فرض الصيام، والصلاة، ومنح الصدقات، على الناس في مختلف البلدان، حتى يصبح الرب القدير المخضع لأعدائه، والذي يقاتل مع قلة أو كثرة، راضياً نحو عباده، وأن يسحق شموخ هؤلاء التتار وجبروتهم.

وعندما أخبرت بلانشي المحترمة، وأمة الرب المحبوبة، وأم الملك الفرنسي بهذا العذاب الرباني، الذي نزل على الشعوب وأحاق بها، دعت ابنها قائلة: «الملك لويس، أين أنت ياولدي»؟ وبناء على ذلك اقترب منها ابنها وقال: «ماالذي تريدينه ياأماه؟»، ثم إنها تنهدت بعمق، وانفجرت باكية، ومع أنها كانت امرأة، فقد انكبت على هذه المخاطر العظيمة، ليس كإمرأة، وقالت له:

«ماالذي ينبغي صنعه ياولدي الحزين تجاه هذه الأحداث المؤلمة، والتي تطايرت عنها تقارير مرعبة وتدفقت على أراضينا؟، وإن دماراً عاماً لنا كلنا وللكنيسة المقدسة، بات الآن وشيكاً في أيامنا بسبب الغزوات الرهيبة للتتار بيننا»، ولدى سماع الملك لهذا، أجاب بصوت

حـزين، لكنه تكلم وكأنـه تلقى إلهامـاً ربانيـاً: «لعل المواسـاة من السماء تنهض بنا ياأماه، وإذا ماقدم هؤلاء الناس الذين نسميهم التتار، وجاءوا مغيرين علينا، إمـا سنردهم إلى بلاد التتـار التي صـدروا منهـا، أو أنهم سوف يرسلون بنا جميعـاً إلى السماء»، وهكذا فإنه كان يريد القـول: «إما أننا سـوف نصـدهم، أو أننا إذا مـا غلبنا، فإننا سـوف نغـادر إلى الرب كمعترفين للمسيح، أو شهـــداء»، وألهم هذا الكلام المدهـش والجدير بالثناء، الناس وأثار شجـاعتهم، ولم يقتصر هذا على النبلاء الفـرنسيين، بل تعداهم أيضاً إلى سكان البلـدان المجاورة، ثم إن الامبراطور، عندما سمع بهذه الأشياء، كتب إلى الأمراء المسيحيين، وبشكل خاص إلى ملك انكلترا كما يلي:

رسالة الإمبراطور فيها يتعلق باقتراب المغول

«من فردريك، إمبراطور، إلخ، إلى ملك انكلترا، تحيات:

نحن لايمكننـا الالتـــزام بالصمـت حيـــال قضيـــة لاتخصّ فقط الامبراطورية الرومـانية لوحدها، التي وظيفتهـا نشر الانجيل، بل تخصّ أيضـاً ممالك العالم كله، التي تمارس العبـادة المسيحية، لأنها تهدد بدمـار كـامل لجميـع المسيحيـة، ولذلك بادرنا مسرعين بنقل أخبـارها إليكم، وإعلامكم بها، علماً بأن الحقائق الصادقة حول الموضوع قد وصلت إلينا مؤخراً.

منذ وقت قصير مضى ظهـر عرق شعب متـوحش بطبائعه وبطـريقة حياته (من أي مكان أو أصل أنا لاأدري) اسمه التتـار، ظهر مؤخراً من مناطق الجنوب، حيث كـان مختبئاً منذ وقت طويل، قـد أحرقتـه شمس الإقليم الحار، وزحف من هناك نحـو المناطق الشماليـة، واستولى بالقـوة على المنطقـة هناك، وبقي لبعض الوقت، وتكاثر مثل الجراد، وقـد جـاء الآن متقدماً، ليس من دون قضاء مضى من الرب —لكن ليس كما آمل

مؤجلاً حتى أيام هذه الرسالة— لتدمير المسيحية كلها، وقد تبع وصول هؤلاء الناس، مذبحة عامة، ودمار شامل وبأساء لجميع الممالك، مع تخريب كامل للمناطق الخصبة، التي عاث فيها هذا القطيع من الناس فساداً، دون إبقاء لجنس، أو عمر، أو مرتبة، وهم مايزالون يأملون وهم واثقين، من تدمير بقية الجنس البشري، وهم يسعون إلى حكم البشرية والسيادة عليها لوحدهم، واثقين بقوتهم الهائلة، وبأعدادهم غير المحدودة، فبعدما قتلوا كل من وقع نظرهم عليه، ونهبوا كل مكان وخلفوا وراءهم انعدام كامل للسكان، وصل هؤلاء التتار (أو بالحري سكان تارتاروس) إلى مستعمرة الكومان الكثيفة السكان، ولأنهم لم يهتموا بالحياة، ولأن القوس هو السلاح المعتادين عليه كثيراً، أكثر من غيرهم من الشعوب، وبسهامهم، وبأسلحتهم المقذوفة الأخرى، التي يستخدمونها باستمرار، والتي أذرعتهم مدربة عليها وممارسة أكثر من سواهم، والتي باتت أقوى من الشعوب الأخرى مزقوا ذلك الشعب وأخضعوه، والذين لم يستطيعوا النجاة قد ذبحوا بسيوفهم الدموية.

وجعل اقتراب هؤلاء الهمج، مع شيء من الصعوبة الروثينيين Ruthenians, الذين يسكنون على مقربة منهم، يأخذون حذرهم ويستنفرون، ولأنهم كانوا غير معتادين على قتال هذا الشعب غير المعروف، فإنهم تشاوروا حول سلامتهم، وخافوا من غضبهم مثل خوفهم من النار، واتخذوا لأنفسهم احتياطات ضد هجماتهم، وبالهجمات المفاجئة، وحملات ذلك العرق الهمجي، الذي ينقض مثل غضب الرب، أو مثل البرق، فإن كييف المدينة الرئيسية لتلك المملكة قد هوجمت وتم الاستيلاء عليها، وجميع تلك المملكة الفخمة، التي كان من المتوجب توحيد نفسها مع مملكة هنغاريا، من أجل الدفاع عن نفسها، وحمايتها، والتي أهملت ذلك ولم تفعله، تحولت بعدما جرى قتل سكانها، إلى وضع من الدمار الكامل والبأساء.

وكـان ملكهم رجـلاً كسـولاً ومهمـلاً، وقـد أمـر بوسـاطة الرسل والرسـائل من هؤلاء التتار، أنه إذا أراد الحفـاظ على حياته، وعلى حيـاة رعيته، فما عليه سوى الاستسلام على الفور حتى ينال حظوتهم، غير أنه لم يخف من هـذا، ولم يأخـــذ حـــذره، وبـذلك أعطى بـرهاناً لشعبـــه وللآخرين، أنه يتـوجب عليه وعلى شعبه، القيام عل الفـور بالاستعداد من أجل حماية أنفسهم، والدفـاع ضـد غـاراتهم، ولكن في الوقت الذي كـان فيـــه هؤلاء الناس المغـرورين، أو الجاهلين مستخفين بـأعـدائهم، وبكسل نائمين والعـــدو في جـوارهم المبـاشر، ومعتمـديـن على القـوة الطبيعية للمكان وعلى منعته، شق التتـار طريقهم إلى المملكة مثل زوبعة ريح، وفجأة طوقوهم من كل جانب.

وعندما وجد الهنغار أنفسهم تحت الحصـار، قبل أن يتوقعوا الهجوم، وقد فـوجئوا عندما لم يكونوا مستعدين، حـاولوا الدفاع عن معسكرهم ضـدهم، وعندما بات الجيشـان المتصـارعان، أي جيش التتـار، وجيش الهنغار، على مسـافة خمسة أميال عن بعضهما بعضـاً، اندفع الجزء المتقدم من التتار فجأة نحو الأمام عند فجر النهار، وطوّق رجاله فجأة معسكر الهنغـار، فقتلوا الأسـاقفـة ونبـلاء المملكـة الذين تصـدوا لهم، وذبحـوا حشـداً من الهنغار في مـذبحة مـا من أحـد يتذكـر أن مثلها قـد وقع في معركة واحدة، منذ زمن طويل جداً.

أمـا الملك نفسـه، فقد نجـا بصعـوبة، حيث ركب على فـرس سريع، وهرب تحيط به حـاشيـة صغيرة، ليشارك في حصـة أخيـه ملك ايلليريا Illyria, ولكي يحصل هناك على الحماية على الأقل، وفـرح المنتصرون بأســلابهم وغنائمهم، ثم إنهم استقـــروا في معسكر الهنغــار المغلوبين، وكـانوا في تلك السّاعة ينهبـون الجزء الأكبر والأجمل من هنغـاريا، فيما وراء نهر الدانوب، ويلحقـون الأذى بالنـاس بالنار وبالسيف، ويهددون بإشراك البقيـــة في الدمـــار نفســـه، وذلك كما أخبرنا مـن قبل الأسقف

المحترم لفاتزن Vatzen, الذي كان سفير ملك هنغاريا المذكور، إلى بلاطنا، والذي أرسل بعد ذلك الى بلاط روما، وبما أنه كان مجتازاً خلال أراضينا أولاً، فقد قدم شهادة على مارآه، وبيناته صحيحة جداً.

وحصلنا أيضاً على معلومات وافية حول هذه الحوادث، بوساطة رسائل من ولدنا المحبوب كونراد، الملك المنتخب للرومان، وولي عهد مملكة القدس، وملك بوهيميا، ومن دوقي النمسا وبوهيميا، ومن كلام أفواه رسل، أكدوا فعلياً اقتراب وصول العدو، وقد سمعنا بهذا كله، ونحن نشعر بتشوش كبير في عقلنا، ولقد سمعنا —وبحكم أن الإشاعة، عن سيرهم، تسير أمامهم— بأن جيشهم الذي لايمكن تعداده، مقسم إلى ثلاثة أقسام سيئة الطالع، وبسبب تساهل الرب تجاه خططهم الملعونة، قد زحفوا هكذا مقسمين، فواحد من هذه الأقسام قد أرسل خلال أراضي البروكتينيين Pructenian, ودخل إلى بولاندا، حيث سقط أمير تلك البلاد ودوقها ضحيتين لأعمال المطاردة المبيدة، وبعد ذلك استبيحت تلك المنطقة ودمرت من قبلهم، ودخل الشطر الثاني إلى الأراضي البوهيمية، حيث أوقف هناك، لأنه حورب من قبل ملك تلك البلاد، الذي تصدى له بشجاعة بوساطة جميع القوات التي كانت تحت إمرته، وأما الشطر الثالث فهو الذي يعيث فساداً في هنغاريا المجاورة للمناطق النمساوية.

وبما أن الخوف والرعب قد قام بيننا، بسبب شدة هؤلاء الغزاة الجريئين، الأمر الذي نبهنا ودعانا إلى السلاح، والضرورة هي أكثر إلحاحاً، كلما عظم الخطر وازداد، وهي تحثنا على التصدي لهم، وإن التأكد من الدمار الشامل للعالم كله، خاصة للعالم المسيحي، تدعو إلى تقديم مساعدة سريعة ونجدة، لأن هذا العرق من الناس متوحش، وخارج على القانون، وجاهل بالشرائع البشرية، وهم يتبعون سيداً واحداً، ويعدونه مولاهم، وهم يعبدونه ويبجلونه مع طاعة كاملة، وهم

يطلقـون عليـه اسم رب الأرض، ورجـالهم أنفسهم صغـار، وقصـار القامة، هذا بالنسبـة للطول، لكنهم مندمجون، وأقوياء، وكتلهم ضخمة، ومصممون، وأقوياء، وشجعـان، وجاهزون بإشارة واحدة مـن قائدهم للاندفـاع للقيـام بأي واجـب صعب، أو مهمـة قـاسيـة، ولهم وجـوه واسعـة، ونظرات قـاسيـة، ويتفـوهون بصرخـات مـرعبـة، تتـواءم مع قلوبهم، وهم يلبسـون جلوداً غير مدبوغـة، من جلود الثيران، والحمير، والخيـول، وبالنسبـة للدروع هم يحمـون أنفسهم وأجسـادهم بقطع من الحديد مخاطة إليهم، وقد استمروا باستخدامها حتى الآن.

لكن لايمكننا أن نقـول من دون أسف، إنهم الآن، جهـزوا أنفسهم، من أسـلاب المسيحيين المغلوبين، بأسلحـة أكثـر مـواءمـة، حتى يمكن —من خـلال غضب الرب— أن نتعـرض للقتل بدناءة أكبر، بوسـاطة أسلحتنا، وبالاضـافـة إلى ذلك لقـد تزودوا بخيـول أفضل، وهم الآن يعيشون على أطعمة أغنى، ويزينون أنفسهم بملابس أكثر جمالاً مما كانوا يرتدونه من قبل، وهم رماة نبالة لايجارون، ويحملون جلوداً مصنعة، بها يعبرون البحيرات والأنهار الأكثر سرعـة من دون خطر، وعندمـا تنعدم الأعلاف لديهم، لقـد قيل بأن خيولهم تكتفي بلحـاء الشجر وبالأوراق وبجـذور الأعشاب، التي يجلبهـا الناس إليهم، ومع ذلك يجدونهم دائماً سريعين جداً، وأقوياء في حال الحاجة.

وكنا على كل حال بوسيلة أو أخرى قـد حذرنا سلفاً، ورأينا من قبل متـوقعين جميع هذه الأحداث، وطلبنا دومـاً بوسـاطة رسائل ومبعـوثين من جـلالتكم، وكـذلك مـن الأمـراء المسيحيين الآخـرين، ونصحناكم باخـلاص، والتمسنا منكـم، بالسماح لعـدم العـدوان، والعـواطف، والسـلام بالازدهار بين هؤلاء الـذين بين أيديهم السلطات العليـا، وأن يقومـوا بتسوية جميع خلافـاتهم، التي غالباً مـا تجلب الأذى إلى المصالح العـامة للمسيح، وأن ننهـض برشاقـة وبإجماع للتصـدي لأولئك الهمج

الذين ظهروا مؤخراً، فلقد تبين أن الأسلحة الماضية غير كافية لشفاء الجرح، أي أن لانسمح لعدونا العام بسبب للابتهاج، ولابمزيد من التقدم، بسبب الخلافات المنبعثة بين رؤساء المسيحيين.

يارب كم مرة، وكم غالباً ما كنا على استعداد للتواضع بأنفسنا، واعطاء منفذ لكل نوع من المشاعر الطيبة، في سبيل التمكن من الحبر الروماني، حتى يقلع عن إعطاء سبب للفضائح في جميع أرجاء الدنيا، وذلك بوساطة عداوته لنا، وأن يضع روابط التسامح فوق النصائح العدوانية المريضة ضدنا، وذلك في سبيل التمكن من تهدئة رعايانا الشرعيين، وأن نحكمهم في حالة من السلم، وأن لايحمي هؤلاء الذين يتحركون ضد سلطتنا، حيث أن شطراً كبيراً منهم يلقى الرعاية والمعونة منه.

وهكذا بالتمكن من تسوية المسائل بشكل سلمي، وبإعادة إصلاح رعايانا العصاة، الذين ضدهم أنفقنا مبلغاً كبيراً من المال، وأنهكنا قوانا، إن قدرتنا سوف تتضاعف، وسوف ترتفع بقوة أعظم ضد عدونا العام، لكن بما أن الإرادة هي الشريعة بالنسبة له، وهو لم يستطع التحكم بمسار لسانه المخادع، وقد رفض التمنع عن كثير من النزاعات التي حركها ضدنا، وقد أمر بنشر حملة صليبية ضدنا، ضدي أنا الذي أنا سلاح ومدافع عن الكنيسة، ولقد كان من واجبه، والأفضل له أن يمارس العمل ضد طغيان التتار، أو ضد المسلمين الذي يغزون الأرض المقدسة ويحتلونها، وهو يشجع العصاة من رعايانا، الذين يتآمرون ضد شرفنا وشهرتنا، ولما كان واجبنا الأكثر إلحاحاً العمل على تحرير أنفسنا من الأعداء في الداخل، كيف ستتمكن من صدّ هؤلاء الهمج أيضاً؟، لأنهم اكتشفوا بوساطة جواسيسهم، الذين أرسلوهم في جميع الاتجاهات هذا الخلاف العام، ذلك أن هؤلاء القوم، وإن كانوا يحكمون من دون إعطاء أي تقدير للشريعة اللاهوتية، هم بارعون جداً، في بدع الحرب،

ولقد اكتشفوا الأماكن غير المحمية والضعيفة في البلاد، ولسماعهم بأخبار العداوات بين الملوك، وبصراعات الممالك، لقد تشجعوا، ونهضوا ضدنا بنشاط أعظم، فكم تضيف الشجاعة العالية إلى القوة وتزيدها، وبناء عليه لقد صرفنا اهتمامنا نحو القضيتين معاً، وبعون الحكمة الربانية، سوف نستخدم قوتنا وقدرتنا لتجنيب الكنيسة الفضائح، الناجمة من الجانب الأول عن أعدائنا في الداخل، وأن نحميها من الجهة الأخرى من هؤلاء الهمج، ولهذا قمنا بشكل فعال بإرسال ابننا المحبوب كونراد ومقدمين آخرين من إمبراطوريتنا، مع قوة كبيرة للتصدي لحملات ولعنف هؤلاء الهمج ولصدهم، ونحن نناشد باخلاص عظيم جلالتكم باسم الرب يسوع المسيح، الصانع لعقيدتنا المسيحية، مع التوسل الأعظم دقة، وبوساطة التدبر الحكيم، بأن تتخذوا الاحتياطات من أجل وقاية أنفسكم ومملكتكم، التي أدعو الرب أن يبقيها مزدهرة، وأن تعدوا بأسرع وقت ممكن قوة كاملة من الفرسان الشجعان والجنود، مع تجهيزات جيدة من السلاح، وهذا ما نرجوكم من أجله، بحق دم المسيح الذي سفك من أجلنا، وبحق روابط القرابة التي تربطنا.

وعليهم أن يعدوا أنفسهم للقتال بشجاعة وبحكمة، بالاتحاد معنا، في سبيل حرية المسيحية، وهكذا إنه باتحاد قواتنا ضد هؤلاء الأعداء، الذين ينوون الآن دخول حدود ألمانيا، التي هي الباب إلى العالم المسيحي، من الممكن الحصول على النصر من أجل كرامة وشهرة رب الحشود، ولعله يرضي جلالتكم، أن لاتمروا بهذه القضايا، من دون تقدير، أو تأخير منحها اهتمامكم، لأنهم —لاسمح الرب— إذا ماغزوا الأراضي الألمانية، ولم يواجهوا اعتراض، فإن بقية العالم سوف يشعر بصوت العاصفة، التي هي مقبلة على الهبوب، والتي نعتقد أنها قامت بقضاء من الرب، لأن العالم ملوث بعدوى مختلف الذنوب، بحكم أن الإحسان قد بدأ يصبح أكثر برودة في كثير ممن ينبغي أن يبشروا بالإيمان وأن يرفعوا

شأنه، وسيرتهم الفاسدة قد لوثت العالم بالربا، وبمختلف أنواع السيمونية والطموح.

ولعله يرضي —بناء عليه— جلالتكم، أن تتجهزوا لهذه الطوارىء، وفي الوقت الذي يقوم فيه هؤلاء الأعداء لنا جميعاً في صبّ جام غضبهم في البلدان المجاورة، قم بموجب نصائحكم الحكيمة، فاعملوا الاستعدادات لمقاومتهم، لأنهم غادروا بلادهم، دون الاهتمام بأية مخاطر على حياتهم، مع النية (لاسمح الرب بتنفيذها) باخضاع جميع الغرب، وتدمير الإيمان بالمسيح واجتثاث اسمه، وبسبب الانتصارات غير المتوقعة، التي حصلوا عليها حتى الآن —بإذن من الرب— وصلوا إلى حالة من الخيلاء والجنون، أنهم باتوا يعدون أنفسهم قد حصلوا على ملكية جميع ممالك العالم، ويمكنهم اخضاع، وربط الملوك والأمراء الساجدين لهم كما يريدون، وحسبما يشاءون في خدمتهم الشريرة.

هذا ونحن نأمل بمولانا يسوع المسيح، الذي تحت قيادته وتوجيهه، حررنا حتى الآن أنفسنا من أعدائنا، وانتصرنا عليهم، بأن هؤلاء الذين تدفقوا من مناطق تارتاروس، سوف يجدون فخارهم قد أذل، بعد تجريب قوة الغرب، ومن ثم أن يجري صدّهم عائدين إلى بلادهم في تارتاروس، وأن لايعودوا قادرين على التبجح بأنهم جالوا بكل وقاحة خلال عدد كبير من البلدان، وأخضعوا كثيراً من الأمم، واقترفوا كثيراً جداً من الشرور، وذلك عندما اقتادهم قدرهم الذين لم يحتاطوا له، أو بالحري عندما استدرجهم الشيطان نفسه للموت، أمام النسور المنتصرة لإمبراطوريتنا الأوروبية القوية.

وعندما تنهض ألمانيا بغضب وحماسة إلى القتال، وكذلك فرنسا، التي هي أم الفروسية وحاضنتها، وكذلك اسبانيا المقاتلة والشجاعة، مع انكلترا الخصبة ورجالها البواسل، وهي محمية بأسطولها، وألمانيا المليئة بالمحاربين الشجعان، وداشيا البحرية، وإيطاليا الشرسة غير المدجنة،

وبيرغندي التي لم تعرف السلام قط، وأبوليا التي لاتعرف الراحة والاستقرار، مع جزر القرصان والتي لم تقهر، مثل جزر الإغريق،والبحر الأدرياتيكي، وبحر تيرين Tyrrhene, وكريت، وقبرص، وصقلية، مع الجزر والمناطق المجاورة للمحيط، وكذلك عندما تنهض ايرلندا الدموية، مع ويلز النشيطة، وسكوتلندا المحاطة بالبحيرات، والنروج الثلجية، وكل منطقة فخمة ومشهورة، قائمة تحت النجم الملكي للغرب، فعندما يرسل هؤلاء نخبهم مزينين بشعار الصليب المانح للحياة، الذي يسير أمامهم، وقتها لن يصاب بالرعب والقنوط فقط الرعايا المتمردين، بل أيضاً الشياطين المعارضين. صدر أثناء تراجعنا، بعد استسلام فيانزا وإخلائها من السكان، في اليوم الثالث من تموز.

نشر الرسالة المتقدمة

وجرت كتابة رسائل لها المحتوى نفسه، مع تغيير بالعناوين الرئيسية فقط، وقليل من الكلمات في داخلها، من قبل الامبراطور المدافع المواظب عن الصالح العام، لأنه أضاف الكلمات التالية في رسالته إلى الملك الفرنسي، حيث أثار عواطفه بشكل مؤثر حيث قال: «نحن علاوة على ذلك مندهشون —عارفون بحكمة الفرنسيين— كيف أنكم لم تتنبهوا بدقة أكبر لملاحظة الدهاء البابوي، ونهمه أكثر من الآخرين، ذلك أنه بمطامحه التي لاتعرف الحدود، هو عازم الآن على اخضاع جميع الممالك المسيحية إليه، منطلقاً من بادرة وضعه تحت قدميه تاج انكلترا، وقد تجرأ الآن بطيش كبير، وبوقاحة يفكر باخضاع جلالة الامبراطور وجعله رهن شارته».

انتشار الشكوك ورعايتها

مـلأت الطبيعة المدهشة لهذه الظروف أوروبا كلها، بالعجب

والتساؤل، وانتشر ذلك إلى البلدان الاسلامية وانبعثت مواقف مختلفة بين كثيرين، ورعت مختلف الشعوب آراء متباينة حول هذه القضايا، فقد كان هناك بعض من قال بأن الامبراطور، اخترع على عهدته، وتآمر ضاغطاً بحكاية التتار هذه، وأنه بهذه الرسالة البارعة أراد أن يغلف جرائمه الشائنة ويغطيها، وأنه كان بمطامحه الجشعة مثله مثل الشيطان، أو المسيح الدجال، يقوم بالتآمر ضد ملكيات العالم كله، في سبيل تدمير الإيمان المسيحي تدميراً كاملاً.

وقد تبرهن أيضاً أن الرسالة تحتوي على أكاذيب، لأنه قد ورد فيها بأن هذا العرق التتاري غير المعروف، قد تدفق من المناطق الجنوبية للعالم، الواقعة في الإقليم الحار، وهذا زيف واضح لأننا لم نسمع بأنهم عبروا خلال البلدان الجنوبية، لابل ولاحتى من خلال البلدان الشرقية، إضافة إلى هذا لقد تشككوا بأن الخطط السرية، والإجراءات التي لاأساس لها، وكثير من مؤامرات هؤلاء التتار كانت تماماً من الاقتراحات الامبراطورية، لأنهم يخفون طريقته بالكلام، وتفاوت تجهيزاتهم، وأنه إذا ما اتخذ أحدهم أسيراً، لايمكن ولابطريقة من الطرق استخراج معلومات عن خططهم من الأسير، ولا حتى بأي نوع من أنواع العذاب تعرض لها، وبما أنه هناك سبعة أقاليم في الدنيا كلها، وهي: إقليم الهنود، وإقليم الأثيوبيين أو المغاربة، وإقليم المصريين، وإقليم المقادسة، وإقليم اليونانيين، وإقليم الرومان، وإقليم الفرنسيين، وليس هناك من مكان بعيد في جميع أرجاء المسكونة من العالم،لم يجد التجّار طريقاً إليه، كما قال الشاعر:

إلى الهند النائية يجد التاجر طريقه

فأين مثل هؤلاء الناس، الذين أعدادهم كبيرة إلى هذا الحد، ومابرحوا حتى الآن جالسين مخفيين؟ ولماذا هناك الآن مثل هذا المكر، والتآمر السري فيما بينهم؟ وهناك —كما قالوا— الهيركانيين -Hyr

canians والسكيزيين، المتعطشين دوماً إلى الدماء البشرية، والذين يسكنون المناطق الجبلية والوعرة في الشمال، والذين يمارسون حياة حيوانات متوحشة، ويعبدون آلهة الجبال في أيام معينة، وهؤلاء الناس قاموا بوساطة دسائس الامبراطور، مع جيرانهم الكومان، الذين دخلوا معهم بتحالف، فشنوا الحرب على ملك هنغاريا، وعلى بعض النبلاء الآخرين، في سبيل أنهم بإزعاج ذلك الملك ومضايقته، يمكن أن يفر ليضع نفسه تحت جناحي الامبراطور من أجل الحماية، ويقدم له الولاء، لأنه قدم إليه المساعدة، وبما أن هذه الأشياء قد نفذت، فإنها ما أن عملت حتى تراجعت قوى الأعداء، لكن لاسمح الرب أن تكون مثل هذه الشرور الكثيرة قد تآمر على صنعها إنسان واحد.

البابا يحض الأساقفة على ازدراء نصيحة الإمبراطور ومن ثم القدوم إلى المجمع

أعيق في هذه الآونة، بسبب حوادث غير موائمة، السيد جيمس أوف برانستي Praeneste, الذي كان لبعض الوقت نائباً بابوياً في فرنسا والسيد أوتو كاردينال وشماس في Carcere Tulliano, وبعد ذلك نائباً بابوياً في الدانمارك ومن بعد هذا في انكلترا، وغريغوري أوف رومانا Romagna, الذي كان قد أرسل لتوه بمثابة نائب بابوي إلى الجنويين ليحللهم من ذنوبهم إذا ما أطاعوه، وتأخروا في جنوى، وكانوا يتطلعون إلى أسطول لأنفسهم، وكان هناك أيضاً معهم عدد كبير من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، الذين كانوا يخافون من الإبحار، بسبب تهديدات الامبراطور، وقد تلقوا بشكل متواصل رسائل مواساة ورسلاً من البابا، وجرى في الوقت نفسه تحريضهم على الابحار، وأن يسيروا من دون إعاقة من أجل حضور المجمع، لابل جرى حثهم بإصرار على ازدراء تهديدات السلطات العلمانية، وأن يكون استعدادهم أكبر لإطاعة والدهم الروحي.

ثم إنه تقـديراً لمبلغ كبير من المال دفعـه هؤلاء الأسـاقفـة، بناء على اتفاقيـة عقدت بينهم وبين الجنويين، يتوجب على أسـاسها على الجنويين اقتيـادهم جميعـاً، أي النواب البـابويين والأسـاقفـة، وحـواشيهم، وهم متحـررين من الخسارة ومن الأذى إلى البـلاط الروماني، حتى ولو كـان ذلك ضد مـوافقة الامبراطور، وعندمـا كانوا عـاقدين لمناقشـات طويلة ودقيقة، حـول هذه القضايا، وعندمـا كان بعضهم في وضع غير المتـأكد حول ماهو الأسلم والأعقل لفعله، أرسل البابا رسالة إليهم، أنه سوف —من دون تلكؤ— يرسـل إليهم مسـاعـدة قـوية وفعـالة على شكل أسطول ليلتقي بهم في البحـر، لدى مغـادرتهم الميناء، وذلـك ليتـولى قيادتهم وحمايتهم، بشكل لاتكون فيه قوى الأعداء قادرة على اعتراضهم بأي شكـل من الأشكال، ولاحتى الامبراطـور نفسـه، الذي أوكـل به صـاحب القـداسة وعهـد إلى جهنم وإلى الشيطان، بحكم أنه مـوضـوع تحت حـرمـانات وتكفيرات مضـاعفـة، وبرسـالة البـابا المقـدسـة هذه وبمـواساته، تحمسـوا وصاروا على استعـداد لتحمل أي خطر، حتى لو كان الموت نفسه.

الامبراطور يسأل الأساقفة الارتحال إلى المجمع من خلال أراضيه

وعندما علم الامبراطور بهذه الرسالة، تفهم بشكل واضح وأدرك أن البـابا مصرّ تمام الإصرار على السعي لإذلالـه، وأنه كـان يعمل على جمع الأسـاقفـة الذين لن يقفـوا بأي حـال من الأحـوال ضـد إرادته، ولهذا السبب، ولأنه أخـذ يشعـر بمخـاوف كبيرة على نفسـه أخبرهم بأنهم يستطيعـون السفـر مـن خـلال أراضيـه، من أجـل أن يعلمـوا تمامـاً بالامتيازات التي وضع فيها ثقته، ولكي لايجري فرضهم، أو أن تفرض عليهم تقارير زائفـة، رجاهم بعدم الابحار بشكل مفـاجىء نحو البلاط الرومـاني من دون التأكـد من وجهـات نظره، وبناء عليـه أرسل إليهم سفـراء خاصين، عندمـا كانوا قـد استعدوا للابحـار، وبلطف وتواضع

أخبرهم أن بإمكانهم الجواز خلال جميع الأراضي التي هي تحت حكمه، بسلام كامل، وأمان تام، شريطة أن لايسافروا بالبحر، أو على طول شاطيء، وطلب منهم التيقن بأن ما من واحد من رعيته سوف يزعجهم أثناء رحلتهم، وقال لهم، بأنهم إذا كانوا غير واثقين بوعوده الامبراطورية، ماعليهم سوى إعداد شكل من أشكال الضمانة، ووعدهم بالالتزام بشروطها بكل تأكيد، والالتزام بجميع الشروط، من جميع الجوانب، وذلك وفقاً لما سوف يكتبونه، كما أنه أعلن أيضاً، أنه بعد قيامه بشرح قضيته شرحاً وافياً إليهم بكلمات الفم، وبعد اخبارهم بجميع خصوصياتها بالتفصيل، سوف يعهد بكل ثقة واخلاص بأن يحكم عليها بعد فحصها، ومن ثم تسويتها من قبل المجمع، ووعد بالخضوع إلى القرار المستقيم لمثل هذا العدد الكبير من الآباء المقدسين، وهكذا قام بوسائل الاقناع، وبالتوسلات، وبالأوامر، ورجاهم بوساطة جميع الالتماسات الممكنة لأن يكونوا نوابه، والمحامين عنه، والقضاة في هذه القضية، وجاء ذلك متوافقاً مع قول الشاعر:

بمزيج من الأوامر، والوعود، والأدعية

ظهر المولى على الفور وظهرت التضرعات

وعلاوة على ذلك اشتكى بمرارة حول العنف غير المحدود لاضطهاد البابا له، إلى حد أنه أثار الذين استمعوا إليه إلى درجة البكاء، ذاكراً بأن البابا قد عمل منه بوسائطه أكثر الهراطقة شروراً وأنه عدو حاد ومكشوف للإيمان المسيحي، مع أنه لم يدن بأنه كذلك، كما أنه لم يعترف بنفسه بذلك، كما أنه تسبب بحرمانه كنسياً في بلدان متنوعة، وشوّه سمعته بمختلف الوسائل التي كان بإمكانه ابداعها، وقد شوّه اسمه وسمعته بشكل لايمكن إصلاحه، وهذا أمر ما من شيء يمكن أن يكون أكثر ضرراً منه، وكان يبذل قصارى جهده ليتولى إذلاله، وقال: «فلقد قام مؤخراً بعدما جرت تسوية، واتفاق بشكل عام من طرفه ومن

جانبه، بوجوب عقد مجمع، فيه كنا مستعدين لشرح قضيتنا من على الجانبين، ومن ثم الالتزام بالقرار العام للمجمع، غير أنه غيّر بطيش صيغة الاتفاق المتقدم الذكر والاجتماع، ووجّه الدعوة إلى جميع الأعداء المكشوفين للامبراطورية، الذين كانوا مستعدين للحرب أكثر من استعدادهم للسلم، وجرى إرسال رجال دين ورجال علمانيين —كما هو واضح من فحوى رسائلي— إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين، التي فيها كشفت بكل تأكيد الشرور الخفية، والمصائد الخبيثة للبابا، وفي تلك الرسائل حذرتهم أنهم إذا كانوا يقدرون أنفسهم وممتلكاتهم، أن لايسمحوا لأساقفتهم بالجواز خلال ممتلكاتي»، وأضاف الامبراطور أيضاً، كما قال في أماكن أخرى، وكما ذكر في رسائله، أنه سوف يكون خطراً، ومضاداً للمنطق العهدة بمثل هذه القضايا الصعبة للبابا الذي هو عدوه المكشوف، وكان الذين اتفقوا بآرائهم معه، قد بدوا أنهم بالحري متآمرين يستهدفون اخضاع الامبرطورية المقدسة، لا أن يكونوا حكاماً بالعدل، وهكذا عهد بالقضية إلى محكمة منحازة، القضاة فيها جاهلون بالسبب الأساسي للخلاف، وبظروف القضية.

الأسباب التي قدّمها الإمبراطور إلى الأساقفة حول عدم حضوره

وبناء عليه التمس الامبراطور بحرارة من الأساقفة للقدوم والعبور بسلام خلال أراضيه حتى يكونوا متعرفين تماماً بقضيته، ولكي يتمكن من إخبارهم بجميع الظروف الخفية للقضية، لأنه أعلن أنه لايستطيع —بأي حال من الأحوال— القدوم إليهم منه شخصياً، بسبب حاجته إلى المال، الذي أنفق مبالغ كبيرة/أثناء الحصار الطويل لفيانزا، وأيضاً بسبب قضايا أخرى، القضية الأساسية بينها مرتبطة بالجيش الذي يقوده ابنه، والذي كان مشغولاً آنذاك ضد التتار، وقضايا أخرى، لابدّ له من إبقائها سراً، وكذلك بسبب العصاة الجنويين، الذين لم يختر الوصول إليهم إلا بقوة كبيرة.

النواب البابويون يرفضون الذهاب إلى المجمع من خلال أراضيه

وتشجع الأساقفة —على كل حال— بوعود النواب البابويين، وبرسائل المواساة البابوية المتوالية، التي وعد فيها بإرسال مساعدة سريعة ومؤثرة تلقاهم في البحر، ولذلك رفضوا أن يتخلوا، ولابأي شكل من الأشكال، عن نيتهم المقترحة، ذلك أنهم قالوا: «لايمكن الاعتماد ولا الوثوق بالكلام التافه لرجل محروم كنسياً»، وبناء عليه رفض الأساقفة نصيحة الامبراطور، ومطالبه، ووضعوا ثقتهم بتعداد الجنويين، الذين كانوا مجربين في فن القتال البحري، واستخفوا بتهديدات الامبراطور وبقدراته، وأقلعوا على ظهور سفنهم وسار الجنويون أمامهم، وانخرطوا بتفاخرات كبيرة، وتبجحوا قائلين بأن قوى الذين من الممكن أن يتصدوا لهم، لم تكن مرعبة لهم، ولا بأي حال من الأحوال، وقالوا عن الأساقفة وعن الناس المتعلمين، بأنهم جبناء، ورعاديد، لأن تفاخرهم كان أكبر من قوتهم، وعندما كانت غلايينهم وسفنهم مصفوفة بشكل نظامي، شقوا طريقهم خلال البحر التيراني Tyrrhene, وذلك في رحلتهم نحو الشرق، وسط صراخ وضجيج البحارة، وأصوات الأبواق.

الإمبراطور يأمر باعتقال الأساقفة

وعندما علم الامبراطور بهذه القضية، غضب لأنه وجد أنه قد استخف به، وأن انذاراته والتماساته قد رفضت سواء،وبناء عليه بعث إلى ابنه هنري، الذي اعتاد على أن يدعوه بابنه الطبيعي، والذي إليه عهد بمهمة حراسة البحر، و السواحل البحرية، مع قوة بحرية، وأمره باعتراض جواز الأساقفة، وأن يعتقلهم من دون خوف وهم مسافرون، أو أن يغرقهم، أو أن يقتلهم.

اعتقال النواب البابويين والأساقفة

ثم إن هنري المذكور، أرسل في طاعة لأوامر أبيه، عشرين غليوناً جدداً، وقد بنيوا بقوة، وكانوا مجهزين بشكل جيد برجال مسلحين، تحت إمرة ستولليوس Stollius, وكان ملاحاً بارعاً جداً، وكلفه باعتراض الجنويين، الذين كانوا يقودون الأساقفة بثقة واطمئنان، ثم أعقب ذلك نشوب قتال عنيف ودموي في البحر، بين البيازنه الذين كان يقودهم هنري شخصياً مع ستولليوس المتقدم الذكر، الذي انقض كشهاب عاصف وانخرط بالقتال، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر الجنويين، وقد لحقت الهزيمة بالجنويين، ووقع الأساقفة والنواب البابويون بالأسر، باستثناء بعضهم الذين قتلوا أو غرقوا، وكان من بين الجميع رئيس أساقفة فايسنزا Vicenza وكثيرين، عددهم كبير حتى نذكرهم، وكان من بين رعاة الديرة راعي دير سافيني Savigny, فقد نجا مع شيء من الصعوبة حراً، ودون أن يصاب بأذى، بوساطة مساعدة جون أوف لكسنغتون Lexington, وهو أخوه، وكان فارساً شجاعاً جداً، وكان أيضاً رسولاً من ملك انكلترا، وقد حصلنا على معلومات واضحة عن هذه الحادثة التعيسة من خلال الرسالة التالية، ومن خلال تقرير عام يحمل بينة على صدقها.

رسالة الإمبراطور حول الاستيلاء على مدينة فيانزا وحول أسر الأساقفة في البحر

وإثر وقوع الأساقفة، والنواب البابويين بالأسر ومعهم أدلائهم الجنويين، حملوا وأحضروا أمام الامبراطور الذي قام على الفور فكتب إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين كما يلي:

من فردريك، الامبراطور، إلى ملك انكلترا، صحة وعواطف مخلصة:

بمشاعر سارة وعواطف مبتهجة تسلمنا رسائلكم ورسلكم الذين بعثت بهم إلينا، وبعناية سمعناهم وفهمنا منهم، وكذلك بالنسبة

للرسائل، والشي نفسه بالنسبة لما أوصله الرسل إلينا بشكل شفوي، من قبلكم، والآن إنه بالنسبة لكل واحد من الرسل، ولهم جميعاً، وللرسائل كلها التي بعثت بها بوساطتهم، سوف نقدم إليكم أجوبة كاملة عبر موثقنا الأمين والمحبوب كثيراً لدينا المعلم وولتر دي أوكرا Ocra, الذي إليه يمكنكم أن تعطوا ثقة كاملة، مثل الذي تعطونا إياه شخصياً، في كل شيء هو سوف يخبركم به شفوياً بإسمنا، وإليه قد أعطينا سلطات كاملة للتباحث في القضية، التي من أجلها جاء الرسل الذين تقدم ذكرهم، إلينا، وأن يعمل على إنهائها، وفقاً للصيغة التي أعطيت إليه من قبلنا.

بالاضافة إلى هذا، إنك في الوقت الذي تبتهج فيه معنا بسبب نجاحاتنا، وفي إذلالنا لرعايانا المتمردين، عسى أن يكون ذلك مرعباً ومنذراً للآخرين، نحن نبيح إليكم أخباراً مرضية، بأن مّدينة فيانزا، التي لم تضع ثقتها باستحقاقاتها، بل في أسوارها، وبمواءمة فصل الشتاء لها، فتجرأت على الثورة علينا، وأظهرت معارضة لقواتنا، إنما مع عودة الربيع، كانت تلك المدينة قد تعرضت إلى كثير من الأذى بوساطة حملات وقذائف مجانيقنا، وقد تساقطت الأسوار، ودخل لاغومونا بوساطة أنفاق وممرات إلى داخل المدينة، وأعقب ذلك قتالاً يداً بيد بين سكان المدينة وجنودنا، وعندما وجدوا الآن أنفسهم مضطرين —بسبب ماتعرضوا له من تهديدات— لتعريض أجسادهم لسيوفنا، تشاوروا بعقلانية حول سلامتهم لأن هزيمتهم هددتهم بدمار محيق، لذلك شرعوا بحكم الضرورة يطلبون رحمتنا، وفي يوم الأحد الخامس عشر من نيسان استسلموا بأنفسهم لإرادتنا، وألقوا بأنفسهم وبمدينتهم تحت رحمتنا، وأقسموا يمين الولاء إلينا، وتخلوا عن جميع الأيمان غير القانونية التي كانوا قد أقسموها.

ولدى خضوعهم لرحمتنا، التي هي رفيق دائم للامبراطورية، وحكم،

صـاحب حكم عـادل، قهرنا مشـاعـر المنتصر، وأقنعنا أنفسنا بالتعـامل برحمة مع المغلـوبين، كما أننا فكرنا أن نصرنا سـوف يكون نصراً أكثـر مجداً، بالعطف على هؤلاء الذي عادوا إلينا ثانية، بدلاً من الانتقام منهم في وضعهم الكئيب، وعـددنا أنه نـوع من أنواع الانتقـام، أن نعفـو عن المضـار، وذلك في الوقت الذي كـان في مقـدورنا الانتقـام لهم بقسـوة، وهكذا قمنا بكرم بالعفـو عن جرائمهم، مع أنهم كـانوا لايستحقـون ذلك، وحللنا جميع الذين كانوا مـدانين بالخيانة ضدنا، وبعـدما أصلحنا أوضاع المواطنين وأوضـاع مدينتهم، تحت سلطتنا، وسلطة الامبراطورية (أكثـر من ذلـك مـا من شيء أعظم سروراً، أو يستحق أكثـر) وفقـاً لما تسمح به أوضـاع الأمـور وتتطلبـه، صرفنا انتباهنـا نحو إفـراغ منطقـة بولونا Bologna من السكان، ووقتهـا حـدث لسـوء حظهم، أن حشـداً من الأسـاقفـة مع أسقـف برانستي، وأوتو أوف ثورونجيـا، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجـن توليان، والذين احتشدوا من مختلف البلدان، وقد قدموا إلى جنوى لمعارضة إجراءاتنا، وقد التحق بهم في هذا المكان غريغوري أوف رومانا، الذي أرسل لمرافقتهم، ولكي يكونوا مـرتبطين ببعضهم بعضاً بقـوة أكبر، وعقدوا اتفاقـاً مع الجنويين العصاة علينا، ومع بعض الناس من المملكة الفرنسية، و قد حشدوا قوة بحرية كبيرة، وجعلوا رجال عصاباتهم يسلحون أنفسهم، واتفقوا معهم على الذهاب إلى البابا، من أجل زيادة الخلاف.

وفي سبيل أن نعيق تقـدمهم، وأن نمنع وصـولهم، تدبرنا احتشـاد أسطولنا في بيزا، ذلـك أنه كان قد استعـد قبل بعض الوقت في الماضي، ووضعناه تحت إمـرة ستـولليوس المنتصر، وكـان اسطولنا هذا مشحـوناً من قبل رعـايانا المخلصين، وقد علـم مسبقاً بأخبـار تحركاتهم، فجـرى إرسـاله إلى الأماكن والموانيء التي كـان لابد لهم من المرور بها، حتى في أعماق البحـار، لأنها قـائمة على طريقهـم وكانوا مـرغمين على الابحـار

والمرور بها في طريقهم، وكانت الأوامر الصادرة لأسطولنا هي اعتراضهم بالقوة، وعند ذلك هاجم قائدنا المذكور غلايينهم بغلايينا، وبالرب ذي القدرات الكلية، الذي رأى وقاتل من عليين، والذي يقضي بين الصح والخطأ، فهو قد رأى طرائقهم الشريرة، وفساد قلوبهم وبفضله الرباني سلمنا هؤلاء النواب البابويين والأساقفة، وأوقعهم مكتوفين في قبضتنا، فبعدما جرى اغراق ثلاثة من غلايينهم، مع كل شيء كان على ظهورهم، وبعدما خسروا حوالي الألفين من الرجال من دون أمل بالعودة، جرى قهر اثنين وعشرين غليوناً —بعون الرب وحكمته— بوساطة غلايينا، وبعد ايقاع مذبحة كبيرة بين بحارتهم، جرى أسر الجميع، مع ممتلكات كل واحد على ظهور السفن، وكان في هذه الغلايين النواب البابويين الثلاثة المتقدم ذكرهم، مع رؤساء الأساقفة والأساقفة ورعاة الديرة، وعدد كبير آخر من القساوسة، وذلك إلى جانب رسل، ونواب أساقفة، حيث وصل عددهم إلى حوالي المائة، مع سفارات من المدن اللومباردية العاصية، وتألف الذين كانوا ذاهبين إلى المجمع المذكور من أربعة آلاف جنوي، إلى جانب الأشخاص الخاصين والمنتخبين من جنوى، والذين تولوا قيادة الغلايين، ومرافقة الأساقفة، بقصد أخذهم من جنوى وإعادتهم إليها، كما جرى لسوء الحظ الاتفاق بينهم، ووقع هؤلاء جميعاً أسرى بين أيدينا، مع أسقف برانستي، الذي غالباً ما أثار كراهية الرئيس ضدنا.

ويتوجب على هذا الرجل، الذي يحمل شكل ذئب، تحت المظهر الخارجي لشاة، التوقف عن الاعتقاد بأنه يحمل الرب في قلبه، لأننا نعتقد أن قضاء الرب الخاص هو الذي وقع عليه، وعليه أن يعرف بأن الرب معنا، وهو جالس على عرشه ليحكم بين الخير والشر، فهو قد قضى بأن لاتحكم آلية العالم من قبل رجال الدين فقط، بل من قبل الحكام ورجال الدين معاً، وعلينا —بناء عليه— بما أن الرب قد كشف

خططه لنا من السماء، وحوّل كثيراً من الأماكن الوعرة إلى أماكن سهلة، أن نحاول تجنب عرق الحرب، وغبار الصيف، وأن نوجه خطانا، وتفكيرنا، واهتماماتنا نحوه، وهو الذي منحنا المزيد من زيادة السرور والمجد، لنا وللحكام الآخرين، ونحن نهنىء الأمراء الآخرين، وأنت بشكل خاص، لأنك كنت مسهماً في نجاحاتنا هذه المتقدمة الذكر، والتي نرغب بوحدة المشاعر التي تجمعنا، في أن تشارك في واقعة أية حادثة حسن حظ في المستقبل. صدر في فيانزا» إلخ، إلخ.

كيف جرى حمل الأساقفة إلى نابل للسجن فيها

وأرسلت رسائل بهذا المحتوى إلى الأمراء الآخرين، بغية منحهم السرور، لكنهم لم يكونوا جميعاً مسرورين بالذي حوته، كما قال الشاعر الحكيم:

مامن أحد سوف يمتلك

الفخار الذي نما من الجريمة

وبناء عليه، جرى —بناء على أوامر الامبراطور— حمل الأساقفة وإبعادهم بالبحر، وبعد رحلة لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً، جلبوا إلى نابل Naples في أبوليا، حيث أودعوا في سجن أمين، في قلعة كانت محاطة بالمياه، قرب تلك البلدة، هذا ولم يشعروا جميعاً بمصائب السجن في الدرجة نفسها،وكانت أحوال أسقف برانستي تعيسة جداً، مع أن المرض، أو الضعف الشديد قد استبد بهم جميعاً، لأنهم أثناء الرحلة جلسوا مصفدين، ومضغوطين مع بعضهم في أكوام، وترافق هذا مع حر شديد لايحتمل نزل بهم، وكان الذباب يتطاير من حولهم، ويلدغهم مثل لدغات العقارب، فلقد سحلوا على طريق للشهادة طويل، وجرى تعذيبهم بالجوع والعطش، وكانوا عرضة للإهانات والازعاج حسب رغبات ملّاحي القرصان المعادين، وقد تحملوا هذا كله بحكم طاعتهم،

ولذلك بدا السجن بالنسبة لهم مكاناً للراحة، مع أنه لم يقدم لهم أي نوع منها، ونتيجة لـذلك أخذوا يتلاشون، ولاسيما الأكثر ضعفاً بينهم، فقد هلكوا تحت مختلف الأمـراض، ولفظ بعـض رجـال الدين، وعـدد كبير آخر أرواحهم التعيسـة، وغادروا تعاسـات هذه الحياة إلى الرب بعـدما حصلوا على رمــز الشهـادة، وبعــد وقت قصير أيضــاً، عبر أسقف برانستي،في طاعـة منه إلى البـابـا حتى الموت، من هذا العـالم الشرير إلى مكان للراحة.

إرسال هنري لمساعدة أخيه كونراد ضدّ التتار

وبعدما توصل الامبراطور —بعون الرب وإذنه— إلى تحقيق غرضه، أرسل ابنه هنري، الذي كما ذكـرنا قد تغلب على الأسـاقفة ومـرافقيهم، للالتحـاق بأخيـه كـونراد، الذي كـان قـد استعــد مع جيش لايحصى تعـداده، قـد حشـد من مختلف مقـاطعـات الامبراطورية، ليضبط عنف التتار والكومـان، وفي سبيل أن يواسي الأخوان كل واحـد منهما الآخر، ويسـاعـده، ولكي يحاطا بقوة أكبر، فقـد أخـذ هنري المذكـور، بناء على أوامـر والده، معـه أربعـة آلاف من الفــرسـان، وكتلة كبيرة من الجنود الرجـالة، الذين عندمـا اتحدوا مع الآخـرين الذين أرسلوا لمسـاعـدتهم، شكلوا جيشـاً عملاقـاً، ولدى اكتشـاف الأعداء لهذا هدأت رعـونتهم، وأمكن ضبط شططهم، وأصبحـوا أكثر بـرودة، ذلك أنه وقعت معركـة دمـوية قـرب ضفاف نهر دلفيـوس Delpheos, ليس بعيــــداً عن الدانوب، وبعـدما سقط عـدد كبير من على الجانبين، أمكن صـدّ جيش العـدو، مع أن تعــداده كـان كبيراً جـداً، لكـن قبل أن يتراجع، وقعت حـادثة، نجمت عن خـداع اليهـود، الذين اعتقـدوا أن أعـداءنا هؤلاء، كـانوا شطراً من الجنس اليهودي، ممن كـان محبـوساً في جبـال القوقـاز، وأنهم على هذا قـدمـوا لمساعـدتهم، في سبيل اخضـاع المسيحيين، ولقـد رأينا أن هذه الشرور العظيمة جديرة بأن نقحم أخبارها في هذا الكتاب.

الشرور الهائلة لليهود

في هذه الآونة، اعتقدت أعداد من اليهود، في القارة، خاصة في المناطق العائدة للامبراطورية بأن هؤلاء التتار والكومان، كانوا شطراً من جنسهم، وهم الذين حبسهم الرب في جبال القوقاز، بناء على أدعية الاسكندر الكبير، وقداجتمعوا بناء على دعوة عامة، في مكان سري، حيث قام واحد منهم، بدا أنه الأكثر حكمة والأعظم نفوذاً بينهم، فخاطبهم كما يلي:

«إخواني، نسل إبراهيم الشهير، وكرم رب السبت، الذين سمح ربنا أدوناي، لأن يعيشوا طويلاً مظلومين تحت حكم المسيحيين، لقد حان الآن الوقت كي نحرر أنفسنا، وأن نقوم بقضاء من الرب بظلمهم بدورنا، في سبيل أن يجري انقاذ بقية بني اسرائيل، لأن إخواننا من أسباط بني اسرائيل، الذين كانوا من قبل محبوسين، قد انطلقوا الآن وتدفقوا لإخضاع العالم كله، ووضعه تحت حكمهم وحكمنا، وبقدر ما كانت معاناتنا الماضية حادة وطويلة، سوف يكون مجدنا أعظم، وهو المجد الذي سوف يصير إلينا، ولذلك دعونا نذهب إلى استقبالهم مع هدايا ثمينة، وأن نتلقاهم بتكريم هو الأعظم، فهم يحتاجون إلى القمح، والخمر، والسلاح».

وسمع الحشد كله كلامه بسرور، وجلبوا على الفور جميع السيوف، والخناجر، والدروع، التي وجدوها معروضة للبيع في أي مكان، وفي سبيل إخفاء خيانتهم، وضعوهم في براميل، ثم إنهم أخبروا المقدمين المسيحيين، الذين كانوا تحت حكمهم، بأن هؤلاء القوم الذين يدعون بشكل عام باسم تتار، كانوا يهوداً، وأنهم لن يشربوا خمرة، ما لم تكن معمولة من قبل يهود، فهذا ما أخبروننا به، ورجونا بحرارة أن نزودهم ببعض الخمرة المعمولة من قبلنا، نحن إخوانهم.

ونحن رغبة منا، في إزالة هؤلاء الأعداء غير البشريين العامين من بيننا، وأن نحرر المسيحيين من طغيان الدماء المحيق بهم، أعددنا حوالي الثلاثين برميلاً مليئين بخمور مسمومة مميتة، حتى تحمل إليهم في أسرع وقت ممكن، ولذلك سمح المسيحيون إلى هؤلاء اليهود الأشرار، بتقديم هذه الهدية الشريرة إلى أعدائهم الأشرار، وحدث أنه بعدما قطع هؤلاء اليهود مسافة طويلة من ألمانيا، وكانوا على وشك عبور أحد الجسور مع براميلهم، طالبهم صاحب الجسر —تبعاً للعادة— بدفع الضريبة مقابل جوازهم، ورد عليه اليهود بصلف، ورفضوا تلبية مطالبه، وقالوا بأنهم كانوا مستخدمين في هذا العمل لصالح الامبراطورية، لابل في الحقيقة لصالح المسيحية كلها، حيث أنهم كانوا مرسلين إلى التتار، بشكل سري لتسميمهم بخمرتهم،وتشكك الحافظ للجسر بتأكيدات اليهود، فأحدث فتحة في أحد البراميل، لكن ما من سائل تدفق منه، وهنا أصبح متأكداً من خيانتهم، فخلع غطاء البرميل، وفتحه بالقوة، فاكتشف أنه كان مملوءاً بالسلاح.

ولدى رؤيته لهذا المشهد، صرخ بصوت مرتفع «عجباً، ماهذه الخيانة التي لم يسمع بمثلها لماذا نسمح لمثل هؤلاء الناس بالعيش بيننا؟»،وعلى الفور قام مع آخرين، جمعتهم دهشتهم من حوله، فكسروا بقية البراميل، وما ان أنجزوا ذلك، حتى وجدوهم مملوئين بسيوف كولونية Cologne, وبخناجر من دون أغمدة، قد صفت وجمعت بشكل مندمج، وهكذا قاموا على الفور بإظهار الخيانة الخفية، والخداع غير الاعتيادي لليهود، الذين اختاروا مساعدة هؤلاء الذين هم أعداء مكشوفين للعالم، والذين كما قيل، كانوا بحاجة ماسة إلى السلاح، أكثر من مساعدة المسيحيين الذين سمحوا لهم بالعيش بينهم، واتصلوا بهم بكل وسيلة من وسائل الاتصال، ولذلك جرى تسليمهم على الفور إلى منفذي العقوبات، من أجل إما أن يوضعوا بسجن أبدي، أو أن يجري

إعدامهم بسيوفهم.

كيف جرى تحليل الناس من عهودهم بحمل الصليب مقابل دفع مبلغ من المال

وجرى في هذه الآونة، في سبيل سلب بلاد انكلترا التعيسة، ونهب ثرواتها، ابداع ألف طريقة، وذلك من قبل الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، الذين كانوا مدعومين بترخيص من قبل البابا، حيث تولوا أثناء وعظهم منح تحليل كامل من جميع الذنوب إلى جميع الذين سوف يحملون الصليب، في سبيل تحرير الأرض المقدسة، وإثر ذلك، وبعد يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر، وبعدما أقنعوا كثيرين بحمل الصليب، قاموا بتحليل هؤلاء من تعهدهم، على شرط الاسهام بدفع مبلغ كبير من المال من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وأن يدفع كل واحد، بقدر ماتسمح له إمكاناته، ولكي يجعلوا الانكليز أكثر جاهزية، وأكثر قبولاً بمطالبهم أعلنوا بأن المال سوف يجري إرساله إلى الإيرل رتشارد، وعلاوة على ذلك أروهم رسالة منه، وذلك لكي يقدموا ضمانة أفضل، كما أنهم منحوا بعض الغفرانات إلى رجال مسنين، ومرضى، ونساء، ومعتوهين، وأطفال، ممن حملوا الصليب، أو اقترحوا حمله، وتسلموا المال منهم مسبقاً من أجل هذا الغفران، وعرضوا رسائل توثيقية من الايرل رتشارد تتعلق بهذه القضية، وقد جرى الحصول على هذه الرسائل من البلاط الروماني، وبهذه الطريقة أفرغوا محافظ نقود الانكليز، وجرى الحصول على مبلغ كبير من المال، نظراً للحظوة التي تمتع بها الايرل رتشارد، إنما علينا هنا أن نسأل: من الذي سيكون الحافظ الأمين والموزع لهذا المال؟ ذلك أننا لانعرف.

تثبيت المعلم نيقولا أوف فارنهام في أسقفية درم

وفي التاسع من حزيران، في هذا العام، جرى تثبيت المعلم نيقولا

أوف فـارنهام Farnham الأسقف المنتخب لدرم، وتكريسه أسقفاً لذلـك الكرسي، في كنيسة القديـس أوسوولد Oswald في غلوستر، وقـد تولى تكريسه وولتر رئيس أساقفة يورك بحضـور الملك والملكة، مع عـدد كبير من الأسـاقفـة ورعـاة الـديرة، لكن فيها يتعلق بالقضية التـي نظر إليها والمتعلقة بتكـريسه للرهبانيـة، والتي أثيرت بين بعض الذين رغبوا في إثارة الخلاف، رفض نيقـولا المذكور المطالبة بأي امتيـاز ليس له حق فيـه، كما أنـه لم يظهـر نفسـه متعجـرفـاً أو متمـرداً، ولذلك جرى أثناء تكريسـه، بمشهد عـام أمام جميع الأساقفـة والنبلاء، وبحضـور مطرانيتـه، أن قـام وولتر رئيس الأسـاقفـة المذكـور، بمهـابة ووضوح بتكريسـه رهبانياً بصـوت مرتفع، وفقاً للعـادة، وكان ذلك كما يلي:

«أنا نيقولا، الأسقف المنتخب لكنيسة درم أعترف بالطاعـة القانونية، والاحترام، والخضـوع لكنيسـة يـورك، وإليك أيها الأب وولتر رئيس أساقفتهـا، وأنا أدون هذا بيدي»، ثـم إنه قام على الفور، بحضـور جميع المحتشدين، فوضع عـلامة الصليب بالحبر على رأس الوثيقة، وناولها إلى رئيس الأساقفة كي يجري حفظها لديه في خزانته.

الموت التعيس للإيرل غيلبرت مارشال

في الوقت الذي كانت فيـه الأيام تتضاعف، وتتـلاعب، وتخدع العالم بوقائع متنوعة، أعدّ الايرل غيلبرت مارشال مع بعض النبلاء الآخرين، نوعـاً من أنواع مبـاريات المبـارزات، مما كـان بعضهم يدعـوه باسم «مغامـرة»، لابل بالحري ينبغي دعوته «سـوء مغامرة»، فقـد جربوا أولاً قـوتهم على رمـايـات قـوس زيار من هارتفـورد، حيث تمكـن بوسـاطة براعتـه في تكتيكات الفروسيـة، من الحصول لنفسـه على الثناء في العلم العسكري، وأعلن الجميع، أنه على الرغم مـن صغر حجم جسـده، قـد نال باستحقاق التميز لنفسه نظراً لشجاعته، وهذا ما كان الايرل المذكور

يهدف نحوه بشكل رئيسي، لأنه كان في المقـام الأول، قد أعدّ للالتحاق بطوائف الكهنـة، حيث قيل بأنه كـــان ضعيفـــاً، وغير بارع في التمارين الحربيـــة، وامتطى أثناء هـذه المبـــارزة على فــرس أصيل، من الخيــول الإيطاليـة لم يكن معتـاداً عليـه، وكـان مجهـزاً بدرع جميل، ومحاطاً بكتلة كثيفـة من الجنود، الذين مالبثـوا أن تركوه بعـد ذلك، وتفرقـوا، ينوون الحصول على الربح.

وعندمـا كـان الايرل يسلي نفسـه بتفقـد فـرسـه أثناء عـدوه بسرعـة قصوى، ومن دون التـوقف عن لكز طرفيه بركابيـه الحادين، ليحثه على سرعـة أكبر، ولأن الوضع اقتضى شـد المقود، انقطع المقـود من طرفيـه بشكل مفاجىء مـن عند عقدة الاتصال، وأخـذ الفرس يهز رأسـه نحو الأعلى، فأصابه بضربة قاسية على صـدره، وأكد بعض الذين كانوا هناك من دون تردد، بأن اللجام قـد جرى قطعـه بشكل خياني من قبل بعض الأشخـــاص الحسـودين، من أجـل أن يترك هكذا تحت رحمة فـرســه، فيمـزق إلى قطع ويقتل، أو على الأقل يمكن أسره من قبل خصومـه كما يرغبون، وعلاوة على ذلك كان قد أصابه الصمم بسبب الضجة، وصار أعمى تقريبـاً، بسبب الحرّ، والغبار، والتعرق، وبات رأسـه مثقلاً بسبب وزن خوذته الثقيلة، ولم يعد من الممكن له السيطرة على حصانه وكبحه، لامن قبله ولا من قبل أي واحد آخر، وبعـد بعض الوقت أغمي عليه، وبدأ يتأرجح في سرجـه، ثم مالبث أن سقط شبـه ميت، وجاء سقـوطه من على ظهـر فرسـه، وإحـدى قدميـه معلقـة بالركاب، وبهذه الطريقـة جرى جره لمسافة ما فوق الحقل، حيث أصيب ببعض الجروح الداخلية، التي سببت موته.

ولقـد هلك في مسـاء السـابع والعشريـن من حـزيران، وسط حـزن عميق وصراخ مرتفع من قبل الذين رأوه في بيت الرهبان في هارتفورد، وقبل أن يلفظ نفسـه الأخير، حيث كـان قـد تلقى قـربان الموت، عمل

طلباً إلى الكنيسة، كنيسة العذراء المباركةفي هارتفورد في سبيل إنقاذ روحه، وجرى بعد ذلك فتح جسده، فوجدوا أن كبده كان أسود وممزقاً من قوة الضربات التي تلقاها، وقد جرى دفن أحشائه في الكنيسة المذكورة، أمام مذبح القديسة مريم، التي إليها عهد بروحه أثناء موته.

وجرى في اليوم التالي حمل جسده —حيث تقدم عليه أخوه، وروفق من قبل أسرته كلها— إلى لندن ليدفن قرب أبيه، وقتل أثناء المبارزة نفسها أيضاً، واحد من حاشية الايرل اسمه روبرت دي سي Saye, وأيضاً دفنت أحشاؤه مع أحشاء الايرل، وأصيب أيضاً كثير من الفرسان والرجال المسلحين بجراحات قاسية بالرماح أثناء المبارزة نفسها، لأن حسد وغيرة العديد من الأطراف المسؤولة قد حولت الرياضة إلى معركة.

وعانت شؤون الصليب، ومصالح الأرض المقدسة من خسارة كبيرة، بموت الايرل المذكور، لأنه كان قد نوى الانطلاق نحو القدس في الشهر المقبل من دون تقاعس، حيث كان قد جمع مالاً من جميع الذين حملوا الصليب في البلاد، فقد دفع مائتي مارك إلى البابا للحصول على إذنه، وبهذا قلّد التصرف الحكيم للايرل رتشارد.

كيف جبا إثنان من كهنة البابا مالاً من جميع أرجاء انكلترا من أجل استخدامات قداسته

أثناء هذا الوقت كله عندما كان الحظ يلعب بشؤون حشود البشر، استمر شره الرومان ونهمهم ولم يشبع، لأنه بعد مغادرة النائب البابوي، بقي اثنان من كهنة البابا في انكلترا، من أجل القيام بواجبات النائب البابوي، وكان هذان الاثنان هما بطرس الذي كنيته لى روج، وبطرس دي سوبينو Supino, وكانا اثنان لايعرفان التعب في الجباية، وكانا يحملان ترخيصاً بابوياً من أجل استخراج وكالات، وفرض حرمانات

من شراكة المؤمنين، وحرمانات كنسية، ولقد جبيا الأموال بمختلف الطرائق من الكنيسة الانكليزية التعيسة، من أجل —كما قالا— أن تتمكن الكنيسة الرومانية، التي أصيبت إصابات مضاعفة بمختلف الطرق، من استرداد أنفاسها، وأن تتنفس مجدداً بشكل حر، وتصرف بطرس لى روج، المتقدم الذكر، الذي وضع نفسه في مقام فوق الرجل الآخر، وفق طرائق النائب البابوي، وكتب رسائل إلى راعي الدير هذا، وإلى رئيس الرهبان ذاك، وتوجه بالخطاب برسائله دوماً هكذا: «من المعلم بطرس لى روج، الصديق المقرب، والقريب لقداسة البابا، تحيات، إلخ،- إلخ»، واستمر استناداً على هذه الصلاحيات في فرض الوكالات واستخراج الأموال بمختلف طرائق الجباية، وذهب زميله بطرس دي سوبينو إلى ايرلندا، بموجب إذن من الملك، وذلك لصالح البابا، حيث كان يحمل ترخيصاً منه، وبما أنه حصل على المساعدة من السلطة المدنية، قام بطغيان عظيم باستخراج المال من أساقفة تلك الكنيسة، وقدم بعض الذين كانوا معلقين وممنوعين من ممارسة وظائفهم، إلى بطرس المذكور في لندن، لإرضائه بكل ما اختار أن يطلبه، وعاد بطرس سوبينو من ايرلندا في الخريف التالي، وأخذ طريقه إلى روما حاملاً معه ألفاً وخمسمائة مارك، وحقائب سرجه كانت مليئة تماماً.

الملك الفرنسي يعطي مقاطعة بواتو إلى أخيه أمفولسوس

في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، في هذا العام، أعطى الملك الفرنسي، بناء على نصيحة الذين يكرهون مملكة انكلترا، مقاطعة بواتو إلى أخيه أمفولسوس Amphulsus وأضفى في الوقت نفسه، وسط أبهة عظيمة، نطاق الفروسية على أمفولسوس المذكور، كما منحه مرتبة كونيتة بواتو، التي كانت كما هو معلوم بموجب الحق هدية الملك الفرنسي الخاصة إلى ملك انكلترا، أو إلى أخيه، كما أنه أوجد في الوقت نفسه عدداً من الفرسان النبلاء لتكريم تنصيب أمفولسوس

المذكـور، وبـذلك هو قـدم قليـلاً من التقـدير، أو بالحري لاشيء من التقدير إلى إدعاء أو لقب الايرل رتشارد، الذي قاتل باخلاص في سبيل الرب في الأرض المقـدسة، وحـرر الأسرى الفـرنسيين، ودهش كثيرون إلى حد كبير تجاه أفراد النبالة الفرنسية، التي سمحت بهذا، وبذلك كانوا غير أوفياء، وأعادوا من دون حياء الشر مقابل الخير.

رسالة الإيرل رتشارد الحاوية لرواية عن حجه

وكان في هذه الآونة أصدقاء الايرل رتشارد قلقين حول شؤونه، وقد حصلوا على معلومـات وافية عن ذلك في الرسـالة التاليـة التي أرسلت من قبله:

من رتشـارد ايرل كورنوول وكـونت بواتو إلى النبـلاء، وإلى المبجلين والسادة المحبوبين في المسيح ب. B دي ريفر Rivers, وايرل أوف ديفـــون Devon, وراعي دير بيـــوليـــــــو Beaulieu وروبرت الكاهن، صحة وكل الرغبات الطيبة، مع عواطف مخلصة:

إنه بالنسبـة للشدة العظيمـة والأسى الذي تعيشـه الأرض المقدسـة، وبشأن المشكلة الصعبـة المتعلقـة بإعـادتها وتخليصها منذ الفـاجعـة عند غزة، لقـد وصل رجال عقلاء ومجربين وعارفين بالصـدق إلى قرب هذه المواضع، ووصلت أخبـار من بعيـد، إنما يمكن لرسـالتنا الحاليـة أن تكشف سرنا، وبما أن الطريق مفتـوح إليكـم، فإنها قـد تعطي الفـرصـة لتفاسير خبيثة، لذلك فإن كثيراً من الأشياء سوف يجري إيضاحها فيها، هي الآن نائمة، والكذب يغطي قعر قلبنا.

فمنذ الوقت الـذي ابتعـد فيـه الملوك والممالك عن القـدس، ولأنها كـانت مقسمة وهـي بأيدي متملكين ظالمين وغير عادلين، لقـد شعـرنا بحزن كبير، ولايمكننا أن نلتزم بالصمت، ولابد لنا من أن نطلق ألسنتنا بشكاوي مـريرة، حيث ليس هناك قضيـة طيبـة نشغلهم بها، لأن سيف

الرحمة قـد خـرق روحنا، إلى درجـة أن روحنا لم تعـد قـادرة على أن تستوعب ذاتها، لأنه بالفعل منذ بعض الـوقت تحكم الخلاف بالأرض المقدسة بدلاً من السلام، وحلّ الشقاق مكان الوحـدة، والكراهية محل المحبة، والعـدل قـد أقصي نهائياً، ومن هذه البـذور هناك الكثير من النباتات في تلك الأرض، وصـار كثيرون جـامعـون للثمار التي نتجت عنها، وأنا آمـل بأنهم الآن قد اجتثوا، هذا وليس هنـاك بين جميع محبيها واحد يتولى مواساتها، لأن الأخوين التوأمين غير متفقين وهما على صدر أمهما، والذين كان عملهم الدفاع عنها، أصبحوا متشامخين بوفرتهم، وقد أكلوا وتقيأوا هذه المكونات حتى الجذور، وتسببوا بجعل أغصانهم تمتد بالطول وبالعرض، لأن كميات وافـرة من الأشياء الجيدة تنتج مثل هذه الأشيـاء المزعجـة بعد خـلاف متبـادل، ذلك أن تأنيبـات الأب المترأس لكرسي بطرس، نظر إليها بعـدم تقدير مطلق، مـع أن الفئة الأقوى قـد بهرت العـالم بشهـرتها، وفي سبيل تهدئـة هذه الفئات المتنازعـة قـد بذلنا جهداً كبيراً، لكن مـازالت خطوات السلام لم تترك أي أثر، بقـدر ما أن أتبـاع الخلاف لم يصبحـوا معتـاديـن على كلمات السـلام، وتمكن الذين لديهم أمـوال بسهـولة من جـذب الآخـرين إليهم مـادامت الأمـوال مـوجودة، لكن عندمـا حلّ وقت صـون اعتـدال أمهم، تركوا صـانعي السلام، واختلقوا مشاغل سرية، ولم يظهروا الاهتمام بجلب المواساة إلى أمهم، ولهذا السبب فإن العـدد الأكبر من الفـرسـان الغـاليين، الذين تعـدادهم تقـريبـاً ضعـف تعـداد المسلمين، قـد انغمسـوا كلياً وهلكوا بالعادات الشريرة، وتشجع أعـداء الصليب بشكل غير متوقع، حتى أن كتلة صغـيرة منهـم لم تعبأ سوى قليـلاً، أو لاتعبأ بالمرة بالعـدد الكبير منا.

وبسبب هذا الوضع، وجـدنا عندمـا وصلنا أولاً إلى هنا، أن النبـلاء الذين يمكن أن يقـدموا العـون لنا، قد شرعـوا بالمغادرة، وبدا أن انقـاذ

تجعل الجراحات مـن دون وسائل علاجهم، والأسف مـن دون وسائل المواساة، لأننا عندمـا كنا متوقعين لدى وصولنا إلى هنا، القيـام بالتعاون مع بقيـة الصليبيين، ببـذل قصارى جهـدنا، حسبما هو مفـروض علينا، بموجب عهدنا، بالانتقام للاهانات التي لحقت بالصليب من قبل أعداء ذلك الصليب، وبمهاجمة أراضيهم، واحتـلالها بعد ذلك، وإعـادتها بعد ذلك إلى وضع صالـح، رأينا ملك نافار، الذي كـان آنذاك مقدم الجيش ورئيسه، وكـونت بريتاني، ووجدناهما على الـرغم من أنهما كانا على علم مسبق بمـوعد وصـولنا قبل خمسة عشر يومـاً من وصولنا إلى عكا، قـد غادرا مع حشد كبير جداً، وقبـل أن يغادرا، وفي سبيل أن يبدوا أنهما قد عملا شيئاً مـا، عقدا نوعاً من أنواع الهدنـة مع الناصر، صاحب الكرك، وتم الاتفـاق بمـوجب ذلك بوجـوب تخليـه عـن جميع الأسرى الذين أسروا عند غـزة، الذين كـانوا مسجـونين لديه، أو تحت سلطانه، وذلك مع بعض الأراضي المشمـولـة بشروط الهدنة، وكضمانة على ذلك أعطى ابنه وإخوانه رهائن، وأثبت شرطاً هو مهلة أربعين يومـاً من أجل تنفيذ شروط الهدنة، والذي حـدث أنه قبل انقضـاء تلك المدة غـادر الملك المذكور والكونت، دون الاهتمام بالموعـد المتفق عليه، أو بشروط الهدنة، وخـلال تلك المدة، وبالتحـديد عشيـة عيـد القـديس ديونيسيـوس Dionysius, وصلنا إلى عكا، كما كنا قد أخبرناكم من قبل، وقمنا على الفور، بناء على نصيحةعـامة من الجميع، فبعثنا إلى الناصر المذكور، نسأله عما إذا كان سيستطيع مراعـاة الهدنة معنا، وهي الهدنة التي عملها مع الملك المذكـور، وتلقينا جـواباً منه، بأنه على استعـداد لفعل ذلك إذا كان ممكناً، وذلك بسبب احترامه للملك نافار المذكور، مع أنه سوف يربح قليـلاً منهـا، وعلى هذا قمنا بناء على نصيحـة النبـلاء بانتظار استكمال الموعـد المتفق عليـه، لنرى النتيجـة، وعند انتهـاء الموعـد، تلقينا رسـالة أخـرى منه، بأنه لايستطيع بأي شكل من الأشكال الالتـزام بالاتفـاقيـة المتقـدمـة الذكـر، وعند سماعنا بهذا، قمنـا بمـوافقـة من الجميع، بحمل

المتقدمة الذكر، وعند سماعنا بهذا، قمنا بموافقة من الجميع، بحمل أنفسنا إلى يافا، لنتولى، مع جميع الحيطة الممكنة، تحسين أوضاع الأرض المقدسة، التي تدهورت كثيراً للأسباب المتقدمة الذكر.

وقدم إلينا إلى هذا المكان رجل صاحب رتبة وسلطة، من قبل سلطان مصر، وأخبرنا بأن مولاه كان راغباً بالدخول في هدنة معنا، إذا أردنا ذلك، وبعد سماع ماتولى عرضه علينا وفهمنا تماماً لذلك، وإثر طلبنا بكل اخلاص نعمة الرب، قمنا بناء على نصيحة دوق بيرغندي، والكونت وولتر دي بريين، ومقدم الاسبتارية، والنبلاء الآخرين، لابل في الحقيقة الجزء الرئيسي من الجيش، بالموافقة على شروط الهدنة المتقدم ذكرها، مع أنها بدت عند وصولنا قضية صعبة الانجاز، علماً بأنها هدنة تستحق الثناء، وتقدم منافع إلى الأرض المقدسة، لأنها مصدر للبهجة والأمان للناس الفقراء، وللمسافرين، ومفيدة ومقبولة من قبل الطبقة الوسطى من السكان، وصالحة ومشرفة للأغنياء ولرجال الدين.

كما أنه لم يظهر لنا لدى نظرنا إلى الأوضاع المتدهورة للأحداث المحيطة، أننا لايمكننا آنذاك أن نستخدم أنفسنا بشكل نافع أكثر من العمل على تخليص الأسرى التعساء من الأسر، لأنه كان هناك نقص بالرجال والأشياء (مع أننا وحدنا بقينا ومعنا مال من حولنا) وكان من الممكن الإفادة من أيام الهدنة، بتقوية وتحصين المدن والقلاع التي أصبحت مدمرة، في وجه المسلمين وضدهم، ولقد رأينا من الموائم أن نذكر أسماء الأماكن والمناطق التي أعطيت إلينا، بموجب شروط الهدنة، مع أن ذلك قد يكون متعباً لكم، ونحن نفعل ذلك خشية أن يقوم بعضهم بموجب تفسير شرير، فيعزو أعمالنا المجيدة إلى غيرنا، أو أن يقوم بفساد وتآمر بتشويه سماتهم، لأن هناك بعضاً —مع أنهم قلة— قد رفضوا الموافقة على شروط الهدنة، وهذه الشروط هي كما يلي:

إن الأراضي التي أعطيت بناء على شروط الهدنة مع الايرل رتشارد

هي هذه: المنطقـة الجبلية لبيروت، مـع الأراضي والأجـزاء المفصـولة العـائـدة لها، وجميع منطقـة السعيـد Said مع متعلقـاتها، وقـــلاع: الشقيف، والقـرين، والقلعة الجديـدة مع متعلقاتهن، واللقيـة Lekayt واسكندرون، ولبوة Lebet, وبشيت Becheet(?) واللدّ مع متعلقاتهن، وأراضي كل من الجبـال والسهول، وقـد تخلوا أيضاً عن أراضي بلدة تورون مـع متعلقـاتها، وطابار Tabar(?)ومتعلقــاتها، وقلعة Benaer, وقلاع Amabel, وراما Rama, و Amost, وكذلك قلعة Hybile, الواقعة فيها وراء النهر باتجاه الشرق، مع جميع متعلقـاتهم، كما استسلمت قلعتـا صفـد والناصرة وكذلك جبـل الطور، واللجون و Aschalis, وقلعة بيت جبرين مع متعلقـاتهم، ومع جميع القـرى العـائـدة إلى بيت اسبتـارية القـديس يوحنا، وكـذلك ماهو معـروف أنه عائـد إليهم، أي المتعلقات بالقـدس وببيت لحم، وكـذلك جميع الأرض القـائمـة على الطريق التي تقـود من القـدس إلى بيت لحم، ومن القدس إلى لدّ رامـا، ومن اللد إلى يافـا، مع جميع القــرى التي توجب أن تكون في أيدي الصليبيين، وجــرى أيضـاً تسليم مـدينة القدس إلى الصليبيين، ومثل ذلك بيت لحم أيضـاً، وجميع الأرض التي من حـول القـدس وجميع القرى، التـي جرت تسميتهـا في شروط الهدنة، وهي القـديس لعـازر، بيت عنيـا، بيـت صيـدا، و Wissewurch, و Derphat, وبيت عـامـوس Bethamus, و Bechele, وبيتك Bethic, وعنون Anon,وكـوكبي Kokabi, وبيرسـامـول Bersamul, و Bebrit, و Kikai, وبيت أمي Bethuame, و Bebe, و Kipsa, و Bethit, وحـوريب Horeb, و Athacana, و Clepsta, و Tolma, و Argahoga, و Bertapsa, و Bethsaphau, و Tabli, Sorobooz,(1)

١- لقـد تعـذر ضبط أسماء هذه المواقع، ولم تـذكـر المصـادر العـربيـة المتـوفـرة هذه الهدنة بالتفصيل.

وجميع متعلقاتهم، والأرض المسماة في تقسيمات القدس، وما هو معتمد على الطريق الذي هو هناك، حسبما هو موجود ومشروح في الهدنة الكبرى.

وجميع هذه المناطق،والقلاع الموجودة فيها، التي تقدم ذكرها، مسموح للصليبيين القيام بتحصينها أثناء الهدنة، إذا ما رغبوا، ولسوف تجري إعادة النبلاء الأسرى أيضاً مع جميع الأسرى والفرنسيين فهؤلاء سوف يجري إطلاق سراحهم من على الجانبين، وفور الفراغ من إعداد الهدنة المتقدمة الذكر، أخذنا طريقنا إلى عسقلان، ولكي لاتمر الأيام من دون عمل، قمنا بناء على نصيحة جميع مقدمي الصليبيين بالشروع بتحصين قلعة كبيرة هناك، وأرسلنا من ذلك المكان، رسلاً إلى سلطان مصر، لإقناعه باقسام يمين بالتعهد بمراعاة الهدنة المذكورة، إذا مارغب بفعل ذلك، ولكي يرسل في الوقت ذاته الأسرى الذين تقدم ذكرهم، ولقد قام لسبب لانعرفه بحبس رسلنا لديه، دون إعطاء أي جواب، من عيد القديس أندرو حتى يوم الخميس بعد عيد تطهير مريم العذراء (٢-شباط)، غير أنه خلال هذا الوقت، حسبما وجدنا في رسائله قام بناء على نصيحة أعيانه، فأقسم بالمحافظة على الهدنة المذكورة، ولقد بقينا خلال هذا الوقت كله في عسقلان مواظبين على نيتنا في بناء القلعة المتقدمة الذكر، حيث تقدم العمل فيها كثيراً، وذلك بفضل الرب، إلى حد أنه في الوقت الذي نرسل فيه هذه العروض، قد جرى تزيينها، وقد أحيطت كلياً بسور مزدوج، وبأسوار عالية وشرافات، مع أربع أحجار مربعة وأعمدة منحوتة من الرخام، وكل شيء عائد إلى قلعة، ما عدا خندق من حولها، سوف ينتهي بمشيئة الرب، من دون احباط، خلال شهر من عيد الفصح، وهذا لم يعمل لسبب جيد، هو بما أننا لم نكن متأكدين بأن الهدنة سوف تتثبت، رأينا أنه من الأفضل شغل وقتنا في البناء وفي تحصين هذه القلعة، حتى إذا ما خرقت الهدنة بموجب أي

حادث، يمكننا أن نمتلك في التخوم وعند المدخل نفسه لأراضيهم، هذا المكان، الذي كان من قبل تحت حكمهم، ويكون لنا مكاناً حصيناً للالتجاء إليه، إذا ما دعتنا الضرورة إلى التراجع هناك، وكذلك الذين سوف يبقون هناك، لن يكون لديهم مسوغ للخوف من نتيجة الحصار، لأنه صحيح أن المحاصرين يمكنهم أن يقطعوا جميع المساعدات والمؤن ويحولوا دون وصولها إليهم، مع ذلك يمكن لجميع الحاجات الضرورية أن تصل إليهم بالبحر، وفي أيام السلم أيضاً، نحن نعتقد أن هذه القلعة لن تكون من دون فوائدها، بما أنها المفتاح والملجأ في البر والبحر لمملكة القدس، وهي ستكون في الوقت نفسه تخريب وتدمير لمصر وللمناطق الجنوبية من البلاد.

وقمنا بعد هذا في يوم عيد القديس جرجس، بعدما جرى الحلف على مراعاة السلام من الجهتين، وبعدما جرى تثبيت الهدنة، فاستقبلنا —وفقاً لشروط الهدنة— جميع الأسرى الصليبيين، الذين كنا نتوقع وصولهم وننتظرهم منذ وقت طويل، وبعد إكمال جميع هذه المسائل، قمنا بتوديع الأرض المقدسة بسلام، وفي يوم عيد العثور على الصليب المقدس، أقلعنا من عكا للعودة إلى الوطن، لكن لعدم توفر ريح طيبة أثناء الرحلة، ولأننا كنا متعبين كثيراً نزلنا في تربيني Trapani في صقلية، وكان ذلك في ثمانية عيد القديس يوحنا المعمدان، وسمعنا ونحن في ذلك المكان نبأ اعتقال وسجن بعض الأساقفة، وبالآلام المحزنة الأخرى التي عانت منها الكنيسة، وبناء عليه، وفي سبيل استرداد السلام، ببذل كل ما نملكه من قوة، بين هؤلاء المتخاصمين، ولكي نبذل قصارى جهودنا من أجل اطلاق سراح الأسرى، وفي سبيل تقديم المواساة إلى أمنا، صرفنا وجهة سفرنا، وتحولنا للذهاب إلى بلاط روما، وحالما يسمح لنا الرب، المقدر لكل شيء ولكل حدث، ننوي العودة إلى انكلترا، بكل سرعة ممكنة».

قبله مع التكريم كله، وبعدما تعانقاً، وسط صرخات الترحيب من قبل جميع أتباع الامبراطور، انخرطا في حديث طويل، كان مرغوباً به منذ زمن طويل، وذلك مع مختلف أنواع التهاني، ومتعا نفسيهما كأصدقاء لعدة أيام، وأمر الامبراطور بمعاملته بلطف ونعومة، مع الفصد، والحمامات، ومختلف أنواع الكمادات الطبية حتى يسترد قوته بعد مخاطر البحر، وامتلك بعد عدة أيام، بموجب إذن من الامبراطور، حديثاً حراً وطويلاً مع أخته الامبراطورة، وبموجب أوامر الامبراطور أيضاً، جرى عرض مختلف أنواع الألعاب وآلات الموسيقى، التي شريت لتسلية الامبراطورة، عرضها عليه لرؤيتها ولتفحصها، ومنحه هذا سروراً عظيماً وفرحاً.

وكان بين الأشياء المبدعة التي أدهشته، كان هناك لعبة خاصة أثارت اعجابه وثناءه، فقد كانت هناك فتاتان مسلمتان رشيقتان، قد ركبتا فوق أربع كرات مستديرة، قد وضعت فوق الأرض، حيث وقفت الأولى فوق كرتين، والأخرى فوق الاثنتين الأخريتين وقد سارتا نحو الخلف ونحو الأمام، وهما تصفقان بأيديهن، وتتحركان بسرور فوق هذه الكرات المتحركة، وتحركان أذرعتهن بحركات معبرة، وتغنيان مختلف الألحان، وتتمايلان بجسديهما وفقاً للحن، وتضربان بالصنوج أو بالكوسات بأيديهن معاً، ويضعن جسديهما في مختلف الأوضاع المسلية، وقد قدمن مع البهلوانات الآخرين، مشهداً ممتعاً أن تنظر إليه.

وبعد مرور عدة أيام استراحا فيها من متاعبهما، أرسل الامبراطور، الايرل رتشارد الذي وثق باخلاصه وحكمته، إلى بلاط روما (حسبما وردت الاشارة الموجزة إلى ذلك في الرسالة التي بعث بها الايرل إلى انكلترا) في سبيل إعادة السلام بينه وبين البابا، وأعطى الامبراطور أيضاً، بالإضافة إلى التشريفات التي أضفاها على الايرل المذكور، ورقة مختومة بالختم الامبراطوري، تعهد فيها بالالتزام بقراره، حول أية

كان مشتـاقاً كثيراً لرؤيتـه، وذلك بوساطـة القيادة والتوجيـه المريح لمثل هذا الرجل، الذي كانت تعلوه بحكمة ابتسامة مُرضية، وبذلك اكتشف التأثير القوي، للأدعية المتواصلة، للرجال المستقيمين، الذين عهد بنفسه بتقـوى إليهم، عندما كـان على وشك الشروع بحجـه، لأنه عندما كـان على وشك القيام برحلتـه، جاء إلى كنيسة القديس ألبان، الشهيـد الرائد لانكلترا، ودخل إلى بيـت هيئة الكهنة، وتوسـل إلى رهبـان الدير، بأن يسمح له بمشـاركة خـاصـة في منافع صلواتهم، والشيء نفسه قـد فعله أيضـاً في بعض البيوت الأخـرى العائـدة لرجال الدين، حيث كـان من المعتقد أن القداسة مع نظام الطائفة لهما مكانة عليّة وتقدير كبير، وللعار ولأسف أولئك من طلاب الكنيسـة الرومـانية، أن الأسـاقفـة والنواب البـابويين، الـذين أرسلتهم الكنيســة إلى مـابيننا، لجمـع المال، والذين انطلقوا بمثابة مرآة ومثل للرجال العلمانيين، أنهم لم يعملوا وفق الطريقة نفسهـا، عندمـا كـانوا يقلعـون للقيـام برحـلاتهم، في سبيل أن يكونوا مـؤيدين في مخاطرهم بصلوات القديسين، لأننا هكذا أمـرنا أن نعمل في الكتابات المقـدسة، فعندمـا وضـع القديس بطرس الـرسول في السجن، عملت له صلوات بـلا انقطاع من قبل الناس، وقـد أطلـق سراحـه من قبل الملاك الذي أرسل إليه من قبل الرب.

الإمبراطور يستقبل الإيرل رتشارد ببهجة

وفي الوقت نفســه، عندما كان الايـرل رتشارد على طريقه لـلالتحاق بـالامبراطور، استقبـل في مختلف المدن التـي اجتـــاز بها بسرور كبير، وبتشريف، فقـد خـرج المواطنون مع زوجـاتهم لاستقبـاله مع الموسيقى والغناء، وهـم يحملون أغصـان الأشجـار والـورود، وهـم أيضـاً يرتدون ثيـاب العيد وزينتـه، وكـان بعض الفرسـان يمتطون على خيـول ثمينة، وكـان ذلك من صنع دليله، الذي كـان قـد تلقى أوامـر من الامبراطور ليتصرف هكذا، وعندمـــا وصل أخيراً إلى عند الامبراطـور، استقبل من

انكلترا، وقدم إليه شكوى جديدة حول هذه الجريمة المنحطة، والتمس من الملك بحرارة العمل على اطلاق سراح غريفين، الذي حبس هكذا سجيناً بشكل غير عادل من قبل حفيده داوود، ليمنع خبر وصمة هذا العدوان الظالم من الوصول إلى البلدان النائية، وإلى بلاط روما، مما سيسبب الأذى إلى كرامته الملكية، وبناء عليه لام الملك بحدة حفيده داوود بسبب خيانته، وقام بنصيحته وبأمره بتحرير أخيه، وبذلك يسترد السمعة الجيدة لاسمه، والتحليل من قرار الحرمان الكنسي، وهذا —على كل حال— مارفض داوود بإصرار أن يفعله، وأخبر الملك مؤكداً، أنه إذا ما أطلق سراح غريفين، فإن ويلز لن تتمتع بعد هذا بالأمان والسلام.

وكان غريفين قد علم بهذا، فأرسل بشكل سري رسالة إلى الملك، أنه إذا ما أطلق سراحه وأخرجه من السجن، سوف يستحوذ في المستقبل على أرضه منه، أي من الملك، وسوف يدفع له بإخلاص مائتي مارك سنوياً مقابلها، مع كثير من الشكر لخدماته اللطيفة، وربط نفسه بيمين بتنفيذ هذا، وأن يعطيه في الوقت نفسه رهينة خاصة، وبالاضافة إلى هذا، هو سوف يساعده بنشاط على اخضاع ويلز والويلزيين حتى الأخير، وهم الذين متمردون ضده، ومازالوا غير خاضعين، وقام مقدم ويلزي آخر قوي جداً، اسمه غريفين بن مادوك Madoch, فوعد الملك أيضاً بتقديم مساعدة موثوقة ومتينة إذا ما قام بغزو ويلز، وشن الحرب ضد داوود، الذي كان رجلاً زائفاً، ويتصرف بشكل غير عادل نحو كثير منهم.

ملك إنكلترا يزحف إلى ويلز مع جيشه

وأثارت هذه الوعود الملك وشجعته، فعمل ترتيباته للدخول إلى ويلز، وبناء عليه أصدر رسائل ملكية، أمر بها الجميع في جميع أرجاء

انكلترا، المتوجب عليهم أداء الخدمة العسكرية له، بالاجتماع في غلوستر في بداية الخريف، مجهزين بالخيول والسلاح، للانطلاق في حملة، قرر القيام بها، ثم إنه عقد اجتماعاً في شروبري Chrewbury في اليوم التالي لعيد القديس بطرس في الأغلال، وخلال أربعة عشر يوماً رفع رايته، ووجّه سلاحه ضد حفيده داوود، حيث اكتشف أنه خائن وعاصي في كل مجال، ولأنه رفض الحضور في أي وقت من الأوقات، إلى مؤتمره السلمي الذي دعاه الملك إليه، حتى مع وعد أمان بالمرور، ولأنه بعناد وبإصرار أجاب بأنه لن يطلق سراح أخيه غريفين ولابأي شكل من الأشكال.

ثم قاد الملك جيشه، الذي كان كبيراً، وقوياً جداً، بنظام حسن نحو شيستر، وكأنه يريد أن يشن الحرب مباشرة، وخاف داوود على كل حال من مواجهة عنفه، بسبب الحرارة التي استمرت عالية لمدة أربعة أشهر، والتي جففت جميع البحيرات، وأماكن المستنقعات في ويلز، وبسبب تأييد الملك من قبل كثير من النبلاء الويلزيين، ولاسيما غريفين القوي والعاقل، ابن مادوك، الذي صار حليفاً كبيراً للملك، وأحب غريفين أكثر منه، أي داوود، ولأنه كان تحت عقوبة الحرمان الكنسي، قد بات خائفاً من أن تتدهور أحواله أكثر، ولذلك بعث رسالة إلى الملك، أخبره فيها، بكثير من المنطق، أنه إذا ما أطلق سراحه، فإنه سوف يثير الحرب ويجددها ضده، وفرض داوود على الملك أيضاً شرطاً، أنه إذا ما استقبله بسلام، فسوف يربط نفسه بيمين، وسوف يقدم له رهائن، على أن لايحرمه من ميراثه، وعلى هذا وافق الملك بلطف، وبناء عليه أطلق داوود سراح أخيه غريفين، وبعث به إلى الملك، الذي اعتمد على المشورة الحكيمة، فأرسله لدى وصوله إلى لندن، تحت حماية وكفالة جون أوف لكسنغتون Lexington, ليحفظ هناك في البرج، مع بعض النبلاء الويلزيين الآخرين، ورهائن داوود، وأمراء ويلزيين

آخرين، ووقعت هذه الحوادث كلها فيما بين يومي عيد ميلاد القديسة مريم، وعيد القديس ميكائيل.

اخضاع ويلز وطاعتها للملك هنري الثالث من دون حرب

وأقسم داوود —كما ذكرنا من قبل— على المثول شخصياً أمام الملك، وبذلك حفظ شخصه وشرفه، وأشخاص وكرامة رعاياه، وأن يكون مثوله في لندن، أو في أي مكان آخر، حسبما سيقرره الملك، وعلاوة على ذلك أعطى رهائن من أجل الوفاء بوعده، وبناء عليه، قدم على الملك، إلى لندن، في اليوم الثامن بعد عيد القديس ميكائيل، وبعدما أدى يمين الولاء والتابعية، وقدم جميع الضمانات والمواثيق، سمح له بالمغادرة بسلام، لأنه كان صاحب قرابة وشيجة بالملك، وسمح له بالعودة إلى وطنه، وهكذا بفضل الرب انتصر هنري على أعدائه، وأخضع ويلز من دون سفك للدماء، ومن دون محاولة تجريب الحظ المشكوك فيه للحرب، واكتشفت ويلز في هذه الحالة كلمات ربنا التي ورد ذكرها في الانجيل، ذلك أنها لم تكن خالية من الصدق، وهي قوله:

«كل مملكة منقسمة على نفسها تنتهي إلى دمار».

اكتشاف القصدير في ألمانيا

وتمّ العثور في هذا العام، على نوع نقي جداً من القصدير، في ألمانيا للمرة الأولى، وبكميات أكبر مما هو موجود في انكلترا، ولقد قيل بأن هذا المعدن لم يتم العثور عليه من قبل منذ خلق الدنيا، في أي مكان، إلاّ في كورنوول، وقد تدهورت الآن أسعاره كثيراً وتناقصت بسبب الكميات التي أرسلت من ألمانيا إلى انكلترا.

خلاف بين أسقف لنكولن وراعي دير ويستمنستر

وتفجر في هذه الآونة خلاف بين روبرت، أسقف لنكولن، وبين

راعي دير ويستمنستر، وقـد نجم عنـه نفقـات كبيرة، وتسبب بأضرار عظيمة لكل من الفريقين، وازداد يوميـاً، ذلك أن الأسقف المذكور كان يسعى، مستخدمـاً كل الوسائـط والإمكانات التي قدر على استخـدامها لإضعـاف الامتيازات الصحيحـة لراعي الدير، بتحـويله كنيسة هسـول Heswell لاستخـدامـاته الخاصـة، واستحـوذ على تلك الكنيسـة بالقوة، وعندمـا تهيأت له أول فرصـة أخذها من الرهبـان، ومنحها إلى شخص آخـر، اسمـه المعلم نيقـولا، الذي كـان بإذلال قـد حـرمـه من منافعه، وكان راعي الدير، واثقاً من حقه ومن امتيازاته، فقاوم بشجاعة ووقف في وجهه.

الخلاف بين الملك وبين أسقف لنكولن

ونشب في هذه الآونة خلاف شـديد بين الملك وبين أسقف لنكولن، وكـان ذلـك بسبب واحـد من الكهنة التـابعين للملك،واسمـه جـون مانسيل Mansel, كان قد جُـعل متملكاً لكنيسة التيم Thame, من خلال فضل الملك ومسـاعدته، وكذلك بفضل مرسـوم تمّ الحصول عليـه من البـابا، وكـانت هذه الكنيسـة عندما غـدت شـاغـرة، أعطاها الأسقف المذكور، من قبل، إلى كاهن اسمه المعلم سيمون اللندني، وكان كـاهناً مكلفـاً بالخطايا تـابعـاً لأسقـف درم، ولقـد غضـب الملك من الأسقف كثيراً جـداً بسبب هذا التصرف، ولـذلك أرسل هذا الأسقف إلى الملك رسـالـة بوسـاطة رئيس شمامسـة هنتغـدون Huntingdon وليستر عندمـا كان مـايزال في ويلز، وعاتبـه ووجّـه اللوم إليـه، لأنه لم يكن حـامـداً للرب، وغير مقـدر للنصر الذي أعطي إليـه، وأن عليـه التكفير على الفـور عن هذا الذنب العظيم، خشيـة أن يقـوم الرب أثناء غضبه بتحـويل ابتساماته إلى دمـوع، وعلى هذه الرسالة ردّ الملك: «إنني أرد بأمـان، لأن دعـوى استئناف قـد عملت، ومـا من شيء ينبغي أن يتعـرض للتغيير، أثناء إجراءات الاستئناف، وأنـا لم أحاول شيئاً سـوى

أنني تصرفت وفقاً لنصيحة العلماء بالشريعة، مع تأييد من السلطات الرسولية»، وعند ذلك قال واحد من رؤساء الأساقفة: «مولاي الملك، لدى سيدنا، أسقف لنكولن امتياز منح له من قبل البابا، فيه إعفاء له من الاستجابة لأي واحد، وذلك بناء على أمر المقام الرسولي، مالم تتوفر هناك إشارة خاصة إلى ذلك الامتياز، وبالنسبة لهذا الأمر، الذي قيل بأن جون المذكور قد حصل عليه من البابا، والذي بفضله فرض نفسه على هذه الكنيسة، معتمداً على مساعدتكم، لم يرد فيه ذكر لذلك الامتياز، وبناء عليه فإن أسقف لنكولن ليس مجبراً على الإجابة عليه في هذه القضية، ولاسيما فيما يتعلق بالتنازل عن كنيسة التيم، التي كانت من قبل، وبشكل عادل، قد أعطيت إلى آخر، ولنفترض أنه لم يكن مثل هذا الامتياز، إنه أمر غير منطقي بالنسبة إلى أي واحد لأن يدفع بنفسه لتملك أية كنيسة من دون استشارة —إن لم نقل ضد إرادة— أسقف المنطقة، حتى وإن كان معتمداً على تفويض بابوي، ذلك أن البابا يرغب أن تعمل جميع الأشياء، وفق نظام صحيح، وماهو السبب الداعي الآن للتسبب بالخلاف، أو بإيذاء أي من الفريقين؟ لأننا إذا قدرنا فضائل جون المذكور، الذي هو رجل حذر، ومتعلم بما فيه الكفاية، ومن الممكن لصاحب الغبطة أسقف لنكولن أن يستجيب بسهولة لطلبك، أو لطلبه شخصياً، فيجهزه بمنفعة مماثلة بالجودة إن لم تكن أغنى، والمنحة سوف تكون قانونية ومشرفة لكلا الطرفين، ويرجو الأسقف بكل تواضع واخلاص، أن لاتكون الأمور غير ذلك، لأنه على استعداد لإعلان الحرمان الكنسي ضد جميع الذين يسببون الأذى للكنيسة أو يضغطون عليها، ويعتدون على كرامتها».

وعندما سمع جون المذكور، وكذلك الملك ومستشاريه —هذه الرسالة— قال جون:

«ليكن بعيداً عني يامولاي الملك، أن أكون سبباً لأي خلاف، أو

نشـــوب أي نزاع بين مثل هذه الشخصيـــات المشهـــورة، وإنني أتنازل بصبر، والرب سوف يزودني عندما يكون راغباً، مادمت حياً».

وعند ذلك وافـق الملك على إنهاء القضيـــة، وبعـــدمـــا أكمـل جميع الترتيبـات الضرورية في ويلز، ترك هنـاك وولتر الألماني، مع بعض آخـر من الرجال ذوي الحكمة والنفوذ لبناء القلاع، ولتقوية الأماكن الضعيفة من المنطقـة، وأن يشحنها بالسـلاح والرجـال للدفاع عنهـا، وذهب هو نفســه مسروراً إلى لندن، وإلى ذلك المكان ذهب الأسقف المذكـور، وهو مستعـد تماماً للتفـوه بقرار الحرمـان الكنسي ضـد جون المذكـور بشكل خـاص وضـد جميع المؤذين لكنيستـه ولكرامتهـا، وعندمـــا باتت هذه الظروف معلومـة لدى جـون المذكـــور، ذهب متـذللاً إلى الملك وقـال: «مولاي الملك إن أسقف لنكـولن منزعج جداً، ولكي لاأكـون أنا سبباً لقيام المزيد من الخلافات، أو فضائح تنتشر في الخارج، إنني أستقيل من هذه الكنيســة، ولدى سماع الملك لهذا، كـان منزعجـاً، خشيـة أن يقـوم الأسقف، الذي كان عنيفاً جداً، بشكل غير اعتيادي، فيذهب إلى المنفى، حيث رآه مستعداً تماماً لفعل ذلك، ومن ثم يضع أسقفيته تحت الحرمان من شراكـة المؤمنين، ولذلك لطف الإجـراءات القاسيـة التي خطط لها، وتوقف عن مساندة جـون في معارضته، لأنه رآه قـد رفض العمل ضد الأسقف.

ثم إنه بناء على ذلك، استحق جون المذكـور نيل جائزة، حيث أضفي عليـــه بمنفعـة أغنى، كـــانت هي كنيســـة ميـدستـــون Maidstone, وذلك كهـدية من الملك، وأغني في العام نفســه بالاستحواذ على كنيســة هوفدن Hoveden, الغنية، وهكذا هدأ الأسقف، وبناء على طلب الملك وعظ بشكل علني، وكأنه واحد صدره مشحـون بمفاتيح المعرفة، وعهد بهذا التواضع إلى الفئتين، وبين أشياء كثيرة عمل مقارنة بين أشعة الشمس التي هـي مستقيمـة، وبين عـدالة الملك، التـي ينبغي أن تكون

مستقيمة ودائمة، والآن وقد رأى أن خاطر الأسقف بات هادئاً، بات راغباً في تسوية الخلاف المدمر والمهين بينه وبين راعي دير ويستمنستر، حول مايتعلق بكنيسة هسول Heswell, وبناء عليه لم يترك الأسقف ولم يسمح له بالمغادرة، حتى كان كل شيء قد تمت تسويته بسلام وسعادة، وقام راعي الدير نفسه بتقديم جميع التسهيلات حتى تتم التسوية، وبناء عليه وقعت كنيسة هسول في نصيب راعي دير ويستمنستر، حيث استحوذ عليها، مع الاحتفاظ بالتقدمة طوال الحياة، إلى أسقف لنكولن، وحصلت كنيسة ويستمنستر بموجب هذه الترتيبات على زيادة كبيرة في منافعها وكرامتها، لأن الراعي رتشارد، كان، بالاضافة إلى هذه المنفعة التي لم تكن صغيرة، قد زاد من ثروة رعويته بمورد قدره ثلاثمائة مارك، سنوياً وبشكل دائم، بوساطة خدماته.

خلاف بين أسقف لنكولن وهيئة كهنته

ولقد استمر على كل حال هناك خلاف كان مؤذياً جداً، ونزاعاً لم يكن اعتيادياً بين أسقف لنكولن وهيئة كهنة لنكولن، ولقد تعرض بعض الكهنة الذين كانوا موجودين في لندن إلى سوء المعاملة والأذى من قبل الأسقف إلى حد أنهم كانوا مرغمين على اظهار ورقة، وأن يجعلوا محتوياتها معروفة بشكل علني، وذلك خشية أن تخضع كنيستهم إلى بعض الظلم الجديد، وذريعة ذلك أنا سأحكيها الآن.

استرداد كنيسة لنكولن وكرسيها

بما أنه، قبل الاستيلاء على انكلترا، كان الكرسي الأسقفي الموجود الآن في لنكولن، موجوداً في دورشستر Dorchester, وبسبب أخطاء الذي كان وقتذاك مترأساً على الأسقفية وضع ذلك المكان تحت التكفير من قبل البابا، وجرى خلع الأسقف، ولم يبق من آثار هذه القضية الكبيرة أي شيء بعد مرور سنين كثيرة، وكذلك الكرسي وأيضاً

عناية أسقف وولايته بعد نهاية وقت طويل، وحدث بعد ذلك في أيام وليم روفوس Rufus ابن وليم الأول، أن جرى تدمير كنائس كثيرة في الغابة الجديدة، بناء على أوامر الملك، لكنه ندم بعد ذلك كثيراً على مااقترفه من ذنب، وتلقى نصيحة صحيحة، وقام تكفيراً عن ذنبه، فأعاد تلك الأسقفية الفخمة وأغناها، وحسّن المكان نفسه، حيث أنه اشترى، أو أخذ بالتبادل أرضاً من م. M دي غونت Gaunt وهو نبيل كان قد قدم إلى انكلترا أثناء الاستيلاء عليها، وكان قد تسلم تلك الأرض كنوع من المكافأة بعد الانتصار، وقام الملك وليم الثاني المذكور بتأسيس كنيسة، هي الآن كنيسة لنكولن، وعند اكتمال هذا استدعى كاردينالين نائبين للبابا، كانا قد تسلما سلطة كاملة، للقيام بتكريس أسقف، وقد قدما إلى كنيسته من لدن قداسة البابا، ثم إنه دعا ثمانية رؤساء أساقفة، وستة عشر أسقفاً، وتدبر تكريس تلك الكنيسة بشكل مهيب، وأمر بتعيين رهبان علمانيين فيها، كما أمر بتعيين موردهم المنفرد، وحصصهم الخاصة بهم، وذلك في سبيل أن يتمكنوا تحت سلطة أسقف وعميد، من القيام بواجباتهم بشكل نظامي وشريف، وذلك وفقاً لبعض الأحكام والصيغ، ولكي يبقى هذا التكريس الهام، الذي تمتن بوساطة سلطة مثل ذلك العدد من الآباء المقدسين، وكذلك بوساطة رسائل من الكرسي الرسولي، ولكي يستمر دون أن يخرق إلى الأبد، كان التكريس قد عمل وفق صيغة أنه عندما يجري تكريس أسقف، وبعدما يجري وضع الكهنة في ممتلكاتهم، يمكنهم من ذلك الوقت فصاعداً، القيام بأداء الصلوات إلى الرب، وإلى أمه المقدسة ليلاً ونهاراً، وفق نظام صحيح ووقار، وعندما يحيد واحد من هؤلاء الكهنة عن طريق نظامهم، وبعدما يتلقى اللوم لذلك، ولايقلع ويقوّم طرائقه، يتوجب أن يتلقى زيارة تفقدية وعقوبة من العميد، لكن من دون الخوف بحمل أي شيء مسبق ضد هيئة الكهنة، ويتوجب عمل الشكوى ضده وحده بسبب مااقترفه، لكنه إذا لم يقوّم نفسه بطريقة أو أخرى، يتوجب

حرمانه من منفعته لمدة سنة واحـدة أو سنتين، تبعاً لدرجة خطيئته، وإذا ما ثابر على عصيانه، ينبغي طلب مساعدة الأسقف لاستخدام إجراءات تقـويميـة، لكن مع ذلك إذا مـا استمـر غير مقـوم وفي حـالة المعـاندة، وتحدى سلطتـه، يتـوجب تجريده من جميع منافعـه، وانزال عقـوبة أكثـر قسوة به من قبل الملك، وأعطت هـذه الأحكام الرضا إلى جميع الفئات، ولذلك جرى تدوينهـا كتابة، ومن ثم تثبيتهـا من قبل الكرسي الرسولي، وكتـابتهـا وعند ذلك جـرى تكريس الكنيسـة، وقـام جميع الذين كـانوا حـاضريـن بإصـدار عقــوبة الحرمـان الكنسي بحـق كل من يخرق هذه الأحكام.

وبناء عليـه قال الكهنة بما أن العميـد ليس مهملاً أو جـاهلاً، وليس ضعيفاً للقيام بزيارة تفقـدية للمقصرين، وحيث أن الأسقف قد تصرف بذاته بشكل غير عـادل و شـائـن في استخـراج الزيارات، ولم يظهـر أنه بريء تماماً من وصمـة العقوبة التي صـدرت بشكل مهيب من قبل مثل ذلك العدد من الآباء المقدسين، ولدى سماع الملك بهذا، ادعى أنه طرف في هذه القضيـة، وبالمحصلة فإن فئة الأسقف وهيئة الكهنة قـد ضعفت كثيراً، وبسبب مثل هذه المعيقـات والاحبـاطات، كـان من غير الممكن جلب القضية إلى النهـاية السلمية المرغوبة، لكنها تأخـرت، مسببة كثيراً من النفقات وضياع الوقت.

ملك إنكلترا يتدبر عمل مزار ذهبي لعظام القديس إدوارد

تدبر في هذا العام الملك هنري الثالث، على نفقته الخاصة، صنع مزار من الذهب الخالص والجواهر الثمينة، وأن يجري تشييده بشكل محكم في لندن من قبل عمال منتخبين، من أجل الآثار المقـدسة للقـديس ادوارد، حتى توضع فيـه، وفي تشييد هذا المزار، مع أن المواد كانت بـاهظة جداً، لكن ذلك كان وفقاً لقول الشاعر:

فعل العمال في الحقيقة بتفوق كبير
من المادة الخام شيئاً استثنائياً.

كيف رفض الملك إعطاء ميراث إلى و. W مارشال

أظهر الملك في هذه الآونة نفسه بموقف عدائي نحو وولتر مارشال، أخي غيلبرت الذي مات دون أن يخلّف أولاداً، يتناولون منه الميراث العائد إليه بموجب حق التوريث، وقال الملك له وهومغضب:

«لأن والدك وليم، قد وصم بالخيانة، لأنه قد قيل بأنه أنقذ لويس من أن يقع بالأسر عندما كان في انكلترا، وجرى اعتقال أخاك رتشارد، وقتله وهو حامل للسلاح ضدي، وكعدو مكشوف ومميت لي، وأما أخوك غيلبرت، الذي توفي مؤخراً، والذي منحته ميراثه بناء على مبادرة وساطة من إدمووند، رئيس أساقفة كانتربري، وذلك كعطاء وليس كحق، قد قام مؤخراً لسوء الحظ، فعقد مبارزات في هارتفورد، على الرغم من حظري، وفي هذه المبارزات واجه موتاً مأساوياً، وأنت ياوولتر أيضاً قد كنت موجوداً في تلك المبارزات، ضد إرادتي، ودون أن تعبأ بحظري، وتحدياً لي، وأنت الذي بشكل سفسطائي سميتها مغامرة، فعلى أي أساس أنت تطالب بميراثك، فكيف امتلكت الوقاحة بفعل ذلك؟»، وفي ردّ على هذه التهم خاطب وولتر الملك كما يلي:

«مع أنني ياموولاي الملك، أستطيع أن أقدم جواباً مرضياً على كل تهمة من هذه التهم، وعليها جميعاً، إنني أنحني خضوعاً لجلالتك، وأنت قد قمت حتى الآن برعايتي في صدر رحمتك، وعددتني واحداً من أصدقائك المقربين، وليس على الاطلاق واحداً من ضيوف مائدتك، وأنا لم أستحق قط أن أفقد حظوتك إلاّ في قضية واحدة، أنا لايمكنني التنصل منها، وهي أنني كنت موجوداً في تلك المبارزات مع أخي، الذي لم يكن بإمكاني تركه، لكن إذ ما قررت حـ ان جميع الذين كانوا

حضـوراً هناك، فإنك بذلـك لن تثير اضطراباً قليـلاً في المملكة، وبعيـد جـداً عنك، بحكـم كـونك أمير عـادل، أن تجعلني وحـدي أكفـر عن أخطاء الجميع، وبعيـد عنك يامـولاي أن تجعلني الأول في نيل العقـوبة بين مثل ذلك العـدد الكبير»، ولم يعبأ الملك بهذا، واستمـر غضبـه، ولذلك حـافظ وولترعلى الصمت، لأنه رأى بأنه قد فقـد حظوة الملك، وذلك وفقاً لنصيحة الشاعر:

عندما تكون الزوابع الثائرة سائرة بسرعة

أذعن لقوة الزوابع الغاضبة

وهكذا غادر على هذه الصورة، و هو يائس.

الملك يعمل من وولتر مارشالاً

وقدم إلى لندن في هذه الآونة نفسها أسقف درم، الذي كان منذ زمن بعيـد صـديقـاً مقـرباً من الملـك، لأنه كـان الوصي على الجسـد الملكي، وطبيباً ووصياً على الملكـة، ومشرفاً مراقباً لخرق الأخلاق، وقـد قام بناء على طلب وولتر المتقـدم الذكر، بالتعـاون مع نبلاء آخـرين، ومع الملكة نفسهـا، ومع جميع الذين عـرف بـأنهم مقـربين من الملك ولهم مكانتهم لديه، فـاستخدم محاججـة لطيفة، والتماسـات عرضت بصـورة حكيمة، فتمكن من تلطيف غضب الملـك، وجعله يتصـالح مع وولتر، وبعـدمـا هدأ الملك، ورضي على هذه الصـورة،، أضفى في يوم الأحـد، قبل عيـد جميع القـديسين على وولتر المذكور مـرتبـة الإيرليـة، ووظيفة المارشـال، وجعله يحتفظ بين يديه بقلعتين هما: كارديف، وكـارديغان Cardigan في ويلز، وهما اللتين كـان الملك قـد عهـد بهما من قبل، ووضعهما تحت إدارة وليم مـارشـال، ثم أعطاهما بعـد ذلك إلى هيـوبـرت، مسـؤول العـدالة، لأنـه قـدر أنه من الضروري الاحتفـاظ بهما، من أجـل تقـوية المناطق الضعيفـة في ويلز،التي استحوذ عليهـا مؤخـراً، في سبيل تمتينهم بالقلاع والحصون.

الملك يثور غضبه ضدّ أسقف نورويك

إزداد في هذه الآونة غضب الملك ضد أسقف نورويك، بسبب أن ذلك الأسقف وافق على تسميته لكرسي وينكستر، ولأنه رفض، وأصرّ على الرفض، بالتخلي عن حقه، ومع أن الملك طلب منه اتفاقية مكتوبة بالتخلي عن إدعائه، لكن الأسقف رفض بثبات فعل ذلك، ونتيجة لذلك حدث شقاق كبير في أسقفيته، ترافق أحياناً بالكتابة إلى البلاط، الذي أصيب أخيراً، نتيجة لاغتصابه الطائش بالجراحة، وعانى كثير آخر من الأذى، وفي محصلة ذلك جرى ضرب كثير من رجال الدين ومن العلمانيين بشكل فاجر، وجرحوا، وعانوا من كثير من الضرر على أيدي السلطات المدنية، وأعلن الملك، مرفقاً إعلانه باليمين، أنه لن يتوقف قط عن ممارسة مثل هذا الظلم، حتى يقوم الأسقف المذكور بتوقيع ورقة، يذكر فيها أنه لن يسمح قط لنفسه بالنقل إلى كرسي وينكستر، لكن هذا كان سبباً متنافراً مع المنطق، ومعاكساً للتكريس الأسقفي، لأنه إذا ما أمره صاحب القداسة البابا، بحكم فضيلة طاعته، بأن يفعل ذلك، لايمكنه، بأية طريقة من الطرق، لأن ذلك يتناقض مع كونه ابناً للطاعة.

تعذيب رهبان وينكستر

وفي هذه الآونة نفسها، شرع البريتاني، الذي وضعه الملك بالقوة على رأس دير وينكستر، وجعله رئيساً للرهبان، في إغضاب المجمع الديري بمختلف الطرق، لأنه بدسائس هذا المغتصب الزائف، أثيرت الخلافات، حتى توفرت أسباب جيدة لإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بالرهبان الذين عارضوه، وبعد مرور مدة أربعين يوماً، جمع بعض وكلاء الملك وقال لهم: «اذهبوا وانتقموا للاهانات التي وجهت إلى الملك وإلينا من قبل هؤلاء العصاة علينا، ذلك أنهم مجروسين كنسياً، و إنه لن يكون ذنباً إذا ما ألقيتم بأيدي العنف عليهم»، واندفع أتباع الملك وخدمه وزحفوا نحو الأمام على شكل عساكر، وبعنف ألقوا بأيديهم

الآثمـة على الرهبان الذين هربوا إلى المذبح الكبير يطلبـون الحماية هناك، وقـد دفعـوا بهم وسحلوهم بعنف شـديـد، حتى أنهم لطخـوا الأرض بالدم، ثم أخرجوهم مطرودين من الكنيسـة، وكان ذلك على مشهد من المواطنين، الذين أبدوا دهشتهم، وعجبهـم، وحـزنهم، وقـد دفعـوا بهم وسط الشتـائم والضربـات إلى قلعـة الملك في هسفيتري Husvetrey, حيث صفـدوهم بالأغـلال كل اثنين معاً، وألقـوا بهم في سجن مضيقـاً عليهم، وهكذا فعل هؤلاء الحراس التـابعين للملك،الذين ألقـوا جانبـاً كل خـوف مـن الرب، واحترام للزي الديني، وأنزلوا الظلم بـالرهبـان وعسفـوا بهم، واحتفظوا بهم مسجـونين في الظـلام، وعـذبوهم بالجوع وبالبرد، وعــرضــوهم لإهانـاتهم، مع أنهم حصلوا هكذا على سعفــة الشهادة، لمعرفتهم بأن جميع هذه الآلام التي أنـزلت بهم، كانت لوفائهم بالعدل، وتحملوها كلهـا بصبر، لابل حتى بسرور، وذلك بقدرمـا كانوا مستحقين تحمل التمرد، في سبيل المسيح.

إثنان من وكلاء البابا يستخرجان مالاً من إنكلترا وسكوتلندا وإيرلندا

أمضى بطرس دي سـوبينو Supino, الذي كـان كـاهناً تابعــاً للبابا وقته كله بمواظبـة كبيرة في جمع المال، باستخراج عشرين جزئاً من الممتلكات من جميع ايرلندا، مدعوماً بترخيص من البابا، وقد أخرج من تلك المنطقة مبلغ ألف وخمسمائـة مارك، إلى جـانب مختلف الهدايا، وكان بطرس لى روج، الذي جعل من نفسه قـريباً للبابا، وصديقـاً مقرباً منه، أيضـاً محميـاً بإجـازة من البـابا، وشغل نفسـه بيقظـة في جمع الأمـوال وتكديسها من المنـاطق الشمالية من انكلترا، وبوساطـة ارسال الرسل إلى مناطق سكوتلندا، وأخيراً سـارا وحقـائب سروج خيـولهما مليئة تمامـاً، تحت كفـالة رهبـان كانتربري إلى دوفـر، ثم أبحـرا فجأة وبشكل سري، لأنهما سمعـا من رسل أرسلوا بكل سرعـة، بأن البـابا مـايزال من دون

أمل بالشفاء، أو بالحقيقة هو إما قد مات أو على وشك الموت بالحال، ولذلك قاما بفرار سري ومفاجىء بالبر وبالبحر مع غنيمتيهما، لأنهما كانا يخشيان أنه إذا ما علم الملك بوفاة البابا، سوف يقوم بحكمة باستبقاء جميع الأموال التي جمعاها، ومن ثم يقدر كيف سيتصرف بها لدى استخلاف بابا آخر.

وماكادا يدخلان إلى فرنسا، حتى —عجَباً— وصل المعلم وولتر دي أوكرا، وهو رسول من الامبراطور، وصل بكل سرعة، مع أن ذلك جاء متأخراً، حاملاً رسائل اعتماد من الامبراطور وكذلك رسولاً إلى الملك، لإخباره بأحوال الأوضاع في البلاط الروماني، وينصحه إذا ما تم العثور على مثل هؤلاء الناس في انكلترا، بأن يتم الاحتفاظ بالأسلاب، وحبس اللصوص أيضاً، ولكن عندما علم الرسول بأن الاثنين قد نجوا، وجّه اللوم إلى تقاعس الملك و اهماله، وغادر على الفور وهو غاضب وآسف، لأنه قام برحلته من دون فائدة، وتبع خطواتهما بيقظة، وراقب بدقة تسكع هذين الثعلبين حتى يخبر الامبراطور بنتيجة رحلته.

كيف جرى تحويل المال الذي جمع من قبل وكيلي البابا إلى الخزانة الإمبراطورية

وعلم المندوبان البابويان الآن بوفاة البابا، مع أن الخبر ظلّ مكتوماً عن الناس لعدة أيام، وقد علما أيضاً بأن وولتر المذكور كان يسير خلفهما، فأسرعا بسفريهما، ولم يوفرا فرسيهما، وبعد عبورهما للألب، أخذا نفسيهما إلى مدن وبيوت أقربائهما، وأودعا المال الذي قدماه وهما محملان به في أماكن سرية، ولم يجعلا حضورهما معروفاً لدى الجميع، وبما أن وولتر المذكور لم يستطع العثور على أي منهما، أو على المال، سوى سماعه بعض الاشاعات الهامسة، بعث برسالة إلى الامبراطور حول كل شيء، وحول تفتيشه غير المثمر، وعند ذلك أمر صاحب

الجلالة الامبراطورية القيام ببحث دقيق في جميع المدن الايطالية الخاضعة لحكمه، لاكتشاف من هما هذين الرسولين البابويين، وأي تاجرين كانا هما، اللذان كانا يسعيان إلى اخضاع الامبراطورية، وإلحاق الأذى بالمصالح العامة، وإثارة الحرب، وقد جمعا المال بخداع من مختلف البلدان، ولا سيما من انكلترا، لمنحه إلى البابا، وكانا بذلك يرفعان من جبروته، ويدفعان به لدمار سلام الامبراطورية، ثم أمر بسجنهما بعد اعتقالهما، على أساس أنهما من الأعداء الألداء، ودعوتهما للظهور، ومصادرة أملاكهما وبيوتهما، ومثل ذلك ممتلكات وبيوت أقربائهما.

وهكذا بعدما جرى سجن الرجال الرئيسيين من هؤلاء القوم مع زوجاتهم وأولادهم، أمر باجراء بحث دقيق حول المبلغ المالي الذي جرى جمعه من أجل استخدامات البابا، وأمر بتعداده وكتابة ذلك، ووضعه في أيدي تجار المدن، والذين يفهمون بالأعمال، ومن ثم يجري إيداعه كله، وهكذا فإن هذين اللاهوتيين، اللذين كان من المتوجب حمايتهما تحت جناح البابا، قد جرى تجريديهما تماماً، وتولى أعداء الكنيسة بجرأة تعذيبهما.

موت البابا غريغوري

وفي الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يدور هكذا بشؤون العالم، تأكد التقرير الذي طار في جميع أنحاء العالم المسيحي، والذي ادعى بأن البابا غريغوري، لم يعد بإمكانه تحمل الأحزان التي شعر بها —والتي هو نفسه قد تسبب بها— وقد غادر طريق الجسد في الثاني والعشرين من آب، ليتلقى المكافأة من القاضي في عليين، وفقاً لاستحقاقه، وكان في وقت موته قد بلغ من العمر حوالي المائة سنة، في حين اعتقد عدوه الامبراطور، أنه كان في ذلك الحين ليس أكبر من خمسين سنة، فقد روي بأنه ولد في السنة التي كان فيها رتشارد ملك انكلترا سجيناً في ألمانيا.

السبب الذي عجل بموته

وكان الأسى الرئيسي الذي خرق قلب البابا، والذي أوصله إلى حافة الموت، هو أن الامبراطور، كـان قد استـولى إثر عيـد الصعود على قلعـة قـرب مو نت فـورت في كامبـانا Campagna كـانت عائـــدة إلى أحفـاد البابـا وإلى أقرباء آخـرين له، وكـانت قـد بنيت حديثاً بأمـوال الصليبيين من أجل حماية أقـربائه، لأن البابا غـريغوري كـان يعرف تمام المعـرفــة بأن الامبراطور يكره جميـع أقـربائــه، ورغب أنه إذا مــا قـام الامبراطور بغـزو كــامبـانا، أن يحال دون الحاجـة لأن يكون معــرضـاً لحملاتـه، وكان الامبراطور قد علـم بهذه الأوضاع، فقام فجـأة بحصار هذه القلعـة وبتـدميرها وبشنق جميع الذين وجـدهم فيهـا، وكرمـز على تدميره لها ترك نوعـاً من أنواع الأبراج نصف مدمـر، بمثابة ذكـرى على اعتدائـه، وعلى انتقامه أيضـاً، ذكرى لن تموت أبداً، وبالاضـافة إلى هذا كان البابا مصـاباً بالحمى، كما كان قد تقدم بالســن كثيراً،، وقد حرم من استخدام الحمام الذي اعتاد أن يقوي فيه نفسه في فيتربو.

موت إليانور ابنة غيوفري كونت بريتاني

وماتت في هذه الآونة إليانور ابنة غيوفري كونت بريتاني، التي كانت موضوعة منذ زمن طويل في سجن ضيق.

كيف التحق بعض الرهبان بطوائف أخرى

وفي هذه الآونة كان هنـاك بعض الرهبان، الذين عـانوا من التقلبات في عقولهم ومن عـدم الاستقرار، فقلدوا مثل أسقـف هيرفورد، دون أن يعرفوا السبب (لأنه كان مرتبطاً بنـذر)، فتحولوا إلى طائفة غير معروفة، و التحقوا بالدومينيكان وبالفـرنسيسكان، ناسين قول النبي: «لقـد حدد له الطريق الذي اختاره»، فقد قام راعي دير أوسني Osney بعقله الجبـــان، فتخلى عن طائفـــة أوغسطين المعلم الكبير، وانتقل إلى طائفـــة

الفرنسيسكان، راغباً بتجريب الجديد، وقام راعي دير وولدن Wal-den أيضاً، الذي حمل صليب ربنا بألم تحت حكم نظام طائفة القديس بندكت، عندما رأى ديره مثقلاً بالدين، وقد غرق في أعماق اليأس، قام من دون أن يعرف ديره أو رهبانه، فجأة وبلا حياء بالالتحاق بطائفة الدومينيكان، غير أنه ندم على هذا فيما بعد.

الإعاقة التي عملت ضدّ انتخاب البابا

في الوقت الذي مات فيه البابا غريغوري، الذي ذكرناه أعلاه، كان هناك عشرة كرادلة موجودين في البلاط الروماني، وكان هناك اثنان مايزالان في سجن الامبراطور، وبعدما قام هؤلاء العشرة ببعض المداولات —كما هي العادة— حول انتخاب بابا جديد، لم يتمكنوا من الوصول إلى قرار مقنع، لأن عددهم قد انقسم على نفسه، وبناء عليه بعثوا إلى الامبراطور، يرجونه بتواضع أن يرسل أخويهم، الكارديناليين، إلى البلاط، حسب مايختاره من شروط ويفرضه، وذلك في سبيل رفع شأن الكنيسة ولصالحها، التي تعتمد اعتماداً أساسياً على انتخابهم بابا، وأن لايعاق هذا الانتخاب من قبله، وبلطف منحهم الامبراطور هذا المطلب، لأنه كان قد لان أمام التماسات الايرل رتشارد، على شرط أنهم إذا انتخبوا أوتو بابا، عليهم العودة إلى وضعهم المتقدم، وإلى حالهم في السجن.

وبناء عليه، عندما اجتمعوا كلهم في قصر كان اسمه «قصر الشمس»، وقد انتخب خمسة من الكرادلة سادسهم، الذي كان غيوفري الميلاني، أرضى هذا الانتخاب الامبراطور، الذي قام بتهنئته على ذلك، وانتخب الثلاثة المتبقين رابعهم، الذي اسمه رومانوس، وقد عارض الامبراطور هذا الانتخاب، عاداً إياه رجلاً بلا أخلاق حميدة، وذلك بسبب اضطهاده لجامعة باريس، ولأنه قد قيل بأنه في وقت من الأوقات قد فسق ببلانشي، ملكة فرنسا، وأيضاً بسبب اتهامه بابقائه الخلاف

مشتعلاً بين غريغوري البابا المتوفى مؤخراً، وبينه، أي الامبراطور، وكانت أسماء الذين انتخبوا الأول: جايل أسبان Giles Aspan, وستيفن فتزكونت Fitzkonte أسقف بورتوا Portua, ورينرر أوف فيتربو، وجون دي كولونا Colonna, وروبرت سمركوت وكان انكليزياً، والذين انتخبوا الآخر كانوا: رتشارد هانيبال Hannibal, أسقف أوستيا، الذي كان له تبعاً للعادات، الصوت الأول في انتخاب البابا، وسينبولد Sinibald, أسقف أوف سابينا Sabina, ونشب خلاف حاد بين الكرادلة، بسبب هذا الانتخاب، لأن الذي يتوجب انتخابه بابا، هو الذي يجري انتخابه من مجموعتي المنتخبين، ويوافقان عليه، وذلك وفقاً لمرسوم الاسكندر، الذي يبدأ بالكلمات التالية: «على كل حال، لتجنب الخلاف، إلخ»،، وهكذا فإن القضية التي تهم الكنيسة بعمق تركت من دون انهاء، وكانوا منقسمين، أو بالحري متفرقين بالتفكير والجسد.

ومات في هذه الآونة جيمس أسقف برانستي، الذي كان واحداً من طائفة السسترشيان وكان عدواً عنيداً جداً للامبراطور.

عودة الفرنسيين الذين أطلق سراحهم من أسر المسلمين إلى الوطن

وكان الايرل رتشارد قد بقي حتى الآن حوالي أربعة أشهر مع الامبراطور، ولذلك استأذنه وانطلق عائداً نحو الوطن، وكان الفرنسيون، الذين أطلق سراحهم بموجب الهدنة التي عقدها الايرل، قد عبروا البحر الآن، بعدما تأخروا كثيراً بوساطته، ليعيدوا إليه الشكر، وليتسلموا المزيد من الاحسان منه، لأنه كان صديقاً جداً للامبراطور، وكان كأنه امبراطور آخر تقريباً، وكان وافر الثروات، وكان أولئك الفرنسيون في حالة فقر مدقع ويحتاجون إلى المساعدة، وزودهم الايرل رتشارد بكرم بالملابس، وبنفقات السفر وبوسائل مناسبة، كما أنه حصل

من الامبراطور على وعـد منه، قبل أن يتركـه، بوجوب منح السـلام إلى الكنيسـة، تحت طائلة عقـوبة الموت القـاسيـة جداً، لأي واحـد سـوف يخرقـه، ووجـوب الاعــلان بصــوت المنادي في جميع أنحـاء الممالك الامبراطورية، بوجـوب عـدم اعتداء أي انسـان على شخص لاهوتي أو ازعـاجـه، أو على حاج، ولاسيما على الفـرنسيين العـائـدين إلى بلادهم، وذلك نتيجـة لحالة ترمل الكنيسة الرومـانية، بسبب مـوت عدوه البـابا غـريغـوري، وأمر الامبراطور بـوكيل حكيم وصـاحب نفوذ بمـرافقـة الايرل رتشـارد، ليـزوده بجميع الحاجات الضرورية، وليخـدمـه بشكل لطيف حتى حـدود الامبراطورية، ونتيجـة لذلك عندمـا اجتـاز خـلال مـدن ودول ايطاليـا والمناطق الأخـرى الخاضعـة للحكم الامبراطوري، استقبل بسرور عظيم وبتكريم، وبناء على أوامر الامبراطور استقبل وهو على الطريق من قبل سكان المدن، وهم على ظهـور خيـول أصيلة، وهم مجهـزيـن بشكل غني، وهم يرتدون الحرير والملابس الثمينـة الأخـرى، ترافقهم مـوسيقى آليـة وصـوتيـة، وذلك وفق طرائق رفيعـة، ولسـوف أحذف ذكر جميع الأحداث، وسأتولى ذكـر حادثة سارة خاصة في مكان واحد.

فلدى اقترابه من كريمونا، خرج أهل المدينة مسرورين لاستقباله، مع فيل الامبراطور وهو يسير أمامهم، وهو مزين بشكل جميل، وكان يحمل برجاً من الأبراج الخشبيـة، فيـه جلس سـاسـة الحيـوان، وهم يلعبـون بالبوق، ويصفقـون بأيديهم وهم مسرورين، وكان مـع الايرل عدد كبير من النبلاء الفرنسيين، وقد شاركوا في سرور تكريمه، وعند الوصول إلى حـدود الامبراطورية، عـاد وكيل الامبراطور، وترك بعض الفـرنسيـون الايرل، بعـدمـا كرروا تحيـات الوداع، ورجعـوا مسرورين إلى بلادهم، حيث استقبلوا بالمعـانقـة من قبل زوجاتهم وأولادهـم، وآخرين أعـزاء عليهم، ونقهـوا أنفسهم باستخـدام مختلـف وسـائل النقـاهة، والراحـة الممتعـة، ثم إن كل واحـد منهم حكـى وهو مسرور ذكـريات المخـاطر

العظيمة التي تحملها في خدمـة المسيح، وكيف أنهم هجروا بشكل خياني من الذين كانوا ملزمين بتقـديم المساعدة إليهم، وكيف جـرى بعد ذلك تحريرهم وتزويدهم بحكمة وبكرم الايرل رتشارد وحده:

وأصغت أذن كل ربة بيت

باهتمام، لسماع حكاية زوجها.

نشوب خلاف بين الداوية والاسبتارية

وبعـد مغادرة الايرل رتشـارد، غـادر عدد كبير من الحجـاج الأرض المقدسة في هذه الآونة، وكان الداوية هم الوحيدين الذين لم يوافقوا على تصرفات الايرل رتشارد، وقد أثارتهم لدغـات الحسد، فتورطوا في ذمه، وبالنميمة ضـده، وبالسخرية منه، وبلاحيـاء خرقوا الهدنـة التي أبرمها، وضايقـوا الاسبتارية بشدة وآذوهم، لأنهم قبلوا الهدنة، وتولوا مـراعاتها تماماً وقد حبسوهم في عكا وكأنهم محاصرين، ولم يسمحوا لهم بالحصول على المؤن، ولا حتى بجلب موتـاهم واخراجهم من بيوتهم، التـي كانوا فيها محاصرين، وذلك مـن أجل القيام بدفنهم، وقام الداويـة أيضاً نكاية بالامبراطور، فطردوا جميـع رهبـان كنيسـة القـديسـة مـريـم الألمانيـة، وأخـرجـوهـم من المدينة، وتركـوا عـدداً قليـلاً منهـم، هم الذين كـانوا أصدقاءهم، وخدم الكنيسة، وهرب الرهبان الذين بقيوا إلى الامبراطور وإلى الأعيـان المسيحيين الآخـرين، وتقـدمـوا بشكوى ثقيلة حـول هذه القضية، ولذلك ثارت فضيحة كبيرة، قامت على أساس فكرة أن هؤلاء الذين سمنـوا بوسـاطـة عـدد كبير من الموارد مـن أجل محاربة المسلمين بكل قواهم، قد حولوا الآن قوتهم بشكل فـاجر، ووجهوا حقدهم ضد المسيحيين، لابل ضد اخـوانهم، وبذلك أثاروا غضب الرب بشكل ثقيل أكثـر، ولهذا السبب، فإن الايرل عند مغـادرته الأرض المقـدسـة، وكأنه كان متـوقعاً مثل هذه الأشياء، لم يعهد بمـدينة عسقلان، أو بالمال الذي تركه هناك، من أجل إكمال بعض أجـزاء القلعة، إلى الداوية المتعجرفين،

وفي الحقيقة اختار هو أن يعهد بذلك إلى وكيل الامبراطور، لأن الداوية حملوا مشاعر حقد كبيرة ضد الايرل.

وفاة الكاردينال روبرت سمركوت

وفي تلك الآونة نفسها، غادر طريق الجسد المعلم روبرت سمركوت، الذي كان كاردينالاً من أصل انكليزي، وكان رجلاً مستقيماً وحكيماً، محبوباً من قبل الجميع، ومحسناً إليهم، وكان في تلك الأثناء محبوساً في قصر اسمه «قصر الشمس»، يتداول مع الكرادلة الآخرين حول انتخاب بابا، وهناك —كما قيل— جرى دس السم له، من قبل منافسيه الذين كانوا من أصل روماني، والذين كرهوه، لأنه بدا رجلاً مناسباً، وأهلاً لشغل الكرسي البابوي، ومات كاردينال آخر بطريقة مماثلة، وكان ضحية لتآمر أشخاص حسودين له، وأما جون أوف كولونا، وكان واحداً آخر، فهو بعدما جرى هدم قلاعه وقصره من قبل الرومان، اعتقل وألقي به في السجن، بسبب أنه بدا محبذاً وميالاً نحو الامبراطور.

موت ستيفن سيغريف

في التاسع من تشرين أول من العام نفسه، مات ستيفن سيغريف Segrave في رعوية دير ليستر، حيث كان قد تمدد متخفياً، لبعض الوقت أثناء اضطهاده، وكان ستيفن هذا أثناء شبابه قد تحوّل من كاهن إلى جندي، ومع أنه كان من أصل متواضع، فقد تمكن بوساطة شجاعته، في أيامه الأخيرة، من الحصول على الثروة، ومن الترقية إلى منصب، حيث عدّ بين أوائل الرجال في المملكة، وجرى تعيينه مسؤولاً عن العدالة، وقد أدار جميع شؤون المملكة حسب رغبته، وقد نظر دوماً نحو منفعته وتطلع نحو تقدمه، أكثر من تطلعه نحو المنفعة العامة، ونظراً لبعض أعمال العدل التي عملها في حياته، والتي أرضى بها

الرب، استحق السماح له بعمل وصيته وبتقوى تلقى القربان، ليواجه نهاية محمودة ومرضية.

كسوف الشمس

في السادس من تشرين أول من هذا العام، الذي كان يوم عيد القديس إيمان Faith, تعرضت الشمس للكسوف، من الساعة الثالثة حتى السادسة، وبدت السماء وكأن لها شكل الأرض نفسها وكان هذا هو الكسوف الثاني للشمس، الذي حدث خلال ثلاثة أعوام، وهو حادث لم يسمع بمثله حتى الآن.

موت روجر أسقف لندن

وفي تلك الآونة نفسها، وبالتحديد في التاسع والعشرين من تشرين الثاني، مات المعلم روجر، أسقف لندن، وكان رجلاً صاحب حياة تستحق الثناء، وقداسة مدهشة، ومعارف متميزة، وكان فهيماً في وعظه، وصاحب حديث مشرق، مرح عند المائدة، وصاحب ملامح هادئة، وقد وقع مريضاً في ستوبنهام Stupenham, وهي عزبة كانت له قرب لندن، وهناك قال وداعاً لهذا العالم، وغادر إلى الرب، وجلب جسده إلى لندن، ودفن في كنيسته الكاتدرائية.

وفاة غيوفري دي لوسي

ومات في الشهر نفسه المعلم غيوفري دي لوسي Lucy, صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان عميد الكنيسة نفسها، وبوفاته رميت كنيسة لندن في لجّة فوضى عظيمة لأن الملك لم يسمح بملء أي كنيسة، قبل أن تصبح مدمرة، ولأن الكرسي البابوي كان شاغراً، وكان الكرادلة في حالة اضطراب جسدي وعقلي، ولأنه لم يكن لديهم رئيس أساقفة، الذي من المعروف أن عميده هو أسقف لندن، ولأنها كانت الآن من دون عميد.

عودة أوتو إلى الإمبراطور حتى يسجن

وكـان الكرادلة في هذه الآونة في حالـة عدم اتحاد تقـريباً، وفي حـالة خلاف، وجرى تأجيل انتخاب البابا، وكأنهم كانوا يائسين، ولذلك عاد أوتو إلى الامبراطور، إلى سجنـه، من أجل اطلاق سراح الرهائـن الذين قـدمهم، وليحفظ سمعتـه مـن التلطيخ، بأنه خـرق وعـده، وكـان الامبراطور مسروراً جداً بهذا التصرف الذي تصرفه، ومع ذلك أبقاه في السجن، لأنه كـان غـاضباً عليـه، بسبب أنه عندمـا كـان نائبـاً بابوياً في انكلترا، قـد تولى حـرمـانه كنسيـاً، وسمح بإعـلان حـرمـانه كنسيـاً، وبالتشهير به إلى درجـة عـالية، لكنه عـامله بلطف أكبر، لأنه كـان قـد فعل ذلك من دون إرادته، بل بالاكراه، بحكم طاعته للبابا.

انتخاب فولك باسيت إلى كرسي لندن

ومع اقتراب عيـد الميـلاد، انتخب كهنة لندن، اسقفـاً لهم وراعيـاً لأرواحهم هو المعلم فولك، عميـد يورك، وكان رجلاً مستقيماً وحكيماً، وصاحب أخـلاق حميدة، ومن أسرة مشهورة، وجـاء هذا على كل حال ضـد رغبـة الملك، الذي آثـر المعلم بطرس دي أوغـويبـلانشي Aigueblanche, أسقف هارتفـورد، ودخل بسرعـة إلى بيت هيئة كهنة القديس بولص حتى تجري تسميته أسقفاً لهم، وقد عيّنوا أيضاً في الوقت نفسـه واحـداً اسمـه وليم، ليكون عميـداً لهم، وكـان كـاهناً ومستشاراً لكنيسـة القديسـة مريم، وكـان رجلاً صـاحب حياة جـديرة بالثناء.

وفاة هوغ دي بيتهل

ومع مرور الأيام، وفي حوالي السابع من كانون الأول مات هوغ دي بيتهل Pateshull أسقف سيشتر، وكـان رجلاً مـايزال في نشـاط الحياة وقـوتها، وهو بعدما كـان قد أمضى حيـاته بطريقة تستحق الثناء،

انحـرف بوسـاطة مشـورة شريرة، وتحوّل إلى الطـرق الشريرة، وصـار مطرقة للرهبان، ولاسيما إلى أولئك الذين أوجـدوه، وقد مات مع حزن قليل عليـه، مع أنه جلس في كـرسي الأسقفيـة لمدة تزيد قليـلاً عن سنة واحدة.

وعندمـا سمع رئيس رهبان كـوفنتري والرهبان بهذه الحادثة، جمعـوا كهنة ليشفيلد Lichfield وانتخبوا راهباً من كنيسـة كوفنتري، كان مـدرسهم، أسقفـاً لهم وراعيـاً لأرواحهم، مـع أن بعض الكهنة قـد عـارضـوا انتخابه، واختـاروا رتشـارد راعي دير ايفهـام Evesham, الذي كـان آنذاك حامل أختـام الملك، وكان يمارس واجبـات المستشار، ولصـالحه كـان الملك قـد توسط لديهم، ونتيجـة لهذا الانتخـاب، صـار الملك عـدواً لكنيسـة كـوفنتري، وألحق برئيس الرهبـان وبالرهبـان كل ضرر كان يمكنه فعله في كثير من المناسبـات، ولأن الرهبان كانوا هكذا معارضين للملك ولرجـاله، وكذلك بعض كهنة ليشفيلد، ولذلك ارتمى دير كوفنتري في حالة من الفوضى، ونال كثيراً من الأذى، بلغ حداً، أن التجمع الديري تفـرق ينشـد المسـاعـدة من الديرة الأخـرى، وقـام دير القـديس ألبـان انطلاقـاً من عـواطف خيرة، وتكريميـة، ففتح صـدره الرحيم، واستقبل رئيس الرهبـان وبعض رهبـانه، وخدمهم وخيـولهم، بأعظم احترام، وعـاملهم بمنتهى الكرم لمدة سنة انضـاف إليهـا عـدة أشهر.

انتخاب غيوفري أوف ميلان بابا وموته إثر ذلك

وفي هذا العام انتخب الكرادلة بابا المعلم غيوفري أوف ميلان، وجاء ذلك بعد نقـاشات كثيرة، وبعـد التعرض لمختلف أنواع الأذى، ولخطر الانقسـام بين الكـرادلة، وهو انقسـام زرعت بـذوره من قبل الشيطان، وأيضـاً بعـدمـا تناقص عـدد الكرادلة إلى عـدد صغير بوسـاطة البـلايا والأسى، وكان الذي انتخبوه متميزاً بأخلاقه، ومتعلماً، ولكنه كان مسناً

وقد مال نحو الضعف، وما كاد يشغل الكرسي البابوي لمدة ستة عشر يوماً، عندما قطع بموت قبل أوانه، ودفع دين الطبيعة، وقد قيل بأن السم قد دسّ له، وهكذا ترك الكرسي البابوي، لابل بالفعل الكنيسة ٨٠
كلها في حالة بائسة، وفي تلك الآونة نفسها، مات واحد من الكرادلة، واسمه رتشارد هانيبال.

مؤتمر أساقفة انكلترا

التقى في هذه الآونة رئيس أساقفة يورك، وأساقفة لنكولن، ونورويك، وكارآيل، واجتمعوا مع عدد كبير آخر من رجال الدين واللاهوتيين المتنفذين والمستقيمين، للتداول حول كثير من مصائب الكنيسة المضاعفة، وليلتمسوا المواساة الربانية، ثم انهم أمروا بعمل صلوات خاصة وبصوم، وأن يراعى ذلك بشكل عام في جميع أرجاء انكلترا، حتى يقتنع الرب بتحرير الكنيسة الرومانية وبردها إلى العافية، حيث كانت الآن محرومة من راع لها وبابا ليحكمها، وبهذا أخذوا مثلهم من أعمال الرسل، حيث ورد فيها، أنه عندما جرى سجن بطرس، صلّت الكنيسة من أجله من دون انقطاع.

وتوصلوا أيضاً إلى قرار جماعي، بإرسال رسل إلى الامبراطور، لحثه بالتماسات باكية، بما أنه يهتم بخلاص روحه، أن يتخلى بقلب مخلص عن جميع مشاعر الغضب والحقد، وأن يهجر جميع أنواع الطغيان، وأن لايعيق تقدم مصالح الكنيسة ومنافعها، لابل أن يكون بالحري رحيماً بالسماح لها بالتنفس بحرية، مع أنه أثير لدراسة رفع شأنها وتقدمها، لأنهم قالوا بأن الذين أثاروا غضبه، هم الآن أموات، ومن الواضح أنه تصرف طغياني وعمل معارض للمنطق، أن يجعل الأبرياء يدفعون من أجل أخطاء الأموات.

وعندما —على كل حال— شرعوا بالتباحث حول انتخاب الرسل،

الذين كان عليهم السفر من خلال فرنسا والبلدان المجاورة، وأن يسعوا إلى استنهاض أساقفة تلك البلاد، لقد انتقلوا إلى العمل بطريقة متشابهة، وبدأ كل واحد يحتج بمسوغات تافهة، ورفض أن يأخذ على عاتقه أعباء مثل هذا العمل الكبير والمقلق، ومثل هذه المتاعب الخطرة، حتى وإن كان ذلك لصالح المسيح وكنيسته، وأخيراً كما قال الشاعر:

بحضور اللص يبتهج

المسافر الذي لايحمل ذهباً.

وبما أنهم لم يجدوا أحداً جاهزاً من بينهم، ليقوم بأعباء الرحلة، اختاروا الدومينيكان والفرنسيسكان لهذا الغرض، لأنهم كانوا جوالين، وكانوا عارفين معرفة جيدة بجميع البلدان، وعندما —بناء عليه— حصل هؤلاء الرسل على مقابلة مع الامبراطور، وقدموا إليه رسالتهم، أجابهم كما يلي قائلاً:

«ومن الذي يعيق تقدم أحوال الكنيسة؟ لست أنا، إنه بالحري التعالي المجنون، والنهم غير المستقر للكنيسة الرومانية.. ومن الذي يمكنه أن يندهش إذا ما كنتُ أنا المعيق لتقدم الكنيسة الانكليزية والرومانية؟ لأنها تسعى باذلة كل جهودها لخلعي من عرشي الامبراطوري، ولقد حرمتني كنسياً، وأساءت إلى سمعتي بدرجة عالية جداً، وبالضرورة صبت الأموال لتلحق الضرر بي»، وهكذا أخفقت خطة الأساقفة الانكليز في إحداث أي تأثير في هذه القضية، وبرهنت أحداث هذا العام أنها كانت غير مواتية تماماً للبلاط الروماني، وذلك جزاء —كما هو واضح— على ذنوبه، وأيضاً غير نافعة للأرض المقدسة، بسبب تصرفات الداوية، ومؤسفة وغير سعيدة للنبلاء الانكليز، لأنه بالاضافة إلى الذين هلكوا في البحر، مات في هذه السنة بعض الأساقفة المتميزين، وهما الحبران الرومانيان، مع بعض الكرادلة، وآخرين، قد تقدم ذكرهم أعلاه.

ذكر مختصر للذين ماتوا في هذا العام

وكان بين النبلاء الانكليز الذين ماتوا في هذا العام: وليم دي فوربس Forbes, ايرل أوف ألبمارل، الذي وهو مسافر لحجه، وقع مريضاً في البحر المتوسط، وبات غير قادر على الأكل، وقد تحمل آلاماً طويلة لمدة ثمانية أيام، وفي يوم الجمعة التالية قبل عيد الفصح، وهو اليوم الذي أسلم فيه المسيح الروح وهو على الصليب إلى أبيه، هو وفق الطريقة نفسها أسلم روحه إلى المسيح، ومات أيضاً النبيل والقوي وولتر دي لاسي Lacy, الذي قد ذكرناه من قبل، وحدثت وفاته أيضاً في حوالي عيد الفصح، تاركاً ميراثه المبدد إلى بناته، وستيفن سيغريف، الذي ورد ذكره في مكانه من قبل، وهو الذي كان مستشاراً خاصاً للملك، وكانت مستشاريته صالحة وعادلة لانكلترا، وغيلبرت باسيت، قد غادر هذه الحياة، وقد أتينا على ذكر سوء حظه أعلاه، ومات كذلك جون بيسيت المسؤول الرئيس عن إدارة عدالة الغابات، وغادر هناك إلى الرب بطرس مولاك Maulac,وهوغ ويك Wake, وروبرت مارميون Marmion, وبطرس دي بروس Brus, وغويسكارد Gusicard, وليديت Laidet, ويوستاس دي ستوتفيل Stutevill, (الذي خلفه في ميراثه زوجة هوغ ويك)، ويودو Eudo, وهامو Hamo, الذي كنيته سن Sin, وبلدوين دي بثيون Bethune, وجون فتز-جون (قهرمان الايرل رتشارد) وغ. G, أخو الايرل المذكور، وجون دي بيوليو Beaulieu, وجيرالد دي فورنيفال Furnival, وعدد كبير آخر من النبلاء الانكليز من كونتية الايرل رتشارد، الذين تسابقوا بشكل مجيد فراراً من هذه الحياة إلى السماء، وذلك تحت حماية المسيح، عندما كانوا يقاتلون في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وماتت في هذا العام، كما ذكرنا من قبل إليانور ابنة غ. G, كونت بريتاني،وكانت

وفاتها في بريستول Bristol, وكذلك الأسقفـان المشهوران: روجر أسقف لندن، وهوغ أسقف شيستر، فهما أيضاً ماتا في هذه السنة، وعدد كبير آخر من اللاهوتيين المشهورين، ومن الرجال العلمانيين، الذين أسماؤهم كثيرة جداً حتى نأتي على ذكرهم.

موت الإمبراطورة إيزابيلا

وفي هذا العام ماتت أيضاً الامبراطورة ايزابيلا، التي كانت مجد انكلترا وأملها، وجاء موتها أثناء الولادة، وقد علمنا بموتها المحزن كثيراً، بشكل كامل في الرسالة الكئيبة التالية لزوجها الامبراطور فردريك.

رسالة الإمبراطور حول موتها:

من فردريك الامبراطور، إلخ، إلى ملك انكلترا، تحيات:

لقد اعتدنا مؤخراً في رسائلنا، وبوساطة رسلنا على أن نقدم إليكم أخباراً طيبة، غير أننا بسبب سوء الحظ، ولأننا أصبحنا محسودين بنجاحاتنا، قد أرغمنا بالحزن على أن نبوح إليكم مكرهين خبراً مكروهاً، وذلك بقدر ما نحن نعاني من خسارة لاتعوض، هي وفاة قرينتنا الأوغسطة المحبوبة، وهكذا، أرغمنا بوساطة الموت القاسي على تحمل الانفصام المحزن للروابط الاجتماعية، ووقعت هذه الواقعة ذات الذكرى المرعبة لدينا، في اليوم الأول من الشهر المنصرم، وهو شهر كانون الأول، وذلك عندما استجابت قرينتنا المذكورة الامبراطورة وأختك، إلى الطبيعة، أثناء نداء الرب، الذي يأخذ بعيداً حياة الأمراء، والذي لديه لايوجد استثناء، أو قبول لأشخاص، لأنه في سبيل شفاء الذين، لو أن المنية رضيت وراعتنا، وأوقفت الطبيعة دفع دين الموت الذي لابد منه، لما سمح لنا حبنا الثمين وعنايتنا وقرينتنا، بعدم بذل كل نفقة بالمال، والجهد، أو الممتلكات، لكن عندما أخذها ملك الملوك،

ومولى الموالي، الذي يحكم بقدره من فوق قبة السماء، والذي لايمكن لأحد أن يقاوم إرادته، وأبعدها عن الوحدة مع جسدنا، وعن روابط الأخوة التي كنت بها متحداً معها، لقد قرر بآرائه في عليين، بوساطة ترتيب، أو بالحري بتدبيره، أن تعيش لنا ولكم في ذكرى ولديها، لأنه بمنحة الرب القدير، يعيش أولاد ملكيون، منهما نهض ملك وملكة معاً تحت عيني والدهما، ليحلا محل أمهما ويقفا في مكانها، فبعطائها الخصب تلقينا عهوداً نبيلة، هي التي تمتن روابطنا العامة بالمصاهرة، وتربط برباط وشيج كرسي قيصر وكرسي جلالتكم، بامتياز خاص، بدماء البنوة والحفادة، وعلى هذا إن حبي لكم قائم على ذريتها، التي بها بدأت، وارتفعت إلى الوجوب، وسمات حلف سوف يدوم طويلاً، ومع أنه بناء عليه إن خسارة قرينتنا الأوغسطة، التي هي أختك، لايمكن أن تذكر من قبلي، أو تسمع من قبلك، من دون حزن كبير في القلب، وأسى لموتها لايمكن فصله عن عميق مشاعرنا، ومع ذلك إن ذكرى الأبوين المحبوبين مزدهرة في الولدين، وقد تثبتت علائقنا بشكل لايمكن فصمه بهذين الحفيدين، الذين حملت بهما أختك الأوغسطة وولدتهما طفلين لنا. صدر في هذا اليوم الثلاثين من كانون الثاني، إلخ».

حول أوضاع الأنواء خلال هذا العام كله

وكان هذا العام على العموم وافراً بمحاصيل القمح، لكن من عيد البشارة للعذراء المباركة حتى عيد الرسولين سمعان وجود، استمر جفاف وحرارة لاتحتمل جففت البحيرات العميقة والسباخ الواسعة، وجففت كثيراً من الأنهار، كما جففت المطارد، وأوقفت أعمال الطواحين، وبما أن المراعي قد جفت، فقد ماتت الأعشاب، وبالتالي أخذت الأسراب والقطعان بالهلاك بسبب الجوع والعطش، وفي الشتاء أيضاً، ومنذ ميلاد ربنا، كان هناك جليد وثلج، ترافق مع برد حاد لايحتمل، وقد غطى وجه الأرض، وجعله قاسياً إلى درجة عالية، وجمّد

في الوقت نفسه الأنهار، حتى ماتت أعداد كبيرة من الطيور، ومثل هذا لم يتذكر الناس أنه وقع من قبل.

بطرس أوف سافوي يعمل استعداداته للعودة إلى الوطن

عام ١٢٤٢، الذي كان العام السادس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد بلاطه كما جرت العادة، في عيد الميلاد في لندن، في حال من السلام، وأطال الاحتفالات في الدير لقرابة خمسة عشر يوماً، وخلال ذلك، وبالتحديد في يوم ختان ربنا انتشرت تقارير حول وصول الايرل رتشارد، وعمت جميع أرجاء انكلترا، وفي هذا الموعد أيضاً، قام بطرس أوف سافوي، إيرل أوف رتشموند، الذي كان رجلاً مستقيماً ومحترماً، بتسليم الملك ووضع بين يديه القلاع المتميزة والفخمة للمملكة، التي كان قد تسلم المسؤولية عنهن، لأنه كان يخشى من أن ترقيته المفاجئة، سوف تغضب كثيراً نبلاء انكلترا، وأنه أخذ على عاتقه عبئاً فوق طاقته، في قيامه بوضعه هذه القلاع تحت عهدته، بينما الانكليز مهملين ومعطلين، ولكي لايحدث اضطراب في انكلترا، من خلاله لدى وصول الايرل رتشارد، الذي ربما سوف يستمع إلى شكاوى ثقيلة حول هذه القضية، وبعدما قدر الأمور بعقله بحكمة، ورأى الخطر الكبير والقريب عليه شخصياً، تخلى عنهن جميعاً، وعمل ترتيباته —بعد الحصول على إذن الملك— للعودة إلى الوطن، وبهذا العمل الحكيم الذي يدّل على حكمة وحسن سلوك، به سكّن مشاعر كثيرين، ولكن بالوسائل نفسها التي حصل بها على إذن بالمغادرة، استدعي على سرعة من قبل الملك، قبل أن يركب السفينة، وبناء على طلبه الملح، حصل —مع أنه لم يرغب— على قلعة دوفر، وتسلم المسؤولية عنها.

رعونة كونت دي لى مارشي

في هذا العام، قام كونت دي لى مارشي، وهو أكثر الكونتات البواتيين

قـوة، بتقـديم الطاعـة وتأدية الولاء إلى أمفـولسي [أمفولسـوس]، أخـو الملك الفرنسي، الذي بموجب تقدمـة أخيه غير العادلة، اغتصب ملكية كـونتية بواتو، وبـدأ ينشط ضد سلطة النبـلاء، وبدأ يتمـدد بمقاصـده، وبعـد مضي بعض الوقت؛ جرت دعـوة كـونت دي لى مارشي المذكـور للقـدوم مسـالماً لتناول طعـام الإفطار مع أمفـولسي كـونـت بواتو المذكور،وذلك أثناء الاحتفالات بعيد الميلاد، لكن في إحدى الليالي، بعد مضي أربعـة أيام تقريبـاً على عيـد الميلاد، وكـان على وشك الاستجـابة للدعـوة، وفقـاً للوعـد، لكنـه في الصبـاح تشـاور مع زوجتـه إيزابيـلا، فتوصل إلى قرار بتغيير نيته، وبمعارضة أمفولسي المذكور بالقوة، ولذلك ذهب إلى ذلك النبيل، وقـال له برعـونـة: «لقـد نويت، عندمـا غششت وفرض علي، أن أقدم الولاء لك، لكن الآن غيرت نيتي، حيث أنني لن أرتبط قط بكم بأية روابط طاعـة ولن أعترف بأي ولاء لكم، ذلك أنك رجل عـدواني، لأنـك استوليت من دون خجل على كـونتيـة صهـري الايرل رتشارد، عندمـا كان يقاتل بإخلاص من أجل الأرض المقـدسة، وبرحمة يقـوم بتحـرير الأسرى من أبناء بـلادنا، وهكذا رددنا بالشر على الخير»، وهكذا قام وهو محقون بالغضب، وبالتهـديد بصوت مرتفع، مع زوجتـه، وهو محاط بكتلة من الجنـود، في حين أعـدّ رمـاة القسي الزيارة من البـواتيين قسيهم للرمي، فـاندفـع إلى وسطهم، فألقى النار في البيت الذي كـان ساكناً فيـه، ثم امتطى فجأة فـرساً، وأخـذ بالفرار، الإجـراء الذي أدهش أمفـولسي وأغضبـه، مع جميع الـذين رأوا ذلك، وجعلهم يشتعلون بالرغبة للانتقام.

تقديم شكوى إلى الملك الفرنسي حول هذا الإجراء

ثم تقـدم أمفولسي المذكور بشكوى ثقيلـة، ووضعها أمام الملـك ضد هذا العدوان، حـول كل من هذا الفرار غير المتـوقع، وإحراق البيت من قبل الكونت المذكـور، الذي كـان مثل فأر في كيس طحين، أو أفعى في

صـدر انسـان، وهكذا ردّ بشكل فـاسـد على استضـافتـه له، وأثار هذه الشكوى بسبب مسوغ جيـد، الملك وكذلك نبـلاء فرنسا، لأخـذ انتقام عادل.

كونت دي لى مارشي يطلب المساعدة من ملك إنكلترا

وبات كـونت دي لى مارشي خـائفاً كثيراً من غضب الملك الفـرنسي، فحصن قِلاعه وشحنها بالسـلاح وبالرجال المسلحين، وكذلك بكميات وافرة من المؤن، وأمـر بتحويل سكك المحـاريث إلى رماح، والمناجل إلى سهام، وقدر الشرور التي يمكن أن تقع، ولشعوره أنه لايستطيع طويلاً مقاومـة مثل ذلك الأمير الكبير، ألح بالرجـاء إلى ملك انكلترا، للقدوم إلى بواتو، مع مبلغ كبير من المال، ذلك أنه يستطيع بمسـاعدة البـواتيين والغسكونيين في قـوة كبيرة، من استرداد جميـع الأراضي التي استـولى عليها الملك الفرنسي من دون حق، ووعده بالمشـورة الفعالة، ومساعدته الشخصيـة، مع مسـاعـدة الأعيان الآخـرين، وخـاصـة ملك أراغـون، وكونت طولوز، مع آخرين عددهم كبير حتى نذكرهم هنا، ووقتها قدّر الملك الانكليـزي هـذه الأمـور كلهـا وتفحصهـا بعقلـه، ووثق بالكلام المخـادع لكونت دي لى مـارشي والبـواتيين الآخـرين، الذين ينبغي أن لايثق بهم.

عقد بارلمان كبير في لندن

وبنـاء عليـــه، كتب الملك هنري، إلى جميع نبـــلائـه الانكليــز، وإلى رؤسـاء الأسـاقفـة، والأسـاقفـة، ورعـاة الديرة، ورؤســاء الرهبـان، والإيرلات، والبـارونات، وأعطاهم أوامر دقيقـة للاجتماع في لندن يوم الثلاثـاء التالي، قبل عيـد طهارة العذراء المبـاركة، للتـداول بعناية كبرى حــول بعــض القضـــايا الصــعبة المتعلقـة بـالمملكة، والتي لاتحتمل التأخير.

كيف ذهب الملك إلى استقبال الإيرل رتشارد لدى عودته من الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة نفسها، كان الملك متوقعاً وصول أخيه الايرل رتشارد من القارة، وكذلك النبلاء الذين كانوا قادمين من مسافات نائية لحضور المؤتمر، فأطال إقامته في لندن حتى الأول من شباط، أي يوم عيد القديسة هيلاري، لكنه سمع آنذاك بأن الايرل قد نزل في دوفر، في اليوم التالي لعيد الغطاس، وبناء عليه قام ومعه ملكته، يحيط به كتلة كبيرة من النبلاء، فذهب مسروراً لاستقباله، ولدى رؤيته له، اندفع إلى مابين ذراعيه، واستقبله بكل علامة من علامات البهجة، فقد أثار الدم الأخوي العواطف من على الجهتين، وقد أثقله الملك، وجميع النبلاء تقريباً بمختلف الهدايا، وفي اليوم الثاني لعيد القديسة اغنس، وصل الايرل إلى لندن، وعند وصوله تزينت المدينة بالأعلام وبالمعلقات، وكأن ذلك كان من أجل العيد، وأقام الأخوان وليمة مع عدد من الضيوف الخاصين الذين دعاهم الملك.

البواتيون يحثون الملك مع أخيه لعبور البحر لمساعدتهم

وعلم البواتيون بوصول الايرل رتشارد إلى انكلترا، فتابعوا من دون توقف العمل على حث الملك، وكذلك الايرل المذكور، ليقدما من دون تأخير، وليحصلا على امتيازاتها، وبشكل خاص كونتيه بواتو، وحول ذلك تصوّر الملك خطة ثابتة بالعبور إلى فرنسا، حتى أنه لم يمكن اقناعه بالتخلي عن نيته بوساطة منطق أصدقائه، ولابوساطة أصحاب الرغبات الطيبة.

تفرق البارلمان الإنكليزي في حالة غضب

ومع اقتراب حلول موعد عيد طهارة العذارء المباركة، اجتمعت النبالة الانكليزية في لندن وكانت هذه النبالة مكونة من الأساقفة،

والإيرلات، والبارونات، وجاء الاجتماع بناء على طلب الملك وأمره، ولأنهم كانوا يعرفون بأن الملك، قد قام غالباً وفق هذه الطريقة، بإزعاجهم وفق هذه الحجة الزائفة، وباستدعائهم بكل سرعة، فعملوا يميناً مع بعضهم، وتوصلوا إلى قرار ثابت، تحت طائلة عقوبة التكفير، أن لايوافق أحد منهم في هذا المؤتمر، ولابشكل من الأشكال، على أية جباية للأموال سوف يحاولها الملك، وكان الآن قد بات معروفاً بشكل جيد لدى الجميع بأن كونت دي لى مارشي، قد دعا بإلحاح الملك وحثه على العبور إلى القارة، آخذاً معه من المال كل مايمكنه استخراجه وجمعه، دون الاهتمام بأي شيء حول قوة الجيش الانكليزي، وبذلك أعطوا قيمة صغيرة للجندية، أو للقوة الاقطاعية للمملكة، عادين الملك بمثابة بائع متجول، الذي همّه هو الحصول على المال، يضاف إلى هذا أن الانكليز كانوا مثارين —بشكل محق— ضد الكونت وضد جميع أتباعه من البواتيين، ولم ينظروا نظرة رضا نحو الملك الذي وافق على مثل هذه الأشياء، من دون مشاورة نبلائه، وبناء عليه، عندما جعلهم الملك يعرفون قراره في قلبه الذي لاعودة عنه، أي العبور إلى القارة، استجابة لدعوة كونت دي لى مارشي، ومع مناقشات متنوعة طالب بمساعدة مالية منهم، أجابه النبلاء بحدة كبيرة في نفوسهم، بأنه عمل خطته من دون استشارتهم، وأنه كان خالياً من الحياء بتقدمه بمثل هذا الطلب، ذلك أنه ضيق مراراً على رعاياه المخلصين وأفقرهم، بطلبه المال منهم وكأن المسألة صارت عادة، وكأنهم كانوا أحط أنواع العبيد، وأنه غالباً ما استخرج منهم مبالغ ضخمة من المال، جرى انفاقها من دون فائدة، ولذلك قاموا الآن بمعارضته في وجهه، ورفضوا أن يتم تجريدهم من أموالهم بعد الآن، من دون غاية ولا هدف.

وبناء على ذلك لجأ الملك إلى طرائق الرومان ومكرهم، وأمرهم بالانتظار حتى اليوم التالي لسماع رغباته حول مايتعلق بهذه القضية

وبقضايا أخرى، وجمعهم في اليوم التالي واحداً، واحداً، وفي أوقات مختلفة، في غرفته الخاصة، مثل دعوة الكاهن المرضى للاعتراف، ولأنه لم يستطع اضعاف تصميمهم عندما كانوا مجتمعين، سعى بدهاء إلى اضعافهم واحداً تلو الآخر، بحججه، ورجاهم القيام بتقديم مساعدة مالية، قائلاً لكل منهم: «إنظر إلى الذي قدمه راعي الدير فلان، ودفعه لمساعدتي، وإلى الذي قدمه فلان الآخر إليّ» حاملاً بيده في الوقت نفسه قائمة، أظهر عليها اتفاقية مكتوبة، بأن راعي الدير فلان، أو رئيس الرهبان قد دفع كذا وكذا، أو أنه على الأقل قد وعد بدفع كذا، وكل هذا مع أن ما من واحد منهم قد أعطى موافقته على شيء من هذا القبيل، أو أنه عرف أي شيء عن ذلك.

فبمثل هذه التصرفات الزائفة، والكلمات المعسولة، تمكن الملك بدهاء من ايقاع عدد كبير منهم بشباكه، ووقف آخرون —على كل حال— صامدين، ورفضوا بتاتاً التزحزح عن الجواب الذي اتفقوا عليه بشكل عام، وأقسموا على الالتزام به، وإلى هؤلاء قال الملك وهو مغضب:

«هل سأكون أنا على هذا رجلاً حانثاً بيميني؟ لقد أقسمت يميناً لاعودة عنه، بأنني سوف أعبر البحر، وأطالب باسترداد حقوقي من الملك الفرنسي بذراع ممدودة، وهذا مالا يمكنني القيام به من دون مبلغ كبير من المال، عليكم تزويدي به بكرم منكم»، وعلى الرغم من لجوئه إلى وسائل الاقناع هذه وسواها، لم يتمكن من ايقاع بعضهم في شباكه، مع أنه —كما ذكرنا من قبل— دعا كل واحد منهم إليه بشكل خاص.

ثم إنه بعث —على كل حال— في المرة الثانية، إلى أصدقائه المقربين وخاطبهم كما يلي:

«أي مثل مهلك ضربتموه إلى الآخرين، أنتم الذين ايرلات شجعان، وبارونات، وفرسان، عليكم أن لاتكونوا خائفين، مع أن آخرين، أي

أساقفة الكنائس، قد أظهروا خوفاً، عليكم أن تكونوا، متشوقين أكثر من الآخرين، لاسترداد حقوق المملكة، ولتجريب حظ الحرب ضد أولئك الذين ألحقوا الضرر بنا، وأن نقوم بتقوية قدرتنا ودعم سلطتنا، هو واجب واضح، بموجب الحقوق التي نمتلكها، وأيضاً بموجب الدعوة والوعود التي تلقيناها من النبلاء، وكذلك بموجب مثل ما حدث في ويلز، حيث تمكنا مؤخراً من الانتصار بسعادة، وميول النجاحات الماضية، سوف تقود الطريق إلى نجاحات أخرى، فكيف لديكم قدرة على تركي، وأنا مولاكم، فقيراً، ومهجوراً، في الوقت الذي أنا فيه على استعداد للقيام بهذه المهمة الصعبة، في سبيل الصالح العام، وبما أنني مترابط بكل دقة بيمين لأداء وعدي والوفاء به، بالعبور إلى القارة؟»، وعندما سمع النبلاء بهذا أجابوه قائلين:

«إن الكلمات لايمكنها التعبير عن حيرتنا حول المتاهات التي أغرقت فيها مبالغ لاتحصى من المال، التي جبتها جلالتك من الوصايات المتنوعة على النبلاء، ومن مختلف المواريث، واستخراجات متوالية، من كل من الكنائس الشاغرة، ومن أراضي النبلاء، ومن الأعطيات التي قدمت سلفاً، إنها مبالغ كافية لإحداث الدهشة لدى كل من يسمعهم، ومع ذلك فإن هذه المبالغ المالية، لم تجلب قط أية زيادة، أو منفعة للمملكة، يضاف إلى هذا لقد دعوت مؤخراً إلى المملكة بعض النواب البابويين، أو أشخاص مارسوا واجبات النواب البابويين، وهؤلاء عندما كانوا يجمعون عناقيد العنب التي بقيت، جمعوا لأنفسهم المال الذي كان قد بقي، ومجدداً إن جميع نبلاء انكلترا مندهشين كثيراً تجاه توليكم القيام بمثل هذا العمل الصعب والمرعب، من دون أخذ رأيهم وموافقتهم، حيث أنك وضعت ثقتك في أولئك الذين هم بلا ثقة، وأنك على الرغم من الارادة الطيبة لرعاياك الطبيعيين، معرض نفسك إلى نصيب مشكوك فيه، ثم إنك أيضاً قمت تعريضاً لنفسك للخطر،

السمعـة فخـرقت من دون كـرامــة الهدنة المعمـولة بين الملك الفـرنسي وبينك شخصياً، وهي التي أقسمت عليها بحق روحك، بمراعاتها دونما احباط، وذلك حتى التاريخ الذي كـان قد أعده من قبل الايرل رتشارد المشهور، الذي هو أخوك، والايرل ر. R بيغود».

وأضاف الذين هم أكبر سناً، والذين أكثر نفوذاً بينهم قائلين:

«وأنت أيضاً، لخطرك، قد وضعت كثيراً من الثقة، ووعدت بالحضور شخصيـاً، هؤلاء النبـلاء القـاريين المشـاهير بسـوء السمعـة، الذين هم قائمين بالتمـرد، ورفع أعقابهم، ضـد مولاهم، الملك الفـرنسي، والذين بناء على هـذا بالذات، ينبغي عـــدم الـوثوق بهم، لشهـــرتهم باقتراف خيـانات مضاعفـة، وأنت تعـرف أيضاً بأن ملـك نافار، الذي وعـدوك بمساعدته، قد اقترف مؤخراً جريمة في الأرض المقدسة، ندبة جرحها لم تزل بعـد، ولتكن مثل أجـدادك المشهـورين، وليكن واعظاً لك، وناهيـاً لك ومعيـداً عن الذي نويتــه، أنهم يمتلكون في تلك الأرجـاء قـلاعـاً لاترام، وكثيراً مـن الأراضي، وجيشـــاً كبيراً، ومبـــالغ لاتحصـى من الأموال، ومع ذلك كانوا غير قـادرين على صد القوات الفرنسيـة الثابتة والتي لايمكن قهـرها، ولا حتـى القـدرة على الاحتفـاظ بممتلكاتهم»، ولدى سماع الملك لهذا الكلام انفجر غـاضباً بعنف، ودعـا القديسين أن يكونوا شهـــوداً، وأقســم أنه لن يتراجع عـن مقصــــده، بالخوف، أو أنه سيتـوقف عند أية خطابات غامضـة، ولن يتـوقف عما عزم عليـه، وأنه سـوف يقلع في ثمانية عيـد الفصح، وسوف يجرب من دون خـوف حظ الحرب في القارة ضـد الفرنسيين، وبهذا ارفض المؤتمر بغضـب مغروس بثبات، ولكن بشكل سري في عقول الطائفتين.

ردّ بارونات إنكلترا

وبعـد مضي بعض الوقت، ولكي لايضيع مغـزى جواب البـارونات

ويصبح منسياً، تمّ وضع هذه الأشياء كلها كتابة، وتدوينها كما يلي:

«بما أن السيد رئيس أساقفة يورك، وجميع أساقفة انكلترا، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وكذلك الايرلات، وتقريباً جميع بارونات انكلترا، إما قد حضروا شخصياً، أو جرى تمثيلهم بنوابهم، واجتمعوا بناء على دعوة من السيد الملك، في ويستمنستر، في يوم الثلاثاء التالي قبل طهارة العذارء المباركة، في عام ألف ومائتين واثنين وأربعين لتجسيد ربنا، أي في العام السادس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وذلك بغية سماع رغبة الملك وارادته، والأعمال التي من أجلها دعاهم.

وبما أن مولانا الملك قد أرسل إليهم السيد رئيس أساقفة يورك، والنبيل الايرل رتشارد، وولتر أوف يورك، وعمدة بيفرلي Beverley, بمثابة رسل خاصين، ليتولوا تبيان رغبته وإرادته وعمله، وقد سأل جميع نبلاء المملكة أن يقدموا مشورتهم ومساعدتهم ليحصل على ملكية ميراثه وحقوقه في القارة، التي هي عائدة إلى مملكته، مملكة انكلترا، وأخيراً بعدما عقد الأساقفة المذكورون، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، مناقشات طويلة، نصحوا الملك في المقام الأول —من خلال النبلاء المتقدم ذكرهم— أن ينتظر حتى انتهاء الهدنة المعقودة بينه وبين ملك فرنسا، لكن إذا صدف وقام الملك الفرنسي بأية مغامرة، متعارضة مع بنود الهدنة، وقتها على ملك انكلترا المذكور ارسال رسل خاصين له لإقناعه بالإعذار وبالانذار، بمراعاة الهدنة، وأن يعيد التفكير في مغامرته، إذا ما كان هو شخصياً أو أحد من نبلائه قد فعل ذلك، وإذا ما رفض الملك الفرنسي أن يفعل ذلك، وقتها سيقومون رغبة منهم بإلحاق أنفسهم برأيه، في سبيل تقديم العون إليه، بقدر ما يملكوه من قوة».

ووافقوا جميعاً على هذا الجواب، وبطريقة مشابهة لهذه، ومنذ أن صار حاكمهم لقد قاموا مراراً، بناء على مطالبه الضاغطة، فأعطوه

مساعـدات، منها الجزء الثالث عشر من ممتلكاتهم المتحركـة،-وبعد ذلك الجزء الخامس عشر، ثم الجزء السـادس عشر، وبعد ذلك الجزء أربعين، وأعطوه ضرائب الأرض، وضرائب التخـوم، وعـدة بدائل عن الخدمـة العسكرية، كـان آخـرها بدل عظيم من أجل زواج أختـه الامبراطورة، ومـا كـادت تمر أربعـة أعـوام بعـد ذلـك التـاريخ، عندمـا طلب مجدداً المساعـدة منهم، وحصل أخيراً بعد التماسات مكثفـة وشديدة على الجزء الثـالث عشر، وقـد منحـوه ذلك على شرط،أنـه لاهذه الجبـاية، ولا أية جبـاية متقدمـة ينبغي أن تعـدّ في المستقبل عـادة منتظمة، وقـد أعطاهم صكاً حـول هذا الموضـوع، يضاف إلى هذا، أنه قـام بوعـدهم بأن جميع الامتيـــازات الواردة في الصك، ينبغـي من ذلك الحين، كما كـــان فيما مضى، أن تراعى تماماً في جميع أرجاء مملكتـه، وحول هذا أعطاهم صكاً صغيراً، احتوى الأشياء نفسها، وهذا الصك هو الآن بين أيديهم.

وبالاضافة إلى هذا، قام الملك عن طواعية من ذاته، وبوساطة نصيحة باروناته، فـوعـدهم بأن المال كلـه الذي سـوف يجبى من الجزء الثـالث عشر المذكور، يتـوجب أن يوضع في حـرز أمين في قلاعـه الملكية، تحت رعـاية أربعة من نبـلاء انكلترا، هم: ايرل وارني مع آخرين، وبمـوجب اختيـاره، ووفقـاً لمشــورته، الشيء نفسـه ينبغي انفـاقـه عندمـــا تتـوفـر الضرورة، في سبيل منفعة الملـك المذكور والمملكة، وبالنسبـة للبارونات هم لم يعرفوا، ولم يسمعوا، بأن أياً مـن المال المتقدم الذكر،قد صرف بناء على اختيار أو مشورة أي واحد من النبلاء الأربعة المتقدمي الذكر، وهم يعتقدون بشكل ثابت —وفي الحقيقة، إنه لمن المعروف تماماً— بأن الملك مازال لديه ذلك المبلغ كله دون أن يلمس، ومن ذلك المبلغ، يمكنه الآن أن يزود نفسه بمعـونة كبيرة، وإلى جانب هذا، هم يعرفـون بشكل جيد أنه منذ ذلك الحين جمع كثيراً مـن أمـوال المواريث، بشكل خـــاص من رئـاسة أسقفيـة كانتربـري، ومن عدد من أغنى الأسقفيـات في انكلترا،

ومن أراضي الايرلات، والبـارونات، والفرسـان الموتى، الذيـن كـانوا متملكين من قبله، فمـن هذه المواريث لوحـدهـا، لو أنهم اهتمـوا بها واعتنوا، لتـوجب جمع مبلغ كبير مـن المال، عـلاوة على ذلـك، إنه من وقت إعطائهم الجزء الثالث عشر المذكـور، كان رجـال العدالة يرتحلون بشكل متـواصل ويدورون خـلال جميع أجـزاء انكلترا، وهم يجمعـون ضرائب الغـابات، وجميع الضرائـب الأخـرى، وعلى ذلك فـإن جميع الكونتيات، والمئويات من أجـزاء الكونتيات، والمدن، والمناطق، وتقـريباً جميع القـرى، حتى قرى انكلترا قـد غرمت بشكل ثقيل، وبناء عليـه إنه من هذه الجولات من المتـوجب أن يكون صـار لدى الملك مبلغـاً كبيراً من المال، إذا مـا دفع، وجمع بشكل صحيح، وبناء عليـه يمكنهم القـول بشكل صحيح بأن جميع انكلترا قـد سيمت ظلماً شديداً، وتعـرضت إلى فقر شديد بوساطة هذه الغرامات، وبوساطة المعونات التي أعطوه إياها من قبل، إلى حـد أنهم الآن قـد بقي لـديهم القليل من الممتلكات أو لا شيء البته.

ولأن الملك بعـد منح هذا الجزء الثـالث عشر، لم يلتـزم قط بصكه المتعلق بالامتيـازت، لابل ظلمهـم أكثر منـذ ذلك الحين، مع أنه قـد منحهم بصك آخر، ووعـدهم بأن استخراجـات من هذا النوع يتوجب أن لاتصبح عـادة، لهذا كله أخبروا الملك الآن بشكل واضح ومـؤكـد أنهم لن يمنحـوه الآن أية مساعـدة في المناسبة الحاليـة، ولكن بحكم أنه مـولاهـم، عليـه أن يتصرف نحـوهم وفق مـايلي، بأن يصبر حتى تنتهي الهدنة المتقـدمة الذكـر، وإثر ذلك سوف يقـدمون له النصيحـة بقدر مـا يستطيعون.

وعندمـا أخبر النبـلاء المذكـورون، الذين عملوا بمثـابة رسل، هذا الجواب إلى الملك، عادوا إلى البـارونات، وقالوا بأنهم جـزئياً قد قـدموا الرد المناسب إلى الملك، لكنه أراد أن يعـرف ماالذي سـوف يفعلونه إذا

ما خرق ملك فرنسا الهدنة، قبل انتهـاء الموعد، ولقد وعدوا أيضاً باسم الملك بأنه إذا مااقترف أي أذى ضـد أي من نبلاء انكلترا، فـالذي عليه هو أن يعمل تكفيراً عن ذلك، وفقـاً لتحكيم بطرس أوف سـافـوي مع آخرين من مجلسه.

وعلى هذه الأسئلة أجاب النبلاء، إنه إذا ما خرق ملك فرنسا الهدنة، فإنهم سـوف يشغلون أنفسهم، لايجاد خطط، حسبما قـالوا من قبل إنهم سيفعلون، عند انتهـــاء الهدنة، شريطة —على كل حــــال— أن يكونوا متأكدين من أن ملـك فرنسا قـد فعل كذلك، وبالنسبـة للتهمة أنهم من جهة الملك قـد وعدوا بالتكفير عن الأذى الذي نزل بهم، وقـال الرسل بأنهم في الوقت الحالي لن يتجـادلـوا مع الملك، وكـان في أيام منح الجزء الثالث عشر، و. W دي ريلي قد وعدهم باسم الملك، وعـداً مؤكداً وصادقاً، كما يفعلون هم الآن، لكن كيف حفظ الملك وعوده، هو نفسه أحسن من يعـرف، وأخيراً كـان الملك —على كل حال— قـد تبـاحث معهم جميعاً واحداً، واحداً، بشكل أن كل واحد من الجماعة كان جاهلاً بالذي أعطاه إياه الآخر.

عودة إيرل أوف سالسبري من الأرض المقدسة

وفي الوقت الذي كان الزمان يدور فيه هكذا، ويسير على سياقه، عاد ايرل أوف ســالسبري، من الأرض المقـدسـة، ونـزل في انكلترا، ســالماً وصحيحاً، وكان ذلك في بداية شهر آذار.

اعتقال رئيس أساقفة كولون وسجنه

اعتقل في هذه الآونة رعـايا الامبراطور رئيس أساقفة كـولون، الذي كان عائداً من روما إلى ألمانيا متنكراً، وكان رئيس الأساقفة هذا قد تآمر مع أساقفـة آخرين، من الذين قدموا إلى المجمع العـام، من أجل اسقاط الامبراطور، وكـــان قـد سمـع بمصير الذين ســافـروا خـــلال المناطق

الامبراطورية، ولذلك غيّـر طريقـه، وعـاد عبر طريق جـانبي، ذلك أن الكمائن قـد نصبت في جميع الاتجاهات، ولذلك وقـع بالأسر، ووضع بالسجن، والشخـص الذي اعتقله، كـان —على كل حـال— ألمانيـاً، ومعـروفاً بشكل جيـد من قبل رئيس الأسـاقفـة، ولذلك سمح لأسيره بالنجـاة، بعدمـا وعـده وعـداً صادقـاً، وأقسم أنه لن يتـآمـر ثانية ضـد الامبراطور، ولن يؤذيـه، وحفظ رئيس الأسـاقفـة —على كل حـال— وعده بشكل سيء، كما سنحكي في التاريخ المقبل.

الملك الفرنسي يجهز أسطولاً ضدّ الإنكليز

وما لبثـت أخبار هذه الأحـداث قد انتشرت في مختلف أجـزاء العالم، وفي فرنسـا، وعلم الملك الفَرنسي باقتراب وصـول ملك انكلترا بطريقة عدوانيـة ضده، وعلم بتآمـر الذين استدعـوه لمساعدتهم، فمـركز ثمانين غليوناً مسلحين بشكل جيد، أمام روشيل Rochelle لحراسة تلك الأجـزاء من بواتو ضـد كل من يسعى للدخـول إليهم، كما تدبر أيضـاً حشد قوة عسكرية، بقدر مـا يستطيع الفرنسيون أن يحشدوا، وأن تجتمع مع بعضها بموجب مـذكرة ملكية، جرى توزيعهـا في مختلف المقاطعات الخاضعـة له، وأمـر عصـابـات الجماعـات المدنيـة بأن تستنفـر أنفسهـا، استعداداً لدعوته الملكية.

كيف جمع ملك إنكلترا كميات كبيرة من المال

وتسلم الملك الانكليـزي في الوقت نفسـه، بشكل متـواصل، أكثـر الرسائل إلحاحاً من كونت دي لى مـارشي، ومن النبلاء الآخرين لبواتو، فصار بذلك ثابتـاً على قراره من دون تعديل، معتقـداً أنه سوف يتسلم، بدون أدنى شـك، جميع الذي وعـده الكونت بـه، وحسبما كـانوا قـد نصحـوه أن يفعل، جمع مبلغاً كبيراً من المال، أمـا بالنسبة للذين رفضـوا تقـديم المسـاعدة الماليـة إليـه، فقـد عـدّهـم إما أعـداء مكشـوفين له، أو

ضايقهم بكل وسيلة من الوسائل بوساطة أذنابه، وقام أثناء الصوم الكبير بصرف انتباهه من دون كلل إلى هذا العمل، لأننا كما ذكرنا من قبل، أرسل كونت دي لى مارشي رسالة إليه، بأن يجمع فقط المال، ويجلبه معه، لأنه هو سوف يزوده بقوة عسكرية كافية، وبهذا القول الذي قاله الكونت من دون حياء، قد تجاوز حدود الصدق، حسبما ستبرهن نتائج الأحداث فيما يلي.

ملك إنكلترا يحث كثيرين على الالتحاق بالحملة معه

وحاول الملك بدهاء، أن يستميل قلوب الذين كانوا محتارين برغباتهم، بوساطة هدايا ثمينة أضعفت ثبات كثير من النبلاء، ولقد تمكن بوساطة الوعود المغرية، أن يربح إلى جانبه أخيه الايرل رتشارد، حتى يرافقه في حملته، تحت أمل مكافأة وافرة، وتوصل إلى غرضه هذا بسبب أن الملك الفرنسي، قام بعمل طائش، قبل وقت قصير، وحسبما ذكرنا من قبل، فمنح كونتية بواتو إلى أمفولسي، أخيه، وبذلك حرم بشكل غير عادل الايرل رتشارد من ممتلكاته، وقد وعد البواتيون بشكل أكيد بعودتهم جميعاً إليه، لدى وصوله إلى هناك.

إرسال سفراء بشكل مسبق للإعلام بوصول الملك

وجرى الآن ارسال بطرس أوف سافوي، ايرل ريشموند، وبطرس أوغويبلانشي، أسقف أوف هيرفورد، اللذان كانا المستشارين الخاصين للملك، إلى القارة لطمأنة أصدقاء الملك في بواتو بأخبار، بأن وصول الملك بات وشيكاً، وبهذا ارتفعت آمالهم، وشرعوا على الفور بالحرب، وطالبوا بإعادة الحقوق لصالح ملك انكلترا، وألحقوا أضراراً كبيرة بالملك الفرنسي، وبعد ايصال الرسائل، نجا بطرس أوف سافوي بصعوبة من كمين نصب له، وعاد إلى الملك في لندن، قبل وقت قصير من عيد الفصح، وهو صحيح الجسم، لكن ليس من دون خسائر، أما

بطرس، أسقف هيرفورد، فقـد أخذ طريقاً جانبيـاً غير الطريق المعتاد إلى الوطن، حتى يصل سالماً، وبذلك نجا من كمائن الذين استهدفوا حياته، وذهب وهو على طريقه إلى بروفانس، وطلب من كونت بروفانس، والد الملكتين: الفرنسية والانكليزية، ابنتـه الثالثة سينشيا Cincia للزواج من الايرل رتشـارد، وتجاه هذا استثيرت الجماعة الانكليـزية كثيراً، وبدأ أفـرادهـا يخشـون من أن تصبح جميع شـؤون المملكة تحت إرادة الملكة واختهـا سينشيا المذكـورة، عندمـا ستصبح زوجة الايرل رتشـارد، التي سوف تكون بالفعل ملكة ثانية.

ملك إنكلترا يعمل استعداداته من أجل عبوره

في هذه الآونـة كـان الملـك قـد أكمل جـولة على بعض كنـائس القديسين، وعهد بنفسـه إلى صلوات رجال الدين، وودع المواطنين، وفي اليـوم التـالي لعيـد الفصح أخـذ الطريق إلى بوررتماوث، ليركب السفينة من هناك،وقـد أسرع إلى اتخاذ هذا الإجـراء بـوسـاطة الرسـائل الملحـة والمتواصلة التي أرسلت إليه من القـارة، وأثارت محتويات هذه الرسائل غضب وخجل بعض الانكليـز، الذين يتعلقـون بالكرامـة، ذلك أنها هدفت إلى القول بأنهم قد بدأوا الحرب بشكل مـوائم، وأن عليه القدوم مسرعـاً، ودونما خـوف، إلى مسـاعـدتهم، مع مبلغ كبير من المال، وأن لايهتم بجلب حشـد كبير من الجنود، وكـأن ملك انكلترا قـد كـان مصرفياً، أو صرافـاً، أو بائعاً بالمفرق، وليـس ملكاً، وقائداً نبيـلاً، وآمراً للفرسـان، حيث أنهم وضعوا ثقتهم بـالمال أكثر من وضعهـا في القتال، وليس من المعتـاد إثارة ملك ودعـوته إلى الحرب بهذه الطريقـة، وأظهـر البواتيـون بهذه الطريقة خيانتهم المعتـادة، لأنهم آثروا إنهاك أموال الملك وفضلوا ذلك على وجوب تشجيعـه بالتكريم المناسب، وأن يكون محاطاً بنبـلائه، وفقـاً لكلمات الفيلسـوف سينكا Seneca, عندما تحدث عن زيف النساء بقوله:

عندما يتبدد غضب المرأة المكشوف

وقتها تكون ممتازة جداً

وفي هذا برهنوا —على كل حال— عن أنفسهم أنهم خونة غير بارعين، لأنه عندما:

شبكة الطائر تواجه العين

الطائر الحذر يحتاط لأن يطير

تعيين رئيس أساقفة يورك نائباً للملك

عندما بات الأسطو ل الحربي جاهزاً ومستعداً، عهد بشؤون المملكة إلى رئيس أساقفة يورك، وأعاد رتشارد راعي دير ايفهام، والأسقف المنتخب لشيستر، الختم الملكي، الذي حمله لمدة ثلاثة أعوام بطريقة مرضية، وعاد الملك إلى صداقة أسقف شيستر، الذي لم يستحق مطلقاً فقدانها، وكذلك أصغى ر. R مستشاره، ورالف فتز— نيقولا، وغودفري كروكومب Crowcombe وبعض الآخرين المعزولين إلى إطراءات المداهنة.

إقلاع الملك ووصوله إلى روان

ثم إنه في الخامس عشر من أيار، أقلعت العساكر، ومعها ثلاثين صندوقاً مليئة بالمال المتشوق إليه كثيراً، وركب الملك في سفينة تصاحبه زوجتة الملكة ويصاحبه أيضاً أخوه الايرل رتشارد، مع سبعة ايرلات آخرين، وحوالي ثلاثمائة فارس، وأبحر مع ريح طيبة نحو بوردو، لكن قبل أن يبتعد كثيراً عن الساحل، توقفت الريح، فعاد إلى بورتماوث، وفي اليوم التالي، بما أن الريح هبّت بشكل موائم، أقلع ثانية، ووصل إلى القديس متى دي فينيستير Finisterre في بريتاني، ومكث هناك يوم الأحد لسماع الصلوات المقدسة، وأقلع في يوم الاثنين ثانية، وأبحر في

المياه العميقة فوصل في يوم الثلاثاء إلى رويان Royan, عند مصب غيروند Gironde, وذلك حيث يصب في البحر مقابل القديسة ماري دي سولاك Soulac في غساكوني، ونزل هناك، ومكث لعدة أيام، ومن هناك مضى إلى مدينة بونز Pons الفخمة، حيث تقابل مع رينالد دي بونز، صاحب ذلك المكان، وبعض نبلاء آخرين من سانتاغيو.

الترتيبات الأولية للزواج فيما بين ملك سكوتلندا وابنة ملك إنكلترا

أثناء وقوع الحوادث التي تقدم ذكرها أعلاه، تمّ عقد القران بين الاسكندر الابن الأكبر لملك اسكوتلندا، ومرغريت ابنة ملك انكلترا، من خلال وساطة أسقف درم، وذلك في سبيل أن تكون المملكة أثناء غياب الملك أكثر سلاماً بشكل مؤكد، وكان هذا قد جرت الموافقة عليه من قبل، بناء على رغبة كل من ملكي انكلترا واسكوتلندا، وقد عهد بالجزء الانكليزي المحازي لسكوتلندا إلى عناية ملك الاسكوتلنديين، أثناء بقاء الملك الانكليزي في القارة.

كيف نهب وليم مارش جزيرة لوندي

وفي أثناء وقوع هذه الأحداث، عسكر وليم مارش، ابن غيوفري مارش، فوق جزيرة قريبة من بريستول اسمها لوندي Lundy, وكان مكاناً حصيناً لايرام بسبب وضعه الطبيعي، وقد عاش هناك مثل قرصان مع عدد من الرجال المنفيين والأشرار، وقد تورط في أعمال النهب والسلب، وقام بمرافقة أصحابه بالعيث فساداً بالشاطىء المجاور، وسلبوا من السكان ممتلكاتهم، لاسيما الخمرة والامدادات الأخرى، وبوساطة غارات مفاجئة حملوا كميات كبيرة من الأسلاب، من المنطقة الواقعة قرب الجزيرة، وألحقوا أضراراً بالغة بطرق مختلفة،

بمملكة انكلترا في كل من البر والبحر، وسببوا خسائر كبيرة إلى كل من التجّار الوطنيين والأجانب.

وذهب بعض نبلاء انكلترا وايرلندا، الذين لم يكن بإمكانهم البقاء بشكل مشرف في بلادهم، أثناء غياب الملك، وتعرضه لمخاطر الحرب في القارة، ذهبوا في جولة إلى قرب الجزيرة المتقدمة الذكر، فاكتشفوا بأن وليم المذكور وأتباعه لايمكن اعتقالهم من دون خيانة، فأخبروا الملك، بأنهم ينبغي أن لا يعملوا بالقوة، بل بشكل حكيم، في سبيل اعتقال هذا اللص، وعند ذلك أمر الملك رعاياه —مع وعود بجوائز كبيرة— بأن يسعوا بكل يقظة لاعتقاله، وتحرير البلاد منه، لأن وليم هذا كان مكروهاً جداً من قبل الملك، حيث قيل بأنه قام، بتحريض من أبيه غيوفري، بالتآمر على حياته، ولذلك بعث بذلك المجرم، الذي قدم ليلاً، ليقوم بقطع عنقه، عندما كان في وودستوك، وبذلك استحق الإدانة بالخيانة، وبعد ذلك قتل واحداً من الكهنة، وكان رسولاً من نبيل ايرلندي، كان في حضرة الملك في لندن، وبجرأة أنكر وليم المذكور جميع هذه التهم، ومع ذلك لم يحصل على أي تصديق، كما أنه لم يلق أذناً صاغية، ولذلك قام —على كل حال— بحمل نفسه إلى أماكن بعيدة عن الطريق، وصار هارباً وخارجاً على القانون.

وفاة بعض النبلاء

وفي حوالي هذا الوقت نفسه من العام، مات النبلاء: غيلبرت دي غونت، وبلدوين واك Wac, وفيليب دي كايم Kime, وكان ذلك في المناطق الشمالية، وروجر بيرترام Bertram, وبعض النبلاء الآخرين، الذين غادروا هذه الحياة، ومات أيضاً ايرل أوف ووريك Warwick, وفي هذا العام أيضاً، مات هنري، الذي كان واحداً من أبناء الامبراطور، والذي لذنوبه قد أودع لوقت طويل في السجن بناء على أوامر أبيه، وهناك أنهى حياته البائسة، ولقد قيل بأنه مات بيديه نفسه.

الأوضاع البائسة للكنيسة الرومانية

وكـان البلاط الـروماني في هذه الآونة في وضـع فوضـوي كبير، وفي حالة بائسـة ومتهاوية، حيث كان قد بقي هناك ستـة أو سبعة كرادلة في روما، وقد بقي الكرسي البابوي شاغراً، وكان بعض الكرادلة قد انتقلوا من هذا العالم، وبعضهم مـازال مريضـاً، وكان آخرون قـابعون متخفين مع أصدقـائهم وأقربائهم في مناطق نائية حيث كـانوا قد ولدوا، وبذلك كانوا متفرقين في أماكن مختلفة، وكانوا يعانون من اضطراب في عقولهم، وقـد انطفأ شعـاع العـاطفـة فيما بينهـم، وأصبحـوا كأنهم رمل من دون كلس، وعلى هذا فإن بيت الرب الذي احتاج إلى الوحدة ليضمن القوة، لم يعد قادراً على تلقي الدعم بشكل صحيح منهم.

استعدادات الملك الفرنسي للتصدي إلى ملك إنكلترا

وعلم الملك الفـرنسي في الوقت نفسـه، بأن ملك انكلترا قـد نزل إلى اليابسة لشـن الحرب عليه، معتمداً على مساعـدة البواتيين، وعلى وعود من الغسكونيين، ولمعـرفتـه بأن كونت دي لى مـارشي قـد شرع بالحرب ضده، استـدعى بوساطة إعـلان ملكي جميع القوة العسكرية الفـرنسية، وأمر بتزويد قطار العصابات بالسـلاح والإمدادات، من أجل أنه عندما تستـدعي المناسبـة لدعـوتهم، يمكن أن يجدهم جـاهـزين، وتوفـر لديه حـوالي ألف عـربة، فأمـر بأن تكـون جـاهزة لحمل الخيـام، والمجـانيق، والإمدادات، والسلاح، والأشياء الضرورية الأخرى، ثم إنه أعدّ قواته، التي كانت أفضل مـا يمكن لفرنسا أن تنتجـه، ووضعها في نظام حسن، وانطلق زاحفـاً نحو بواتو، ليصـد بالقوة هجمات ملك انكلترا وأعـدائه الآخرين، وكـان هناك حوالي أربعـة آلاف فارس مسلحين تمام التسليح وبشكل فخم، وذلك إلى جـانب أعـداد من الآخرين الـذين قدمـوا من جميع الاتجاهات، وتدفقـوا نحـو الجيش، مثل تدفق الأنهار، حين تصبّ في البحار، وقيل بأن عـدد الأتباع ورماة القسي الزيارة قـد بلغ نحواً من عشرين ألفاً.

اعتقال وليم مارش ومعاقبته في لندن

وفي هذه الآونة، حدث للفارس وليم مارش، الذي أتينا على ذكره، أنه بعدما أمضى بعض الوقت، في الجزيرة المتقدمة الذكر، متورطاً بأعمال السلب والنهب، أنه فوجىء من قبل بعض عملاء الملك، وجرى اعتقاله، وحمله إلى لندن، حيث سجن مضيقاً عليه في البرج، وفي يوم عيد القديس جيمس، وبناء على أمر من الملك، جرت محاكمة وليم المذكور مع ستة عشر من أصحابه كانوا قد اعتقلوا معه، وقد أدين وأدينوا، وقضي عليه بموجب أوامر الملك بموت مهين، وبناء عليه جرى سحله أولاً من ويستمنستر إلى برج لندن، ومن هناك حمل إلى آلة العقوبة التي اسمها المشنقة، وبعدما جرى تعليقه عليها لفظ أنفاس حياته الشقية، وبعدما صار جسده متيبساً قاسياً بعد الموت، أنزل هذا الجسد وجرى تجويفه، وجرى على الفور احراق أحشائه في البقعة نفسها، ثم جرى تقسيم جسده الشقي إلى أربعة أقسام، أرسلت إلى المدن الأربعة الرئيسية في المملكة، حتى يمكن أن يدخل رؤيتهم الرعب إلى الذين سيشاهدونهم، أما بالنسبة لأصحابه الستة عشر، فقد سحلوا في أرجاء لندن، بعد ربطهم إلى ذيول الخيول، وبعد ذلك جرى تعليقهم على المشانق.

وبعدما أدين وليم المذكور، وعندما كان على وشك سماع قرار الإدانة، دعا العدالة الربانية لتكون شاهدة عليه، وأعلن بجرأة بأنه كان بريئاً تماماً وليس مجرماً ولامقترفاً لجريمة الخيانة التي ألصقت به، وكذلك بالنسبة لمقتل الكاهن كليمنت المتقدم ذكره، وأكد أيضاً بأنه حمل نفسه إلى الجزيرة المتقدمة الذكر، ليس إلاّ لسبب واحد هو أن يتجنب غضب الملك، وهو الغضب الذي حاول دوماً، وفوق كل شيء، أن يهدئه بالخضوع إلى أي نوع من المحاكمة، أو إلى أي نوع آخر من التذلل، لكنه بعدما التجأ إلى الجزيرة المذكورة، وعاش هناك لاجئاً، كان

مـرغماً على إطالة أمد حيـاته التعيسـة بالاستيلاء على الامـدادات، حيثما استطاع أن يجدهم، ثم إنه لفظ روحـه بالاعتراف أمام الرب، إلى ج. ل دي سينت جـايلز، الذي كـان واحـداً من رهبـان طائفـة الدومينيكان، واعترف بذنوبه وهـو شـديد الندم، دون أن يسـوّغ نفسـه، أو التفـوه بكلمات شريرة، بل بالحري اتهم نفسـه، ثم قـام عندها هذا الدومينيكاني المستقيم والمتلقي للاعتراف، فأعطاه شيئاً من الترضيـة اللطيفة، وصرفـه بسـلام، وأقنعه بأنه ذاهب إلى الموت الـذي قضي به عليه بمثـابة تكفير، وهكذا عـانى كما ذكـرنا من قبـل، وهو أمـر فظيع أن تحكيـه، ليس من موت واحد، بل من عدة ميتات مخيفة.

نصر الداوية في الأرض المقدسة

وحصل الداوية في هذا العام في الأرض المقـدسة —بوسـاطة معجزة أكثر منه بوسـاطة القوة الإنسـانية— على نصر مجيـد، وغير متوقع، على آلاف كثيرة من المسلمين، كانوا قد قدموا من مناطق قريبة من مصر.

البواتيون والغسكونيون يحصنون أنفسهم ضدّ الفرنسيين

في ذروة الصيف، عندما جففت حرارة الشمس كل شيء، وكل شيء ذبل وتلاشى، قـام البـواتيـون، وهـم في حـالة خـوف عظيم من هجـوم الفرنسيين، الذين كـانوا الآن يزحفون مسرعين ضدهم، قـاموا بتحصين قلاعهـم، ومدنهم، وأغلقوا ممرات الجبـال، التي كان من الممكـن للعدو أن يمـر من خـلالها إلى بلادهم لإلحاق الأذى بهم، واستخـدمـوا كتـلاً ضخمـة من الحجارة مع جـذوع الأشجار السـاقطة، وحولوا الطرقـات والممـرات إلى أماكن يتعـذر عبورهـا، وسدّوها بكل نوع من المعيقـات، وقطعوا أشجـار التفاح والعنب التي اعتقـدوا أنها سوف تفيـد الأعداء، وطمّـوا الآبار، وأفسـدوا الينابيـع والأنهار التي تسيل منهم، لابل إنهم سممـوا بعضها، واجتثـوا النباتات التي كـانت مفتوحـة أمام أعـدائهم،

ودمروا تدميراً كـاملاً كل نوع من الإمـدادات، وكذلك خـربوا الأماكن التي كـان من الممكن أن يحصلـوا فيهـا على الراحــة، آملين بذلك أن يكونوا قادرين على الحيلولة دون وصول الفرنسيين إلى أراضيهم، لأنهم سوف يعانون من الحاجة إلى كل شيء ضروري، وبالفعل لم يكونوا كلياً مغشوشين في توقعاتهم، لأنه في أيـام الشعرى [مابين أوائل تموز وأوائل أيلول] هوجم الفـرنسيـون بموت خطير، إلى حـد أن الملك فقـد ثمانين نبيلاً، كـانوا يحملون أعلامه، حيث أنهم هلكوا في أوضـاع بائسة هناك، أو أنهم نقلوا وهم يتـلاشـون، على محفـات إلى بيـوتهم، وعلى العمـوم، سقط الجنود الرجالة، وكـانت أعدادهم كبيرة، ضحـايا للأمراض، حتى أن الأحيـاء بـاتوا في خطر عظيم على أنفسهم، وبصعـوبة بالغــة كـان بإمكانهم دفن الموتى، كما سوف نرى في سياق الرواية.

كيف جرى اعتقال التجّـار وتجريدهم من مقتنياتهم في كلّ من فرنسا وإنكلترا

وفي تلك الآونة نفسهـا، ومع اقتراب حلـول فصل الخريف المجهـد، أقـدم الملك الفـرنسي على إجـراء غير معتـاد، فأمـر باعتقـال أشخـاص التجّـار الانكليـز، الـذين كـانوا يتنقلون مع بضـائعهم في جميع أرجـاء مملكته، وبذلك أنزل أذى عظيماً على الكرامة القديمة لغاليا، التي وفرت مـن قبـل ملجـأ أمينـاً وحمايـة إلى جميـع المنفيين والمحكـومين، ولاسيما المسـالمين منهـم، فمن هذه الظروف كسبت بالأصل اسم فـرنسـا بلغتهـا خاصة، ووصلت بالحال أخبار هذا الإجراء غير الشريف والوحشي إلى مسـامع ملك انكلترا، وإلى مشاعـره، وبناء عليـه أعطى هو أيضاً أوامـر قضت بأن أي تجار فـرنسيين وجـدوا في أي جـزء مـن أجـزاء انكلترا، يتـوجب تعريضهـم إلى انتقام عـادل مماثل، وأرسل في الوقت نفسـه إلى الأوصيـاء على مملكتـه، أي إلى رئيس أسـاقفـة يورك وزمـلائـه، يطلب إمدادات من المال ونجدات من العساكر، وبناء عليه وفي طاعة منهم إلى

أوامــر الملك، أرسلوا من دون تـأخير خمسين من رمــاة القسي الزيارة، ومبلغاً كبيراً من المال، مع كميات جيـدة من الإمدادات، وبعض الجنود مع أسلحة تحت توجيـه الموانىء الخمسة ولدى رؤية هذا من قبل بعض النبـلاء الانكليز، رأوا أنه عمـلاً غير مشرّف الانخراط في الراحـة، بينما كـان ملكهم منشغـلاً بـالحرب فـوق القـارة، ولذلك أعـدوا أنفسهم للالتحاق بالحملة وبرجالها، وقد تجهـزوا بشكل جيد بالخيول والسلاح، وقـام بعض النبلاء الايرلنديـون، وبالتحديد رتشـارد دي بيرغ، وبعض الآخرين، بناء عل اقناعهم من قبل المستقيم موريس، مسؤول العدالة في ايرلندا، فجهـزوا أنفسهم بالسـلاح، وشحنوا كميـات من الإمـدادات، وأسرعوا متشوقين إلى مساعدة الملك، وتكوّن من هؤلاء أسطولاً كبيراً، وشكلوا قوة بحرية مرعبة، وعندمـا علم بهذا البحارة والقرصان، الذين أقـاموا حـراسـة يقظة على الشـاطىء الفرنسي المقـابل، أعـدوا، بناء على أوامر الملك الفـرنسي، قوة بحـرية، وسلحوا أنفسهم. وأقلعـوا في البحر على ظهــور سفنهم، وكــانت غــلايينهم مشحــونة بأعــداد كبيرة من المجـذفين، وكـانوا يريدون مهـاجمة القوة البحـرية المقبلة، في البحـر، أو إخافـة رجالها حتى يتراجعوا إلى شـواطئهم، وعندما اقترب الأسطولان من بعضهما، هبت فجأة عـاصفة قـوية، ولذلك تفرقـوا، بعضهم باتجاه، وبعضهـم الآخر بـاتجاه آخر، ونشد قـادة السفن سلامتهم فقط، وكـانوا محمولين تحت رحمة الرياح، وعـرفوا أخيراً بصعوبة أصحـابهم، أو ميزوا سفن أسطولهم على حده، والفـرنسيون الذين كانوا أقـرب إلى ساحلهم، أكثـر من الانكليـز أو الايرلنديين إلى سـواحلهم، أخـذوا طريقهم بكل سرعـة إلى الجزء الأقـرب من السـاحل، ولأن الريح لم تكن قـوية جـداً ضــدهم، وصلـوا إلى مكان سليم وملجأ، لابـل إن بعضهم وصلوا إلى مـوانئهم الخاصـة بهم، بينما شعبنا الذي خاف خـوفـاً عظيماً من غضب الرياح ومـن غضب الفــرنسيين، فقــد شتتــوا أنفسهم وهـم هاربون، وملاحقـون بالخوف، والعار، والحزن في القلب، ودفعـوا إلى الشاطىء،

إلى أجزاء بعيـدة، وغير معروفـة من الساحل، وبسبب هذه الانتكـاسة، فإن راعي دير ايفهام، ورتشارد دي بيرغ، وكثيراً آخرين، الذين كانوا في مـوقـع القيادة للحملة، لم يتعـافـوا بعـد هذا، ولم يعـودوا إلى الوضع الصحي السليم، لابل إنهم تلاشـوا رويـداً رويداً، حتى باتوا أخيراً غير قـادرين على استرادد قـوتهم، بعـد كثير من العناء والانهاك في أرض أجنبيـة، وفي ظل مناخ غريب، ولذلك لفظوا أنفـاس حيواتهم المرهقـة، وبهذه الانتكاسـة نـال الملك خسـارة كبيرة لايمكن تعـويضهـا، تمثلت بفقدان رجـال حكماء وأقوياء، وأسلحـة وعتاد، وبشكل خـاص القمح الذي كـان قـد جمعـه من رئاسـة أسقفيـة كـانتربري، ومن الأسقفيـات الأخرى، والمال الذي كان قد جمعه من جميع الجهات.

موت مرغريت بيسيت

ماتت في هذا العام، في هذه المناطق، واحدة اسمها مرغريت بيسيت، وكانت امـرأة من أسرة مشهورة، ومتميزة بأخـلاقها، حيث أنها رفضت تماماً معـانقة الرجال، وأسسـت على حسابها، الذي لم يكن صغيراً، ديراً جيـداً للراهبـات، وذلـك على الرغم من رغبـات جميع أصـدقـائهـا الدنيويين، وأصبحـت المنفقة عليه والراعيـة، ونالت هذه السيـدة شهرة عظيمة، لأنها في إحـدى الليالي، في وودستوك، عندمـا كانت تمضي الليل في غناء الترانيم الدينية، وفي السهر وفي الصلاة، أنقذت الملك، من أيدي القاتل، بصراخها، وقد جرى من قبل شرح ظروف هذه الحادثة.

الجريمة المرعبة لوولتر بيسيت

وفي تلك الآونة، عقدت مبارزات سيئة الحظ في المقـاطعات الشمالية، وفي إحـداها التي عقـدت على حـدود انكلترا وسكوتلندا، أبدع واحـد اسمـه وولتر بيسيت، وكان شجـاعاً وفـارسـاً بارعاً، وقـد هزم من قبل خصمـه، وهو واحـد اسمـه باتريـك فتـز— تومـاس أوف غـالوي

ولذلك أبدع جـريمة لم يسمع بمثلهـا، من أجل أن ينتقم Calway, انتقاماً غير عادل من المتغلب عليـه، فبينما كان باتريك المذكور، مقيماً مع بعض النبلاء الآخـرين الذين كانوا برفقته في ادمـونتون Edmonton, اتخذ مكاناً لنفسـه لإمضـاء الليل في نوع من أنواع الهري، وعندمـا كـان غارقاً في نوم عميق، قام وولتر بيسيت المذكور، فأغلق الباب من الخارج ببعض جـذوع الأشجـار، وإثر ذلك دس النـار من عـدة أمـاكن في الجدران، بوسـاطة بعض العصي المحترقـة، وأحـرق بذلك تقـريبـاً جميع الذين كـانوا في الداخل، وهكذا مـات لذلك باتريك المذكـور مع بعض رفاقـه الشجعان والمشهورين، ولكن عندمـا وصل خبر هذا العدوان إلى مسـامع الايرل باتريك والنبلاء الآخـرين لسكوتلندا، استعدوا للانتقـام لهذه الجريمة الكبيرة، وهاجموا وولتر المذكـور، وهم راغبين في تمزيقه إلى قطع، وقـد هرب —على كل حـال— إلى ملك اسكوتلنـدا، وطلب العدالة والرحمة منه، ذلك أنه أنكر الشر الذي اقترفه، وعرض أن يبرهن على براءته أمـام الملك وأمام بلاطه كله، بعـرض جسده ضـد أي واحد مهما كان قـديراً في السلاح وقوياً، ورفض خصومـه —على كل حال— هذا، حيث أعلنوا أن الجريمة الكبرى لاتحتـاج إلى برهان إيجابي، ولذلك طلبـوا من الملك، بحدة وبسرعـة كبيرة، وبمشـاعـر الكراهية، عـدوهم المعلن، الذي كان مـايزال ملطخاً بجريمة القتل الحالية، وملـوثاً بجريمة غير اعتيـادية تمامـاً، واستطاع الملك بشيء من الصعـوبة تهدئـة غضبهم، ولطف انتقـامهم، بأن وعـد بوجـوب حـرمـان وولتر المذكـور، وأيضـاً بوجـوب مغادرته سكوتلندا، وأن يرسل إلى منفى دائم، وبعـد شيء من الصعوبة وافقوا على اقتراح الملك، وكانوا واثقين بأنهم سوف يصطادونه عندما ينتقل من حماية الملك، وأن يعاقبوه بموت عادل، ووصلت أخبار هذه الخطة إلى علم الملك —الذي كـان رجلاً رحيماً وعـادلاً— فأخفى بعناية وولتر المذكـور لمدة ثلاثة أشهـر، في أمـاكن لايستطيع أعـداؤه الوصـول إليـه فيهـا، وعند انتهـاء هـذه المدة، هرب من البـلاط بشكل

سري، في إحـدى الليـالي المظلمة، وهـو محكوم بالنفي ورجل محروم من ميراثه، ولم يعد ثانية، وكان النبـلاء السكوتلنديون، الذين كان كثير جداً منهم يطلبون حياته، كانوا جاهلين تماماً بنجاته، أما بالنسبة لوولتر، فإنه مع أنه أقسم بالمضي إلى الأرض المقـدسـة، وأن لايعـود ثانيـة، وذلك في سبيل خـلاص روحــه وأرواح الذين هلكوا بالحريق، مع أنـه قـال بأن ذلك لم يكن من خلال وسائله، إنـه مع ذلك غيّـر اتجاهه، وبادر مسرعاً ليتقـدم بشكوى أمـام ملـك انكلترا، حـول الأذى الكبير الذي لحق به، وبناء عليـه أعلن بأن ملك سكوتلندا، قـد حرمـه بشكل غير عـادل من ميراثه، لأنه لم يستطع بـأي طريقـة أخـرى تهدئـة غضب الذين كـانوا ثائـرين ضده وغـاضبين، مع أنه، أي وولتر، كـان جـاهزاً لتبرئة نفسـه، والبرهنة على أنه كـان بريئاً من الجريمـة التي ألصقت به، بوسـاطة محنة مبارزة واحدة، وقـد أضاف علاوة على ذلك، أنه بما أن ملك سكوتلندا كان تابعـاً إقطاعياً لملك انكلترا، لايمكنه من دون مـوافقة ملك انكلترا، حرمان رجل نبيل من ميراثه، ونفيه من بلاده بشكل أبدي، خاصة إذا لم يكن قد أدين بجريمة، وبالإضافة إلى هذا، قال بأن ملك سكوتلندا، قام إيذاء منه لولائه ولتابعيتـه التي هو مرتبط بها إلى ملك انكلترا، فاستقبل في أراضيـه وقـدم الحماية، فهـو في هذا الـوقت بالذات يقـدم الحماية إلى غيوفـري مارش، الملتجىء من ايرلنـدا، والمتورط بالجرائم الخيـانية لابنه وليم، الذي حكـم عليـه مـؤخـراً بالموت، وشنـق في لندن، وبهذا ثار غضب ملك انكلترا إلى درجة عاليـة ضد ملك اسكوتلندا، لكنه احتفظ بغضبـه حتى حلـول وقت مناسب للانتقـام، كما ستظهــر ذلك الرواية المقبلة.

ملك انكلترا يلغي الهدنة ويعلن الحرب ضدّ ملك فرنسا

خلال هذه الآونة، أرسل ملك انكلترا رالف فتـزـــ نيقولا، ونيقولا دي مولي Molis كرسولين خـاصين إلى الملك الفرنسي، ليعلنا قراره

—إذا لم يوافق الملك الفرنسي على طلبه— بإلغاء الهدنة، والشروع بالحرب ضده، وعند وصول الرسولين، وجدا الملك الفرنسي يحاصر قلعة فرونتني Frontenaye, التي كانت عائدة إلى كونت دي لى مارشي، والتي قاتلها من دون كلل نهاراً وليلاً، وذلك بحملات عساكره، وبقصف الأسوار بالقذائف من أدوات رمي الحجارة، وبوساطة رمايات متواصلة بالنشاب، كما أنه أخاف المحاصرين وضيق عليهم، حتى أنهكوا تقريباً، ولم يعد بإمكانهم تحمل شدته وحملاته غير المنقطعة، وكان في هذه القلعة واحداً من أبناء كونت دي لى مارشي من زوجته الماضية، وكان فارساً شجاعاً، ومعه أكثر الأصدقاء قرباً من الكونت المذكور، الذين وضعهم هناك للدفاع عن هذه القلعة القوية والجيدة التحصين، وكان الملك متشوقاً كثيراً لاعتقالهم، حتى يلقي الرعب في قلوب الآخرين.

ولدى وصول رسولي ملك انكلترا، استقبلهما الملك الفرنسي بالتشريف والاحترام، وبأدب دعاهما لتناول طعام الافطار على مائدته، وبناء عليه، قدما في الصباح التالي نفسيهما ومثلا أمامه، وببراعة وبنظام، كشفا عن الرسالة التي فرضت عليهما بالكلمات التالية:

«لقد بعث ملك انكلترا، الذي هو قريبك، رسالة إليك، بأنه مندهش إلى أبعد الحدود لأنك من دون حياء خرقت الهدنة المبرمة بينك وبينه، والمثبتة بيمين من على الجانبين، والتي من المتوجب أن تظل سارية لمدة ثلاثة أعوام أخرى، وبهذا العمل ظهر غير ماهو متوقع منك، فقد هززت أركان استقرار الثقة الملكية»، وعلى هذا ردّ الملك بنظرة هادئة:

«الهدنة أنا لم أخرقها قط، كما أنني لاأرغب بأن أفعل ذلك، وفي الحقيقة إنني محافظ عليها دون أن تخرق، وإذا مارغب ملك انكلترا فإنني سوف أطيل مدتها، من دون أي تعويض، وهو أمر أنا لاأفعله، لأنه بعيد عني، كملك لفرنسا، أن أخرق بأي طريقة من الطرق هدنة،

أو أي معاهدة دخلت فيها بيني وبينه، لأني بذلك ألقي جانباً كل تبجيل للرب، واحترام للانسـان، ولاأظهـر احترامـاً لروابـط القـرابة، وأخبرا مولاكما بأنني سـوف ألتزم بالهدنة خلال هذه الأعوام الثـلاثة، ولسوف أمـددها، إذا ما رضي، لمدة ثلاثة أعـوام أخـرى، أي أن تقول لمدة ستـة أعوام من الآن من دون أي تعويـض يقدم إليّ، علاوة على ذلك أنا على استعداد للتخلي عن مقاطعـة بواتو، والجزء الأكبر من نورماندي، الذي هو ليس مصـدراً للشـك أو الخوف من قبلي، ففي هذين البلـدين، هو يقـول بأنه يمتلك حقـاً وتوقعـات، تماشيـاً مع اليمين الذي أداه والدي لويس، عندمـا كـان في انكلترا، وبمـوجب منحـة قـديمـة وإذن من أجـدادي، على شرط، أن يكون مسموحـاً لي، من دون أية معارضـة من جـانبـه، وذلك كمطالب عـادلـة، بأن أعـاقب أي ضرر ألحق بي أو بمملكتي، من قبل أعـدائي، والخونة لي، مهما كـانـت ثقتهم به من أجل مسـاعـدتهم، إلى جـانب هذا، عليّ أن أخبر ملك انكلترا، بـأنها مسألة مـدهشـة بالنسبـة لي، وأسأله: بأي روح اقتنـع، أو على أي أسـاس أنا لاأعرف، قد قال بأنني خـرقت الهدنة بيني وبينه، إذا ما هاجمت أنا قوماً يسكنون قربي أو بجـوار مملكتي، وهـم ليسوا عـائدين إليـه بحق الولاء، وذلك إذا مـا آذوني، أو تمردوا علي، دون أن أقول: الذين هم خـونة لي، مـاهو شأنه بالنسبـة لشؤون كـونت دي لى مـارشي؟ لابل بأي حق قـد تدخل في مسألة كونت طولوز؟ إنني لم أعمل هدنة معهما، كما أنه لم يرد ذكـرهما في الهدنة، وعـلاوة على ذلك إنـه بالحقيقـة ذاتها وهي حمايتـه، ودفـاعـه عن أعـدائي، قـد برهـن بالحري بأنه قـد خـرق شروط الهدنة المذكورة، وكذلك لما يتعلق بالعواطف التي ينبغي أن تتوفر بين الأقرباء، وإنني قــد اقترحت —على كل حــال— بـأن أتصرف بشكل أحسن، وبلطف أكبر مع الاحترام نحوه، ومازلت معطيـاً له العرض الذي تقدم ذكره أعلاه، حول شروط الهدنة».

وقـال الملك الفرنسي هذا كله بـأعظم اعتدال، ومن دون أي خـداع، لأنه كان خائفاً كثيراً من خيانة ملك أراغون، وملك قشتالة، اللذان كانا من أقرباء ملك انكلترا، كما أنه كان يخاف من كونت طولوز، الذي كان منذ زمن طويل يكره الفـرنسيين، الذين نكلوا به، وكان يخاف أيضـاً من كونت دي لى مارشي، الذي كان محمياً بقلاعه التي لاترام، والذي سمن بأمـوال ملك انكلترا، ويخاف أيضـاً من تقلبـات النورمـان الذين كـانوا جيراناً لانكلترا، ومـرتبطين بها بنوع من النسب، وخاف فـوق كل شيء من خرق يمين أبيـه لويس، الذي أداه قبل مغادرته انكلترا، والذي ربط به نفسه بأن يعيد إلى ملك انكلترا حقوقه، إذا ما عاش بعد والده، وكان أبوه، عندما كان على وشك الموت في أفينون قد أوجب عليه، بحكم أنه أبيه، أن يفي بذلك اليمين، وهو لذلك عدّ الأمر مسألة عادلة وتقوية أن يقوم بتحرير روح والده من مثل هذا الرباط.

تسليم رسالة الملك الفرنسي إلى ملك إنكلترا

ومـــا أن تســـلم الرســولان جـــوابها، حتى عـــادا على الفـــور، وباخـــلاص رويا لـملك انكـلترا كل الذي رأياه وسمعـــاه، لكنهُ —على كل حـــــال— لم يكن على استعـــداد، ولابشكل مـن الأشكـال، أن يصـــغي بإيجابية إلى الرغبـات المسالمة لملـك فرنسـا، أو أن يقبل عرضـه النبيل، الذي عـرض عليـه بكل ميـول مسـالمة، لأنه كـان قـد تشجع، وتغيرت مشاعره، بمهارة الخونة البـواتيين، الذين أغلقوا عينيه عن رؤية عظمة المنـافع المعروضـة عليه،وقد وعـدوه، أنه بمساعـدتهم، فإن جميع تلك المناطق، وأكثـر بالاضـافـة إليها، يمكـن الاستيلاء عليهـا بالقـوة، وانتـزاعهـا من يدي الملك الفـرنسي، وبناء عليـه قـام من خـلال بعض الاسبتـارية بتهور بتحـدي الملك الفرنسي، لأنه شن الحرب على كـونت دي لى مـارشي، الذي بحكم العـادة كان يدعـوه بأبي، مع أنه كـان زوج أمه فقط.

بداية الحرب بين الفرنسيين والإنكليز

وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا، ندم لأنه عرض مثل تلك الشروط المذلة للسلام على ملك انكلترا، وقال لنبلائه:

«أنا آسف أن ملـك انكلترا، الذي هو قـريبـي، والذي رغبت في أن يكون أعظم صـديق لي، هو مفتـون، ذلك أنه يصغـي أكثـر إلى الإثارة الخادعـة لكونت دي لى مارشي، ولكونـت طولوز، ولأعوانهما، فـالأول بينهما مشهور بخيـانته، والثاني مشهـور بهرطقته، فقـد أصغى إليهما أكثر من اصغـائه إلى رسـائلي الصديقـة، وأنا آسف لأنني أهملت، لكنني غير خائف منـه، ولست خائفاً مـن قواته، بل خـوفي على اليمين المؤكد لأبي الذي عمله في انكلترا»، ثم إنه تابع نحيبـه من دون مواسـاة حول هذا، وقام واحد من نبلائه بتهدئتـه قائلاً ببراعة: «مولاي الملك، إنك لاتحتاج أن تكون خـائفاً حـول هذا الأمـر، لأنه عند مغـادرة أبيك من انكلترا، عمل يميناً غير قـابل للخرق من على الجانبين، بأن لايقـوم أي منكما في حالة نشوب حـرب، بتسبيب أي أذى إلى مغامراتكما على الجانب الأول أو الجانب الثـاني، وهذا يمين قـد خـرقـه ملك انكلترا من دون حيـاء، عندمـا شنق ظلماً، وبوحشية قسطنطين فتـز— ألوف Aluph, الذي كـان مـواطناً لندياً، وذلـك لمجـرد أنه تحدث عن شرف والدك، وهكذا اقترف الملك الانكليـــزي اثم الحنـث باليمين، في حين انك بـريء من ذلك».

الاستيلاء على قلعة فرونتني

شعر الملك الفرنسي بوساطة هـذه المناقشات على ثقة أكبر، وبناء عليه ضغط بشـدة على قلعـة فـرونتني وضيق الحصـار عليهـا، وجمع بالوقت نفسه جيشاً أكبر عدداً، ووزع المدفوعات على جنوده، وبناء عليه هاجموا القلعـة بشدة أعظم من المعتـاد، ورمـوها من دون توقف بالقـذائف من

مجانيقهم ومن الآلات الأخرى، وفي الوقت ذاته أصيب عدد كبير من المحاصرين بالجراحة من نشابهم، حتى أن هذه القلعة التي كانت واحدة من أقوى القلاع قد جرى الاستيلاء عليها خلال خمسة عشر يوماً، وذلك على عكس توقعات البواتيين، ووقع ولد كونت دي لى مارشي مع حلفائه بالأسر، وجرى احضار ابن الكونت وأتباعه الأسرى، على الفور، حيث مثلوا في حضرة الملك، والتمس عدد من الفرنسيين، بإلحاح، وجوب شنقهم، في سبيل رمي الرعب في قلوب الآخرين، غير أن الملك صار بالفعل محامياً مخلصاً عن أسراه حيث قال:

«إنه لايستحق الموت، إذا كان قد أطاع أوامر والده حتى الموت، وكذلك المشاركين له، الذين أطاعوا سيدهم وخدموه باخلاص، ولنرسلهم على كل حال إلى باريس ليسجنوا هناك»، وهذا ماحدث.

استيلاء الملك الفرنسي على عدة قلاع أخرى

ونزل الآن خوف عظيم من الملك الفرنسي على سكان المناطق المجاورة، وصاروا مرعوبين من أنهم إذا ما ثاروا ضده، فإنهم سوف يتورطون بمصيبة مماثلة، لابل حتى أسوأ منها، لأن القلعة التي رست عليها آمال الجميع، قد جرى الاستيلاء الآن عليها بالقوة، وكان ذلك في وقت قصير، وذهب الذين كانوا مسؤولين عن القلاع العائدة إلى كونت دي لى مارشي من حوله، إلى الملك وسلموا مفاتيحهم إليه، في سبيل التوصل إلى شروط للمصالحة أفضل، وقام الملك في الوقت نفسه باستباحة المناطق المجاورة، واستولى على عدد كبير من القلاع والبلدات، وأخضعهم لسلطانه من دون أية صعوبة، وهدم القلاع الضعيفة وسواها بالأرض، والقلاع التي كانت قوية في وضعها وفي بنائها، زادها تحصيناً، ووضع بعضاً من أتباعه الفرنسيين المخلصين بها، ثم تابع من هناك زحفه نحو الأمام، فاستولى بطريقة مماثلة على قلعة فخمة، هي قلعة فونتني.

استسلام قلعة فوفانت إلى الملك الفرنسي

ووصل الملك الفرنسي الآن إلى قلعة فوفانت Vouvant الفخمة، والتي كانت عائدة إلى كونت دي لى مارشي، وعندما كان يقوم بعمل الاستعدادات لحصارها، عقد القسطلان الذي كان مسؤولاً عنها مؤتمراً مع أصحابه، وبعد ذلك أرسل بعضاً منهم مع رسالة سلام إلى الملك، لأنه كان خائفاً أنه إذا ما أسر بالقوة، لن تظهر العدالة الفرنسية نحوه أية رحمة، وقام بناء عليه بسرعة وبشكل سري، فتشاور مع الكونت مولاه حول هذه المسألة، وأرسل في الوقت نفسه رسالة إلى الملك الفرنسي، أنه إذا ما منحه سلاماً غير مبطن، نال هو —القسطلان— بموجبه والذين معه الحفاظ على حياتهم وعلى سلاحهم، هو سوف يسلم القلعة إليه، على شرط، أنه —على كل حال— إذا ما أعيد السلام بين ملك فرنسا، وكونت دي لى مارشي، في خلال ثلاثة أعوام يتوجب على الملك الفرنسي أن يعيد القلعة إلى مولاهم، كونت دي لى مارشي، من دون خلاف، وبناء عليه فضّل الملك الاستحواذ على القلعة سالمة من دون أي تأخير، على أن يتسلمها في حالة تخريب من رمايات قذائف المنجنيقات، أثناء حصار طويل، ولذلك منحه مطالبه، وهكذا خضعت القلعة على الفور، ومن دون أية مشاكل، إلى سلطانه.

كونت دي لى مارشي يندم على إقدامه على هذه العملية

ومع انتشار هذه الأخبار، استولى الخوف واليأس على كونت دي لى مارشي، وعلى جميع البواتيين، وكذلك على جميع سكان غاسكوني، وعلى الذين انشغل ملك انكلترا في الدفاع عنهم، وندم الكونت بمرارة لأنه اندفع بطيش، فثار ضد مولاه، الملك الفرنسي.

لكن عندما على الرأس وضع الخوذة البراقة

بات وقتها متأخراً جداً حتى ينسحب من القتال.

سادة الموانى الخمسة يتحولون إلى القرصنة

عندما سمع ملك انكلترا بنجاحات الملك الفرنسي، أرسل أوامر إلى سادة الموانىء الخمسة للقيام بإلحاق الأذى، بكل طريقة من الطرق، بالتجار وبالآخرين العائدين إلى المملكة الفرنسية الذين يتولون السفر بالبحر، وقام هؤلاء الرجال على الفور بتنفيذ أوامر الملك، وانخرطوا مثل قراصنة، بأعمال السلب والنهب، بوحشية تجاوزوا فيها الحدود التي وضعها الملك، وذلك شرهاً منهم للكسب، ذلك أنهم سلبوا حتى مقتنيات الانكليز، وجيرانهم، والذين كانوا معروفين من قبلهم، عندما كانوا عائدين من حجهم، دون إعطاء أي اهتمام إلى الصداقة أو القرابة، وقتلوا بعض الفرنسيين بشكل وحشي، وعندما سمع الملك الفرنسي بهذه الإجراءات، كتب إلى كونت بريتاني، وإلى سكان ساحل البحر من تلك المقاطعة، وإلى والي روشيل وتلك المناطق، وأيضاً إلى البحارة في ويسانت Wissant, وكالي، وإلى الذين كانوا يتولون حراسة سواحل نورماندي، يأمرهم بصد هجمات الانكليز، وبذلك أعطاهم منفذاً للتنفيس عن غضبهم في البحر، وأمرهم أن لايوفروا أشخاصهم أو بضائعهم، ونتيجة لهذا الأمر، وبسبب القوات التي أرسلت بدون توقف، ضد الانكليز، عانى سادة الموانىء الخمسة من خسائر كبيرة، وغالباً ما هزموا بشكل مشين، ونتيجة لذلك أرغموا على طلب المساعدة من رئيس أساقفة يورك.

وصول الملك الإنكليزي إلى مدينة تيلبيرغ

وكان الملك الانكليزي في هذه الآونة مع جيشه قرب قلعة توني Tonnaye, في السهول القريبة من نهر تشارنتي Charente, وفي ذلك المكان منح مرتبة الفروسية إلى أخويه، أولاد كونت دي لى

مـارشي، وعيّـن لهم مبلغـاً من المال، يتسلمـونه سنوياً من الخزينة، وقـد أعطى إلى الأول منهما خمسمائة مارك، وإلى الثاني ستمائة مارك، وذلك إلى أن يتمكن من تـزويدهما بمبلغ ثابت ومتســاوي بالقيمــة، في الأراضي والموارد، ثم إنه غادر ذلك المكان مع جيشه، وسار إلى حقول قائمة أمام مدينـة تيليبورغ Tailleburg, على نهر تشارنتي نفســه، وبقي هناك لمدة ستة أيام.

فرار الملك الإنكليزي

وكان الملك الفرنسي قد تلقى في الوقت نفسه خضوع عدة اقطاعيات مع قلاعهم، فأصبح أكثر وثوقاً في رفع رايتـه، ووجّـه زحفه نحو مدينة تيليبـورغ، وكانت هذه مـدينة جميلة، غنيـة بكرومهـا الخصبة العظيمـة، وكان لديها نهر جميـل على مقربة منها، وهو نهر تشـارنتي العميق والذي بلامخاضات، وكـان محاطاً بمروج غنيـة، وكان يعبر عليـه بوساطة جسر قـوي، وعند اقتراب الملك الفـرنسي مـن هذه المدينة، كـان السكان غير راغبين بمعارضته، كما أنهم كانوا أيضاً غير قادرين على مواجهته بالقوة، فتبنوا خطة حكيمة، حيث خرجـوا إلى استقباله بسلام، وسلموا أنفسهم ووضعوا مـدينتهم تحت سلطانه، وذلك مع جميع مقتنيـاتهم وامتيازاتهم، وعند ذلك استقبلهم الملك بـالترحـاب، ووضعهم تحت حمايتـه، ودخل إلى المدينة على الفور، واتخذ مقـامه فيها مع بعض نبلائـه، ونصب البقية خيامهـم في الحقل قرب المدينة، وفي اليـوم التالي، الذي كان يـوم الأحد التـالي قبل عيد القـديسة مـريم المجـدلية، عبر الجسر، وعمل الترتيبـات للزحف مع جيشـه إلى أقصى مناطق بواتو، ووصلت أخبار عن زحفـه المنوي وحملت إلى ملك انكلترا، وإلى نبـلائه، الـذين كان كـونت دي لى مـارشي هو الرئيس بينهم، وقام ذلك الملك، بناء على نصيحـة الكونت، فسحب قــواته أثناء الليل، ووصل فجأة مـع جيشـه إلى حقل مــرتبط بالجسر، ونصب خيـامــه هناك، وعمل مقـراً لنفســه في مقــابل المدينة،

وبذلك صار من الممكن لكل واحد من الجيشين أن يراقب الآخر، وتألف جيش الملك الانكليزي من ألف وستمائة فارس، وعشرين ألف جندي من الرجالة، وسبعمائة من رماة القسي الزيارة، وكان هناك ملك على هذا الطرف من النهر، وملك آخر على الطرف الثاني مثله قريباً من النهر، وشاهد الملك الانكليزي في الصباح الباكر العلم الحريري الأحمر للملك الفرنسي، وخيام ورايات جيشه، وكان الطرف الآخر من النهر مغطى بحشود من الخيم، بدت وكأنها مدينة واسعة ومكتظة بالسكان، ولدى رؤية ملك انكلترا لهذا المشهد، ولأنه كان يتوقع لاشيء سوى القتال، وأنه سوف يفاجيء الفرنسيين بحد السيف، حتى أنه مركز بعض الانكليز ليتولوا حراسة عبور الجسر، عند هذا قال لكونت دي لي مارشي: «أين هي الآن وعودك، يا مولاي وأبي؟ فعندما كنا في انكلترا، أنت وعدتنا، مراراً عدة، بوساطة عدد من الرسل، وأكدت لنا برسائلك الموثقة، أنك وقت الضرورة سوف تعدّ قوة من أجلنا تكون كافية من دون خوف، للتصدي للملك الفرنسي، وأخبرتنا بأن نهتم فقط من ناحيتنا حول المال»، وعلى هذا أجابه الكونت: «إنني لم أفعل ذلك مطلقاً»، فتدخل الايرل رتشارد مقاطعاً إياه قائلاً: «لابل فعلت، وأنا معي الآن رسائل معتمدة حول هذه القضية»، ثم أجابه الكونت: «إنها لم تكتب من قبلي، أو وقعت مني»، وعند ذلك قال له الملك وهو مندهش: «وما هذا الذي أنا أسمعه منك، يا أبي؟ أولم ترسل مراراً إليّ، لابل رجوتني بإلحاح لأن أقدم إلى هنا، بوساطة رسلك، ورسائلك المعتمدة، وكنت تشكو في الوقت نفسه من التأخير؟ أين هي الآن وعودك؟» وعند ذلك قال الكونت، مع يمين مخيف: «إن هذا لم يفعل قط من قبلي، وجّه اللوم لا لأحد، إلا لأمك، زوجتي»، ثم إنه أضاف بعد أداء يمين آخر: «بحق عنق الرب، هي التي دبرت هذا كله دون معرفتي»، وعند سماع الايرل رتشارد لهذا الكلام، جرد نفسه من السلاح، وحمل عصا في يده، وعبر الجسر، للترتيب لهدنة، لأن ملك

انكلترا كـان في خطر عظيم، وقـد بات أسيراً، وقـد حـدث هذا في يوم أحـد، ولدى وصـول الايرل إلى الجيش الفـرنسي، استقبـل من قبل الفرنسيين بتشريف عظيم، وعدد كبير منهم دعـونه باسم منقذهم، لأنه بوسـاطة السلم الذي عمله في الأرض المقـدسـة، كان قـد حـررهم من الأسر، ثم إنه استدعي باحترام إلى حضرة الملك، وعندمـا أعلمه برغبته في الحصول على هدنة، منحت إليـه، بعد شيء من الصعـوبة حتى الغد، وقـد حصل على هذا لعـدة أسباب، لأنه كـان انسـاناً لديه حظوة كبيرة لدى الفرنسيين، لقيامه بتحرير نبـلائهم في الأرض المقدسة، الأمر الذي ذكـرناه من قبل، وثانيـة لأنه كان قـريبـاً للملك الفرنسي، وكـذلك لأن اليوم كـان يوم الأحد، ولـدى قيام الملك الفرنسي بـوداعه، عندمـا كان مغادراً قال له: «مـولاي الايرل، مولاي الايرل، لقد منحتك هذه الهدنة طوال هذا اليوم والليلة، في سبيل التداول حول الذي هو أفضل لصنعه في المستقبل، لأن الليل يجلب المشـورة معـه»، وعلى هذا أجـاب الايرل: «لهذا السبب طلبت الهدنة التي حصلت عليهـا»، ثم إنه عاد على الفـور إلى ملـك انكلترا، وهمس في أذنـه بهدوء: «أسرع، أسرع، دعنـا ننقـل أنفسنا مـن هذا المكان، لأننا في خطـر عظيم، حيث أننا وقعنـا بالأسر»، ثم إنهما تناولا وجبـة سريعـة(لأن الوقت كـان ظهـراً) وعنـد غـروب الشمس، شغل كل انسـان نفسه في جمع أثقاله مع بعضهـا، وعند حلول الظلام، قـام الملك الذي جـرب الآن اخـلاص، أو بالحري، انعـدام اخـلاص البواتيين، فـانسحب بشكل مهين، ولم يتهـاون بالسرعة، وقـد تبعـه جيشـه كله، لكن ليس من دون خطر على الخيـول وعلى الرجـال، لأن كثيراً منهم كانوا لم يتناولوا الطعام، كما كانت خيولهم مرهقة، وكان الملك ممتطياً فرساً سريعاً، لذلك لم يرخ عنانه حتى وصل إلى سانتاغيو.

المعركة التي نشبت بين الفرنسيين والإنكليز عند سانتاغيو

وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا الخبر، كـاد أن لايصدقه، ومع ذلك

قام في الليلة نفسها بعبور الجسر بكل هدوء، وقام الفرنسيون في الصباح الباكر من اليوم التالي بنصب خيامهم فوق البقعة نفسها التي كانت القوات الانكليزية مقيمة فيها، وقد ازداد الآن جيشهم بوصول قوات جديدة، وعربات وشاحنات تحمل آلات الحرب والامدادات، وكان عددهم حوالي ألف وستمائة، وقد امتد قطارهم حوالي ثلاثة أميال على الطريق، وفي يوم الثلاثاء التالي انطلق الملك الفرنسي مع قواته ليتولى مطاردة ملك انكلترا، وعند الوصول إلى سانتاغيو، كان بعض الفرنسيون يتجولون، عازمين على جمع المؤن (وهو مايسمى عادة الاحتشاش) فتواجهوا مع كونت دي لي مارشي وهوجموا من قبله، من دون استشاره ملك انكلترا، أو جيشه، وهاجمت كل فئة الفئة الأخرى، وارتفعت صرخات عالية «رجال الملك، رجال الملك» من الجهة الأولى، ومن الجهة الثانية «جبل البهجة، جبل البهجة»، وكانت هذه صرخة جميع الجنود لدى الملكين، ووصلت أصوات الصراخ وقعقعة القتال إلى الملك الانكليزي في سانتاغيو، وقد أخبر بأن كونت دي لي مارشي، بشروعه بالقتال، هو قد رغب إما أن يفقد حياته، أو أن ينقذ سمعته، ونهض الجيشان من على الجانبين، وأعقب ذلك قتال عنيف، وقع خارج بلدة سانتاغيو، في الطرقات الضيقة بين كروم العنب، وقاتل الانكليز وهم على حنق، وحاربوا الفرنسيين بحد السيف، وقاتلوا وهم يائسين جداً، حتى أنهم لو عادلوا أعداءهم بالعدد، لنالوا بنجاح نصراً مبيناً على الفرنسيين، الذين هم أنفسهم كانوا شهوداً على ذلك بعد المعركة، وفي هذه المعركة نال: سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، مع ايرلي: سالسبري، ونورفولك، وروجر بيغود، ووارن دي مونتشسنيل Montchesnil, وهيوبرت فتر— ماثيو، ورالف فتز— نيقولا، وعدد كبير آخر من الشجعان الانكليز، وحصلوا على شهرة سرمدية، وذلك حسبما تحدث خصومهم، ومن الجانب الفرنسي، وقع جون دي باري Barres, مع ستة فرسان أسرى، بيد وليم دي سي، لكن

جرى فيما بعد مبادلتهم بعدد مساوي من الأسرى الانكليز، وكان هناك عـدد كبير آخـر من الفرنسيين قـد أخـذوا أسرى، وكـان من بينهم بيتر أورغي Orige, قهرمان كونت بولون، وكان آسرهم جون مانسيل Mansell, وكان محاسبـاً ومستشاراً خـاصاً لملك انكلترا، وقــد عدّ هذا بين الرجال الشجعان، ومن جيش ملك انكتلرا وقع هنري هيستنغ Hastings بالأسر، مع حوالي عشرين فـارساً، ومجمـوعة كبيرة من الرجـالة، وقـد قـدمـوا هؤلاء جميعـاً بدلاً عن جـون دي باري، والذين أخذوا أسرى معه.

كونت دي لى مارشي يسعى للتصالح بشكل سري مع الملك الفرنسي

وبما أن جيش الملك الفـرنسي قــد ازداد يوميـاً مثل بحيرة تضخمت بميـاه سيول الأمطـار، بدأ كونت دي لى مـارشي يشعـر بالخوف بشكل جـدي أكثـر من ذي قبل، لأن التقارير الشريـرة المتأخرة جـرحت قلبـه يومياً، وكـان أولها الاستيلاء على قلعـة فرونتني، التي فيهـا وقع ابنه مع أربعين فـارساً وذلـك إلى جانب عـدد كبير آخـر من الأتبـاع قد وقعـوا بالأسر، وجـرى أيضـاً الاستيـلاء على كميـات كبيرة من السـلاح، ففي تلك القلعة كـان قد مركز جميع آمـاله وثقته، ثم إنه فقد بعـد ذلك قلعة فوفانت، التي كانت مشحونة بمائـة وأربعين فارساً مع حوالي ستمائة من رماة القسي الزيارة المسلحين، ثم أعقب ذلك سقوط قلعة فيلير Vilers مع عـدد آخر من القـلاع والبلدات مع اقطاعياتهم وحصـونهم، وأخيراً جـرى الاستيلاء على فـونتني مع المناطق المجاورة لها، ولذلك قـام وهو محرض من الألم الداخلي في قلبــه، ومــدفـوع بالخوف واليـأس، مع أنه أخفى اضطراب تفكيره، تحت ملامح هادئة، قام الكونت المذكور فشرع بالتقلب، وبتقـديـر من الذي يمكنه بوسـاطتـه أن يقبـل ثانيـة في حظوة الملك الفـرنسي الذي هو مـولاه، والذي نال باستحقـاق غضبـه، وبعـد

بعض التقدير للأمور، بعث بشكل سري إلى كونت بريتاني، وكان صديقاً قديماً له —وكان هو نفسه خائناً يراسل خائناً— ورجاه أن يعمل بالتعاون مع أسقف سانتاغيو، بكل يقظة ممكنة، بشكل سري وحذر، وأن يسعى إلى إعادته إلى حظوة الملك الفرنسي، وبناء عليه ذهب كونت بريتاني مع أسقف سانتاغيو إلى الملك، وقالا له وهما يبتسمان: «لقد توقفت الحرب لأنها انقطعت بوساطة واحد متقلب»، وبعد التفوه بخطاب أكثر نعومة وفيه المزيد من الإطراء والإثارة، تابع الكونت حديثه، وذلك على مسمع من الأسقف المتقدم ذكره، وعدد قليل آخر من النبلاء الفرنسيين، الذي كان قد بعث خلفهم للاجتماع به والتشاور معه، وقال: «مولاي الملك، إن رعيتك، كونت دي لى مارشي، الذي اعترف بأنه أذنب بشكل خطير نحوك ونحو تاجك، لايسأل الآن العدالة بل الرحمة، كما يقول المثل العام: «إلى الشقي الرحمة ضرورية، وإلى المذنب علينا منح الشفقة»، وهو قد أرسل بي إليكم، بحكم أن روحه يمكن أن تثق بي، ولهذا أتوجه بالالتماس إليكم بكل اخلاص، وإلى لطفكم الأصيل، وإلى جلالتكم، وأرجوكم تقبله بصدركم الرحيم المفتوح، فهو رعيتكم، وقد أصبح الآن مخلصاً إلينا من دون أي من تعليلاته المعتادة»، ثم إنه غمز بعينه نحو الملك، وقال بصوت خافت: «إنني أنصحك بعدم رفض طلبه، لأنك تستطيع أن تضعه وسيلة ضغط لصالحك حسبما تشاء في المستقبل».

كونت دي لى مارشي يصبح متصالحاً مع الملك الفرنسي

وجرى بناء عليه استقبال كونت دي لى مارشي بالحظوة من قبل الملك الفرنسي، على شرط أن يتنازل —أي الكونت— له عن ملكية جميع القلاع التي استولى عليهن الملك مؤخراً بالقوة، وأن يكون ذلك حق دائم، وفي سبيل منفعة المملكة، جرى تجريد الكونت مع ورثته منها بموجب قرار قضائي، وأضاف الاشتراط أيضاً بأن جميع قلاع الكونت

المذكـــور، وهي كـــوغناك Cognac, ولوزغنان Lusignan, وميربن Merpins, والقـلاع التي يظن أنها عائـدة إليه، سـواء التي هي ملكه، أو التي هي ملـك لأصـدقـائـه الذين يستطيع أن يسـوغهـم، ينبغي أن توضع تحت سلطـات الملك، وبناء عليـه ينبغي أن تبقى تحت سلطانه، في سبيل إبقـاء الملـك تحت المراقبـة، وأن يرغم، وإن كـان بغير رضـاه، بأن يكون مخلصـاً إلى الملك، والمسألة سوف تتـوقف بعـد مضي ثلاثة أعوام على إنعام الملك، وذلك إذا ما خدمه باخلاص، فمن الممكن إعادة القـلاع المذكورة إلى الكونت، وعلاوة على ذلك، يتـوجب، خلال الأعوام الثلاثة، أن يخدم الملك الفـرنسي، إذا ما دعاه بمائتي رجل مسلح على حسـابه، وأن يقاتل باخـلاص لصالح الملك المذكـور، ضد كـونت طولوز، أو أي ثائـر آخـر ضـده، أو ضـد الكنيسـة، وعـلاوة على ذلك أضاف الملك الفرنسي: «إن الصك الذي ناله آباءه من أجدادي منذ زمن طويل مضـى، والذي مـازال حتى الآن يمتلكه، وينال عنه ألـف باوند سنوياً من خـزينتي، في سبيـل حـراسـة هذا الجانب من حـدود مملكتي، والذي غـالباً مـا أسيء القيام به، لاسيما الآن، إن هذا الصك، أنا أقـول عليه التخلي عنه لي مـن دون أية معارضة، والتخلي في الوقـت نفسه عن الدخل السنوي المتقـدم الذكـر»، ولهذا ابتسم كـونت بـريتـاني، وكشر مقطباً، وهمس في أذن الملك قـائـلاً: «أنا أنصحك بالاحتفـاظ بالقـلاع والمورد، وأن تستحـوذ من الآن فصـاعـداً شخصيـاً المسؤوليـة عن التخوم»، ثم إنه غـادر آخذاً بيد الأسقف حيث قـال: «لقد استكملت»، وعندها سأله الأسقف: «ماالذي استكمل؟» فأجابه: «العمل الذي جئنا من أجله وعند ذلـك قـال الأسقف: «أنت تتـولى رعـايـة ذلك، فأنا لم أسمع همساتك السرية».

كونت دي لى مارشي يوافق على الشروط مع أنها شروط قاسية

وعندمـا بـاتت هذه الشروط والمفـروضـات مـن أجل الحصـول على

حظوة الملك معـروفـة من قبل الكونت المذكـور، أي كـونت دي لى مارشي، حيث حملها إليه كونت بريتـاني، حزن حزناً عميقاً، وظل لوقت طويل رافضـاً الموافقة عليهم، لكنه وافق أخيراً عليهم، بناء على نصيحة كـونت بريتاني المذكـور، وأصدقـائـه السريين الآخرين، الذين كـان يثق بهم، لكن مـوافقتــه لم تكن من دون ألم بالقلب، وفعل ذلـك للحيلولة دون وقوع أي شيء أسـوأ إليه، وبناء عليـه ترك ابنه ملك انكلترا، الذي كـانت أمـواله قــد استهلكت الآن إلى أبعـد الحدود، وهرب إلى الجيش الفرنسي، حيث رمى بنفسه على ركبتيه أمام الملك، فحصل على حظوته، التي لم يستحقها، ثم جرى ارساله على الفـور مع كونت بريتـاني نفسه، لشن الحرب على كـونت طولـوز، لأنه كـان متحـداً مع ملك انكلترا بروابط القـرابة، كما أنه كان حليفـاً، بناء على قسم، وكان متـابعاً الحرب ضـد الملك الفـرنسي، ولهذا السبب، شغل كـونت طولـوز، منذ ذلك الحين، نفسه بالنظر إلى أمـور دفاعه، وبات غير قادر على مسـاعدة ملك انكلترا، الذي إليـه وعـد بتقـديم مسـاعدة فعـالة، لدى تسلمـه المال سلفاً.

وبالطريقة نفسها، لم يعد بـإمكان ملك انكلترا الحصول على المساعدة من ملك أراغـون، لأن الطرق كـانت مغلقة ضـده، ولا كـذلك من أي واحد آخر، كان قد وضع فيه ثقته، وقدم في الوقت نفسه كونت طولوز سراً إلى ملك انكلترا، وبعـدمـا سـوغ نفســه واعتـذر قـال: «لاتيأس يامـولاي الملـك، وابن عمي، لاتيأس أيها الأمير الأعظـم قـوة من أن لاتكون قادراً على صدّ الملك الفرنسي، بما أنـك تتذكر أنني وحدي، مع مساعـدة البابا، قد صددتـه، وحالما أتمكن من طرد هذين الخائنين لي من أراضي التي هي الآن تحت احتـلالهم، سـوف أقـدم إليك بكل سرعـة، لتقـديم المسـاعـدة»، وبعـد قليل من المحـادثات الأخـرى، غـادر ذلك الكونت، وهو محمل بالهدايا.

سبب فقدان الملك لسانتاغيو

وبينما كان كـونت دي لي مارشي يتابع تنفيـذ خططه الخيانية المتقـدمة الذكـر، مـن دون معـرفـة ملك انكلترا، كـان آنذاك ملك انكلترا مقيماً لبضعة أيام في سانتـاغيو (التي كانت معروفة بموجب الحقـوق القديمة ملكاً خاصـاً، ومسكناً لملك انكلترا) وقد قام فيها بعـد من دون مشاورة المواطنين، لابل ضد رغبـاتهم، فأعطى تلك المدينة، وثبت منحتـه بوثيقة إلى هوغ برن Brun, ابن كـونت دي لي مـارشي، وأخـاً أصغـر له شخصيـاً، وقـد كره المواطنـون هوغ هذا المذكور، لأنـه كان متعجـرفـاً، ورجـلاً شريراً، وغالبـاً مـاقام بتهـديدهم بالضغط عليهم، ونتيجـة لهذه المنحـة، لم يعـد المواطنون ينظـرون بعين الحظوة نحـو ملك انكلترا، كما أنهم لم يعودوا يوافقون على سلوكه وأعماله.

فرار الملك الإنكليزي إلى بلي

ومع اقتراب حلول شهر آب المجهد، وفي الوقت الذي كان فيه ملك انكلترا يظن أنه آمن، ولديه مكان التجـاء مضمون في سـانتاغيـو، وكان يفكر بالبقـاء هناك لعـدة أيام قليلة، حتى يحصـل على وقت يسترد فيـه أنفاسه، أرسل فارس فـرنسي، كان واحداً من الذين حررهم في الأرض المقـدسـة الإيرل رتشـارد، وكـان مطلعـاً بشكل سري على خطط الملك الفـرنسي، أرسل رسـالة سرية مستعجلـة إلى الايرل المذكـور، بأن ملك فـرنسـا قـد أبدع خطة سرية واستقـر رأيه عليهـا، حيث سيقـوم فجأة بتطويق ملك انكلترا في مـدينة سـانتـاغيـو، مع حفـر خنادق من جميع الجهات، ومن ثم حصـاره هناك، فهو ما أن يكمل حشد قـواته بقدر ما تستطيع فرنسـا تقديمه كما هو معلوم، سوف يتـابع الحصار، ولن يتخلى عنه حتى يأسر جميع الانكليـز الذين هم هناك، مع ملكهم، وأن يحملهم أسرى مغلولين إلى باريس، وأضـاف الرسول نفسـه على سرعة، أو وهو مقطوع الأنفاس تقـريباً، بأن كونت دي لي مـارشي قد تحول، أو بالحري

تبدل وانقلب من كـونه صديقـاً الى أنه بات العدو الأعظم لملك إنكلترا —ومن كونه أبا زائفـاً الى صيرورته زوج الأم— وأنه لايمكنه أن يتأمل أي شيء آخـر من نبـلاء بواتـو الآخـريـن، ومـا كـاد يتـوقف عن الحديث،حتى وصل رسـول آخـر الى الملك،من أخيـه الأصغـر هـ . H المتقدم ذكره، ومن غي دي لوزغنان —أخيه الأكبر— يعلن أن الانكليز إذا مـابقيـوا في البلدة تلك الليلة، هم سـوف يقعـون جميعـاً بالأسر مع ملكهم ومـع السكان، أو أنهم سـوف يحاصرون حتى يمكـن أسرهـم، وحـدث هذا في اليـوم التـالي لعيـد القـديس بانتـاليـون Pantaleon, عندما جاء الملك من بونز Pons خلال آركياك Archiac, ثم إلى هيربيزي، ثم وصل إلى سـانتاغيو، داره كما كانت، لكن عندمـا كانوا على وشك اتخاذ مقرات لهم هناك، وكـان وكلاؤهم قد تقـدموا عليهم، وكان المراقبون والمارشالات قد أعدوا جميعاً طعام افطارهم، وكان الملك نفسه على وشك تناول طعام افطاره، وصل رسول ثان أكد بينة الرسول الأول، وبذلك لم يترك أي مجال للشك في هذه القضيـة، وبناء على ذلك غادر الملك المدينة على الفور، معطياً أوامر بـاحراقها، لأنه كان قد سمع من الرسـول المتقدم الذكر، بـأن المواطنين قد أعدوا شروطاً للسـلام مع الملك الفـرنسي، وأباحـوا بشكل خيـاني أسرار خططه إلى ذلك الملك، وعند ذلك لم يوفر هنري مهمازه، أو لكز جانبي فرسه، بل إنه هرب من دون توقف حتى مدينة بلي Blaye, وكان صـائماً وجائعـاً، ولم يهتم سوى قليـلاً بقواته التي تبعته، وعندمـا علم نبلاؤه بفـراره، تركوا فجأة طعامهم نصف المطبوخ، وركبوا خيـولهم السريعة، ولحقوا ملكهم، وهم يرجون ايجاد ملجأ لأنفسهم معه في مدينة بلي.

وسار خلفهم حشد كبير من الانكليز، على أقـدامهم، وهم في حاجة شديدة، وكـانوا يتساقطون من الجوع والضعف، وقد فقـدوا عدداً كبيراً من الرجال المرضى، والخيول المحملـة، والعربات والشاحنات، حتى أن

الدموع عطفاً عليهم تدفقت من أعين جميع الذين شاهدوا أوضاعهم، لأنها كانت رحلة عشرين ميلاً، وفقاً لتقديرات تلك المنطقة، لكنها كانت حوالي الأربعين أو قريباً من الخمسين وفقاً للحسابات الانكليزية، ولولا أنهم قـووا أنفسهم، وهم على الطريق، بأكل التفـاح البري والتوت، لتخلت قواهم عنهم نهائياً، ووصل الملك الفرنسي في الوقت نفسه إلى سانتاغيو، حيث جرى استقباله باحترام من قبل رجال الدين والمواطنين، واسترد سلطاته من دون صعوبة على تلك المدينة النبيلة، وبعد فرار مهين ومدمر، وصل الانكليز المنهكون وغير القادرين على التنفس إلاّ بصعوبة، إلى مدينة بلي، وبعدما مكث الملك هناك لبضعة أيام للراحة ولاسترداد قواه (لأنه كان لم يأكل أية وجبة ولم ينم منذ يومين وليلتين)، قرر أن يغادر ذلك المكان أيضاً، بحثاً عن مكان أكثر أمناً للالتجاء إليه، ولذلك عقد مؤتمراً مع نبلائه، ثم إنه قرر الانطلاق نحو الأمام إلى بوردو، وفي هذا الفرار فقد ملك انكلترا بيعته مع جميع تزييناته المقدسة بالاضافة إلى الآثار وأشياء أخرى كثيرة، عددها كبير جداً حتى نتولى ذكره، وأثناء فرار الملك الانكليزي إلى بلي طارده الملك الفرنسي بحرارة حتى وصل إلى مكان اسمه كارتليو Cartelegue, حيث أرغم على التوقف بسبب المرض.

استسلام مدينة بونز إلى الملك الفرنسي

وعند سماع رينالد دي بونز بهذه الأخبار، طار على الفور نحو جناحي الملك الفرنسي، ونشد السلام من خلال وساطة بعض الأصدقاء، وقد حصل عليه مع بعض الصعوبة، و سلم نفسه والمدينة إلى سلطات الملك الفرنسي.

الملك الفرنسي يشحن بالجند مدينة بونز وبعض القلاع

وبعدما أعيدت مدينة بونز على هذه الصورة إلى الطاعة، وكذلك

بعض القـلاع من حولها، قام الملـك الفرنسي على الفور بطـرد البواتيين، ووضع بعضاً من الفرنسيين المخلصين هناك.

رئيس الأساقفة وليم يلتحق بالملك الفرنسي

وعندما وصلت أخبار هذه الحوادث إلى الذي يدعى برئيس الأساقفة وليم، قرر هو العمل بطريقة مماثلة، لكنه عزم أولاً أن يسمن نفسه على مقتنيـات ملك انكلترا، ولذلك قـام بشكل مخادع فأرسل رسـالة سـلام ومـواسـاة إلى الملك المذكـور، معلناً وداعيـاً القضـاء الرباني أن يكون شـاهداً، —مع أن جميع البـواتيين ينبغي عليهم الانحناء، وإبعـادهم من دون كرامة عنه، هو، أي رئيس الأساقفة— أنه طالما نفس الحياة موجود في صـدره، لن يتخلى عـن ملك انكلترا، الذي أضفـى عليـه ثروات عظيمة، ولن يفـر إلى الملك الفرنسي، الذي داس بعجـرفته التي لاتحتمل —والتي جاءت بعـدما ربحوا القدرة— على جميع رعيتـه، وكأنهم كانوا وحـلاً في الشوارع، وبناء عليـه التمس من ملك انكلترا، أن يرسل إليـه من دون تأخير، بحكـم كـونه مـولاه الطبيعي، الـذي عنه لايمكن أن ينفصل بنفسـه، بعض الفرسان الشجعـان، المجهزين بجميـع الحاجيات الضرورية إلى مـدينة بارثني Parthenaye التي كـانت مـدينتـه، وذلـك مـع المـال لتحصينهـا، وإلى هذه الكلمات الناعمـة والمعسـولة أصغى الملك برغبـة كبيرة، وتصرف وفقـاً لطلبـه، لكـن لدى وصـول الفـرسـان الـذين أرسلوا من قبل ملك انكلترا إلى مسـاعـدته، طردهم بالقـوة من المدينة، واحتفظ لنفسـه بالمال الذي أرسل إليـه للدفع إلى عسـاكـره، ثم إنه طار مع جميع أعـوانه والمواطنين للجـوء تحت جناحي الملك الفـرنسي، لعمل سلام معـه، لكن الملك الفرنسي ضـايقه ووجّـه الملامـة إليه، وقطـع لسـانه، وأشار إليـه باصبعـه، موجهـاً الملامة إليـه بسبب سلوكـه، ووبخه ووسمـه بأنه خـائن، وانسان مـوسـوم بعلامـة قابيل.

عمدة طولوز يتحول عن جانب الملك الإنكليزي

وبات في هذه الأثناء، عمـدة طولوز أيضاً على بينة بأوضـاع القضايا، وكان رجـلاً كدس عليه ملك انكلترا أكوامـاً هائلة من المنافع، وقد رفع من شأنه في كثير من الطرق، لكنه عندما وجد جيوب سرج خيوله مليئة بأموال استيرلينية جيـدة، جاء رده على ذلك خيانته، وبوساطة أصـدقائه عمل سلمـه مع الملـك الفـرنسي، وأعيـدت مـدينتـه إليـه مع البلدات المجاورة، والتحق هو بـالجيش الفرنسي، مظهراً بذلك أي نـوع من الثقة ينبغي أن توضع في البواتيين.

البواتيون جميعاً يتحولون إلى الملك الفرنسي

ثم إن المواطنين وحـراس البلدات، رأوا هـؤلاء الأعلى مـرتبـة منهم أنفسهم قد تحولـوا، وأن ملك انكلترا، الذي كان من المتـوجب أن يقدم الحماية إليهم، قد هـرب، مثل ملاح يهجر سفينة غـارقة، تبـارى أحدهم مع الآخر في الفرار إلى الحكم الفرنسي المعـروف جيداً، وقام أتباعهم في المقاطعات أيضاً، بالتخلي فوراً عن أنفسهم وعن ممتلكاتهم إليه.

إخلاص هارتأولد قسطلان قلعة ميربو

وعندمـا كانت أخبـار هذه الأحـداث ومايماثلهـا تنتشر لتعم مناطق بواتو، كان هناك واحـد اسمه هارتأولد Hertold, كان القسطلان المخلص لقلعة ميربو التي لاترام، وقـد شعر بحزن عميق، وكـان يشعر بشكل مـؤكد أنـه عندما يحرم من مسـاعـدة ملك انكلترا، هو لم يرغب —على كل حـال— بذلك، بل رغب بالتصدي للهجمات الصـادرة عن الملك الفـرنسي، وقـد قـال لرفـاقـه في السـلاح: «أصـدقـائي، ورفـاقي الحقيقيين، إن جميع منطقتنا هذه، وياللأسف، عرضـة للخراب والدمار، فما الذي ينبغي فعله؟ إن بنـي قـومنا مختلفـون فيما بينهم أنفسهم، وهم منقسمون، وهم بالتالي في حالة اضطراب، وإننا سوف نتحول إلى درجة

العبـودية من قبل أعدائنا»، وقـرر أخيراً، بعد كثير من البكاء، في قـرارة نفسـه، أن يذهب إلى ملك انكلترا، الـذي هو مـولاه الطبيعي، ليتشـاور معه حول هذه القضية، وعندما وصل إليه، كانت الدموع مبللة وجنتيه، والتنهدات قطعت كلامه، حيث قال: «مولاي الملك، إن جلالتكم ترى بأن الحظ مضـاد لنا في كل شيء، وأنا رجل تعيس إلى حـد أنني لاأدري ماالذي عليّ أن أفعله؟ هل يمكنك مساعدتي في هذا الخطر العظيم، وإذا ما كان عليّ صد المحاصرين بـالقوة إذا حدث وحوصرت؟ وهل سوف أنا أتورط مثل جيراني، في المأسـاة العامـة، وأن أرغم بالأخير على تحمل النير الفرنسي، الذي رفضه آبائي دوماً حتى الآن، وصدوه، وقذفوا به»، وعلى هذا رد عليـه الملك وهـو مكتئب قـائـلاً: «أنت ترى يـاهارتأولد، مقدار قـوتي، التي هي بالكاد كـافية لتأمين نجاتي، وإن مـولانا ومخلصنا يسـوع المسيح، قد جـرت خيانتـه من قبل تلميذه يهوذا، وبناء عليـه من الذي يمكنه أن يتوقع أن يكون آمناً؟ لقـد تركني كونت دي لى مارشي، الذي عـددته وأحببته بمثـابة أب، وقد ضرب مثـلاً مدمراً لكـم جميعاً، فلقد اعتمـدت على قصبة وجعلتها بمثابة عصـاي، فجرحتني شظاياها، وأنت وحــدك عملت بطريقــة محمـودة، بقيــامك بمشــاورتي في هذه القضـايا، وبناء عليـه إن جميع مـاتمتلكه باسمي، أنا أمنحك إياه بحـرية، بمثابة هدية مني، وبناء عليه، افعل الذي تراه أكثر مواءمة لك ولحقك»، ثم إن هـارتأولد غــــادر حضرة ملك انكلترا وهو آسـف، وذهب على الفـور بشعــر مشعث، وعينان حمراوتان من البكاء إلى الملـك، الفـرنسي الذي إليه توجه بالخطاب قائلاً كما يلي: «مولاي الملك، لقد كدس الرب الغاضب أكوامـاً هائلة من الشرور عليّ، حتى بت مرغماً —مع أنني غير راغب— بأن أطير إلى رحمتك حتى أنـال الحماية والملجأ، لقـد تركت إلى نفسي، ولذلك طرت إلى جـلالتك، وبناء عليه تسلم قـلاعي، وتقبل في الوقت نفســه خــدمتي»، وعلى هذا رد الملك الفــرنسي بنظرة هادئــة: «ياصديقي لقـد عرفت معـرفة جيدة بأنـك قد ذهبت إلى ملك انكلترا،

وأنا أعلم الذي قلته له، فأنت وحدك قد عملت باخلاص، وأنا على هذا عن رضا أتقبل القيام بحمايتك أنت والذين أتباع لك، وكما أنت، أنا أتقبلك، ولذلك فإن صدر الرحمة هو مفتوح لك دوماً»، ولذلك تخلى هارتأولد عن قلعة ميربو الفخمة، ووضعها بين يدي الملك الفرنسي مع جميع متعلقاتها، لكن ذلك الملك قام على الفور، إثر تلقيه يمينه بالتابعية، بإعطائه المسؤولية عنها ثانية، وكذلك معها جميع جزء تلك البلاد، باستثناء مونتوبان Montouban, وعدد قليل من الأماكن، فهذه جرى تسليمها إلى سلطات الملك الفرنسي.

ولادة ملكة إنكلترا لطفلة في بوردو

وبقي ملك انكلترا في بلي حتى عيد صعود العذراء المباركة، عندما جاء المخاض ملكته التي كانت مقيمة في بوردو —وكانت خيامه منصوبة في حقول جميلة قرب تلك المدينة— وكان مستعداً لأن يطير على الفور، إذا ماسمع من جواسيسه بأن الملك الفرنسي قد اقترب من بلي، وفي يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ولدت زوجته، الملكة إليانور —كما ذكرنا من قبل— بنتاً في بوردو، وقد منحت اسم بيترايس Beatrice, الذي كان اسم أم الملكة.

قدوم كونتسة بيرني إلى ملك إنكلترا في بلي

وفي الوقت نفسه، قدمت كونتسة بيرني Biarne, التي كانت بمفردها ذات حجم كبير إلى الملك مع ابنها غاستون Gaston, وكان برفقتها ستين فارساً، وقد اقتنعت بفعل ذلك برغبتها بالحصول على بعض المال، حيث كانت تعرف بأن ملك انكلترا كانت لديه كميات وافرة منه، وبعدما دخلت معه في اتفاقية من أجل الدفع، بقيت مع الملك، وهي تتسلم منه يومياً مبلغ ثلاثين باونداً استيرلينياً، ولكنها كانت ذات موقف معادي منه، وقد تخلت بالنهاية عنه كلية، أو بالحري خانته وأفقرته.

انتشار وباء بين الفرنسيين

ورأى الملك الفرنسي في الوقت ذاته أن الحرب متطورة لصالحه بين يديه، فعقد مؤتمراً مع نبلائه، وقرر أن يلاحق الملك الانكليزي بعدوانية إلى بلي، لأنه كان يعرف بأن هذا الملك كان قد حرم من مساعدة البواتيين، وكان الآن غارقاً في وضع ميؤوس منه، وقرر أيضاً أن يطارده من بلي إلى بوردو إذا ما تراجع إلى هناك، وهكذا تصور أنه يمكنه بيقظة غير متوانية، أن يجلب الحرب إلى نهاية، غير أن الرب «الذي يمنح الخلاص إلى الملك كما يريد» امتلك رحمة نحو الملك ونحو مملكة الانكليز، ففرق بين قلوب الفرنسيين المتعجرفين الذين لايعرفون التهاون، بإثارة الشقاق والخلاف فيما بينهم، وعلاوة على ذلك، فإن جيشهم الذي كان كبيراً جداً، كان مرهقاً يعيش تحت نقص الامدادات، ولذلك فإن الجوع والعطش قد استبد بهم، وأخذ الناس يتلاشون بوساطة الأمراض، ولإصابتهم بمختلف الآلام، لفظوا حيواتهم الضعيفة، لأن السكان المحليين كانوا قد أغلقوا أفواه الآبار، وسمموا وأفسدوا الأنهار والينابيع، وفلحوا المروج، ونقلوا القمح، ونتيجة لذلك هلكت الخيول لحاجتها إلى الماء، وفي أيام الشعرى (مابين أوائل تموز وأوائل أيلول) التي كانت آنذاك في ذروتها، التزم الناس بمضاجعهم وهم مرضى، ولأنهم كانوا غير قادرين على الحصول على الراحة وعلى الدواء ماتوا، ومات من الجيش الفرنسي، ثمانون نبيلاً ممن كانوا يحملون الرايات، ومن الجنود الرجالة وقع حوالي العشرين ألفاً ضحايا، وفي هذه الآونة، وقع الملك نفسه مريضاً مرضاً خطيراً، ووقع على الفرنسيين خوف عظيم وقنوط كبير، ذلك أنهم خافوا أن يفقدوا ملكهم بين يدي الموت، الموت الذي لم يوفر أحداً، وذلك وفق الطريقة نفسها التي فقدوا فيها والده الملك لويس فجأة، ومات بسبب المرض نفسه كثير من الفرسان الشجعان الذين لامثيل لهم، وكان من بينهم روبرت مالت

وكـان نورمانـدياً، ورجلاً استحق التميـز بالثناء، ورتشـارد Malet, بيومـونت Beaumont, وكـان رجلاً من أصل نبيل، ومتميـزاً بين الفـرنسيين لأعماله النبيلة، وكـان واحـداً ممن حـرره الايرل رتشـارد في الأرض المقـدسـة، ولذلك أرغم الملـك الفـرنسي، بسبـب الظروف المعـاكسـة، على الموافقـة على هدنة لمدة خمسـة أعـوام، وهي التي طلبهـا الملك الانكليزي، ثم إنـه عاد إلى فرنسـا إلى مناخه المعتـاد عليه، ولذلك منحت الهدنة إلى الملك الانكليزي عن رضا، لابل مع سرور عظيم.

الملك الفرنسي الذي وقع مريضاً يبرم هدنة مع ملك إنكلترا ويعود إلى فرنسا

وبناء عليه، قام الملك الفرنسي، فجـأة بتغيير خططه، وعاد إلى فرنسا، من أجل أن يمتلـك وقتـاً للتنفس، ولأن ملك انكلترا كـان مستعـداً للانتقـال إلى أقصى منطقـة من البـلاد، وكـان من الصعب مطاردته في أراضيه، ولأن فصل الشتـاء الممطر بات قريباً جداً، وهكذا أخـذ طريقه مروراً بمدينة سانتاغيو، التي كان قد استرد ملكيتها، فأمر بتحصينها، في سبيل تقـدم المملكة الفرنسيـة، بأسوار جـديدة، وبتحصينات خارجيـة، وبترميم الأسـوار القـديمـة، وأعطـى الأوامـر نفسهـا فيما يتعلق بالمدن الأخرى، وتلقى يمين الاخلاص، والرهائن، من الذين تركهم مسؤولين عنهم، وقام بشحن القـلاع بشحن فرنسيين، وبالذين كـانوا مخلصين له، وتراجـع ملك انكلترا في الـوقت نفسـه، مـن دون خطة بـذهنه، إلى غسكوني، حيث أمضى أيـامـه من دون نشـاط مع ملكتـه، وأثناء ذلك أظهـر الغسكونيون مـع (الكونتسة، دي بيـارد) Biard قليلاً من الرحمة نحـو أمـواله، وفي ثمانيـة القـديس متى الرسـول، وصل الملك الفرنسي إلى فرنسـا، والذين زرعوا بذور الفوضى في المقاطعـات البواتية قد اعتقلوا مع الاهانة، بعدما عادوا إلى فرنسا، وبعد آلام طويلة غادروا جميعاً طريق الجسد.

الملك الفرنسي يطلب الحصول على مساعدة مالية من اللاهوتيين

وبعد مضي وقت قصير دعا الملك الفرنسي وأمر أساقفة المملكة الفرنسية بالاجتماع بباريس، وهم:

رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان السود من طوائف السسترشيان والبرامونستريت، ورؤساء هيئات الكهنة الكاتدرائية، وطلب مساعدة مالية منهم، ولكي لايعطي فرصة يمكن أن تتخذ ذريعة لرفض طلبه، أعطى سبباً بأنه يرغب في مهاجمة الهراطقة الألبينيين، لأنه اتهم كونت طولوز بجريمة الهرطقة القديمة، وكبرهان على ذلك قال بأن ذلك الكونت قد قتل مؤخراً، بشكل دنيء، بعض الرهبان الدومينيكان، ونظراً لإدراك الأساقفة أنهم كانوا محرومين من حكومة البابا، ومع أنهم لم يكونوا ملزمين بحق الاسهام بأي شيء، بناء على أمر أي علماني، حتى لاتظلم الكنيسة، ومع ذلك مقدرين أن الزمان كان زماناً سيئاً، وبما أنه كان هناك عدداً داخلين في اطار الخطر، كان لابد من إعطاء بعض المرونة للأحكام القاسية، ووافقوا بالاجماع على عمل تسوية للقضية، بمنح جزء من عشرين من مواردهم لذلك العام، وأن يجري دفع ذلك في وقت قصير.

تكريس الكنيسة في وولتهام

وفي اليوم التالي لعيد القديس ميكائيل في هذا العام، جرى تكريس كنيسة ديرية تابعة إلى كهنة وولتهام Waltham, بشكل مهيب من قبل وليم أسقف أوف نورويك، وقد ساعده في ذلك عدد كبير آخر من الأساقفة المحترمين والنبلاء، وقد حدث هذا فوراً، إثر تكريس كنيسة القديس بولص في لندن في سبيل أن يعبر الحجاج ثم يعاودوا العبور من الأولى إلى الثانية من دون زيادة تأخير.

استخراج ضريبة بدل الخدمة العسكرية من قبل الملك

في هذا الوقت نفسه أمر الملك باستخراج ضريبة بدل الخدمة العسكرية من جميع أرجاء انكلترا. وفي هذا العام جرى تثبيت آدم راعي دير ويردون Waredon, أسقفاً على كونور Connor, وهو كرسي موجود في انكلترا، خاضع إلى المطرانية الأسقفية العائدة لرئيس أساقفة أرماغ Armagh.

بعض نبلاء إنكلترا يطلبون الإذن بالعودة إلى الوطن

وفي الوقت نفسه، جاء إلى الملك ايرل بيغود، وايرل روجر أوف وينشستر، وعدد آخر من النبلاء، واشتكوا إليه بمرارة، بأنه جرهم بشكل غير معقول من بيوتهم إلى المقاطعات النائية لهؤلاء الخونة له، من دون أن يقدموا إليهم أية مواساة أو مساعدة، ولذلك عندما تراجع الملك الفرنسي مع جيشه إلى داخل فرنسا، من أجل تجنيد قواهم، هم سألوه أيضاً الإذن بالمغادرة والعودة إلى انكلترا من أجل الغرض نفسه، فسألهم الملك: «هل الطريق آمن؟» وعلى ذلك أجابوا: «إننا سوف نسأل»، ثم إنهم طلبوا ممراً حراً خلال فرنسا من الملك الفرنسي، فمنحهم إياه قائلاً: «دعوهم يغادرون بحرية، ويسافرون من دون اعتراض خلال أراضيّ، وأنا آمل أنهم لن يعودوا مطلقاً، وعندما ليم على هذا من قبل نبلائه، قال: «بودي لو أن جميع أعدائي يرتحلون بعيداً عني، وأن لايعودوا مطلقاً»، وبناء عليه أخذ الانكليز طريقهم بسلام خلال فرنسا —ليس على كل حال من دون نيل الأذى من السكان— وعادوا إلى انكلترا، وقد حدث في حوالي الوقت نفسه، أن واحداً من النبلاء الانكليز، واسمه وليم دي روز Roos, وكان قد جاء من المناطق الشمالية لانكلترا، لم تتوفر لديه الامكانات للمكوث أية مدة أطول مع الملك في القارة، ولذلك أمر الملك بتهور أن تنتزع منه أراضيه من دون حكم صادر عن نظرائه، وقد بدا هذا إلى الجميع أنه عمل غير

عـادل، وتصرف طغيـاني، لأنه بسبب أن وليم دي روز المذكـور كـان رجـلاً فقيراً، قـال للملك: «تقبل أراضي تحت اسم تعهـد، وامنحني الوسائل لكي أخدم بشكل موائم كفارس، ومن ثم سوف أقيم»، ولدى سماع الايرل رتشارد بهذا الإجراء وبإجـراءات أخرى مماثلة، وجّه اللوم إلى أخيه بحـدة، ونشب خلاف بينهما نتيجة لذلك، وقـد ترك أخاه وهو متألم بروحـه كثيراً، وقـرر العـودة إلى الوطن، ولذلك استـدعى بعض النبلاء، وعمل الاستعدادات من أجل الابحار.

ثم إن الملك، تصرف فجأة بشكل غير حكيم، فـانفجر غاضبـاً مهدداً ضـد الايرل، ولكي يخفي الايرل عنف أخيـه وغضبه، كظـم مشاعـره، وبقي معـه، ولكن عندما رآه قـد تصرف بشكل مضاد مبـاشرة لنصيحة شعبه، قام مع وليم، الايرل مارشـال، وايرل هارتفورد، وعدد كبير آخر من النبلاء، وتـرك الملك، الذي كان قـد أسلم نفسه تماماً لـرغبات أهل بوردو، مع الغسكونيين، وازدرى نصيحة رعيته الطبيعيين، ولذلك أخذ سفينة وعاد على الفور إلى الوطن، وشغل الملـك نفسه وتمتع بالراحة مع ملكتـه إليـانور، التي جلبت له بنتـاً، فأطال إقـامتـه في بوردو من دون عمل، وبدد أمواله في مختلف الطرق غير النافعة.

المخاطر التي واجهها الايرل رتشارد ورفاقه في البحر

أقلع النبلاء الذين تقـدم ذكرهم في البحر في يوم عيد القـديس لوقا، وبعـدمـا عـانوا من كثير من المخـاطر والعـديـد من الاضطرابات أثناء رحلتهم، وصلوا مع كثير من الصعوبة إلى كورنوول، وبعدما عمل ايرل رتشـارد نذراً بزيارة أحد الديرة من أجل الحفـاظ على حياته، تمّ انقـاذه بعـد صعوبات جمّة من فكي الموت، ونزل على جـزيرة قرب كـورنوول، أما السفن الأخرى، التي كانت قد غادرت الساحل الفرنسي، في الوقت نفسـه الذي غـادرت فيـه سفينة الايرل رتشـارد، فقـد تفـرقت بعنف العاصفة، وحملت إلى شواطىء أخرى.

عاصفة وأمطار غزيرة

في يوم عيد القديس إدموند، من العام نفسه، كان هناك رعد متميز مترافق ببرق، مع نذير شؤم عن وصول عاصفة طويلة، مخيفة للقلوب والآذان للأحياء، ولم يكن الانذار زائفاً، لأنه تبعه أنواء متواصلة في غير وقتها، وبأوضاع للرياح مزعجة ومضطربة، استمرت لعدة أيام، وتساقطت آنذاك أمطار غزيرة جداً، حتى أن نهر التيمز فاض عن حدوده المعتادة، وعن شواطئه القديمة، وأظهر نفسه فوق المنطقة الممتدة نحو لامبث امتداداً حتى ستة أميال، وغمر المنطقة بالطول وبالعرض، واستحوذ على البيوت وعلى الحقول في تلك المنطقة، ونظراً لفيضان المياه، ركب الناس في القاعة الكبرى في ويستمنستر على ظهور الخيول.

إرسال مؤن من إنكلترا إلى الملك

وأرسل الملك في تلك الآونة رسالة إلى رئيس أساقفة يورك، الذي كان وصياً على المملكة، آمراً إياه بارسال القمح الذي نما في أسقفية كانتربري، وفي العزب الأخرى التابعة للأسقفية نفسها، وكانت آنذاك فارغة، إليه إلى بوردو من دون تأخير، ومع القمح لحم خنزير وملح والأشياء الأخرى اللازمة والامدادات من أجل الشتاء، وكذلك أقمشة من أجل صنع ملابس، ونتيجة لذلك جرى ارسال عشرة آلاف عبوة من القمح وكثيراً من لحم الخنزير، إنما وهي مرافقة بمبلغ كبير من المال، وكأن انكلترا كانت بئراً لاينضب.

أوامر غير صحيحة لملك إنكلترا

وأرسل الملك أوامر دقيقة إلى رئيس الأساقفة المذكور، كي يصادر أراضي وممتلكات الذين هجروه على القارة، وتركوه بلادفاع وعرضة لتقلبات الأحداث، وعدهم خونة، وبشكل خاص ممتلكات وليم دي روز، وبعض النبلاء الآخرين، العائدين إلى المناطق الشمالية من انكلترا،

وقد عانى هؤلاء، نتيجة لهذا الأمر من خسارة كبيرة، وكان رئيس الأساقفة على كل حال، رجلاً حكيماً، ومقدراً للأمور، وكان يعرف أنهم ينبغي عدم لومهم، إذا كانوا قد تركوا الملك لبعض الوقت، بعد ابرامه لهدنة، وقد تركوه بسبب الفقر الذي استبد بهم، أو تركوه لكي يستردوا صحتهم، ولذلك لم يرغب، لدى صدور هذه الأوامر الطغيانية، أن يلطخ أخلاقه وسمعته، من أجل رسالة ليست ذات قيمة، بل فضّل أن يتركها تمر بصمت، لاسيما وأن الملك كان مرغماً على الموافقة على المشورة الحكيمة لكل من أخيه الايرل رتشارد، ولرعاياه الآخرين الموثوقين، بأن عليه والأفضل له العودة إلى مملكته، لكنه اختار الكلام الناعم للغسكونيين، وبقي في بوردو مع ملكته وسط سخرية ومزاح الفرنسيين، الأمر الذي لم يكن لمصلحته تماماً، هذا وبقي مع الملك سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، وايرل وليم أوف سالسبري، وعدد كبير آخر من النبلاء الانكليز، لكن ليس من دون المعاناة من خسائر كبيرة، مع تعريض أنفسهم للأذى، حيث أثقلوا بالديون، وعانوا من جميع أنواع الشدائد، وكانوا يقضون أوقاتهم من دون عمل ونائمين بشكل مهين.

تزايد خزي ملك انكلترا وعاره

وفي الوقت نفسه وصم الملك نفسه بوصمة من غير الممكن إزالتها، بسبب أنه رفض نصيحة مستشاريه الطبيعيين، حيث أذعن مراراً، وبطريقة صديقة تماماً واستجاب لرغبات كونت طولوز، وكذلك لرغبات ملك أراغون، وكانا صديقين هشين من القصب، حيث لم يقدما له في وقت الحاجة أي عمل جيد، لابل بالحري عارضاه ووقفا ضده، فقد كان أولهما هرطقي، وكان الثاني ملطخاً بعار عدم المحافظة على معاهداته وخرقها، لابل إنهما حاولا زرع بذور الخلاف بينه وبين رعاياه الاقطاعيين، لاسيما الايرل سيمون دي مونتفورت، على أساس

الكراهية السالفة لأبيه، الذي كان من قبل قد ألحق هزيمة شديدة، بملك أراغون والألبينيين، ولم يقم الغسكونيون لا الآن، ولا من قبل،لابتدليل ملك انكلترا، ولا بإطرائه، الأمر الذي عندما أخبروا به ملك فرنسا، من أجل أن يفرح لدى سماعه له، قال: «كونوا هادئين، كونوا هادئين، ولاتسخروا منه، أو أن تحاولوا جعلي أكرهه، لأنكم تكرهونه، إن صدقاته وقداساته، سوف تنقذه من جميع المصائب والمخاطر»، ولقد سمعت أيضاً أن رأياً مماثلاً صدر بشأنه عن للويلين، أمير شمالي ويلز، الذي كان عدواً له.

وفاة رتشارد دي بورغ

وفي هذه الآونة نفسها، مات رجل نبيل، هو رتشارد دي بورغ، وكانت لديه أراضي كثيرة وممتلكات في ايرلندا، كان قد ورثها من أعمال التوسع لأبيه المشهور.

موت هيوج دي لاسي

وفي هذا العام نفسه، غادر هيوج دي لاسي هذه الحياة، وكان مقاتلاً صاحب شهرة كبيرة، وحاكماً مشهوراً لشطر كبير من ايرلندا.

روبرت أسقف لنكولن يترجم أناجيل البطاركة الاثني عشر

وفي هذه الآونة أيضاً، ترجم روبرت، أسقف لنكولن، وكان رجلاً بارعاً جداً، إلى اللاتينية، من الاغريقية، ترجمة صحيحة جداً أناجيل البطاركة الاثني عشر، وكانت هذه الأناجيل غير معروفة منذ سنين طويلة، ومخفية من خلال حسد اليهود، لأن النبوءة المتعلقة بمخلصنا موجودة فيهم، لكن الاغريق الذين هم أكثر المتقصين بحثاً من دون ملل عن جميع الكتابات، كانوا أول من علم حول هذا الموضوع، فترجموهم عن العبرية إلى الاغريقية، ولم يكونوا معروفين في أيام القديس جيروم، أو من قبل أي مترجم آخر للكتابات المقدسة، ولم

يصلوا إلى معـــرفـة المسيحيين، بأي شكل مـن الأشكال، بسبب الخطط التـآمرية لليهـود، وبناء عليـه، قـام الأسقف المذكور بـالترجمة، يساعـده نيقولا، وكان اغـريقياً، وكاهناً في دير القديـس ألبان، وجاءت الترجمةإلى اللاتينية، واضحة، وكلمة مقابل كلمة، لتلك الرسائل المجيدة، في سبيل تمتين الإيمان المسيحي، ولتسبيب الإرباك الكبير لليهود.

وفاة راعي دير إيفهام

وفي هذه الآونة، أنهى أيامه، راعي دير ايفهـام، وأسقف كوفنتري، في غسكوني، بعـدمـا شغل دوراً كبيراً أسـاسياً في انكلترا، وبعـدمـا أمضى كثيراً من الأيام المجهدة في خدمة الملك، وحدثت وفاته في منطقة اسمها ريغيـولا Regula أو لى ريولي Reole, في اليـوم الثـامن من كانون أول، وتولى أسقف تلك المنطقة دفنه بكل احترام.

وفي هذا العـام نفسـه، في التاسع والعشرين من تشريـن الثاني، مـات جـوسلين، أسقف باث، عن عمـر مديـد، وكان متميـزاً لحيـاته الجديرة بالثناء وأخلاقه.

إنهاك خزينة ملك انكلترا وطلبه المال

وفي هذه الآونة أيضـاً ضلل ملك انكلترا من كل جـانب، أو بالحري خدع من قبل البـواتيين والغسكونيين، وبات فقيراً، وسيء السمعة، لأن بدلات الخدمة، والاستخراجات، وجميع الخزائن والهدايا التي جمعت من أجله، جـرى تبديدها مـن دون فائـدة، فضـلاً عن هذا عاد إلى ممارسـة الاستخـراجـات، وفرض الضرائـب، والطرائق الأخـرى، فبعدمـا فقـد أراضيه وكـرامته في بواتو، وجـد الآن نفسه في غسكوني مثقـلاً بالدين، مع أنه ببدل الخدمة استخرج —لكن ليس من دون مصاعب جمة سببها للانكليـز— ثلاثة ماركـات عن كل بدل، وقال بعضهم لابل استخـرج عشرين شلناً.

الملك يطلب العون من السسترشيان

وفي ذلك الوقت، طلب ملك انكلترا بشكل رسمي، وتقدم بالرجاء بشكل حبي إلى رئيس أساقفة يورك، بأن يقوم رئيس الأساقفة بتوجيه الدعوة إلى جميع رعاة دير طائفة السسترشيان إلى الاجتماع وأن يلقاهم بكلمات لطيفة، وأن يحرضهم وأن يثيرهم للاهتمام بمولاهم وملكهم، الذي كان يحارب في مناطق أجنبية، في سبيل رفع شأن المملكة ومن أجل مصالحها، إلى حد تعريض شخصه إلى حظوظ الحرب المشكوك فيها، ولذلك يتوجب عليهم أن يقدموا إليه خدمة فعالة، بتقديم المال إليه، وبذلك يقدمون إليه معروفاً، ومساعدة قيّمة، وبناء عليه اجتمعوا، وردوا عليه في الاجتماع الأول قائلين: «كم تريد يامولاي»؟ فأجابهم رئيس الأساقفة قائلاً: «قليلاً»، وعندما سأله السسترشيان: «وكم هذا القليل»؟ قال لهم رئيس الأساقفة: «بقدر مايمكن أن تحصلوا عليه من أصوافكم لعام واحد»، مما كان مساوياً إلى قول:

حياتك كلها هي كل ما أطلبه،

والبقية أتركها بين يديك.

لأنه من الذي يمكنه أن يعاني من الحاجة إلى ضروريات الحياة لأيام قليلة، وقد حرم من الضروريات التي تتطلبها الحياة، من الذي يمكنه أن يفعل ذلك دون أن يلفظ أنفاسه؟ لكنها كانت كلمة الملك في فم رئيس الأساقفة.

جواب السسترشيان

وشعر هؤلاء السسترشيان بأن مصيدة قد نصبت إليهم، وأن خسارة وشيكة الوقوع، لذلك أجابوا بحكمة كما يلي:

«مولانا رئيس الأساقفة، نعمتك وحسن تقديرك على دراية بأننا جميعاً

جسد واحد، وأننا لايمكننا الموافقة على الذي طلبته لصالح مولانا الملك من دون إذن الهيئة الرهبانية العامة، علاوة على ذلك، لنفترض أنه جرى الآن عقد اجتماع للهيئة الكهنوتية العامة، نحن نعلم،وأنتم بحكم تقديركم تعلمون، أنه غير مسموح لنا تقديم المساعدة إلى أي انسان، يباشر أعمال الحرب، التي فيها سفك للدماء، لاسيما الدماء المسيحية، خشية أننا بتقديم مثل هذه المساعدة، سوف نأى عن أحكام نظام طائفتنا، التي تخاف خوفاً عظيماً من الدماء، لكننا على استعداد لتقديم العون إلى مولانا وولي نعمتنا بصلوات مفيدة ومستمرة، وبالصدقات وبأعمال أخرى من التقوى، وإنه بدون شك علينا الاعتقاد، أنه بهذا سوف يفوز، وذلك مما لاشك فيه، كما أنه سوف ينتصر بشكل مجيد أكثر، ولسوف يشعر بأن العون اللاهوتي سوف يمد قضيته بالتقدم، إذا ما تابع —كما هو الآن— وظل ثابتاً بإيمانه»، وعلى هذا رد رئيس الأساقفة، وهو منزعج، وملامحه مضطربة متبدلة قائلاً: «بأي وجه سوف تطلبون أي شيء من الملك وقت الحاجة، وهو الذي أجبتموه بهذه الطريقة الجافية، ورددتم على رجائه في هذه الأزمة الهامة»؟، فقال واحد من الرعاة السسترشيان: «مولانا نحن نتذكر، أنه عندما توج ملكاً، أقسم أنه سوف يظهر العدل نحو كل انسان، ونحن سوف لن نسأله أي شيء خارج الطريق العام، كما أنه لايمكنه، ولايجوز له، أن يحرمنا الذي أقسم على منحه لنا، وعليه أن يحكمنا بعدل، دون أن ينزل بنا أي ضرر غير قانوني، لكنه إذا أراد، في سبيل صالح روحه، أو أرواح أجداده، ولفائدة مملكته، أن يضفي أية منفعة خاصة علينا، سوف نفتح له صدورنا شاكرين لاستلامها».

الرعاة السسترشيان لايعبرون البحر إلى الهيئة الرهبانية العامة

وكذلك في ذلك العام، لم يسمح لرعاة الديرة السسترشيان، بعبور البحر، كما أنهم أنفسهم لم يرغبوا أن يفعلوا ذلك، لأنهم خافوا خوفاً

عظيماً من أن تكون هناك مكيدة منصوبة لهم من رجال الملك في البحر، وكأن ذلك بدون معرفة الملك، وذلك بسبب أنهم رفضوا منحه صوف سنتهم، ولذلك اعتذروا عن أنفسهم بأدب، بوساطة أساقفتهم، حتى لايظهروا أنهم كانوا هم السبب.

أوضاع الهواء خلال السنة كلها

وانقضى هذا العام، بعدما وفر كميات كبيرة من الفواكه والخضراوات، وذلك على الرغم من أنه كان جافاً وحاراً، وكان هناك قرب نهايته وباء عام، وحميات ربعية.

ملك انكلترا يبدد وقته في بوردو

في سنة النعمة هذه التي هي السنة ١٢٤٣، والتي هي السنة السابعة والعشرين لحكم الملك هنري، كان الملك نفسه يمضي الشتاء في بوردو، ومكث هناك في حالة بهجة، واستخرجت كونتسة بيارد منه مع ابنها غاستون الغسكونيين المال يومياً، وذلك إلى جانب راتب مفروض، لم يكن تافهاً بالمرة، ولقد استخرجا هذا كله من الملك، الذي كان تحت سلطانهم.

حصار دير فيرني

بينما كانت الأمور تسير على هذا المنوال، ولكي لايكون رجال الملك من دون عمل، جرى اخضاع بلدة لبعض العصاة الغسكونيين في أراضي بوردو، وجاء اخضاعها بالقوة وجعلها تحت سلطان الذين ظلوا مخلصين للملك، وكان هناك دير اسمه دير فيرني Verine, فيه اعتصم العصاة على الملك، حيث حولوا الكنيسة إلى قلعة، أو بالحري إلى كهف لصوص، وجرى حصار هذا الحصن بشدة، وهوجم من قبل خدم الملك المخلصين، لكن من دون نجاح، ووقتها قام واحد من كتّاب الملك، وكان مستشاراً خاصاً لديه، واسمه جون مانسيل، وكان رجلاً

شجاعـاً بـالحـرب، وصـاحب روح عـاليـة، قـام بتـوجيـه اللوم إلى المهاجمين، واتهمـهم بالتـقـاعـس وإضـاعـة الوقـت، وفي الوقت الذي كـان يريد أن يضـرب فيـه مـثلاً للآخـريـن بالنهـوض بشكـل أكثـر فعالـية ضد الأعـداء، وكـان يرغـب في إعـداد طـريق، قـام واحـد مـن المحـاصرين، وكـان متـمركـزاً في الجـزء الأعـلى من الكنيسـة، باطـلاق حجـرة ذات وزن ثقيـل نحو الكـاتب المذكور، فسحق سـاقه مع المفـاصل والنخـاع في عظـامه، وعـندمـا كـان الرجـل نفسه يعـدّ العـدة لتحطيـم بقيـة جسـده بـالحجـارة، قـام رفـاقـه والمرتبطين به بإخـلاص، فغطوه بـأجسـادهم، وبترسـة كبـيرة، اسمـها الدرايىء، وهكذا حـرروه بصعـوبة من خطر الموت، وظل جـون هذا نفسـه الذي أصيب بجراحة حادة في جسـده، لمدة طويلة فاتر الهمة وضعيفاً، غير أنه تعـافى بوسـاطة براعـة الجراحين، وبدأ يتنفس، وعندمـا رأى الملك هذه الشجاعة الكبيرة، وشـاهد إخلاصه حوّله من كونه مستشـاراً خاصاً له، وعمل من جـون المذكـور مستشاراً أكثـر خصـوصيـة، ذلك أنه استحق بفضـائله المبرهن عليـها أن يكـون صـاحـب مـرتبـة بين الأعلين في انكلترا.

رهبان كوفنتري ينتخبون قائد جوقة المرتلين لديهم أسقفاً

وحوالي هذا الـوقت نفسه، سمع رهبـان كوفنتري رواية مؤكـدة عن وفـاة راعي ديـر ايفهـام، الذي كـان قـد عمل بوسـائـط الملك أسقفـاً لشيستر، فانتخبوا وأعلنوا بمـوافقة عامة، وبوسـاطة موافقة بعض كهنة لشفيلد، أسقفـاً لهم، رئيس جـوقـة المرتلين لديهم، الذي هو وليم أوف مونتبلر Montpellier, غير أن الملك، الذي كان ناوياً وضع إنسان آخر في ذلك الكرسي، لم يقبل لابالانتخاب ولابالأسقف، ووقف بعض كهنة لشفيلد إلى جانب الملك، وقد أثار هؤلاء على الجانبين خلافاً مرهقاً ونكداً.

ملك انكلترا يشكو من فقره

وفي حوالي الوقت نفسه، ومع اقتراب شهر آذار، قدمت رسائل من ملك انكلترا من المناطق الأجنبية، إلى رئيس أساقفة يورك (الذي مارس في مملكة انكلترا أعمال الحاكم الرئيسي) تحتوي على شكاوى تعيسة، لأن ما من سفينة قدمت إليه، تحمل مساعدات عسكرية أو مساعدات مالية، منذ تاريخ وصول راعي دير ايفهام، الذي تأرجح بوساطة الأمواج العاتية، وبعدما أرهق لعدة أيام فارق هذا العالم، لكن رئيس الأساقفة كان مندهشاً كثيراً تجاه هذا، لأنه كان قد أرسل إليه مالاً، مع كميات كبيرة من الإمدادات والمؤن، ولذلك بات يعتقد بثبات، ويخشى من أن الغضب المنتقم للرب الخالق قد دمرهم وأغرقهم في أعماق البحر، ولذلك أعدّ مؤناً حتى ترسل إلى الملك، مع مال، كان الآن مبلغاً صغيراً جداً.

ولاة الموانيء الخمسة يطلبون المساعدة من رئيس أساقفة يورك

وقدم أيضاً ولاة الموانيء الخمسة إلى رئيس أساقفة يورك، يشكون إليه بشدة، بأنهم قد صدوا الآن ثلاث مرات، ليس من دون خسائر لاتعوض بالرجال، وبالسفن والأشياء الأخرى، وذلك من قبل الناس الذين يواجهون شواطئهم، وبشكل خاص سكان كالي Calais الذين هاجموهم في سبيل النهب، وعلاوة على ذلك أكدوا بشكل يقيني، أنه لا هم أنفسهم، لابل ولا حتى الأسطول الانكليزي كله، يستطيع أن يصمد في وجه الأسطول الذي جرى إعداده من قبل هذا العدو، وأضافوا قائلين: «يتوجب على مجلس الملك الاستعداد والتجهز ضد الخونة الخفيين، وضد الغارات المكشوفة، التي أعدت، وسوف تعدّ ضد أنفسهم، وضدنا نحن، والتي تهدد بأن تصبح كل وقت أكثر إخافة، وأكثر شدة، لأن كونت بريتاني، مع جميع سفن بريتاني وبواتو، قاموا وهم مجهزون بشكل جيد بالرجال والسلاح، بمهاجمة جميع الذاهبين من

جهتنا، ومن عندنا إلى الملك، وكذلك جميع المسافرين من عند الملك، إلينا، بطريقة عدوانية، وحيث أننا بتنا محرومين من جميع المساعدات من الملك، وكذلك من المساعدات المالية والعسكرية، فررنا إلى طلب العون من نصيحتكم، لأننا بتنا أنفسنا عاجزين عن تشكيل رأي، وعلاوة على هذا، وتتويجاً لاضطراباتنا، نادراً مايسمح لنا سكان تخوم نورماندي، والذين يحرسون السواحل الأكثر بعداً، مع قرصان ويزانت Wissant وكالي، ولو حتى إلى مسافة صغيرة، بالقيام بأعمال صيدنا للسمك، والقراصنة أيضاً الذين يحرسون أعماق البحار في غلايين، لايسمحون حتى للمسافرين بالعودة إلى بلادهم، كما أن ملك انكلترا محصور الآن في بوردو، وكأنه في سجن، مالم تزودنا حكمتكم بحملة عسكرية بحرية وبكثير من المال».

وعندما وصلت هذه الأشياء إلى مسامع رئيس الأساقفة، لم يعد يتجرأ الآن على أن يرسل إلى الملك السفن المحملة، التي أصبحت جاهزة، وذكر للملك بشكل رسمي أنه إذا كان يقدر نفسه، وممتلكاته، عليه أن يبادر بسرعة إلى تصحيح أخطائه التي وقع فيها، وأن يخرج ناجياً من المصائد التي وقع فيها بشكل خياني، وأن يعجل عودته إلى انكلترا، وقال ممازحاً الملك، عن طريق الاشارة:

السلاح على الأرض، والسفن عند البحر، ونحن نخاف

فبين الاثنين، عليك أن تدير الدفة بحذر

إعاقة انتخاب بابا بسبب الخلافات بين الكرادلة وبقاء الكرسي البابوي شاغراً

وفي الوقت نفسه أبلغ الامبراطور فردريك الكرادلة، الذين كانوا في مناطق مختلفة، ولكل منهم موقفه، برغبته بضرورة وجوب اجتماعهم مع بعضهم، والقيام بشكل اجماعي بانتخاب بابا، وأكد لهم أنه بسبب

غلطتهم قد عـانى شخصياً من ضرر كبير لحق سمعتـه، لأن كثيرين يعتقدون ويؤكدون، من خلال جهلهم بحقيقة الوقائع، بأنه هو كان المعيق الرئيسي لتقدم كنيسة روما، ولمنافعها، وأنه كان السبب في بقاء الكرسي الرسولي شاغراً، لكن الكرادلة الذين لم يروا أدنى بارقة أمل، ولا حتى بصيص نار تحت الرماد، وذلك من خلال مكائد الشيطان، العدو القديم للجنس البشري، لم يكونوا مجمعين في رغباتهم، كما أنهم لم يكونوا راغبين بالاجتماع من أجل انتخاب حبر روماني، وقاموا على كل حال بتقديم الرجاء على الفور إلى مولاهم الامبراطور فردريك، أنه إذا ما رغب في أن يعدّ المحامي عن سلام الكنيسة وحريتها، أن يسمح لأساقفة الكنيسة، الذين مايزال يحتجزهم، بأن يغادروا محررين، تحت أمل أكيد جداً بسلام سعيد.

إطلاق الإمبراطور فردريك سراح النواب البابويين والأساقفة

وبناء عليه، وضع الامبراطور ثقة مطلقة بكلام الكرادلة، ولاعتقاده بثبات بأن بابا سوف يجري اختياره، وأن الكرادلة سوف يكونوا متأكدين بأنه سيكون موائماً لصنع سلام مشرف بين الامبراطورية والبابوية، ولذلك سمح من دون مقابل، للنواب البابويين والأساقفة الذين كانوا مسجونين لديه بالمغادرة أحراراً من دون أية معيقات أوفدية.

بقاء الكرادلة غير قادرين على الإتفاق لانتخاب بابا

لكن الكرادلة بقيوا متصلبين، ومكثوا مختلفين مع وجود كراهية متبادلة، وكأنهم كانوا يتملقون للامبراطور، أو كأن الشيطان قد زرع الخلاف فيما بينهم، لذلك ما برحوا غير راغبين بالاجتماع مع بعضهم، ولهذا توجهوا جميعاً بالدعاء والصلاة إلى نعمة الروح القدس، وأن يزودهم بسعادة وبشكل موائم في سبيل صالح الكنيسة العالمية، وكذلك

الكرسي البابوي، علماً بأنهم عندما أطلق مؤخراً سراحهم من السجن الامبراطوري، قد وعدوا الامبراطور، الذي أطلق سراحهم، أنهم بوساطة البحث الدقيق عن الحق، وبكلمة الصدق، التي هي كلمة الرب، سوف يبذلون غاية جهدهم، للحصول على السلام للكنيسة، وأن يكون ذلك موائماً للامبراطورية، ولمكانة ورفعة الكرسي البابوي.

الإمبراطور يمنح جنوده ممتلكات الكرادلة

وعندما وجد الامبراطور فردريك وعودهم فارغة من التنفيذ، وأنه قد خدع بآماله، شعر بغضب عظيم، ولأنه كان قد حشد جيشاً كبيراً تألف من تسع وحدات، تحتوي كل واحدة على خمسة آلاف من الفرسان، قام بحصار الشطر الأكبر من روما، لمعاقبة المواطنين والكرادلة الذين وضح أنهم فعلة هذا الشقاق وموسعيه إلى حد مدمر للكنيسة وللامبراطورية.

ولكن سكان المدينة الذين بسببهم قرر الامبراطور مهاجمة المدينة، سوغوا أنفسهم بشكل قانوني، وبرهنوا بما فيه الكفاية على براءتهم، وأكدوا بأن الكرادلة كانوا منقسمين في أرواحهم أكثر منه بالجسد، وكانوا موزعين ومتخفين في بلدات مختلفة، وبناء عليه أمر الامبراطور برفع الحصار، وأن يجري نشر المرسوم والأمر التالي في جميع أرجاء الجيش: «تتوجب استباحة جميع ممتلكات وكنائس الكرادلة، وكذلك الممتلكات العائدة للكنيسة، من قبل الجيش».

اجتماع الكرادلة لخوفهم لانتخاب بابا

ثم قام بعض من المسلمين، ولصوص آخرين، مع مقترفين للشرور، كانوا يقاتلون مأجورين لدى الامبراطور بهجوم مفاجىء على مدينة ألبانو المشهورة، واستباحوها بشكل وحشي، وهكذا حدث أنه مابين مائة وخمسين كنيسة، ما من واحدة وفرت، أو تركت من دون استباحة،

وقد سلبوا الأثواب، وكؤوس القربان، والكتب، وفي الحقيقة استولوا على كل شيء ظهر أنه كان ثميناً، أو أن له أية فائدة ومربح، وكان ذلك بعدما نهبوا الناس ومحقوهم بشكل رهيب، وعندما بات الجيش مستعداً للقيام بسلب مشابه للممتلكات الأخرى للكنائس، راسل الكرادلة مولاهم الامبراطور، وتوسلوا إليه بتواضع كي يوقف غضبه، وأن يأمر بايقاف أعمال الاستباحة، حتى يتمكنوا على الفور، تماشياً مع تصوره ورغبته، فيمضون وهم واضعين الرب نصب أعينهم، فيختارون حبراً رومانياً، موائماً للكنيسة وللامبراطورية، وبناء عليه هدأ غضب الامبراطور، وأوقف بموجب مرسوم امبراطوري أعمال السلب والنهب.

استخراج المال من مواطني لندن

وتعرض سكان لندن في هذا الوقت نفسه إلى ضيق شديد، بسبب فرض ضريبة ثقيلة عليهم، أطلق عليها اسم المكس الاقطاعي، وجرت جبايتها على الشكل التالي: قدم الجباة الملكيون والموظفون إلى كذا وكذا من المواطنين، قائلين: «ينبغي أن تقرضوننا كذا وكذا مبلغاً من المال إلى مولانا الملك، الذي يحارب في مناطق أجنبية في سبيل مصالح المملكة، وذلك إلى أن يعود إلى الوطن»، ووفقاً لإرادة هؤلاء الجباة وتقديراتهم، جرد السكان من أموالهم، علماً بأن جميع هذه الأشياء، وأكثر، كان السكان مستعدين عن طواعية لتحمل دفعها لو أنهم رأوا أنها سوف تفيد الملك أو المملكة، ولكن:

عندما يتوقف الجهد والعمل،

تزداد بالفعل مطالبنا.

عقد هدنة بين ملكي إنكلترا وفرنسا

في يوم عيد القديس جورج، جرى تثبيت الهدنة التي كانت قد

أعـدت، وجرت الموافقـة عليهـا بين ملك فـرنسا وملك انكلترا، وجـاء التثبيت من على الجانبين، لمدة خمسـة أعوام، وكان ذلك بوسـاطة تدخل رجال حكماء ومخلصين، كانوا أصدقاء لكلا الطائفتين، وتم الاتفاق على إبقاء كل ما استولى عليه الملك الفرنسي في تلك الحملة، بين يديه، علاوة على ذلك أعيـدت بعض البلدات إلى حكـم الملك الفـرنسي، وهي التي بعـدما عـاد ملك فـرنسا من كـونتيـة بواتو، كـان الملك الانكليزي قـد استـولى عليهن بمسـاعـدة الغسكونيين، ولكي يتم ضمان تنفيـذ هذه المعـاهدة الصعبة في البر وفي البحـر، خـلال ذلك الوقت المحدد، تعهـد ملك انكلترا بأن يدفع باخلاص إلى ملك فـرنسا مبلغ خمسة آلاف باوند استرليني، أي ألف باوند عن كل سنة، غير أن كونت بريتاني، الذي كان رجلاً ماكراً وداهية، تظاهر بأنه كان جاهلاً بجميع هذه الأشياء، وشغل نفسـه بيقظة وفق طرائق القـرصان بالسلب والنهـب فوق سطح البحـر بغـلايينه وسفنه الأخـرى، ولم يرغب بالقدوم إلى الشـاطىء، خشيـة أن تكبح الارادة الملكيـة حملاته الشريرة والمفسـدة، وكـان من الأعمال التي اقترفها بشر كـونت بريتاني المذكـور، الاستيلاء على، ونهب سفينة تجارية كبيرة جـداً تابعة لبيـوني Bayonne, وكانت محملة بالتين واللوز، ومختلف أنواع التوابل، وكـانت متوجهة ومبحرة نحـو انكلترا، وحدث هذا قرب أيام الصوم الكبير، ثم إن ملك فرنسا، كبح —بناء على طلب ملك انكلترا— وأوقف الهجمات الشريرة للكونت المذكور، وذلك تحت تهديد الحرمان من الميراث.

وفاة هوغ دي ألبينت إيرل أروندل

وفي السابع من أيار، من العام نفسه مات هوغ دي ألبينت Albinet ايرل أروندیل Arundel, وهو في زهرة شبـابـه، حيث أنه كـان بالكـاد قـد اجتـاز حـدود الشبـاب، وقـد دفن في ويمـونـدهام Wymonham, في كنيسة القديسة مريم، وهي رئاسة رهبان عائدة

إلى دير القديس ألبان، وجاء دفنه إلى جانب أبيه، الذي كان راعي تلك الكنيسة ومؤسسها، وإثر موته جرى تقسيم ميراثه النبيل بين أخواته الأربعة.

وفاة هيوبرت دي بيرغ إيرل كنت

وفي الوقت نفسه، في الثاني عشر من أيار، أنهى أيامه ايرل كنت، يعني هيوبرت دي بيرغ، وجاءت وفاته عن عمر طويل، ووفق طريقة تستحق أعظم الثناء، وكان ذلك في عزبته في بانستد Banstead, وذلك بعدما تحمل عدداً من الحملات غير المسوغة والاضطهادات من الملك مع كثير من تقلبات الحظ، وجرى حمل جسده المحترم بكل تقدير إلى لندن لإدخاله إلى بيت الرهبان الدومينيكان، الذين منحهم أثناء حياته كثيراً من الأعطيات، وأشياء أخرى كان من بينها قصره الفخم، الذي لم يكن بعيداً جداً عن قصر الايرل رتشارد في ويستمنستر، والذي اشتراه فيما بعد رئيس أساقفة يورك.

رغبة ملك إنكلترا بالعودة إلى الوطن لكنه منع بسبب ظروف متنوعة

وفي هذه الآونة، رأى مولانا الملك أن الحظ معارض له في كل شيء، واكتشف بأن أتباعه الانكليز المخلصين قد أخبروه الصدق، فعاد إلى نفسه ثانية، مع أن ذلك جاء متأخراً، وندم أنه لم يذعن إلى آرائهم الصحيحة، ولذلك أشار إلى رئيس أساقفة يورك أن يحضر له اسطولاً، عندما يستطيع، وأن يرسله حتى يقابله، لكي يتمكن أثناء سفره من تجنب مصائد أعدائه بشكل فعال، إذا ما صدف وكان أي شيء من هذا القبيل قد أعدّ له، كما أنه أعطى أوامر بوجوب استقباله بسرور من قبل جميع نبلاء انكلترا، على الشاطىء، عندما ينزل إلى اليابسة، وجرى ارسال اسطول كبير لمقابلته، وكانت نتيجة هذا الأمر إفقار نبلاء انكلترا

بشكل تعيس جداً، الذين كانوا ينتظرونه يومياً على شاطىء بورتماوث، ليس من دون تحمل نفقات عالية، والمعاناة من الارهاق والانهاك، لأنه أخر عودته حتى عيد القديس ميكائيل، لأن الملكة كانت مرهقة بالحمل أو بمتاعب أخرى، وعلاوة على ذلك، وجد شعب بوردو، لابل بالحري جميع الغسكونيين، بأن تأخر الملك كان عظيم المنافع لهم، ولذلك كانوا يسعون بكل وسيلة ممكنة، لاقناع الملك لإمضاء الشتاء معهم، وأن يبدد ماله من دون فائدة له شخصياً، سواء المال الذي استخرجه أو سوف يستخرجه من مملكته، المهم أن ذلك مفيد لهم، ولقد حدث على الفور، بعدما كان الملك على وشك مغادرة بوردو، وبعدما كان قد عيّن نيقولا دي مولي Molis, كشخص مناسب ليعمل بمثابة حاكم، وهو الذي يدعونه القهرمان، وبعدما اتخذ جميع الإجراءات الاحترازية من أجل سلامة الأرض، وبعدما أقلع بسفينته، وكان مبحراً في أعماق البحار، متوجهاً نحو انكلترا، نشب خلاف حاد بين الغسكونيين، فجرى استدعاء الملك على وجه السرعة، بوساطة غليون أرسل خلفه، وقد أرغم على العودة، من أجل أن يخمد النزاع الكبير الذي نشب، وهكذا أعيقت رحلته إلى انكلترا بكثير من المعيقات.

نشوب خلاف بين دير كانتربري وأسقف لنكولن

وأثناء مرور هذه الأيام، وبينما كان الملك، كما تقدم وقلنا، كان مايزال في الخارج، نشب خلاف ساخن بين دير كانتربري، وأسقف لنكولن، وقد نشب بسبب مايلي: طالب أحد الكهنة بشكل غير لائق راعي دير بارديني Bardeney بسداد دين، وكان واحد من هؤلاء قد تعاقد عليه مع سلف الراعي نفسه، وعندما نشب خلاف حول هذا، كان هناك رئيس شمامسة لنكولن، وكان يرغب في الحط من مكانة الراعي المذكور الذي كان مرشحاً لمرتبة أسقفية، وكذلك أن ينال من مكانة ديره، المكانة التي تمتع بها رهبان الدير دون أن يؤذيهم

أحداً، ولذلك قال للكاهن المذكور، عندما كان يطالب بسداد الدين المذكور: «تقدم بشكوى إليّ بطريقة جادة وموائمة فيما يتعلق بهذا الضرر الذي عانيت منه، وأنا سوف أتولى اخضاع وتطويع هؤلاء الذين لم يعرفوا الخضوع حتى الآن، أعني خصومك الرهبان، وسوف أسترد جميع الدين إليك، وأستخرجه منهم بالقوة، إذا كان ذلك ضرورياً».

وبناء عليه تبع نصيحة هذا الأرعن المختال، فتقدم بشكوى قاسية ضد راعي الدير ورهبانه بشكل معلن، أمام رئيس الشمامسة، الذي استدعى راعي الدير للظهور أمامه، حتى ضمن امتيازاته، للاستجابة للقانون حول هذا العنوان، وعندما أدرك راعي الدير أن ذلك كان ضد قانون الكنيسة، وضد العرف، تقدم بشكوى استئناف مضادة، ثم إن رئيس الشمامسة عندما وجد نفسه معارض بشكل غير قانوني، استدعى راعي الدير للظهور في مكان آخر، لكن راعي الدير قال: «لا»، مستنداً على شكواه الاستئنافية المتقدمة، لأنه كان عارفاً بأنه كان يتآمر ضده، وكان لايطلب شيئاً سوى حجة من أجل مسخ امتيازه، وتحويله إلى لاشيء، وكانت عدة محاولات قد جرت من قبل، أكدتها هذه المحاولة الأخيرة، جعلته يتأكد أن ذلك كان مقصد عدوه، وقد عرف علاوة على ذلك، أنه إذا ما جرى تقديم هذه الشكوى أمام الأسقف، (وهو ماكان رئيس الشمامسة يسعى بدهاء أن يفعله) فإن الأسقف سوف يكون مؤثراً اخضاع الرهبان، لأنه كان يعدّ مضطهداً عاماً لطوائف النساك، ومعادياً بشكل خاص للامتيازات الممنوحة للرهبان، ولهذا استهدف رئيس الشمامسة الحصول على سبب لتفجير خلاف وصراع، وصنع مصاعب لايمكن لأحد التخلص منها، لذلك تقدم بشكوى حول هذه المعارضة إلى الأسقف، وبناء عليه استدعى الأسقف راعي الدير للاجابة على هذه الشكاوى المضاعفة، لكن راعي الدير ظل ثابتاً باعتماده

على استئنافه المتقدم، فرفض الاستجابة إلى هذا الاستدعاء، ولأنه كان يعرف أن الأسقف سهل الإثارة إلى حد الغضب، وأنه في هذه الحالة سوف يظهر المحاباة لرئيس الشمامسة، وبناء عليه غضب الأسقف غضباً شديداً، وامتلأ حقداً أكثر مما ينبغي، فقام بانزال عقوبة الحرمان الكنسي ضد راعي الدير، في تلك البقعة، وعدّه متمرداً، الأمر الذي تحمله راعي الدير بصبر، حتى لايتعرض في النهاية للعقوبة من أجل العصيان، وبعد مضي عدة أيام أرسل الأسقف مفتشين إلى بارديني، وكانوا مدنيين، وكان الهدف توجيه الاهانة إلى الرهبان، وليس تقويم الذنوب، إذا كان أياً منها موجوداً، ولذلك رفضوا منحهم القبول، لأنهم جاءوا باسم الأسقف، الذي كان عدوهم المكشوف، ولأنهم كانوا مرسلين بشكل شرير، يضاف إلى هذا، لأنهم كانوا مدنيين، وجاهلين تماماً بالأنظمة الديرية، ثم بسبب أن راعيهم، الذي كان رئيسهم وقائدهم، والذي من دونه لايمكنهم اتخاذ أية إجراءات، كان مغلولاً بسلاسل الحرمان الكنسي، بموجب قرار صادر عن الأسقف المذكور، وبناء عليه أصبح المفتشون عرضة للإهانة، لابل حتى عرضة للتهديد، وصاروا معرضين أنفسهم للعنف من قبل الذين أثاروهم، وصدهم البوابون، وبعدما أغلقوا الأبواب قالوا لهم: «نحن نرجوكم بتواضع بالمغادرة بسرعة، قبل أن تتعرضوا للهجوم عليكم من قبل عدد كبير من الساخطين من الناس في هذه المنطقة، فنحن لايمكننا ضبط عنفهم»، ثم إنهم غادروا بعدما عملوا تهديدات وتقدموا بشكاوى حول هذه الأشياء إلى الأسقف، لكن مع مبالغات كبيرة جداً، وقالوا بأنه كان لدى الرهبان رجال مسلحين لمهاجمتهم، وأن خدم الرهبان قد ضربوهم بالهراوات، وبذلك أسرفوا بشكل وقح بتجاوز حدود الصدق، ولذلك أثير غضب الأسقف إلى أبعد الحدود، فهدد بانزال الدمار والفوضى على راعي الدير، وعلى الرهبان، وذلك بقدر ما يمتلك من قدرة، ولذلك أصيب راعي الدير بالحزن، وأخذ يفكر بالذي يمكنه أن يعمل، وبعد التقصي علم بأن دير

كــانتربري يمتلك امتيــاز تلقي وسماع شكاوى الاستئناف أثناء فــراغ الكرسي البابوي، لذلك لجأ إلى هذا العلاج، وتقدم بشكوى حادة حول الأذى الذي تحمله.

وبناء عليـه، قام الأسقف وهو حـانق جداً، فجمع في هارتفـورد آدم أسقف كونور Connor وبعض رعاة الديرة من الطائفــة السوداء، الذين كـانوا في أسقفيتــه، مثل رعـاة رمـزي Ramsey وبيتربورا، وخلع بشكل شائن راعي دير باردني المذكـور، أثناء غيابه، ولأنه لم يكن هناك انسـان آخـر يجيب عنه، وعـدّه مـداناً ومتمـرداً، وادعى بأن راعي الدير لم يسر بشكل نظامي باستئنـافه، ولم يبـدأ بالتقـدم بالشكوى إليـه، فهـو كان أسقفـه، كما أنه أعلم رهبـان باردني بأنهم غير ملزمين بطاعتـه بأي شيء، بل يمكن عدّه وكأنه وضع جانباً وخلع، وذلك بالاضافة إلى كونه محروم كنسياً.

وعندمـا علم دير كـانتربري بأن أسقف لنكولن قـد خـرق امتيـازاته واعتدى عليها بهذه الطـريقة الفاجرة، جمعوا خمسين كـاهناً من الأسقفية المذكورة، وقاموا مع جمع كامل فيـه خمسين راهباً— كاهناً، أو حتى أكثر من ذلك، والشمـوع مشتعلة، والأجراس تقـرع، فحرموا كنسيـاً بشكل مهيب، الأسقف المذكـور، أسقف لنكولن، على أسـاس أنه عـاق، لابل هو متمرد نحو الكنيسة، التي من الواضح هو أسقف فيها، ولكن عندما تسلم الأسقف رسائل هذا الحكم، ألقى بها وهو غـاضب أرضاً، وداس عليها، مما أدهش كثيراً الذين رأوه، لأن صـورة القديس تومـاس كانت مطبوعة على الشمع، وقد وصل غضبه إلى حد الجنون، حتى أنه قال إلى جميع الذين سمعـوه: «أنا لاأريد ولاأطلب بأن يقـوم الرهبـان بالصـلاة بشكل معـاكس مـن أجل نفسي، إلى السرمـدية كلهـا»، وبعـدمـا أثقل الرسـول بكثير من الشتـائم والاهانـات، أمـر باعتقـاله، وكـان خـدمـه مكرهين، وخائفين من فعل هذا، بسبب احترامهم للكهانة (لأن المرسل

كـان كـاهناً) فأمـر بالكاهن نفسه بأن يطرد من البيت، مثل عبد شرير، أو بالحري لـص من اللصـوص، الأمـر الـذي زاد من دهشـة واستغراب جميع الرجال المستقيمين، والأشخاص المتعلمين، الذين كانوا في الديـر، وبات الحال، إنه لو لم يكـن هناك من سبب، سـوى قيـام الكاهن المذكـور بشكل منطقي بـاتهام الأسـقف بوضع أيدي العنف عليـه، لكفى، لكن الأسقف المذكـور أعطى قليلاً من الاهتمام إلى قـرار الرهبـان، لابل استخف به، فلـم يتـوقف عن ممارسـة أعماله الأسقفيـة، وبالقيـام بتكريـس الكنائس، وبالاستمـرار بالقيـام بوظـائفـه وواجبـاته الأسقفيـة، ومن الممكـن أن يكـون القـرار غـير عـادل، لكن رفضـه للبـلاط واستخفافـه بالمحكمـة، كان من الممكن أن يصبح ضـده خطيراً جداً.

الفرنسيون يطالبون بوجوب انتخاب بابا

وأرسل الفرنسيون في الوقت نفسـه رسائل رسمية إلى مجلس الشيوخ الرومان، يـرجونهم بطريقة مقنعـة ولطيفة ويخبرونهم برغبتهم بكـل دقة وفعالية بأن يقوم الكرادلة بشكل نظامي بانتخاب بابا، وأن يتم تجهيزهم بامكانية المداولات من أجل الكنيسـة الكاثوليكية، في سبيل أن يكون لها راعياً يقـدم لها العزاء، وإذا ما ثابروا على إهمالهم، فإنهم سوف يقـومون من دون تأخير بـانتخـاب، وبتأمين حبر حـاكم من هـذا الجانب من الجبـال، وهم سيقومـون بأداء اليمين على طاعتـه، وقـد أعلنوا عن هذا بحـرية، معتمـدين على امتيـاز قـديم، تمثـل بإذعـان القـديس كليمنت، وتسليمه إلى دنس Denis المقـدس رسـولية الشعب الغـربي إليـه، وبناء عليـه نهض الكرادلة، وكأن الإثارة والتشجيع جـاءت من الجانب الأول من قبل السيد الامبراطور، ومن الجهة الثـانية من قبل الفرنسيين، فاجتمعوا مع بعضهم، وقدموا إلى روما، وهناك عقدوا مؤتمراً، وانتخبوا بابا.

رؤية نجوم تساقطت من السماء

وفي العام نفسه، في ٢٦- تموز، كانت السماء صافية تماماً، وكان المناخ نقياً جداً، ولذلك ظهر درب التبانة واضحاً، حسبما اعتاد أن يفعل في أكثر ليالي الشتاء الهادئة، وكان القمر في اليوم الثامن، وفجأة رؤيت نجوم تتساقط من السماء مسرعة، وتنقذف نحو الأمام ونحو الخلف، ولكن على عكس ما يحدث عادة، لم يكن هناك أي شرر اندفع بعدها، حسب عادات النجوم (الأمر الذي ذكر على أنه ظاهرة طبيعية في كتاب أرسطو «الظواهر الجوية»)، أي مثل البرق الذي ينتج بوساطة الرعود، وشوهد في حالة واحدة ثلاثين أو أربعين قد انقذفت أو تساقطت، كما ظهرت نجمتان أو ثلاثة نجوم وهي تطير فوراً في قطار واحد، وعلى هذا إنهم إذا كانوا نجوماً حقيقية (الأمر الذي لايعتقده انسان عاقل) ما من نجم قد بقي في السماء، ما لم يعلن الفلكيون عن ماهية هذا النوع من الأشياء، وعما تنذر به، الأمر الذي يبدو غريباً وإعجازياً لكل من رأوه.

صيرورة السلطة البابوية وانتقالها إلى جماعة الكرادلة أثناء شغور الكرسي البابوي

وفي الوقت الذي كان الزمان يدور فيه، ولأن كثيرين اعتراهم الشك ولم يكونوا متيقنين إلى من صارت السلطات البابوية، أثناء شغور الكرسي البابوي، وهل آلت إلى جماعة الكرادلة، أم لا، نحن نمتلك رواية مؤكدة حول هذه القضية، من الرسالة التالية، التي رأينا أنه من المناسب ادراجها في هذا العمل:

«بوساطة الرحمة الربانية، من كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة: رومانوس أسقف أوستيا، وفيليتري Velleti الأول، الذي له لقب القديس براكسس Praxes, وسينبولد Sinibald الذي له

لقب القـديس لورانس في لوسينو Lucino, وستيفن، الذي له لقب القـديسة مـريم فيها وراء التيبر، والكهنة: رينير Reynier, الذي له لقب القديسـة مريم في كـوسمدين Cosmedin, وجايلز الذي له لقب القـديس كوسماس والقديـس دوميان Domian, وأوتو، الذي له لقب القديس نيقولا في سجن توليـان، والشمامسة، إلى الرجل المقدس راعي دير ويردون Waredon, صحة بالرب:

بالنيابة عن المعلم بطرس، كاهن كنيسة رئيس الرسل، وقسيس كنيسة موردون Mordon, ابن جيمس جون كابوت Capot, المواطن الرومـاني، لقد أعلن أمـامنا، أنه منذ وقت طويل، منذ أيام مولانا البـابا غريغوري، صاحب الذكرى المبـاركة، قد أثير بوساطة اقتراحات باطلة، فـوجّه رسـائله إلى أسقف إيلاي، ذاكـراً إلى ذلك السيـد أو إلى شخص آخـر باسمـه، بأن عليـه عـدم تقـديم أي حسـاب عن مـوارد الكنيسـة المتقـدمة الذكـر، وأن لايسمح بتقـديم أي حسـاب، بل أن يحتفظ بتلك الكنيسة بين يديـه، وأن يجمع مواردها ويتمتع بها، وأن يصرفهـا لصالحه ولسروره، وأن يضبط جميـع المعترضين بانزال العقـــوبات اللاهوتيـــة بحقهم، من دون استئناف.

ولقـد قرر البـابا المتقدم الذكـر، بأنه ينبغي عـدّ جميع الرسائل ملغيـة وفـارغة، سـواء أتمّ الحصـول عليها من الكـرسي المقدس، باسم السيـد المتقدم الذكـر، أو سوف يتم الحصول عليها من الآن فصـاعداً، وبذلك مـا من واحد ينبغـي دعوته لتقـديم حسـاب بموجـب قوتهم، ومـا من واحد أيضاً يمكن أن يعاني من أية إجراءات قضائية بموجب سلطانهم، وإذا كـانت أية إجـراءات قـد بدأت مـن خـلالهم، ينبغي عـدها لاغيـة وفارغـة، مالم يعملوا ذكـراً كامـلاً للمتقدم الذكـر، وجرت إنابـة عمدة يورك، ورئيس شمامسة ريتشمـوند للقيام بأداء هذه الأشياء كلهـا، ولقد قيل بأن الأسقف نفسه، السائر في تنفيـذ هذه الوصاية، قد فرض عليك

بوساطة رسـالة، بأنه إذا كان ضمان الكنيسة المتقدمـة الذكر، أو أي جزء منها، صدف ووقع بين يديك، عليك أن تؤمن التخلي عنها وايداعها في بارنول Barnwell, ووضعها تحت وصاية رئيس الرهبان، والحافظ للذخائر للمكـان نفسه، ومنذ ذلك الحين فلاحقاً، عـدم تقديم حساب، ولابشكل من الأشكال إلى السيـد المذكـور، أو إلى أي شخص باسمـه، وذلك فيما يتعلق بمـوارد الكنيسة المتقدمـة الذكر، بل يتـوجب أن تودع هناك، وأن أي حساب يقـدم حول الأمر نفسه، يتـوجب أن يكون وفقاً لرغبات الحبر الأعظم.

وبناء عليـه لقد طلـب منا السيد بطرس المتقـدم الأكبر بتـواضع، أنه يرى أنه غير جـدير، وضـد المنطق، إنزال عقوبة بـواحد بريء كليـاً من التهم التي قدمت ضده،إننا سنتلطف برحمة منا بتقديم حل موائم حول هذه القضيـة، ونحن الآن، الذين بين أيدينا راسية السلطة، أثناء شغـور الكرسي الرسـولي، نرغب في تقـديم رعـاية وإحسان خـاص إلى السيـد المتقـدم الذكر من أجل استقـامته، ونأمـركم بدقة، بمـوجب سلطة هذه التقدمـات بأن تقدمـوا ترضية كـاملة إلى السيد المذكـور أو إلى نائبه، أو رسـوله، فيما يتعلق بضمان الكنيسـة المتقـدمـة الذكـر، وأن تأخـذوا منه سلطات الوصاية المتقـدم ذكرها، وأن تقدموا الآن حسـاباً كاملاً، حسبما أنتم ملزمـون، دون الاهتمام بالرسـائل المتقـدم ذكـرها، أو بالاجـراءات القضائيـة التي بدأت حول الموضوع، ولكي لاتعود إلينا وصـايتنا ملغاة وفارغة، ليكن معلومـاً من قبلكم، بأننا أعطينا رسائل إلى رئيس الرهبان الدومينيكان في نـورويك، وإلى بطرس دي آرشي Arche, كـــاهن كنيســة القـــديس أنجليـوس Angelus أوف فيرينتينيـــــــــوم Ferentinum, لضبطكم بوسـاطة العقـوبـات اللاهوتيـة، من أجل الغاية أعلاه، فيما إذا كـان ضرورياً، انه سيفعل ذلك. صدر إلخ، في سنة ألف ومـائتين وثلاث وأربعين لتجسيـد الرب، حيث الكرسي الرسـولي شاغراً».

تحدي إيرل التخوم للمبارزة

وفي هذه الآونة، وجـد إيرل التخـوم، أن الحظ معـاكـس له من كل جانب، حيث تم هجرانه كليـاً من قبل ملك انكلترا، الذي كان قد تخلى عنه بشكل شرير، كما كـان قد استحق أن يكون مهجـوراً من قبل ملك فـرنسـا، ولـذلك تعـرض للاتهام بشكل علني، وجـرى تحديه من قبل فارس فرنسي جريء، وكان ذلك بحضور ملـك فرنسا وأخيه ألفونسو، كونت بواتو، ولهذا السبب جرى حجـز الايرل المذكور، وكأنه قد وضع في سجن، ومع أن الايـرل المذكـور أنكر بثبـات التهمـة، فإن الجندي المتقدم الذكـر، أقدم على الفـور، وفي الطريقة الفـرنسية المعتـادة، فسلمه قفازه، عـارضاً عليه البرهنة على ذلك بجسده أمـام البلاط، وذلك وفق رغبة البلاط الملكي، طـالباً تقديم العدالة إليه عن طـريق المبارزة، تماشياً مع شريعـة الفـرنسيين، الموافق عليهـا منذ القـديم، والتي أقسم الآن قضائياً عليها من قبل الملك الفرنسي.

وأخذ الايرل القفـاز، بمثابة تعهد بالقتـال، واعداً بالدفـاع عن نفسه بالقتـال ضـد الرجل الذي ألصق تلك التهمـة به، وعندمـا أطلق سراح الابن الأكبر، لايـرل التخـــوم، من سجـن الملك، وسمـع بهذا، ثارت عاطفته، وقال على الفور متعجباً: «إذا كان يرضيك، فإنني سوف أقاتل من أجل أبي، وأبين براءته، ضـد أي انسان في العالم، لأنـه سوف يكون عملاً وحشياً، أن يقوم انسان صاحب سلطة كبيرة، وسن متقدم بالقتال مبارزة»، لكن الفـونسو، كونت بواتو أجاب: «ليس كـذلك، هو سوف يقـاتل من أجل نفسـه، ويظهـر نفســه بشكل واضح أنه عجـوز مسن، ملطخ بعدد مضاعف من الجرائم».

ثـم جـرى تحديد يوم، ومكـان للقتـال، وبعـد ذلك غـادروا، وبناء عليـه، عـندمـا سمعــت الكونتــسة بهذه الأخبـار المحـزنة، وهي التي كـانـت من قـبل ملـكة انكـلترا، واسـمها ايـزابلا، وكـانت مـدركـة

لكثير من الأعمال السيئة التجأت إلى دير للراهبات في فونتيفرولت Fontevrault, ولكن حتى هناك، في قلايتها السرية، تحت الرداء الديني، لم تكن بالفعل سالمة، لأن عدداً كبيراً من الفرنسيين والبواتيين طاردوها بكراهية لاهوادة فيها، قائلين بأنها يتوجب تسميتها بـ «يزبل» Jezebel الشريرة، وليس بـ «ايزابلا»،لأنها زرعت بذور كثير من الجرائم.

انقاذ الإيرل نفسه من خطر الموت من قبل أصدقائه

وانتشرت الآن الأخبار بسرعة، بأن ايرل التخوم، سوف يقاتل في مبارزة مفردة ضد مبارز جريء، وهو إما سوف ينظف سمعته، أو سوف يعاقب قضائياً، وعندما بدأ الخبر ينتشر بين الأوساط العليا الفرنسية، بأنه سوف يهلك في المبارزة، وسوف يجري اعدامه بموجب القانون الفرنسي، وأنه بالتالي سوف يقوم أولاده، وأقرباؤه بالثورة، ولسوف ينتقمون من مثل هذه الوحشية، ويشكلون مؤامرة لقتل الملك الفرنسي، إما بالسم أو بالتآمر، أو باغتيال مكشوف، أو في جميع الأحوال، الذين سوف يتولون بواتو ويستحوذون عليها سوف يثورون بموجب مثل هذا السبب، من أجل تجديد الحرب، وستتم خسارة الحرب، من دون حذر، مثلما ربحوها تحت حكم ملك ضعيف ولين، ورأوا أن البواتيين متقلبون مثل ديك الأنواء، لذلك حزن أصدقاء الفريقين، وكذلك فعل الرجال المخلصون، ولهذا بذلوا غاية جهودهم للتدخل، وهكذا تمكنوا من تهدئة غضب الملك مع أخيه، بحيث أعطيا التشريف المستحق، وجرى انقاذ القانون، وأظهرت الرحمة، وقاموا بإرضاء المتحدي، وتمكنوا بحسن تصرفهم من تحرير ايرل التخوم من امكانية الوفاة بشكل مهين، وبناء عليه غادر البلاط، وهو مغلول بروابط أقوى مما ارتبط به قط بالسلطات الفرنسية السامية.

الملك الإنكليزي يوقف نفقاته التي بلافائدة

وصار الآن ملك انكلترا، وإن جاء ذلك متأخراً، متأكداً بوساطة كثير من المؤشرات الواضحة، كما أنه تعلم بالتجربة، بأن عليه تجنب دهاء ومكر البواتيين، ولذلك استهدف منذ ذلك الحين فصاعداً، أن يضع في خزانته الخاصة الأموال التي أنفقها بشكل مجنون عليهم في كل عام، لأنه كان قد أعطى سنوياً إلى هؤلاء الذين ضحكوا عليه، لابل ضحكوا عليه واستخفوا به، سبعة آلاف استيرلينية من خزائنه المنهكة، التي زودته بها انكلترا، وتفصيل ذلك: خمسمائة إلى رينالد دي بونز، والمبلغ نفسه إلى وليم رئيس الأساقفة، وأيضاً المبلغ نفسه إلى فيزكونت دي ثوارث Thouars, وإلى عدد كبير آخر من نبلاء بواتو، الذين لاتستحق أسماؤهم الذكر، لابل ولاحتى الكتابة، حتى وصل المبلغ إلى العدد الذي ذكرناه من قبل، وذلك إلى جانب الأعطيات التي منحها إلى كونت دي لى مارشي (الذي دعاه الملك بأبي الأكثر محبة)، والذي نال بالحصص أكثر من جميع البواتيين الآخرين، وبالحصة نفسها تلقى النسبة الأعلى، أما بالنسبة لزوجة الكونت، فقد اعتاد الملك، بسبب الأمومة، أن يقدم إليها أعطيات استثنائية مسرفة بقدر الإمكان، وكانت كل هذه الفوائد التي حصل عليها الملك.

عودة الملك إلى إنكلترا

وفي هذا الوقت أيضاً، وبالتحديد في حوالي عيد القديس رمي Remy, كان ملك انكلترا قد قام بتسوية الذي توجب عليه تسويته في غسكوني، وعهد بحكومة البلاد إلى نيقولا دي مولي، الذي كان جندياً شجاعاً جداً وحكيماً، وذلك بعدما عمل منه قهرمان غسكوني، وبعد هذا أخذ سفينة، وتمتع برحلة جميلة عبر القنال، وعاد إلى انكلترا، فنزل في بورتماوث في الخامس والعشرين من أيلول، وبناء عليه أعلن على الفور إلى رعاة الديرة، وإلى رؤساء الرهبان، بأن عليهم شراء

خيول، وعربات تجر بوساطة فرسين، وخيالة يسيرون في الأمام، للإعلان عنه بموجب حقهم الضروري بالمرور، لأنه كان تماماً مجرداً من مثل هذه الأشياء، و ذلك من أجل أن يتمكن الانكليز من أن يعلموا مباشرة، بوصول ملكهم، وعندما وصل إلى وينكستر، جاء إلى هناك تقريباً جميع نبلاء انكلترا لاستقباله وتحيته، فأعطى أوامر بوجوب تزيين المدينة أثناء دخوله، بالمعلقات، والستائر، والأكاليل، والشموع المشتعلة، وأن على المواطنين استقباله في ثياب العيد، ويتوجب كذلك قرع أجراس المكان بسرور، وعلاوة على ذلك، تدبر الإعلان بوساطة صوت المنادي، وبوساطة أسرع الرسل، بوجوب خروج أربعة من أكثر المواطنين أهمية، أو البورجوازيين من كل مدينة أو منطقة، لاستقباله، وكل منهم قد ارتدى ملابس ثمينة، وامتطى على مطية غالية، وهكذا بناء على أوامره، ومرسومه، الذي فرض طاعته، أرغم كثيرون على الاسراع من أقصى المناطق الانكليزية لاستقباله، ولم يكن ذلك من دون نفقات عالية ومتاعب جمة، ولدى وصوله إلى لندن، خرج الناس إلى استقباله وهم يرتدون ثياب العيد، ويمتطون خيولاً هي الأغلى ثمناً، وهي مجهزة حديثاً، ومشوا لاستقباله في مسيرة، وكل واحد منهم يتبارى مع الآخر، ليكون الأول في استقبال الملك آنذاك، الذي حيوه باحترام، وربح كثيراً بوساطة هداياهم المتنوعة والثمينة، ولدى حلول الاحتفال بعيد القديس إدوارد، أي في الثالث عشر من تشرين الأول، أمر الملك، بأن يرتدي الرهبان ثيابهم اللاهوتية، وأن يمشوا أمام المسيرة لاستقباله، وهم يحملون كميات كبيرة جداً من الشمعدانات، وهكذا استقبل بشكل اسطوري وبفخار، وبأبهة كانت مترفة.

انتخاب انوسنت الرابع بابا

وجرى في هذا العام أيضاً، في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، انتخاب اللورد كاردينال سينيبولد Sinibald بابا، بعدما

ظل كرسي البابوية شاغراً لمدة سنة وتسعة أشهر، وجرى تكريسه في يوم عيد الرسولين بطرس، وبولص، ومنح اسم انوسنت الرابع، وبعد التكريس قام مباشرة بتثبيت القرار الذي كان قد صدر ضد الامبراطور فردريك، من قبل سلفه غريغوري، وقد عمل بابا في أناغني Anagni, ولذلك انزعج الرومان وامبراطورهم، وكأنهم أصيبوا بجراحة مضاعفة، فاستعدوا لاضطهاد البابا الجديد، والتآمر لنصب المصائد ضده، وصاروا أكثر استعداداً لأن الامبراطور قد اعتمد على انتخاب بابا يكون موائماً له، ولذلك وضع الامبراطور حراسات يقظة على الطرقات والموانيء، ووزع كذلك الغلايين في البحر، حتى لايتمكن الحاملين للمراسيم الابحار والذهاب مسرورين بالسفر من دون إعاقة، وليس بعد مضي وقت طويل من هذا اعتقل الامبراطور اثنين من رهبان طائفة الفرنسيسكان، وكانا يحملان بشكل سري خبيث —بناء على أوامر من سادتهم— رسائل موجهة لإثارة الحرب بين بعض النبلاء، وبشكل رئيسي ضد الامبراطور، فأمر بشنقهما على الفور.

أعمال عدوانية من الداوية ضدّ الاسبتارية

وفي هذه الأثناء، اضطهد الداوية بحدة الاسبتارية في الأرض المقدسة، إلى حد عدم السماح لهم بحمل موتاهم إلى خارج بيتهم (الذي كان في عكا) من أجل دفنهم، وعلاوة على ذلك، قام الداوية أنفسهم، كراهية منهم للامبراطور، بطرد الرهبان التيوتون التابعين لكنيسة القديسة مريم، ونفيهم من مناطقهم، وبذلك أنزلوا على رؤوسهم غضب الرب، ورفعوا من شأن آراء أعداء الصليب.

ارفضاض اجتماع الهيئة الكهنوتية العامة للسسترشيان

وفي هذه الآونة، وفي التحديد بعد ارفضاض اجتماع الهيئة الكهنوتية للسسترشيان، قدم إلينا رعاة الديرة من اجتماع الهيئة الكهنوتية،

وأخبرونا بشكل صادق بالأخبار التالية، التي أفادت بقدوم ملك فرنسا إليهم، وأنه على عكس عادات الرومان، كتب إليهم —أي إلى الهيئة الكهنوتية— مولاهم البابا، يلتمس منهم بعبارات لطيفة، بأن يقوموا من ذلك الوقت فصاعداً، بتقديم صلواتهم لصالح الكنيسة المتداعية، ومثل هذا أيضاً طلب منهم بعض الكرادلة وبعض الشخصيات الأخرى، الأعطية الثمينة نفسها، أنهم في قتالهم من أجل الرب، يمكنهم خدمة الكنيسة، وبشكل مؤكد أكثر يمتنون وضعهم، ولأنهم يعلمون أن رعاة ديرة تلك الطائفة، قد أعيقوا في العام المنصرم، بسبب الحرب، من القدوم إلى اجتماع الهيئة الكهنوتية، يمكنهم الآن القدوم بأعداد أكبر إلى الاجتماع العام للهيئة الكهنوتية، وقد طلب ملك فرنسا مساعدتهم، وصلواتهم بشكل أكثر اخلاصاً من الآخرين، لأنه تصور، أنه منذ ذهابه إلى الحرب في بواتو، قد ضعفت صحته كثيراً، وأنه فقد كثيراً من نشاطه الجسدي، هذا وأرسل ملك انكلترا لوحده، رسلاً خاصين إلى هناك، طالباً على الفور مساعدات مالية منهم، وكان الرهبان الذي وجدوا هناك من كل طائفة سسترشيان شعب من الشعوب تحت الشمس، فمن هؤلاء جميعاً الذين كانوا حضوراً، استحق الملك الانكليزي لوحده الرفض دون نيل فائدة، لكن مع اضطراب كبير ومضايقة للانكليز الذين كانوا حضوراً، لأنه طلب صوفهم من جميع رعاة الديرة المقيمين في انكلترا.

أسقف لنكولن ورهبان دير كانتربري يرفعون شكواهم إلى البابا

رسالة البابا

أثناء هيجان تلك الأيام، قام أسقف لنكولن من الجانب الأول، ورهبان دير كانتربري من الجانب الآخر، بإرسال رسل خاصين، كانوا كهنة مخلصين، إلى البلاط الروماني، من أجل تسوية النزاع الذي نشب بينهم، وكان القرار الذي جلبوه معهم حول هذا الموضوع هوالتالي:

«من أنوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أبنائه المحبوبين رهبان ورئيس كنيسة كانتربري المسيحية، تحيات ومباركات رسولية:

ذكرت الشكوى التي تقدم بها إلينا أخونا المحترم أسقف لنكولن، بأنكم ادعيتم ممارسة السلطة عليه وعلى الذين تحته، بالدفاع عن قضاياهم وعن استئنافاتهم، وأنكم أيدتم هذا الإدعاء بالمحاججة بأن الادارة القضائية للمطرانية هو عائد إليكم، أثناء شغور كرسي كانتربري، في منطقة كانتربري، وذلك بمثابة امتياز من الكرسي الرسولي، وكذلك من الامتياز العام، وهو الامتياز الذي لم تمارسونه حتى الآن، ونظراً لتصوره لحاق ضرر به، وقيام مصاعب ضده شخصياً، أحال القضية إلى الكرسي الرسولي، حيث من الصعب تقرير إلى من تعود المقاطعة، أثناء شغور الكرسي المطراني، ولقد أمسكتم بهذه الفرصة، واستخدمتموها حسب رغباتكم، فأنزلتم به وبالذين تحته قرارات التعليق والحرمان الكنسي، وبناء عليه التمس منا بتواضع، أن نزوده في هذه القضية بمواساة أبوية، واستجابة، ورغبة منا في منصبنا بتقديم النجدة إلى الأسقف المذكور، وإلى الذين تحته، ولكي لانخرق امتياز انسان آخر، نحن نأمر جماعتكم بموجب الكتابات الرسولية، أن تقوموا خلال ثمانية أيام بعد استلام هذه الرسائل، من دون تسبيب الأذى إلى أي من الطرفين، بسحب القرارات المتقدمة الذكر، في ظل ضمانة مناسبة، وعلاوة على ذلك أعطينا أوامر برسائلنا إلى أخوينا: رئيس أساقفة يورك، وأسقف درم، بأن يقوما على الفور، ومن دون تسبيب الأذى إلى أي من الطائفتين، بحل القرارات المذكورة، وكذلك فيما يتعلق بقضايا الإدعاء، وأيضاً قضايا التملك، وضبط جميع الاستنكارات بوساطة العقوبات اللاهوتية، من دون استئناف. صدر في أناغني في اليوم الثالث والعشرين من آب، في السنة الأولى من بابويتنا».

تثبيت أسقف نورويك أسقفاً لوينكستر

وفي الوقت نفسه جرت تسمية أسقف نورويك لتسلم أسقفية وينكستر، وقام دون المبالاة بمعارضة الملك ومقاومته بالانتقال إلى ذلك الكرسي، وكان ذلك بوساطة البابا، الذي آثره ووجد الحظوة نحوه لديه.

تثبيت بونيفيس في رئاسة أساقفة كانتربري

وفي هذا الوقت بالذات جرى تثبيت بونيفيس، خال الملكة، الذي كان منتخباً لبلي Bellay, ومن شعب بروفانس، تثبيته من قبل البابا، في رئاسة أساقفة كانتربري، وذلك من خلال الضغوط الشديدة للملك، مما أدهش الكثيرين، وفي الحقيقة قام الملك في سبيل أن يجعل رفع بونيفيس إلى رئاسة أساقفة كانتربري أكثر سهولة، بكتابة كتاب، بناء على تحريض من الملكة، حيث أسرف كثيراً في إطرائه ومدح أخلاقه، وعلمه، وكرم بونيفيس المذكور، مع أنه كان غريباً بالنسبة له، ووضع خاتمه عليه، وجعل تقريباً جميع الأساقفة الانكليز يفعلون الشيء نفسه، وكان راعي دير القديس ألبان الوحيد الذي مال الى تجنب تقديم مثل هذه الشهادة الزائفة، ذلك أنه عندما شاهد ختم راعي دير ويستمنستر مثبتاً، قال بأنه لم يكن من المتصرفين بشكل جيد نحوه،لأنه من المؤكد أن راعي دير القديس ألبان هو الأجدر،وذكر امتيازه«على أساس أن القديس ألبان كان أول شهيد في انكلترا، ولذلك فإن راعي ديره هو الأول في الطوائف وفي المرتبة بين جميع رعاة الديرة في انكلترا»ولذلك يتوجب أن يظهر خاتمه أولاً،ولذلك ترك المسألة تمر حتى جرى بحث حولها،وأرسلت هذه الكتابة الى البابا،من أجل أن يكون كامل المعرفة حول فضائل بونيفيس.

استخراج ذهب وفضة من اليهود

وفي حوالي الوقت نفسه استخرج الملك من اليهود التعساء كثيراً،

فـديةكبيرة من الذهب والفضـة، ودون أن نتحـدث عن الآخـرين، استخـرج من يهودي واحـد، هو هرون اليـوركي أربعـة مـاركـات من الذهب، وأربعـة آلاف مـارك من الفضـة،وتسلم الملك من كل يهودي سـواء أكان رجـلاً أو امـرأة، الذهب الذي كـان بين يديه، وأصبح هذا من الملك بمثابـة نوع من جمع الضرائب، لكن الفضة جـرى تسلمها من قبل آخـرين لصـالـح الملك،وقـد تسلم هـدايا ثمينة مـن رعـاة الديرة،ورؤساء الرهبـان وفق هذه الطريقة، وكـان إذا لم يعجبه شيئاً ولم يرضـه، يرفضهم، ويستخرج أعطيـات أكثر ثمناً، وأكثـر إرضاء للمقـام الملكي، وكل من رفض، كان لايجده ملكاً، بل طاغية.

انتخاب وولتر أوف سفيلد أسقفاً لنورويك

هذا وعلم رهبان نورويك بتثبيت اللورد دي ريل Raele, الذي كان مرشحاً لأسقفية وينكستر، والذي كان أسقفهم، فاستمطروا النعمة من الروح القـدس، وانتخبـوا بـالاجماع ليكون أسقفـاً لهم، وراعيـاً لأرواحهم المعلـم وولتر أوف سفيلد Suffield, وكـان رجـلاً صـاحب علم كبير، ومتميـزاً في أخـلاقـه، وبسمعتـه، وبأصله وجـرى تقديمه أصـولياً إلى الملك، وكما جرت العادة أعطى الملك مـوافقته لكل من المنتخب والانتخـاب، لأنه لم يكن هنـاك من سبب للاعتراض، ومع ذلك أجـل لبعض الـوقت منـح خطواتـه الكاملـة، وذلك حتـى يصبح متأكداً بمعلوماته حول تثبيت أسقف وينكستر.

وصول رائع لبيترايس كونتسة بروفانس

وفي حـوالي الوقت نفسـه، أي في الأول من كـانون الثـاني، نزلت في دوفر بيترايس كـونتسة بروفـانس، وأم ملكتي انكلترا، وفرنسـا، وكانت امرأة ذات طلعة بهية، وحكيمة ومتحضرة، وجاء قدومها بناء على دعوة من الملك، الذي دفع نفقـات رحلتهـا، وقدمت في أبهة عظيمـة مع كثير

من الاحتفالات الفاخرة، ومضى كثير من النبلاء الانكليز لاستقبالها وذلك بموجب أوامر الملك، وجاء ذلك على شاطىء البحر، من أجل تجنب كل تأخر مختلف عليه، وفي ثمانية عيد القديس-مارتن، وهو التاريخ الذي كان من المتوقع وقتها لوصول الكونتسة المذكورة إلى لندن، أمر الملك بوجوب تزيين مدينة لندن بالمعلقات، والستائر، وبمختلف أنواع التزيينات الأخرى، وذلك شروعاً من الجسر إلى ويستمنستر، وأن يزال من أمام ناظري العابرين خلال المدينة المعيقات من الأخشاب، والطين، والأوساخ، وجميع أنواع المعيقات، وقد جلبت معها ابنتها سينشيا، حتى تتحد بالزواج بالايرل رتشارد، وجرى ارغام كثير من النبلاء من قبل الملك، على القدوم من المناطق النائية للمملكة، لابل حتى من الأجزاء القائمة على حدود سكوتلندا، لاستقبالها وهي على طريقها.

موت رالف تشينديوت

ولفظ في اليوم نفسه روحه رادولف تشينديوت Cheinduit الذي كان المضطهد القاسي والذي لايعرف الملل، لكنيسة القديس ألبان، والمغتصب الوقح لامتيازاتها لمدة ثلاثة أعوام، وأنا أقول هذا لأن جميع الأتباع المؤمنين بالمسيح تمكنوا أن يروا بينة المعجزة، والانتقام العادل، الذي أنزل به ألبان الشهيد الرائد لانكلترا، وفي الحقيقة، بعد بقائه لمدة ثلاثة أعوام تحت العقوبة، ولأنه بوقاحة استخف بمفاتيح الكنيسة، وقام وهو في قصر ويستمنستر، وهو يهز رأسه بطراً، فقال لكثيرين كانوا قد اجتمعوا هناك: «ها، ماالذي تقولونه حول رهبان القديس ألبان؟ إيه، ماالذي تقولونه حولهم؟ لقد حرموني كنسياً منذ وقت طويل، مراراً وبشكل فعال، إلى حد أنني الآن أفضل حالاً بسبب ذلك، ووضعي جيد،وقوي وثابت، حتى أنه يصعب عليّ القعود في سرج فرسي، عندما أركب على ظهره»،وما أن كاد ينهي كلامه حتى

أصيب فجأة بالضعف وبفقدان القوة، وصار في وضع ميئوس منه، ولايكاد يستطيع التنفس، وقد حمل إلى البيت، وهو على وشك لفظ أنفاسه وأظهرت الحشرجة التي تقدم على الموت نفسها، وقتها أظهر اللطف العظيم للشهيد القديس ألبان نفسه، ففرض بمشيئة الرب، الذي لايرغب بهلاك أي انسان، قبل أن يهتدي، أن تمكن رالف من التنهد بعمق، وأمر بأن يدعى بسرعة كبيرة بعض الرهبان، الذين كان يعرفهم أكثر من الآخرين، حتى يخضع لإرادتهم، وليقدم لهم ترضية كاملة عن الاعتداءات التي هو مجرم بها نحوهم، الأمر الذي تقبلوه بكل صلاح، من أجل أنه إذا مات، لايسقط في متاهة اليأس ولكي لايهلك بذلك وهو مدان وملعون، بسبب جرائمه، وقد منحوه منفعة التحليل، عندما وعد بعمل تكفير عن الأذى وعن الشرور التي اقترفت من قبله، ومثل هذا أيضاً عانى قليلاً أيضاً عدد من الآخرين، كان من بينهم فرسان أقوياء، ومغتصبين، ومزعجين، معتدين على امتيازات كنيسة الشهيد المذكور، كما عانى آخرون من عقوبات أكثر شدة بوساطة حكم الانتقام الاعجازي،ويمكنني أن أضرب مثلاً بألان دي بيكل Alan de Beccles رئيس شمامسة نورويك، وآدم بن وليم المسؤول عن مقعد العدالة الذي أصيب بموت مفاجىء.

وفي العام نفسه، في يوم عيد القديس كليمنت، اقترن الايرل رتشارد بزوجته سينشيا، ابنه ريموند كونت بروفانس، وأخت الملكة، وكان ذلك في ويستمنستر، وكان هناك احتفال عرس بهيج، واحتفال عظيم بين الضيوف من النبلاء، حيث مامن شيء كان من الممكن مقارنته بفخامة العناية بالضيوف، وسوف يحتاج ذلك إلى رسالة طويلة وشاقة لوصف ذلك، ومن الممكن لي تلخيص الكثير من الأقوال ببضع كلمات، فقد كان في مكان الطبخ ثلاثين ألف صحن كانوا جاهزين لتقديمهم إلى الذين جلسوا وراء الموائد للطعام، وجرى عرض أكثر العروض روعة

بحضـور الملك، والايـرل العـريس الجديد، والملكـة واختهـا سينثيـا Cynthia, التي كـانت عروسـة شابة، وقـد جرى تغيير اسمهـا إلى سينشيـا، وبيترايس كونتسـة بروفانس، وشخصيـات نبيلة أخرى،كـانت أكثـر من أن تعـدّ، وكـانت في الوقت نفسـه أعين المشـاهدين وعقـولهم مفتـونة بسرور أمـام أبهة دنيـوية لم يسمع بمثلهـا من قبل، فقـد جـرى عـرض كل نوع من أنـواع المبـاهج والمجـد، في أشكال الناس المغنين المرحين، وأنواع ملابسهم المتنوعة، وعدد الصحون، وحشود المحتفلين، ولكن هذه كلها جاءت برهاناً كيف أن مثل هذه المسرات زائلة وعبثية، وكم هو غير مشرق ومخادع في هذا العـالم، وذلك عندمـا ينقشـع فجـر اليوم التالي، وتكون هذه الأعمال المتنوعة مثل سحابة عابرة.

منع أسقف وينكستر من الدخول إلى مدينته

وفي هذه الأيام كانت عـلاقات الملك سيئة مع وليم دي ريل، أسقف وينكستر، لأنه تصرف بذاته، وكأنه كان أسقفاً حقيقياً، ونظر إليه وكأنه كـان كـذلك، وهكـذا دعي، إلاّ من قبل بعض الرهبـان في وينكستر، ولذلك رفض الملك قبوله لنيل القبلة، أو لاستقباله بأية تحيـات صديقة، ومع ذلك فإن هذا الـرجل بعـد وصـوله من المناطـق الأجنبيـة، جـرى الاحتفاء به بالتهـاني المدنية، وبالتحيات، وسلم عليـه جميع نبلاء انكلترا تقريبـاً، وخاصة الأسـاقفة بقبلة، وأقـاموا محادثات مقبولة معـه، وشعر الأسقف بنذير سوء من هذا العمل، ورأى الأسقف بوضوح مثل ضوء النهـار، بأن غضب الملك المتجذر، قـد ازداد قسـوة، وتحول إلى كراهيـة دائمة، فأخفى نفسه بين أصدقـائه، الذين اعتقد بأنهم يميلون لأن ينالوا حظوة البـلاط، وذلك حتى يـزوره اليـوم الذي سـوف ينبع من عليين، وغضب الملك قـد تلاشى، لكن الملك ثابـر على غضبه، وأقـام مـراقبـة دقيقـة على عزب الأسقف، وبذلك بوسـاطة مـوظفيه، الذين كما كـانت عادتهم، تجاوزوا كثيراً أوامر الملك في إلحاق الأضرار وسوء معاملة أهل

الأسقفية، بكل نوع من أنواع الإذلال، وكانوا فقط متشوقين لنيل الربح لأنفسهم، وعندما قدم الأسقف المتقدم الذكر لزيارة الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر، ورغب بدخول تلك المدينة، أمر الملك بحراسة الأبواب بدقة، وقام رئيس رهبان وينكستر —لو أنه استحق أن ينظر إليه على أنه رئيس رهبان، أو أن يدعى بمثل هذا الاسم— بصحبة شطر كبير من الرهبان بعمل تآمري، ورفعوا كعبهم ضد أسقفهم، حيث أكدوا بشكل معلن، أن كل من يقدم له عوناً أو نصيحة، سوف يعدّ عدواً مكشوفاً لمولانا الملك، ولسوف ينال عقوبة حادة لقيامه بذلك، ولذلك كان هناك انشقاق بين كل من الرهبان، ورجال الدين العلمانيين، ونشب صراع شديد، وصل إلى حد سفك الدماء،

موت رئيس رهبان وينكستر

لفظ هذا الرجل التعيس، الذي حمل المظهر الخارجي لرجل دين، وصار يدعى رئيس رهبان بناء على أوامر الملك، وذلك بهدف الاشراف على عدد كبير جداً من الرهبان، الآن أنفاسه، في وسط هذه الاضطرابات التي أثارها.

زيادة الملك يومياً من اضطهاد أسقف وينكستر

ولم يكن من الممكن ضبط الملك بأي تقدير مهما كان نوعه، بل تابع مساقاً بإرادته، واستمر في إلقاء يده أثقل فأثقل على الأسقف، وعلى ممتلكات كرسيه، وأعلن علانية بأنه لايجوز لانسان تقديم الرعاية لبيت وليم دي ريل، الذي ادعى بشكل زائف (هكذا قال) فجعل الناس تحييه بمثابة أسقف لوينكستر، كما منع الناس من التعامل معه، أو تزويده حتى بالضرورات الحياتية من أطعمة، وأعلن أن أي انسان سوف يساعده بمثل هذه الطريقة، سوف يعدّ بمثابة عدو للملك وللبلاد، كما أرسل الملك رسائل إلى أكسفورد، لتشويه سمعة الأسقف

نفسه في أعين الجامعـة، وأكد أنه حصل على موافقـة بوساطة تصريحات زائفة من مـولانا البابا، بوجوب تسميته لأسقفيـة وينكستر ونقله إليها، وأن الملك سوف يكشف، وسوف يبرهن بوضوح، ويعرض جميع أعمال الخداع التي مـارسها أمام البـلاط الروماني، وأمـام مملكة انكلترا، وكي يثبت هذا، أحضر بعض المستدربين الرومـان ليكونوا مراسلين له لحمل رسـالته هـذه، كما أمر بمصـادرة أسقفيـة نورويك، حتى يحرم الأسقف المتقـدم الذكر من جميع سبل المواسـاة، ويصبح محاصراً من كل جـانب، وعـلاوة على ذلك، أرسل مـولانا الملك إلى البـلاط الرومـاني ضـد الأسقف المتقدم الذكـر: ثيوبولد، وكـان راهباً من ويستمنستر، ورئيس رهبان هيرلي Hurley، وأيضاً المعلم الاسكندر، وكـان محامياً كنيته المدني، بقصـد أن يقـوم هذان الاثنان، بوسـاطـة التـوسل، أو بوسـاطة الرشوة، أو بأي طريقة أخـرى بقدرتهما، حتى يتمكنا من خلع الأسقف من وظائفه ومناصبه.

وضع مدينة وينكستر تحت الحرمان من شراكة المؤمنين

ووصل في الوقت نفسـه الأسقف وهو حـافي القـدمين، وبلبـاس متـواضع إلى واحـد من أبواب المدينـة، ثم انتقل بعـد ذلك إلى الأبواب الأخرى في خـارج المدينة، وطلب السماح له بالدخـول إلى كنيسته، لأنه وجد لـدى وصوله أن جميع الأبواب قـد أغلقت ضده، وواجهـه عمدة المدينة وتصـدى له مع ضبـاط الملك، وبوقـاحـة رفضـوا السماح له بالدخـول، وعلاوة على ذلك أضـافوا إهانة إلى إهانة، وعند ذلك تفـوه الأسقف بقـرار الحرمان مـن شراكة المؤمنين على المدينة، وعلى الكنيسـة الكاتدرائية، وعلى الكنائس الأخرى، وغلّ بالوقت نفسه بأغلال عقوبة التكفير المرعبـة جميع الرهبـان الذين يتبعون رئيس الـرهبان المذكـور أو يؤيدونه، وطعنهم بذلك ومعهم الملك.

خسارة الامبراطور مدينة فيتربو وأماكن أخرى في الأحواز

جعلت أعمال الظلم، التي مورست في ذلك الحين، من قبل رجال الملك، على سكان فيتربو، تلك المدينة مع المنطقة المحيطة بها، تقرر التحول إلى الرومان الذين أيدوا البابا، وتحت ثقل الظلم، ونير عبودية غير معتادة،وشدة المعاناة تحولوا بأنفسهم وبمدينتهم، وانتقلوا إلى الحزب الآخر، ولجأوا إلى الكاردينال رينير دي فيتربو، حتى يقدم إليهم العون والمشورة من أجل أن يتمكنوا من الدخول بتحالف مع الرومان، ونسوا جميع الخلافات القديمة، وصاروا شعباً واحداً، حتى يكونوا أقوى للثورة ضد أعدائهم، وحولوا أنفسهم بشكل أكثر ضماناً وانتقلوا من الأسى الامبراطوري، بوساطة تجنبه على هذه الصورة، وحدث بناء عليه من خلال عمل متواصل وجهد كبير قام به رينير المذكور، فحاك مؤامرة يجري تنفيذها فوراً وبشكل سري، وبموجبها وصل الرومان بأعداد كبيرة، واعتقلوا بحسن تدبر جميع الحرس الامبراطوري، واقتادوهم، بعدما اتخذوهم أسرى، عائدين إلى روما، حتى يسجنوا هناك، وأبرمت معاهدة بين الرومان، وبين شعب فيتربو، وأحلوا محل الاداريين القضائيين الامبراطوريين أناساً من قومهم، أي من الرومان ومن أهل فيتربو، وكذلك فعلوا بالنسبة للأبراج والقلاع والأماكن الحصينة، وهكذا بات الرومان في عدائهم للامبراطور فيتربويين، والفيتربويين روماناً.

وعندما سمع الامبراطور بهذا اغتاظ كثيراً، ومضى مسرعاً مع قوة مسلحة كبيرة، وحاول طم الخنادق بالبراميل، والأعشاب، وقطع الأخشاب، وأكوام التراب، وأراد شق طريقه بالقوة، حتى يتمكن على الفور من قتل جميع السكان، وشاهد السكان من الأعلى ما كان يقوم به، وماهو عازم عليه، فصدوه بفعالية، ومنعوا من الداخل أعداءهم وأحبطوا محاولاتهم، هذا من الداخل، أما من الخارج، فقد وصل الرومان بأعداد كبيرة، وتمكنوا بقوة من إحباط محاولات الامبراطور،

وكانت هناك معركة، سقط فيها كثيرون من جانب الامبراطور، وكان هناك عسكري مشهور من جانب الامبراطور، كان مزيناً بدروع خاصة، فهلك بشكل تعيس، مما سبب حزناً كبيراً للامبراطور، ذلك أنه أصيب برمية قوس زيار، وارتفع تهليل وصراخ أعدائه لسقوطه، وصرخوا بسرور، ظانين أنهم قتلوا الامبراطور نفسه، لكن الامبراطور زحف تتقدمه أبواقه، وتمكن بصعوبة من تخليص جيشه من أيدي أعدائه الغاضبين، الذين كانوا قد زحفوا ضده، بشكل غير متوقع، ثم إنه انكفأ، وتراجع نحو بيزا، ليجند قواته، علّه يصبح أقوى، من أجل مهاجمة العصاة، لكن الذين سكنوا في تلك الأحواز والمناطق، عندما شاهدوا التراجع المهين للامبراطور، مع الخسائر الكبيرة، بالرجال وبالأملاك، ومع العار، تخلى كثير منهم عن ولائهم له، وتحالفوا مع الرومان والفيتربويين، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

الرعاع المتقلّبون يتبدلون دوماً مع الأمير

اظلام شهرة الامبراطور

ولهذا تناقصت شهرة الامبراطور بسبب هذه الحادثة كثيراً، لأن كونت سيمون أوف توسكانيا، الذي إليه كان قد أسند المسؤولية عن فيتربو مع ثقة كاملة، قد حمل مع رفاقه، كما ذكرنا من قبل، واقتيد أسيراً إلى روما، وتمّ فقدان مدينة فيتربو نفسها بالاضافة إلى بعض البلدات والقلاع في الجوار، والامبراطور نفسه أرغم تقريباً على الفرار، فكان أن تلطخت سمعته، وقد أشيع من حوله أنه لم يتنازل بعد ذلك لحضور القداسات، وأنه لم يعد يصلي، أو يعامل اللاهوتين باحترام، ولم يعد يراعي الإيمان الكاثوليكي بشكل صحيح سواء في الممارسة، أو بكلماته، وأن له علاقات حميمة وجنسية مع امرأة مسلمة، وأنه قد دعا مسلمين، وكذلك كفاراً آخرين إلى امبراطوريته، وسمح لهم ببناء مدن محصنة.

كثير من النبلاء يتخلون عن الامبراطور

ولذلك تخلى عن الامبراطور عدد كبير من النبلاء الحكماء والأقوياء، مثل: مركيز دي مونتفرات، ومركيز مالاسبينا Malaspina, وفيرسيلي Vercelli, وألسسندريا Alessandria, وعدد كبير من نبلاء المدن، وعلى هذا تضاعف أعداؤه، لأن الناس اعتادوا فقط على اتباع أصحاب الحظ، وفي ألمانيا أيضاً، تخلى كثيرون عن قضيته، ولم يرغبوا بالاستمرار بأن يكونوا من رعاياه المخلصين، فاختاروا لأنفسهم ملكاً آخر، أو امبراطوراً، هو اللاندغريف، وكان رجلاً شجاعاً وصاحب مكانة عالية، وإليه وعدت ألمانيا والشطر الأكبر والأعظم الأقوى من إيطاليا، بتقديم العون والرأي، من دون كلل أو ملل، إلى حد عرض حياتهم وتقديمها في خدمته.

تصرف الامبراطور في أزمته

وتصرف الامبراطور نحو هذه المخاطر بعقل عميق التفكير، وعهد بقيادة جيشه إلى واحد من أقرب أصدقائه إليه، ولم يخبر أحداً بالضرورات التي دعت لاتخاذ مثل هذه الخطوة المفاجئة، وبسرعة أدار توجهه إلى هناك، وكان على ثقة كبيرة، لأن اللاندغريف المذكور لم يكن قد وافق تماماً على الانتخاب المتقدم الذكر، لابل إنه لم يعطهم حتى موافقته، وأكثر من هذا هو لم يعطهم حتى جوابه، لأنه كان مرتبطاً بالامبراطور، ويمقت مغالطات البلاط الروماني، ولذلك وصل الامبراطور إليه، واستدعاه بشكل حبي وسري إلى مكان آمن، ودخلا في نقاش متبادل، وبحوار صديق، وتصافحا قبل أن يفترقا، ودخلا في تحالف، وبذلك صار اللاندغريف وتحول من كونه مشكوكاً به إلى الصديق الأعظم ثقة، وأعلن بشكل مكشوف إلى جميع الذين انتخبوه، أنه لايمكنه ولابأي شكل من الأشكال الموافقة على مثل هذا العمل السريع والطائش، وبعدما أنهى الامبراطور هذه القضية وسواها بما

يرضيه تماماً عاد إلى جيشه، بالحكمة نفسها، التي غادره بها.

إذلال الامبراطور

وارتفع شأن الذين كرهوا الامبراطور، وفرحوا، واعتلاهم السرور كثيراً تجاه الخسائر التي عانى منها، وهي الخسائر التي أتينا أعلاه على ذكر تفاصيلها وتعدادها، ولذلك تعرض الامبراطور في تلك الأثناء إلى قليل من الإذلال، وذلك وفقاً لقول النبي: «املأ وجوههم بالعار حتى يمكن أن يلتمسوا اسمك يارب»، ولذلك تدخل رجال نبلاء على درجة عالية من الحكمة، وعملوا بيقظة وبشكل متواصل، وشغلوا أنفسهم في سبيل إعادة تأسيس السلام بين الكنيسة وبين الامبراطور، لكن الامبراطور رفض ولم يقبل بأي شكل من الأشكال أن يقسم على اخضاع نفسه تماماً للعقوبات اللاهوتية، مالم يجري الاصغاء إلى مناقشاته، ويتم ايضاح الطريق أمامه، مع شرح جميع الشروط، أو التخلي عن الذي استحوذ عليه، كيفما كانت طريقة الاستحواذ، وذلك فيما يتعلق بالامتيازات القديمة للامبراطورية، وهكذا تجدد الخلاف ثانية بوساطة بدع عدو الجنس البشري، وفي تلك الآونة، عمل أوتو، الذي كان كاردينالاً بلقب القديس نيقولا في سجن توليان، والذي كان نائباً بابوياً في انكلترا، عمل أسقفاً لبورتو Porto.

رسالة مرعبة حول وحشية التتار

وفي الوقت نفسه، جرى ارسال الرسالة التالية، إلى رئيس أساقفة بوردو، وهي مرعبة كثيراً حتى إلى أكثر الناس شجاعة، وتتوافق الرسالة في كثير من الأمور مع الرسالة الامبراطورية التي جرى إرسالها إلى كثير من الملوك المسيحيين، فيما يتعلق بالدمار المريع الذي أحدثه القوم غير الانسانيين، الذين يدعون باسم التتار، وقد ورد اسمهم في هذه الرسالة باسم التاتار أو التتر.

«إلى جيرالد، الذي هو بنعمة الرب رئيس أساقفة بوردو، لقد جرت تسميتك من قبل نربوني Narbonnes كان من قبل أدنى كهنتك، صحة وقوة تتحول إلى مواهب الذين عهد بهم إليه:

إن أرواح غير العابئين المشغولين بالشؤون الأرضية، غير مهتمة بتهديدات العدالة الربانية، ولم يدخل الرعب إلى قلوبها العنيدة، حتى تطعن بوساطة قرار بالإدانة المرعبة، لأنني أعجب عندما يجري تهديد المسيحيين بمثل هذا الافناء والمحق، والعناد مسيطر بشكل عام على الملوك وعلى بقية رجال السلطة على الأرض، وكيف أنت الذي قيل بأن لديك غيرة من أجل الرب، لم تحاول تحريك القلوب المتصلبة بموجب ثقل نفوذك، وأنت ترى كثيراً من الناس العقلاء سوف يلتزمون بسلطتك ويؤمنون بكلامك، والخبرة وحدها تظهر مدى عظم المخاطر التي تهدد المسيحيين من خلال غزو التتار، لأن وصف وحشية ودهاء ذلك الشعب هي حقيقة غير مشوهة بذاتها ولايمكن أن تكون كذباً، ولسوف نخبركم باختصار عن عاداتهم الشريرة، ولسوف لن أذكر شيئاً هو مشكوك به، أو مجرد رأي، بل الذي سأذكره هو المبرهن عليه بكل تأكيد، وهو الذي أنا أعرفه.

وسلف من قبل أن اتهمتُ —كما تعلم— من قبل منافسي، بتهمة هرطقة الفسوق، بحضور روبرت كورزون Curzun, النائب البابوي للبلاط الروماني، من دون تمحيص بالضمير، ولقد انزعجت كثيراً بسبب دناءة التهمة، ورفضتُ هذا الحكم، وغدوتُ لهذا السبب هدفاً للمزيد من الريبة، ولذلك عندما سمعتُ بتهديدات ذلك الرجل صاحب السلطة، هربت من وجه المضطهد، وأرغمتُ على الارتحال والسفر إلى كثير من البلدان، وتفوهت بشكايتي إلى البيترنيين Peterinians, الذين سكنوا في مدينة كوما، وكيف أنني بسبب عقيدتهم التي —يشهد الرب— أنني لم أتعلمها قط، أو اتبعتها، إنني

الآن في المنفى، بسبب قرار حكم صدر ضدي، ولقد فرحوا لسماعهم هذا، وقالوا بأنني أستحق الحسد، لأنني عانيتُ من الاضطهاد في سبيل الاستقامة، وجرت استضافتي بينهم هناك لمدة ثلاثة أشهر في شهوانية وفخامة، وأصغيتُ في كل يوم بصمت إلى كثير من الأخطاء، أو بالحري الآثام المرعبة، التي تفوهوا بها ضد الايمان الرسولي، وقد ربطوني إليهم بإحسانهم ولطفهم حتى أنني وعدت من ذلك الحين، بأنني سوف أسعى لاقناع المسيحيين، الذين سوف تكون لي أحاديث جدية معهم، بأن ما من أحد يمكن انقاذه بإيمان بطرس، وبأنني سوف أثابر بجرأة بالتبشير بهذه العقيدة، وعندما وعدتهم بكلمتي متعهداً بشرفي، بأن أفعل هذا، بدأوا يكشفون لي أسرارهم وأخبروني بأنهم أرسلوا من جميع مدن لومبارديا تقريباً مع بعض من توسكانيا، طلاباً باحثين أكفاء إلى باريس، بعضهم لدراسة المسائل المعقدة للمنطق، وآخرين لدراسة المقالات اللاهوتية، من أجل الحفاظ على أخطائهم، ونقض قواعد الإيمان الرسولي، وللغاية نفسها أرسلوا كثيراً من التجار إلى الأسواق، لحرف الأغنياء من العلمانيين، وكذلك رفاقهم على الموائد، ومضيفيهم الذين امتلكوا فرصة للحديث معهم بود، وبذلك قاموا بمقايضات مضاعفة، فحصلوا من هذا على أموال الآخرين، ووضعوها بين أيديهم، وجمعوا في الوقت نفسه أنفساً لصالح المسيح الدجال، وحصلت أخيراً على إذن بالمغادرة من عند هؤلاء الرهبان المرتدين، وأرسلت من قبلهم إلى ميلان، حتى تجري استضافتي من قبل أتباعهم الدينيين، وبهذه الطريقة اجتزت خلال جميع مدن لومبارديا على شواطىء نهر البو Po, وكنتُ أقيم دوماً بين البيترنيين، وكنت دوماً عند مغادرتي أتسلم تقديماً إلى آخرين من الطائفة نفسها، ووصلت أخيراً إلى كريمونا Cremona, وإلى بلدة مشهورة في فريولي Frioli, حيث شربتُ أفضل خمرة للبيترنيين، وأكلت من زبيبهم المحفوظ، وتوتهم، ومن لحوم أخرى مثيرة، وخدعت المخادعين، وأعلنت عن نفسي أنني من

البيترنيين، مع أنني مازلت مستمراً، بعون الرب، مؤمناً بالمسيحية، على الرغم من أنني لستُ تماماً كذلك من حيث الأعمال، ووقفتُ لمدة ثلاثة أيام في كريمونا، وتسلمت أماناً من الرهبان، لكن اللعنة من واحد من أساقفتهم اسمه بطرس غلّو Gallo, الذي نظر إليّ نظرة ريبة، وقد سمعتُ —على كل حال— فيما بعد، أن هذا الرجل قد خلع من قبلهم بسبب الفسوق، ثم إنني انطلقتُ مع راهب علماني، ووصلتُ أثناء سفري إلى أقنية أكويليا Aquileia, وتابعنا من هناك سفرنا، واتخذنا لأنفسنا مقراً مع بعض الرهبان في بلدة صغيرة في فريساك Frisac, وفي اليوم التالي تركني الراهب العلماني، وبقيتُ لوحدي، وعبرتُ لوحدي خلال كارينثيا Carinthia, وتابعت السير على طريقي في النمسا، وتوقفتُ في بلدة اسمها باللغة الألمانية نوستادت Neustadt, أي المدينة الجديدة، حيث أكرمت وفادتي من قبل رهبان في طائفة جديدة اسمهم البيغونيين Beguins, ثم أخفيتُ نفسي لبضع سنوات في جوار مدينة فينا وفي المناطق المجاورة، مازجاً —يؤسفني القول— الخير مع الشر، لأنني عشت عاجزاً ملطخاً بإثم الشيطان، وكنت عدواً قاتلاً لنفسي، مع أنني تمكنت من تخليص عدد كبير من إثم البيترنيين، الذين كنتُ قد تحدثتُ عنهم.

ونتيجة لهرطقتهم، ولأشياء من الذنوب كثيرة قامت بين المسيحيين، استثير غضب الرب، وأصبح غاضباً مدمراً، ومنتقماً مرعباً جداً، وأنا أقول هذا، بسبب عرق حاد من المخلوقات غير البشرية، والذي شريعته هي اللاشريعة، والذي غضبه حنق، وهو عصا غضب الرب، وهو الآن يقوم بعبور منطقة واسعة من البلاد، ويقوم بالعيث فيها فساداً بشكل مميت، ويتولى محق كل شيء بشكل مخيف بالنار والسيف، يعترض سبيلهم، ففي خلال هذا الصيف بالذات، غادر هؤلاء القوم، الذين اسمهم التاتار بانونيا، التي استحوذوا عليها بالاستسلام، وقاموا

بوسـاطة آلاف لاتحصى، بحصـار البلدة المذكـورة أعـلاه بشـدة، والتي صدف أنني كنتُ آنذاك مقيماً فيها، ولم يكن في البلدة عساكر من جانبنا للتصـدي لهم، سوى خمسين فـارسـاً، وعشرين من رمـاة القسي الزيارة، كـان الدوق قــد تركهم في الحصن، ولدى صعـود هـؤلاء فـوق مكان مـرتفع في الجوار، شـاهدوا الجيش العمـلاق معسكراً من حـولهم، وارتعـدوا بسبب شـدة هـؤلاء الذين هم من أتبـاع المسيح الدجـال، وسمعت الآن آهات صاعدة نحـو رب المسيحيين، من الذين دهشوا في المنطقـة المجـاورة، وقـد هلكوا جميعـاً سـواء من دون تمييـز بالمرتبـة، أو المكانة، أو الجنـس، أو العمـر، وجـاء هلاكهـم بمختلف أنواع الموت، وتغـذى أتباع المقـدمين الذين كـانوا مثل كلاب آكلة للحـوم البشر، من لحوم أجسـاد الموتى، وكأنها كانت خبـزاً، ولم يتركوا شيئاً سـوى العظام للوحوش، لكـن مدهش أن نقول بـأن الوحوش والطيور الجارحـة، مع أنها كانت جائعـة، لم تقبل بأكل بقايا اللحوم، إذا صـدف وكان قد بقي شيء منهـا، وأعطيت النسـاء العجـائـز والقبيحـات إلى المسـؤولين عن الكلاب الآكلة للحـوم البشر —كما كانوا يسمـون— ليكونوا طعـامهم اليـومي، لكن اللائي كن جميـلات احتفظ بهن أحياء، ليخنقن وليقهـرن من قبل عـدد من مغتصبيهن، على الرغـم من صراخهن وبكائهن، فقـد جرى اغتصاب العذراوات حتى متن من الإنهاك، ووقتها كانوا يقطعون أثدائهن ليجـري الاحتفـاظ بهن بمثـابة طعـام لذيذ لمقـدميهم، أمـا أجسادهن فاتخذن لوجبة طعام سارة للمتوحشين.

وشاهد في الوقت نفسه، الذين كـانوا ينظرون من أعلى مكان مرتفع، وصـول دوق النمسا، وملـك بوهيميا، وبطريـرك أكويليـا Aquileia, ودوق كارينثيـا Carinthia, ومركيـز بيد Bade, كما قيل، مع عدد كبير من أمـراء الدول المجاورة، وكانوا على تعبئة جـاهزين للقتال، وفي لحظة واحـدة اختفى ذلك العرق اللعين، وعـاد الخيالة إلى هنغـاريا

التعيسة، ومثلما وصلوا فجأة، كذلك اختفوا بشكل مفاجىء، وهذه واقعة خلقت رعباً عظيماً في عقول الذين شاهدوها، وأسر أمير دلماشيا ثمانية من الفارين، وكان واحداً منهم معروفاً من قبل دوق النمسا، على أنه رجل انكليزي، كان قد نفي بشكل أبدي من مملكة انكلترا، بسبب إحدى الجرائم التي كان قد اقترفها، وكان هذا الرجل قد قدم مرتين كرسول وترجمان من ملك التاتار إلى ملك هنغاريا، وبشكل مكشوف هدد الهنغار وأنذرهم بالشرور التي وقعت فيما بعد، إذا لم يذعن ملكهم ويتنازل هو ومملكته ليكونوا خاضعين للتاتار.

وأقنعه الأمراء ليقول الحقيقة حول التاتار، وقام هو من دون تردد، بعد أن أدى كل نوع من أنواع الأيمان، وقدم إفادات قاسية جداً، حتى أنه من الصعب على الشيطان نفسه أن يصدقها، وتحدث أولاً عن نفسه، أنه بعد نفيه، وقبل أن يكون في الثلاثين من عمره، خسر كل شيء كان لديه بالميسر في مدينة عكا، وأنه لم يمتلك في أيام الشتاء سوى قميص من المسوح، وحذاء من جلد الثور، وقبعة مصنوعة من شعر الحصان، وتمكن بهذه الحالة من العوز، وإظهار حالة من الضعف بالجسد، وبشعر مشعث كأنه شعر مهرج، وباطلاق صرخات جمجمة كأنه رجل أخرس، فعبر كثيراً من البلدان، ولاقى لطفاً كبيراً من الذين قدموا له الضيافة والإحسان، متصرفاً بحياته بشكل أو آخر، مع أنه رغب يومياً في طيش لسانه والجنون في قلبه، ورغب في قرارة نفسه أن يكون لدى الشيطان، وأخيراً بعد طويل أمد أصيب بمرض شديد، بسبب الإنهاك الشديد الذي عانى منه، وبسبب تغير الأنواء والأطعمة، بين الكلدانيين، وصار مالاً من حياته، ولم يعد قادراً على متابعة السفر نحو الأمام، أو العودة، فوقف حيث كان، وكان يتنفس بصعوبة، ولأنه كان معتاداً بعض الشيء على الكتابة، بدأ يدون كتابة الكلمات التي جرى الكلام بها هناك، ثم شرع يتفوه بهن بشكل صحيح، إلى حد أنه عدّ من السكان المحليين،

وقد تعلم عدة لغات ببراعة، وسمع التاتار عنه من خلال جواسيسهم، وتمكنوا من جره إلى جانبهم، وعندما شرعوا يسعون بتطبيق دعواهم باخضاع العالم كله، ربطوه بهم، ولكي يكون مخلصاً في خدمتهم، منحوه كثيراً من الأعطيات، لأنهم كانوا بحاجة ماسة لأشخاص، يكونوا تراجمة لهم.

وفيما يتعلق بأخلاقهم وسماتهم، وأوهامهم التي يؤمنون بها، وأمزجة وآفاق ذواتهم، وبلادهم وطرائق قتالهم، أقسم أنهم كانوا جشعين، وانفعاليين، ومخادعين، وبدون رحمة بشكل فاقوا به الناس الآخرين، وشدة وقسوة العقوبات التي تنزل بهم من قبل مقدميهم، تمنعهم من النزاعات، أو بالحري من خداع بعضهم بعضاً، أو إلحاق الضرر ببعضهم بعضاً، ويدعون الذين أسسوا قبائلهم الأرباب، ويقيمون تعبدات في بعض المواسم، ولديهم احتفالات خاصة كثيرة، وأربعة أعياد نظامية فقط، ويعتقدون بأن كل شيء قد عمل من أجلهم، ويؤمنون أنه لاتوجد وحشية في ممارسة كل نوع من أنواع القسوة، ضد الذين يثورون ضدهم، ولهم صدور ثابتة وقوية، ووجوه مائلة وشاحبة، وكتفين قاسيين وعاليين، وآناف قصيرة ومشوهة، وذقونهم حادة وعالية، وفكهم العلوي منخفض وعميق، وأسنانهم طويلة وقليلة، وتمتد حواجبهم من الشعر إلى الأنف، وعيونهم سوداء وغير مستقرة، وملامحهم طويلة وقاسية، ومظهرهم الخارجي عظمي وانفعالي، وأ جلهم غليظة لكنها قصيرة تحت الركبة، والبناء الجسدي مساو لنا، لأن الذي خسروه تحت الركبة جرى تعويضه بطول أكبر لأجزائهم العلوية.

وبلادهم الأصيلة هي مساحات واسعة، وكانت من قبل صحراء، واقعة خلف الكلدانيين، قد طردوا منها الأسود والدببة، والوحوش الأخرى، وكان ذلك بوساطة قسيهم وأسلحة الحرب الأخرى، وقد

صنعوا من الجلود المدبوغة لهذه الحيوانات لأنفسهم دروعاً هي خفيفة المظهر، لكن لايمكن خرقها، ولديهم خيول ليست ضخمة، لكنها قوية جداً، وتتطلب قليلاً من الطعام، وهم يربطون أنفسهم بثبات على ظهورها، ويستخدمون النشاب، والهراوات، وبلطات القتال، والسيوف في الحرب، ويقاتلون بشجاعة وثبات، وميزتهم الأساسية هي في استخدامهم القوس، وفي براعتهم في القتال، ودروعهم الواقية لظهورهم رقيقة، حتى لايحاولوا الفرار، وهم لايتراجعون عن القتال حتى يرون العلم الرئيس لمقدمهم يتراجع، وعندما يسقطون لايطلبون الرحمة أبداً، وهم أنفسهم لايوفرون واحداً قد سقط، وفي غايتهم الثابتة في اخضاع العالم كله ووضعه تحت سيطرتهم، يصرون على ذلك كأنهم رجل واحد، كما أنه من غير الممكن عدّ الألف منهم مثل ألف من الآخرين، وعدد أتباعهم، الذين يدورون في فلكهم ستمائة ألف، وهم يرسلون هؤلاء أمامهم لإعداد أماكن من أجل الجيش، ويستطيعون على ظهور خيولهم السريعة قطع مسافة سفر ثلاثة أيام في ليلة واحدة، ويقومون فجأة بنشر أنفسهم فوق منطقة واحدة، وينقضون على السكان غير المسلحين، والذين بلا دفاعات، والمتفرقين، محدثين فوضى ودماراً عظيماً، إلى حد أنه لو حاول أمير أو ملك البلاد المحاصرة حشد جيش ليحضره إلى ساحة القتال ضدهم يعجز عن ذلك، وفي أيام السلم يخدعون الناس وأمراء البلدان بأسباب هي غير منطقية، فهم يقولون أحياناً بأنهم تركوا بلادهم لاسترداد الأجساد المقدسة لملوك المجوس، الذين يزينون مدينة كولون Cologne, ويقولون في أحيان أخرى، إنها في سبيل ضبط شره وتفاخر الرومان، الذين ظلموهم في القديم، وهناك سبب آخر، هو أن يخضعوا تحت سلطانهم شعوب وقبائل الهيبربوريان Hyberborean البربرية، ثم إنهم قالوا بأن غايتهم هي إطفاء غضب التيوتون بوساطة تسامحهم ولطفهم، وأحياناً لتعلم فن الحرب من الفرنسيين، وأحياناً أخرى للحصول على أرض خصبة كافية

للقيام بأود حشودهم، وقالوا أخيراً بأن الغاية هي القيام بالحج إلى القديس جيمس في غاليشيا Gallicia, وتمكنوا بهذه الحكايات من السيطرة على بعض الملوك البسطاء،لأن يبرموا معاهدات معهم، ولكي يمنحوهم مجازات حرة خلال أراضيهم، ولايحافظ التاتار على المعاهدة، ويتعرض هؤلاء الأمراء للهلاك سواء.

ولدى رؤيتنا مثل هذه المخاطر العظيمة، وهي قائمة مهددة جميع العالم المسيحي، ماالذي يعمله هؤلاء الرهبان المقدسين، مع طقوسهم الدينية الجديدة، وصدوراً عن نار الفرن الجديد التي صيغوا منها، من الذي يرغب أن يعتقد بأنهم وحدهم قد عثروا على طريق الكمال دون الآخرين؟ وبوساطة الاعتراف ووسائل الإلفة الأخرى سوف يتمكنون من الحصول على الحظوة لدى الملوك والأمراء، وهم يصرخون بحرارة وإلحاح في آذانهم ضد التاتار، وهم يسيئون، إذا لم يصرخوا، ويفعلون الأسوأ إذا اكتفوا بالتظاهر بذلك، والأسوأ من هذا كله إذا ماقاموا بمساعدة العدو، فما الذي يفعله الرهبان السود والبيض؟ ومالذي يفعله الكهنة النربونيين الذين يرغبون بالتفكير لو أن العالم ميت؟ لماذا لايبشرون بصليبية ضد التتار لدى رؤيتهم اقتراب جميع هذه المخاطر؟ وعجباً للاستشارات الحمقى للملوك! وللصمت الفاتر للأساقفة ورعاة الديرة! ولشدة التاتار ولوحشيتهم التي لم يسمع بمثلها! فلقد جرى حتى الآن تدمير ست ممالك مسيحية، والمصير نفسه معلق فوق الآخرين، في حين إن مثل الذين هلكوا لايفيد كوسيلة انذار للأحياء، فنحن قد أهملنا أسوأ أعدائنا في داخل البلاد، وقاتلنا الذين بدون أذى فيما وراء البحر.

وهذه هي الأسباب التي اقتادتني، أنا الذي أدين بالفضل لعنايتكم الأبوية، فأنا كما أنا، أتقدم بالنصيحة إليكم في الرب، بأن تقوموا بإقناع ملوك: فرنسا، وانكلترا، واسبانيا، الذين بينهم تحتلون مكاناً وسطاً، وأن

تستخدموا كل الوسائل التي باستطاعتكم استخدامها، لكي يضعوا جانباً خصوماتهم الخاصة، إلى الأبد، أو على الأقل لبعض الوقت، وأن يعقدوا بسرعة وعقلانية مؤتمراً فيما بينهم، حول كيف يمكنهم بأمان التغلب على مثل هؤلاء الآلاف من هذه النوعية من المتوحشين، وأدعو أنا الإيمان بالمسيح، الذي به آمل بالانقاذ أن يكون شاهداً، أنهم لو توحدوا جميعاً، فلسوف يسحقون هؤلاء التنينات، أو سوف يسحقون إفرادياً من قبلهم. وداعاً».

الصراع بين الامبراطور وبين البابا يثير اضطراب كل شيء

كان مقدراً لهذه الرسالة المرعبة أن تثير كثيراً قلوب الملوك والنبلاء، الذين وصلت إليهم، ولكانت أثارتهم بشكل فعال للانتقام للأذى الذي ألحق بالمسيح، وبالكنيسة الكاثوليكية، وبالمسيحية كلها، لولا قيام النزاعات المتبادلة بين البابا وبين الامبراطور، ومن ثم نشرها الاضطراب فوق العالم كله، ولذلك فإن هذا الصراع قد تفجر في الخارج خلال جميع المناطق، في الطول وفي العرض، لأنه لم يكن في كل المسيحية أحداً أعلى مرتبة، لابل ما من أحد في مثل تلك المرتبة العالية، مما أنعش قلوب التاتار، وأبهجها، لابل جميع الكفار، وعلاوة على ذلك جميع أعداء المسيح، وجعلهم يضاعفون آمالهم، ولذلك قالوا وهم يتفاخرون ويتقيئون أنفسهم، بأن الرب منزعج وضد المسيحيين، الذين قاتلوا ومزقوا بعضهم بعضاً، وأنه بات أكثر راضياً عنهم ولصالحهم. وزاد من تعدادهم، وضاعف قوتهم.

تشديد الحراسة على الطرق في روما

ورأى الامبراطور في الوقت نفسه، أن البابا المنتخب حديثاً، قد قام بتأكيد قرار سلفه، وأنه لايرغب بتقديره بأية طريقة من الطرق، ولذلك رفض من جانبه الخضوع تمام الخضوع إلى وصايات الكنيسة، وأعطى

أوامر بتشديد الحراسة على جميع الطرقات، والموانىء، والجسور، وأن لايكون هناك انسان يقوم بالعبور وهو يحمل مالاً، لأنه كان يعرف بأن في البلاط الروماني عطش بشكل غير متناهي، وصرف ابنه كونراد نفسه بيقظة لهذا العمل، ووقف بتيقظ في الطرقات وسدها، في كل من البحر والبر، ولم يوفر أحداً من المسافرين، حتى الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، أو أي واحد متخفي، وكل من اعتقله عذبه حتى الموت.

تزايد أعداد البيغونيين

وفي الوقت نفسه، وبشكل خاص في ألمانيا، أعلن كثير من بعض الأشخاص من كلا الجنسين، لكن بشكل رئيسي من النساء، أنهم صاروا رهباناً، وارتدوا اللباس الديني، ولم يكن هذا اللباس ثقيلاً جداً، وعملوا تعهداً بعفة الحياة وبساطتها، بوساطة تعهد خاص، وذلك من دون الالتزام بأحكام أي قديس، كما أنهم لم يحبسوا أنفسهم داخل إطار أي دير، وباختصار تزايدت أعدادهم إلى درجة أنه وجد في مدينة كولون وجوارها، ألفين منهم.

خلاف بين الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان

ولكي لايظهر العالم أنه شاغر من تزايد الاضطرابات من كل جانب، نشب صراع بين الرهبان الفرنسيسكان والرهبان الدومينيكان، مما سبب الدهشة لكثيرين، لأنهم بدوا بأنهم اختاروا الطريق السليم، أي طريق الفقر والصبر، فمن الجانب الأول ادعى الدومينيكان وأعلنوا أنهم هم الذين تأسسوا أولاً، ولذلك السبب هم أعلى مقاماً، وأنهم أكثر عقلانية في مظهرهم الخارجي، وعن جدارة استحقوا نيل اسمهم ومقامهم من أعمالهم التبشيرية، وأنهم كانوا بالفعل والحقيقة حصلوا على تميز بوساطة المقام الرسولي، وقدم الفرنسيسكان من الجانب الآخر جواباً، بأنهم اختاروا في سبيل الرب طريقاً للحياة أكثر قسوة وتواضعاً، ولذلك فهم

أكثر جدارة، لأنهم أكثر قداسة، وأن الرهبان يمكنهم، وينبغي بشكل مؤكد أن ينتقلوا من طائفة الدومينيكان إلى طائفتهم، على أساس الانتقال من جماعة أدنى إلى جماعة أكثر تفوقاً وتشدداً، ونقض الدومينيكان مقالتهم مواجهة، قائلين صحيح أن الفرنسيسكان يسيرون وهم حفاة، ويلبسون ألبسة خشنة، وهم متحزمون بحبل، وهم يتمتعون بامتياز أكل اللحوم، أو أطعمة أكثر لطفاً ولذة، وأن هذا ليس محظوراً عليهم حتى أمام الناس، وهو أمر محظور بالنسبة لجماعة الدومينيكان. ولذلك لايمكن القول بأن الدومينيكان يمكنهم الدخول إلى طائفة الفرنسيسكان لأنها طائفة أكثر تشدداً وأكثر جدارة، بل إن العكس هو الصحيح، ولذلك نشب نزاع بين هؤلاء، مثلما نشب أيضاً بين الداوية والاسبتارية، في الأرض المقدسة، من خلال بذور الخلاف التي زرعها عدو الجنس البشري، صراع تآمري عنيف، وكان مثله مثل الصراع بين الرجال المتعلمين والجامعيين، لابل أشد خطورة بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، وكان علامة على غضب عظيم سوف يحل بساحتها، والذي هو مزعج، ونذير سوء هو أنه لمدة ثلاثمائة سنة أو أربعمائة أو أكثر، لم تسرع الطوائف الرهبانية نحو الدمار مثل اسراعها الآن، كما تفعل طائفتيها، ذلك أن رهبانها لم يمض الآن على وجودهم في انكلترا بالكاد عشرين عاماً، حتى بنوا لأنفسهم مساكن نافسوا فيها القصور الملكية، وهؤلاء هم الذين يعرضون للمشاهدة كنوزهم التي لاتقدر ولاتحصى، ويوسعون مبانيهم الفخمة، ويشيدون الأسوار العالية، ولذلك خرقوا بحماقة حدود فقرهم الأصيل، واعتدوا على قواعد دينهم، وذلك وفقاً لنبوءة الألماني هايلد غريد Hildegrade, فعندما يكون الرجال النبلاء والأغنياء على حافة الموت، يقومون بحثّ الذين الذين يعرفون أنهم مستحوذين على ثروات كبيرة، وفي حبهم للربح يحثونهم بإلحاح لإلحاق الأذى والخسارة بالأساقفة العاديين، وأن يستخرجوا اعترافات ووصايا خفية، رافعين أنفسهم، وطائفتهم فقط،

وواضعين أنفسهم أمام جميع الآخـرين، و هكذا فإن الرجل المؤمن الآن يعتقـد أنه يمكن أن يحفظ، فقـط إذا مـا جـرى توجيهـه بمشـورات الدومينيكـان والفـرنسيسكان، ورغبـة من هؤلاء في الحصـول على الامتيـازات في بلاطـات الملوك والأعيـان، أخـذوا يشغلون أدوار المستشارين، والحجاب، والساسة رجال الأعراس، والمتوسطين من أجل الزيجات، وهم الذين يتـولون تنفيـذ الاستخـراجـات البـابوية، وهم في قداساتهم إما يتـولون الإطراء أو النقد الحاد، ويكشفون الاعترافات، أو يقـومـون بأعمال الاتهام بوقـاحـة، ويـزدرون أيضـاً الطوائف التي تولى وضعهـا الآباء المقدسـون، أي التي أسسهـا القديس بندكت، والقـديس أوغسطين، ويستخفـون أيضاً بـأتباعهم (وظهـر هذا الشيء بوضـوح في قضيـة كنيسـة سكاربورا Scarborough, عندمـا انسحب الفرنسيسكان بشكل مهين) وهم يضعون جماعتهـم أمام الآخرين، وهم ينظرون إلى الرهبـان السسترشيـان على أنهم أجـلاف، لايـؤذون، شبـه أصـلاء، أو بالحري ذوي أصل رديء، ويعـدون كهنة ورهبـان الطائفـة السوداء متكبرين ومنغمسين بالملذات الحسية.

جامعة باريس تتراجع عن أخطائها وتستنكرها

وكذلك في ذلك الوقت، وبالتحديد بعـد عيد القديس ميكائيل، تمت عملية إعادة اجتماع المدارس والدارسين، وبدأ معلمـو اللاهوت، خاصة كبار المحاضرين من الدومينيكان والفـرنسيسكان المناظرة والمناقشة بدقة تفصيليـة أكبر، وبعمق أعظم مما ينبغـي، أو مما هو مفيـد، ولم يترددوا في وزن الجبـال، حيث يمكن لمجـد الرب أن يخزيهم، وغـامـروا بطيش في تفحص أسرار الرب القـديـر التي لايجوز البحث بها، وأقـدمـوا على البحث في أحكامـه التي هي عميقـة جـداً، وكـانوا بالنتيجـة غير أكفـاء بالنسبـة للمهمة، وتفحصـوا هكذا بعمق، وتجولوا حيث ليس هناك ممر، بسبب انتقام الرب، الذي يكون أكثـر رضا بالبسـاطة الصحيحة للإيمان

الثـابت، أكثر من رضـاه بالبراعـة الأكثر ظهـوراً في اللاهوت، ومع أنه أسلم وأكثـر فضيلة أن نتقبل ببساطة وأن نعتقـد في الآثار التي تلقيناها من الآباء، من أن نحـاول البرهنة عليهـم، بهذه الوسـائل التي يقـدمهـا العقل البشري، لقـد اختـاروا أن يغـرروا بـأنفسهم وأن يرتفعـوا فـوق المستوى الصحيح.

هذا وعندما علم أسـاقفة الكنائس بهذه الأشيـاء، وكانوا متيقظين من أجل مصلحـــــة الكنيســـــة والإيمان المسيحي، واستنـدوا على سلطة الانجيليين والأنبياء في لجم وقاحتهم الطـائشة، ودعوا إلى اجتماع للناس ذوي الإيمان المستقيم، وأعلنوا بحكمـــة عـن حقيقـــة الإيمان، وكـــانت غلطتهم الأولى: هي أن الجوهر الـلاهوتي لم يشـاهد، ولن يشـــاهد، من قبل إنســـان في حـــال الطهـــارة أو من قبل مـــلاك، وعلى هذا أجـــاب الأســـاقفـــة: نحن ندين هذه الخطيئة، ونحـرم كنسيـــاً الذيـن أعلنوها ويتمسكون بها، لأننا نـؤمن بثبـــات، ونؤكـــد، بأن الـرب في جـــوهره، وتكوينه، أو طبيعتـه، سـوف يشاهد من قبل الملائكـة المقدسين، عندمـا يكون في حـــال التجلي، وكـانت الخطيئة الأخـــرى هي: مع أن الجوهر اللاهوتي هو نفسه في الأب والابن، والروح القـدس، ومع ذلك بالنسبة للشكل، إنـه ليس نفســـه في الروح القـــدس كما هـو في الأب والابن مأخـوذين مع بعضهما، ومع ذلك إن الشكل هو الشيء نفسـه، كجـوهر لاهوتي، وعلى هذا قـــدم الأســـاقفـــة الجواب التـــالي: نحن نـدين هذه الخطيئة، إلـخ، لأننا نـؤكـــــد بشكل ثـابت بـأن هناك اتحاد بـالجوهر، والتكوين، أو الطبيعـة، في الأب والابن، والروح القـدس، وأن الجوهر هو نفسه بالنسبة للشكل، وهو نفسه في الأب، والابن، والروح القدس، وخطيئة أخرى هي: أن الروح القدس، لكونه نوعاً من الحب، أو رباطاً من التعـاطف، لم يصدر عن الابـن، بل عن الأب فقط، نحن ندين هذه الخطيئة، إلخ، لأننا نعتقـد بثبات ونعلن بأن الروح القدس، لكـونه نوعاً

من الحب، أو رباطاً من التعاطف، قد صدر عن الاثنين، وخطيئة أخرى هي: أنه لا الأرواح الطاهرة، ولا الأجساد الطاهرة سوف تكون مع الملائكة في السماء العليا، بل في السماء المائية، أو الشفافة، الموجودة فوق قبة السماء، حيث أنهم افترضوا، ووضعوا العذراء المقدسة، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات ونعلن، بأن المكان الجسدي نفسه، أي السماء العليا، سوف تكون مشاعاً للملائكة، وللأرواح القديسين، وللرجال المجدين، ومثل هذا المكان الروحي نفسه مشاعاً للرجال وللملائكة، وخطيئة أخرى: هي أن الملاك كان شريراً من اللحظة الأولى لخلقه، ولم يكن قط غير ذلك، أي غير شرير، إننا ندين هذه الخطيئة ونمنعها، وأولئك الذين يعلنونها ويتمسكون بها، إلخ، لأننا نعتقد بثبات ونؤكد بأنه كان فيما مضى صالحاً وليس شريراً، وقد صار فيها بعد سيئاً باقتراف الذنب، وخطيئة أخرى: هي أنه كان هناك من الأزلية حقائق كثيرة، وهي لم تكن رباً، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن، بأنه كانت هناك حقيقة واحدة من الأزلية كلها، التي هي الرب، وأنه كان هناك باطل، هو لم يكن رباً، وخطيئة أخرى، هي أنه يمكن لملاك أن يكون في أماكن مختلفة في الوقت نفسه، لابل حتى في كل مكان إذا ما اختار، نحن ندين، إلخ، لأننا نؤمن بثبات ونؤكد هو أن ملاكاً موجوداً في مكان واحد مؤكد، وبناء على ذلك إنه إذا كان هنا، لايمكنه في الوقت نفسه واللحظة ذاتها أن يكون في مكان آخر، لأنه من الممكن لواحد أن يكون كلي الوجود، لأن ذلك معزو إلى الرب وحده،وخطيئة أخرى: هي أن البداية، والوقت الحالي، والخليقة، والآلام هي كلها ليست خالقاً ولامخلوقاً، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن بأنهم جميعاً قد جرى خلقهم، وخطيئة أخرى: هي أن الملاك الشرير، لم يمتلك قط أرضاً يمكنه الوقوف عليها، ولا حتى آدم عندما كان مايزال في مرحلة البراءة، نحن ندين إلخ، لأننا نؤمن بثبات، ونعلن أنهما امتلكا مكاناً ليقفا عليه، لكن —على كل حال— لم يربحا من ذلك، وخطيئة أخرى:

هي أن الذي لديه ونال المنحة الأحسن بشكل طبيعي، سوف يكون بالضرورة لديه المزيد من النعمة والمجد، ونحن نستنكر هذه الخطيئة، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن بأن النعمة والمجد سوف تمنحان حسبما يراه الرب مناسباً. وهذا مقدر من ذي قبل.

خلاصة أحداث هذا العام

وعلى هذا عبر هذا العام، مع وجود مخاطر مهددة واضطرابات للكنيسة، وكان عاماً وافراً بما فيه الكفاية في الخضار والفواكه، وقد جلب الموت والازعاج لعدد كبير من النبلاء في العالم المسيحي، وجلب الملامة والأذى إلى مملكة انكلترا وإلى ملكها، وأحضر معارك وعداوات إلى الايطاليين، وانعدام ثقة بالنسبة إلى الأرض المقدسة، وحدوث انشقاق ومؤامرات بين الداوية والاسبتارية.

الوليمة السخية للإيرل رتشارد في وولنغفورد

في سنة النعمة ١٢٤٤، التي هي السنة الثامنة والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، كان الملك نفسه في عيد الميلاد، ضيف أخيه، الايرل رتشارد، في وولنغفورد Wallingford, حيث أقيمت وليمة سخية، قد دعي إليها جميع النبالة الانكليزية تقريباً، وكانت هذه الوليمة آخر الحفلات التي شرع بها في لندن، وكل مايمكن أن يفكر به قد أحضر لجعل احتفالات الزواج فخمة، وكان بين الحضور بيترايس، كونتسة أوف بروفانس، وابنتها سينشيا، المتزوجة حديثاً، وكانت جميلة المظهر، وقد بذل الملك جهوده كلها حتى يظهر لطيفاً وكريماً.

مغادرة كونتسة بروفانس لإنكلترا

وبعد الفراغ من هذه الاحتفالات، بادر الملك، ترافقه بيترايس، الكونتسة المذكورة، مع عدد كبير من النبلاء من الجنسين، ومن العائدين إلى كل من انكلترا، وبروفانس، بادروا مسرعين إلى لندن، في أيام عيد

الختانة، للاحتفال هناك، بأعظم أبهة، بعيد القديس ادوارد، بحضور الضيوف من بروفانس، وأمام أعينهم، وتوجهت بعد ذلك الكونتسة المذكورة نحو البحر، وعادت إلى موطنها وجرت مرافقتها بشكل رسمي حتى البحر من قبل الملك مع حشد كبير، لكن حتى لايمر سرور في هذا العالم من دون انتكاسات، حدث أنه قبل أن تغادر الكونتسة وتركب السفينة في دوفر، وصلها حملة لأخبار محزنة، حيث أعلنوا لها بأن زوجها ريموند كونت بروفانس قد أصيب بمرض عضال، وهو على حافة قبره، وهو الرجل الذي قدم مساعدات فعالة إلى الكنيسة الرومانية، في جميع أزماتها، بإلحاقه الأذى بالامبراطور، وعندما جرى إعلام الملك بهذا، أصيب بحزن عميق، وطلب رحمة الرب للكونت، بالصلوات، وبتقديم الصدقات، إلى غاية ما كان بإمكانه.

إرسال البابا الجديد رجلاً جديداً إلى انكلترا لاستخراج المال

وأرسل في تلك الآونة نفسها البابا المنتخب حديثاً، مستخرجاً جديداً للمال إلى انكلترا، اسمه المعلم مارتن، وهو يحمل رسالة اعتماد من البابا، ومفوضاً بسلطة فرض عقوبة الحرمان الكنسي، والتعليق وبانزال العقوبات بطرق كثيرة، بالذين يعارضون رغباته، وقام وهو متسلح بمثل هذه السلطات، فعلق الأساقفة الانكليز، حتى لايعود بامكانهم جباية أية منفعة من منافعهم حتى يكونوا قد أرضوا نهم البابا، الذي جبا جميع مواردهم لصالح كهنته أو أقربائه، وقد أرتأى أنه ليس بذي قيمة أن يتسلم أي مبلغ ما لم يصل إلى ثلاثين ماركاً، أو أكثر، خشية أن يبدو ذلك الرجل العظيم حريصاً على التوافه، ولذلك شرع المعلم مارتن المذكور بغطرسة بمطالبتهم والاستخراج من الأساقفة وخاصة من الرهبان، الهدايا، وخاصة الخيول الفخمة، فقد فرض في رسائله مثل هذا على رعاة الديرة، أو رؤساء الرهبان، أن يرسلوا إليه خيولاً تكون موائمة لكاهن خاص للبابا، ليمتطيها، والذين عارضوا، وتقدموا

بتسـويغات، وعـرضـوا أسبـاباً لعدم الطـاعة، حتى وإن كـانت أسبـاباً منطقيـــة (مـن ذلـك على سبيل المثـــال راعـي ديـر مـــالمسبري Malmesbury, ورئيس رهبـــان ميرتون Merton) جـــرى تعليقهم، ومعـاقبتهـم بقسـوة إلى أقصى حـد يرضيــه، لأن هذا المنقب الحريص تجول بعينيــه وتطلع نحـو جميع الكنائس الشــاغـرة، وجميع الأوقـاف، حتى يتمكن بوسـاطتهم من سـداد جميع المطالب المكشـوفـة للبابا مع حـاجاته، وكان من بين أوقاف الكنائس الغنيـة، أوقاف كنيسة سالسبري، التي كانت مـرتبطة بقائد جوقة المرتلين، التي غـدت شاغرة، فوضـع يديه على هذا الوقف، على الرغم من معارضـة الأسقف، وجميع أعضاء الهيئة الكهنوتيـة، وقام بناء على أوامر البـابا، بإعطاء هذا الوقف إلى واحـد من أحفاده، وكـان مجرد طفل، مما أدهش كثيرين وآلمهم، لأن كثيرين اعتقدوا وأملوا بأن نهم البـلاط الروماني، سوف يعتـدل بوساطة شيء من العقلانية، وذلك بعـد العقوبات التي نزلت به حتى الآن مراراً بوساطة غضب الرب.

تصرف غير عادل من الملك نحو أسقف وينكستر

وحـدث كـذلك في الوقت نفسـه، أن قـام الملك بشكل غير صحيح بظلم أسقف وينكستر، بوضع يد ثقيلة عليه، ولم يتنازل مطلقاً بقبوله في مـؤتمر مصـالحة، أو لنيل قبلة سـلام وصـداقـة، وذلك أثناء عـودته من مناطق عبر البحـر، حيث قدم الأسقف نفسـه بكل تقـوى، وقد لاحقـه بكراهية شـديدة، ولم يسمح لأي رجل علماني بأن يعيش معـه، أو يتولى خـدمتـه، ولم يأذن له بتلقي الضيـافـة في أي من الـديرة، بل إنه نظر إلى الذين استقبلوه وواسوه، على أنهم أعداء معلنون، وأعـاق أيضاً بوحشية ومنع أن يصل إلى الأسقف سفينـة وعـربات محملة بـالمؤن والإمـدادات القـادمـة من نورويك، ولـدى سفـر الأسقف إلى لندن، لم يتجـرأ على الدخـول إلى قصره في سـاوثوورك Southwark بسبب خجله من

الظلم الذي تلقـــاه من أتبـــاع الملك، واستضيف وهـو متخفي في بيت رهبـان سـاوثوورك، الذي هو قـرب قصره، وواقع في أسقفيتـه، وانتظر هناك بتواضع تبـدل الأوقات المعارضة، وإلى أن يزوره التـوفيق والرضا من عليين، لكن الملك الذي كـان يتصرف بناء على نصيحة قـوم ظالمين، منع كل واحـد في مـدينة لندن من بيعه حتـى ضروريات الحياة، الأمـر الذي لانتـذكر أن مثله قـد أوقع حتى بالقديس تومـاس رئيس أساقفـة كـانتربري، ثم إن الأسقف قـام وهـو حـزين يعـاني من كثير من الأذى والاضطراب، فـاشتكى —مع سبب صحيح— إلى زمـلائـه الأسـاقفـة، وعندمـا علمـوا بذلك قـام أسـاقفـة لنكولن، وووركستر، وهيرفـورد، تحركهم العاطفة، وغاضبين غيرة على العدل، فبادروا مسرعين إلى ردنغ، حتى يتمكنوا من توبيخ الملك، ونصيحته حتى يقوّم أخطائه، لكن الملك أعلم بقـدومهم، فهـرب رافضاً نصيحتهـم المسالمة، إنما عندمـا وجـدوه أخيراً، انفجر غاضباً وتفوه بكلمات تسويغ لنفسه وكراهية، ولم يكن من الممكن تسكينه بتحريضاتهم، بل إنه تصرف على العكس بشكل واضح، فبعث لإلحاق الأذى بالأسقف، بثيبولد دي هيرلي Hurley, والمعلم هنري دي ســوسـا Susa إلى البــلاط الرومــــاني، مع مبلغ كبير، استخـرجه لهما حتى ينفقـاه، ولكي يعدا بمبلغ أكبر بكثير إلى البـابا وإلى البـلاط الرومـاني، على شرط أن يقـومـا بخلع الأسقف المذكـور بشكل مهين، لكن بما أن ذلك سوف يكون غير مستقيم بشكل مكشوف، وغير عادل، وسـوف يسبب فضيحة عامة ضـد الكنيسة، لم يتمكنا بأية وسيلة من الوسـائل من إكماله، ولأن رئيس الرهبان المتقـدم ذكره أعـلاه، كان يعرف هذا بشكـل مؤكد، عـاد بشكل عقلاني، لكن رفيقـه هنري هرب بشكل شرير ودنيء، وأخـــذ مـال الملك وهرب به، وسـافــر إلى مناطق مـوطنه، حـاذياً حـذو الغـراب الذي لم يعـد إلى سفينة نوح، ولم يعـاود الظهور في انكلترا.

موت الكاردينال جون أوف كولونا

وفي ذلك الوقت نفسه من السنة، أي في ثمانية عيد طهارة العذراء المباركة، مات جون أوف كولونا Colona, وكان كاردينالاً رومانياً، ووعاءً لكل أنواع العجرفة والوقاحة، وكان الأكثر شهرة، والأعظم قوة في الممتلكات المدنية بين جميع الكرادلة، وكان الفاعل الأكبر والراعي المغذي للخلاف بين الامبراطور والبابا.

تثبيت المعلم روجر أسقفاً لباث

وجرى في الوقت نفسه تثبيت المعلم روجر، رئيس جوقة سالسبري في أسقفية باث، حيث شاهد بسرعة أن وقفه في سالسبري، سوف يعطى إلى حفيد البابا، وفي الوقت نفسه كان هناك راهب اسمه توماس أوف غلوستر، جرى انتخابه بشكل نظامي من صدر الكنيسة، ومن ثم تمّ تنصيبه بصورة شرعية راعياً لدير ايفهام.

موت رالف نيفيل أسقف شيستر

وأيضاً مات في العام نفسه الأب المبجل رالف نيفيل، أسقف شيستر، ومستشار انكلترا، وكان رجلاً يستحق الثناء بكليته، وكان عموداً لايمكن زحزحته بالاخلاص لشؤون الدولة، وقد أنهى مهمته الحياتية ليدخل في الحياة السرمدية، في الأول من شباط، وكان ذلك في لندن، في قصره الفخم، الذي بناه من الأساسات على مسافة عظيمة عن الهيكل الجديد.

حرمان النورمان من ممتلكاتهم الانكليزية

وفي مجريات هذه الأيام، قام ملك فرنسا، فجمع في باريس، جميع الناس من عبر البحر الذين لديهم ممتلكات في انكلترا، وخاطبهم على هذه الصورة:

«بما أنه من غير الممكن لأي رجل، يعيش في مملكتي، ولديه ممتلكات في انكلترا، أن يخدم بشكل كامل سيدين، لذلك عليه إما أن يربط نفسه بي بشكل لايمكن فصمه، أو بملك انكلترا»، وبناء عليه توجب على الذين لديهم ممتلكات وموارد في انكلترا، أن يتخلوا عنها، وأن يحتفظوا فقط بالممتلكات التي لديهم في فرنسا، والعكس صحيح، وعندما وصل هذا إلى علم ملك انكلترا، أمر بوجوب انتزاع ممتلكات جميع الناس الذين هم من الشعب الفرنسي وخاصة النورمان، ومن ذلك بدا الأمر بالنسبة للملك فرنسا أن ملك انكلترا قد خرق المعاهدات التي أبرمت بينهما، بسبب أنه لم يفعل كما فعل ملك فرنسا، بإعطاء خيار للذين سيخسرون أملاكهم، بأن يكون ذلك في المملكة الأولى، أو في المملكة الثانية، وبذلك يمكنهم أن يختاروا لأنفسهم أي المملكتين يمكنهم أن يبقوا فيها، لكن بما أنه كان ضعيفاً جداً بجسده منذ عودته من بواتو، لم يرغب في تجديد الحرب، وفضل أن يلتزم بالصمت، لابل إنه استهدف اسكات الشكاوي الملحة للنورمان، وكذلك الرغبات النهمة والغاضبة التي أظهروها، للثورة ضد ملك انكلترا.

رسالة حول أحوال الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه في الأجواء المسيحية أخباراً مرضية، تأكدت بوساطة الرسالة التالية:

«من الراهب هيرمان أوف بيريغورد Perigord, القسيس المتواضع لفقراء جنود الهيكل، إلى أخيه العزيز في المسيح، روبرت أوف ساندفورد، المدرس في انكلترا، تحيات في الرب:

بما أننا ملتزمون بإخبار اخوتكم برسائل أو برسل حول ما يتعلق بأحوال الأرض المقدسة، كلما تهيأت الفرصة وقدمت نفسها، والذي ينبغي أن تعرفه أن سلطان مصر، بعد الأضرار التي تلقاها منا، وأن

الناصر، الذي كـان آنـذاك يتـوسع بمشـاريعـه، والذي هـو مسـاعـده، والمضطهد للصليبيين، والـذي لم يتوقف، قد أرغـم مؤخراً وذلـك وفقاً لقواتنا، على التفـاوض معنا، وإن كان مكرهاً، وعلى إعـادة عقد الهدنة، وقد وعد بأن يعيد إلى الصليبيين جميع الأراضي الواقعة على هذا الجانب من الأردن، وبناء عليـه رأينا أنه من المناسب أن نرسل في هذه المناسبـة، إلى حضرة السلطان المذكور في مصر، مندوبين، رجـالاً نبلاء ومستقيمين من إخواننا الرهبـان، وقد تحفظ عليهم وأبقـاهم لمدة نصف سنة وأكثر، وقد اقتطع مما كـان وعدنا به من قبل: غـزة، والقديس ابراهيم (الخليل) ونابلس، وبيسان، وأماكن أخرى، وكان هذا الإجراء مؤذياً لنا، ثم إنه لم يعطنا شيئاً سـوى كلام مخادع وفـارغ، لكننا نحن أدركنا بفضل النعمـة الربانيـة مكره وغـدره، لأنه أراد الحصـول على الهدنـة منا فقط، حتى يتمكن بسهـولة أكبر أن يضع تحت سيطرتـه سلطاني: دمشق، وحمص، والناصر صـاحب الكرك مع أراضيهم، حتى عندمـا يتمكن أخيراً من وضع الأراضي الاسلامية بين يديه، التي هي مجاورة لأراضي الصليبيين، هو لن يحافظ ولابشكـل من الأشكال على أي من عهـوده معنا، وذلك مثلما خرق وعوده مع قومه، ووقتها سوف لن يتمكن الصليبيون، الذين هم على هذا الجانب من البحـر، والذين هم ضعفـاء جـداً، وعـددهم صغير من الصمود، ووقتهـا لن يكونوا قـادرين على المقاومة، وقـد قمنا بحكمة بالتـداول حول هذه المسألة، وكنا بحـاجة إلى نصيحة الأسـاقفة وبعض بـارونات البـلاد، وبعـد ذلك رفضنـا بشكل صحيح هـدنة السلطان المذكـور، ورأينا من الأفضل التعـامل مع سلطان دمشق، ومع الناصر صـاحب الكرك، وبنـاء عليـه تخليـا للصليبيين عن جميع الأرض الواقعـة على هذا الجانب من الأردن، وذلك بـاستثناء القـديس ابراهيم، ونابلس، وبيسان.

ولهذا يتوجب على الملائكة والرجـال أن يبتهجوا، لأن مـدينة القدس

المقدسة مسكونة الآن من قبل الصليبيين فقط، لأن جميع المسلمين قد جرى طردهم منها، وجميع الأماكن التي منذ ست وخمسين سنة لم تشهد دعاء لاسم الرب، يقوم أساقفة الكنيسة باصلاحها وتطهيرها، ويحتفل بالقداسات الآن فيها يومياً، ولذلك الحمد للرب وله الشكر، ولزيارة هذه الأماكن الطريق هو مفتوح وحر، وآمن للجميع، وهذا ليس أمراً مشكوكاً به، بل من الممكن بقاء ذلك بسعادة، وبوضع مزدهر لوقت طويل من الزمن، إذا ما كان المسيحيين وحدهم على هذا الجانب من البحر، شروعاً من هذه اللحظة بعقل واحد، وبقلب واحد، ولكن يالأسف، كم عددهم كبير الذين موجودين، والذين من خلال الكراهية والحسد هم مضادين لنا، ويسببون الاضطرابات لنا، في هذه القضايا وسواها، التي توسع الأرض المقدسة.

وبناء عليه إننا وحدنا، مع رهباننا، وأساقفة الكنائس، مع عدد قليل من بارونات الأرض، الذين قدموا إلينا كل مساعدة ممكنة لديهم، نحمل على أكتافنا عبء الدفاع عن الأرض، وقد رغبنا بامتلاك مدخل إلى المنطقة، التي تلامس أرض مصر، وممراً أيضاً في أرض القدس، أي أن تقول نحو غزة، وبهذا نلنا العون من سلطان دمشق، وكذلك من الناصر، صاحب الكرك، لكن ليس من دون خطر عظيم، ومتاعب وانهاك لأشخاصنا، ونفقات كبيرة في المال، مع تفكير حكيم وطويل قد أعطي إلى هذه الأعمال، ومع ذلك نحن نخشى بأن يقوم الرب بأخذ انتقام ثقيل، بمعاقبة العاقين الذين كانوا متراخين وعصاة في هذه القضية، علاوة على ذلك، إننا نقترح، في سبيل حراسة وسلامة أرضنا، أن نبني قرب القدس، فوق جبل الطور، قلعة قوية جداً (إذا ما نجحنا بالحصول على عون رجال شجعان) بها نأمل بأن تكون عملية الحفاظ على الأرض أكثر سهولة، ومدافع عنها إلى الأبد، ضد الأعداء، ذلك أن الأشياء التي نمتلكها، إننا ولابحال من الأحوال في وضع يمكننا فيه

تملكها والدفاع عنها بقوة لوقت طويل ضد السلطان، الذي هو قوي جداً، ورجل بارع، وذلك إلاّ إذا قام المسيح وأتباعه المخلصين بتقديم مساندة فعالة لنا.

مصداقية الرسالة المتقدمة مدعاة للتساؤل

عندما وصلت هذه الأشياء إلى مسامع كثير من المسيحيين، لم يتمكنوا من منح الثقة لا إلى الكلام ولا إلى الكتابة، ومرد ذلك وسببه سوء سمعة الداوية، ومثلهم أيضاً سمعة الاسبتارية، لأنهم قالوا بأنهم دوماً يثيرون الصراع بين الصليبيين والمسلمين، حيث يمكنهم أثناء الحرب الحصول على المال من الحجاج القادمين من جميع البلدان، وكذلك بسبب خلافاتها المتبادلة، وكذلك بسبب أن لديهم نية باعتقال شخص الامبراطور، علاوة على ذلك، يمتلك الداوية في العالم المسيحي تسعة آلاف عزبة، ويمتلك الاسبتارية تسعة عشر ألفاً إلى جانب التعويضات ومختلف الموارد التي تأتي من رهبانهم، ومن المقتنيات، التي كلها تزداد بامتيازاتهم، ويمكن لكل عزبة من هذه العزب، أن تجهز من دون صعوبة جندياً واحداً، مسلحاً بشكل جيد وأن يكون شاكي السلاح، من أجل نجدة الأرض المقدسة، وأن يكون أيضاً مزوداً بجميع الأشياء التي لها علاقة بالتسليح الكامل للجندي، وعندما يتأمل المسيحيون بهذه الأشياء، ويتفكرون حولها، يفترضون دوماً أنهم يخفون بعض الغش، وأن لديهم بعض الخيانات الذئبية تحت رداء الشياه، لأنه لو لم يكن هناك بعض الخيانة والغش، لأمكن لأعداد كبيرة جداً من الفرسان الغربيين الشجعان، أن يخرقوا جميع صفوف المشارقة وأن يلحقوا بهم هزيمة ماحقة.

إصلاح طائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان وفق نظام البندكتيين

وفي الوقت نفسه، كان الرهبان، وبشكل رئيسي رهبان الدومينيكان،

جـاهلين بأحكام طائفتهـم، وقـد أدينوا بشكل غير حكيم تمامـاً، على أسـاس تجاوزهم لأنظمة القـديس بندكت، الأمر الذي أظهـرناه في هذا الكتاب، قبل عدة فصول، وقد عـوقبوا بممارسة القسوة البابوية عليهم، وجرى توجيههم نحو طريق أفضل بموجب سلطات الرسالة التالية:

«مـن أوتـو الـذي هـو بـالاذن الـربـاني، أسقـف بـورتـو Porto, للقديس روفين Rufin وغودفـرد Godfred, وبالرحمة الربانية كـاردينال شماس للقـديس أدريان Adrian, إلى جميع الذين سـوف يحترمون هذه الرسائل، تحيات الرب:

اعلموا بأننا رأينا، وبيقظة تفحصنا الرسائل الرسولية، التي لم تمح، أو تمسح، أو تتشـوه، في أي جـزء، بل هـي في شكلهـا الأصيل، فـوجـدنا مرسوماً صحيحاً، لم تتعرض خياطته أو كتابته، ولاورقه للتلف، والذي محتواه هو التالي:

من انوسنـت، إلخ، إلى معلم ورهبـان طائفـة الدومينيكان، صحـة ومباركـات رسوليـة: إنه ليس فقط لصـالح الرهبان، بل أيضـاً لصالح الدير، أنه جرى منح وقت للامتحان وسمح به من قبل الآباء المقدسين، في أن يتمكن أحدهم في الحصـول على نموذج عن صرامـة طريق الحياة ذاك، وأن يتمكن الآخـر من الحصـول على الـوقت لكي يتعلم مبـادىء مثل الدير والرهبـان، وفي أحكام القديس بندكت جـاء الأمر أيضـاً، أن الذين هم على نقطة التحول، سـوف لن يجدوا دخولهم إليـه سهل جداً، بل حسب تعاليم الرسول، ينبغي فحصه لتبيان فيما إذا كانت الروح من الرب، وأن المصاعب والمخـاطر القائمـة على الطريق إلى السماء، يتوجب إيضاحهـا تماماً، وأضيف فيما بعد في الأحكام نفسهـا، ينبغي إخباره، أن هناك شريعـة، في ظلها عليك أن تتابـع الأعمال الروحية المفيدة، فـإذا ما كنت قادراً على الالتزام بها، ادخل إلى الرهبنة، لكن إذا لم يكن بإمكانك ارجع حـراً كما أتيت، وعـلاوة على ذلك، فإن سلفنا البابـا غريغـوري،

صاحب الـذكرى السعيدة، قـد وضع شريعة قضت بإعطـاء المستجدين الذين هم تحت الامتحـان، قبل ارتداء الـزي الديني، إلى الذين يعملون النذور الرهبـانيـة، أو قبل أن يعملوا نذورهم، يمكنهم —إذا أرادوا— خلال عام، العودة إلى طريقتهم الماضية في الحياة، ومرة ثانية، حتى نزيل كل شـك حـــول هذا الموضـــوع، بما أنـه هناك في بعض الـديرة، زي المستجدين فيهـا ليس متميزاً عن زي المحترفين، لأن الثيـاب التي تعطى إلى الذين عملوا نـذورهم تجري مبـاركتهـا أثناء الاحتراف، من الممكن عمل تمييـز بين أزياء المستجـدين وأزياء المحترفين، ومع أنك بحماسك، لديك رغبـة عظيمـة لكسب الأرواح إلى الرب، مـع ذلك إنه بسبب أنه من المطلوب ومـن الموائم، أن لايكون حكم العقل بحـاجـة إلى نقـاء الضمير، خشيـة أن يحصل أذى إلى الخلاص من ذلـك المصـدر، الذي صمم فقط لمنح المنفعـة الروحيـة، قمنا نحن بناء على نصيحـة إخـواننا، وبمـوجب سلطات هذه العروض، بمنعكـم بكل دقة، بمـوجب فضيلة طاعتكم، وتحت طائلة آلام عقـوبة الحرمـان الكنسي، من الإقـدام على قبول أي واحد سوف يعمل النذر في طائفتكم، أو أن يتخلى عن الدنيا، قبل انقضـاء سنة امتحـان، تؤسس بشكل نظامي بمثـابة عـون للضعف البشري، ولمنع أي إنســان، بكل طريقـة من الطرق، إذا كـان في وضع المستجـد أو الامتحـان، من العبور، أثناء سنة الامتحـان نفسهـا، إلى أي طائفـة رهبانية أخـرى، سوف يظن أنها أفضل، أو يعتقـد أنه أحسن إلى حـريتـه الانتقال حسـب إرادته، دون أن يعبأ بأي نظام يمكن أن يكون معـاكساً، وإذا كنا قـد أمـرنا قط بشيء من هذا، نحن نعلم هنا أن ذلك ملغى وفارغ، أو أية رسائل تمّ الحصـول عليها، أو سيتم الحصول عليها من الآن فصـاعـداً، من الكرسي الرســولي، لاتقــدم ذكـراً واضحـاً للمقـدمـات، وإذا صدف بشكـل ما وأقـدمتم على استقبـال أي واحـد بشكل معاكس لهذه المحظورات، نحن نرسم، بأن الذي جـرى استقباله على هذه الصـــورة، هو ليـس مـــرتبط بطائفتك، وأنك منـذ وقت تقبله

للاحتراف في الطائفة نفسها، سوف تكون بالفعل معلقاً، وأكثر من هذا عرضة للعقوبة التي يجري انزالها برهبان الطائفة، بسبب جرائم أعظم، لاتدع أحداً، بناء عليه إلخ. صدر في مدينة كاستيلانا Castellana, في السابع عشر من حزيران، وفي السنة الأولى من حبريتنا».

«وقمنا بناء على شكوى الرهبان الفرنسيسكان، بنسخ محتويات هذه الرسائل كلمة كلمة، وأن يجري تثبيتها بأختامنا. صدر في سوتري Su- tri في اليوم الثالث من حزيران».

وجرى نشر هذه الرسائل، التي تمّ الحصول عليها، في هذه الآونة من السنة وتعميمها، مع الأمر بالالتزام بها كما تقدم.

ملك إنكلترا يتولى تعيين بعض المستشارين الجدد

وفي هذه الآونة عيّن السيد الملك اللورد بوينتز بيبر Poyntz, Piper فارساً، يقوم بأعمال القهرمان لقصره، وكذلك بوينتز نفسه، وجون مانسيل Mansel, مستشار كنيسة القديس بولص في لندن، وكانا معاً شخصين حكيمين ومجربين، ليكونا مستشاريه الرئيسيين وكذلك المعلم لورانس من كنيسة القديس مارتن، الذي كان فيما مضى مقيماً كمرافق مقرب لوليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، وليبج، والذي هو مدير لجميع مجالس الملك، ولجميع القضايا المتعلقة بالكنيسة، فقد جرت ترقيته الآن ليكون قسيسه وكاهنه الخاص، لأنه كان رجلاً صاحب حكمة كبيرة وخبرة.

فرار أسقف وينكستر إلى فرنسا

وفي تلك الآونة، لاحق أساقفة: لنكولن، ووووركستر، وهيرفورد، الملك، الذي وضح أنه كان يتجنبهم، ووجدوه، أخيراً في ويستمنستر، فوجهوا الملامة إليه بحدة، من أجل اضطهاده وطغيانه، الذي لم يتوقف عن ممارسته يومياً نحو أخيهم وزميلهم، أسقف وينكستر، وفي الوقت

الذي قدموا فيه الالتماس بعد الالتماس، أضافوا التهديد إلى التهديد، وكانوا جاهزين لوضع بيعته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، طلب الملك بعض التأخير، حتى يمكنه إجابتهم حول الموضوع بدقة أكبر، وذلك حتى يعود رسوليه، اللذان كانا قد عبرا الألب، لأنه كان يأمل، من دون أدنى شك، بأنهما سوف يرشوان البلاط البابوي، وأن ينفذا كل شيء وضعاه بذهنيهما، وتولى الأساقفة الذين تقدم ذكرهم أعلاه الاستجابة لطلب الملك، ولكن عندما شاهد أسقف وينكستر انخفاض حرارة اندفاعهم، هرب بشكل سري، في العشرين من آذار، حيث ركب ظهر سفينة في لندن، في سبيل أن يعبر إلى فرنسا، وقد أبحر عبر نهر التيمز، وقطع مسافة قصيرة إلى البحر، ووصل إلى ميناء القديس فاليري Valerie, قبل حمل أخباره إلى الملك، أو إلى أي واحد من أعوانه، ثم أنه انتقل من هناك إلى أبيفيل Abbeville, وهناك استقبل بشكل رسمي من قبل مبعوث من ملك فرنسا، فقد استقبله هذا المبعوث نيابة عن سيده، بسرور وبهجة، وبأسارير فرحة، ووعده بجميع الأشياء التي نصح بها الملك، وبالمساعدة، مع كل مواساة وحماية، وأعطى أيضاً أوامر، صادرة عن سيده، بأن يقوم عمدة أبيفيل بإعداد جميع سكان أبيفيل، وأن يجعلهم جاهزين للدفاع عن الأسقف المذكور، إذا صدف وأمر ملك انكلترا بملاحقته وإلحاق الأذى به، وأن يطيروا وقت تطلب الحاجة إلى السلاح، وأن يقاتلوا برجولة ضد جميع المهاجرين دفاعاً عنه.

مقتل غريفن بن للويلين أثناء محاولته الفرار من برج لندن

أثناء موت الحظ، وتأثيره هكذا على شؤون العالم، كان غريفين الابن الأكبر لـ «للويلين» أمير شمالي ويلز، مايزال محبوساً سجيناً في برج لندن، وكان يتسلم كل يوم من خزينة الملك، نصف مارك لتزويده بالطعام وإلخ، وبسبب مكانته، ومع أن زوجته تسلمت إذناً بزيارته،

كـان متأثراً بعمق بمشـاق السجن الطويل التي كـان غير معتاد عليهـا، وفكر كثيراً حـول كيف يمكنه الفـرار مـن مـوضع سجنه، وفي إحـدى الليالي، قـام بعدما خـدع سجانيه، فعمـل حبلاً من أغطية فـراشة، ومن ستائره وأغطية مـائدته، قام بتدلية نفسه عامـودياً، بوساطة الحبل نفسه، وذلك من أعلى البرج، وبعـدما نزل بعض المسافـة، انقطع الحبل، بسبب وزن جسده، وسقط مـن علو كبير، لأنه كان رجلاً كبيراً، وبـدين جداً، وبهذه الطريقـة دق رقبتـه ومـات، وتـم العثـور على جسـده المحـزن في الصباح قرب سور البرج، وقـدم مشهداً مؤسفاً لجميع الذين رأوه، لأن رأسه مع رقبته كـانا مدفونين تقريباً في صـدره، بين كتفيه، وعندما سمع الملك بهذا، وبخ الحراس وعـاقبهم بسبـب إهمالهم، وأمـر بابن غـريفين المذكـور، الذي كـان مسجـوناً مع أبيـه، فشـدد الحراسـة عليـه، ومـات غـريفين المذكـور، الذي سقط من البرج كما ذكـرنا، في اليـوم الأول من آذار.

تناقص شعبية ملك إنكلترا بسبب نفي أسقف وينكستر

عندمـا نفي أسقف وينكستر، تناقصت سمعـة ملك انكلترا كثيراً، في جميع أرجـــاء البلـدان الواقعـــة على هـذا الجانب مـن الألب، واتخذ الفـرنسيون، الذين كـانوا دوماً خصـوم الانكليز، ذلك حجـة من أجل فضحهم، قائلين:

«انظروا إلى هناك، نحـو ملك انكلترا، الكسـول والمهمل بالنسبـة إلى جميع أعداء المملكة، لكـن المضطهد والمعذب لأسـاقفته المقـدسين، ولقد كان هناك مـن قبل القديس أنسلم رئيس أسـاقفة كانتربـري، ومن بعده القـديس تومـــاس الشهيـد، والآن في السنوات الأخيرة المعترف المجيـد ادمـــوند، ومثـل ذلك هناك الآن الرجل التقـي أسقف وينكستر، الذي خـدمـه لوقت طويل بإخـلاص، وكـان صـديقـاً مقـرباً منه، لكنه الآن يرفض أن يسمح له أن يكون في أمان السـلام، والذي طرده، بلا حياء،

إلى خارج حـدود مملكته، ثم هو يطارده بطريقـة عدوانيـة»، الأمر الذي عندما بات معروفـاً من قبل بونيفيس الأسقف المنتخب لكانتربري، قام صدوراً عن عـاطفته ولطفه الفطري، ولحزنـه على تناقص شعبية الملك، فكتب بطريقة حبية كثيراً إلى أسقف وينكستر كلمات مواساة، وإلى ملك انكلترا كلام تقريع، وفق الصيغة التالية:

رسالة بونيفيس المنتخب لكانتربري إلى أسقف وينكستر

«من بونيفيس، الذي هو بنعمـة الرب، المنتخب الحقير لكانتربري، إلى الأب المبجل في المسيح وليـم، الذي هو بنعمــة الرب أسقف وينكستر، تحيات في الرب:

بما أنك قـدمت في رسـائلك طاعتـك إلينا، وللمنصب الذي نشغله، نشكرك في المسيح من أجل تقواك، وحسبما قضيت أنه مناسبـاً أن تتقدم بطلب إلينا بوسـاطة المعلم وليم، الذي هو كـاهنك، إعلم بأننا تعـاطفنا مع شكواك، بقدر أن لانغضب الرب، أو نخرق القانون، وسوف تسمع المزيد حـول هذا من وليم المذكـور، واعلم واسترح متأكـداً، أنه قبل قـدومنا إلى انكلترا، إذا لم يكن السـلام بينك وبين الملك لم يسترد، بإننا سوف نصرف أنفسنا بكل فعالية لذلك، ولسوف نستخدم وسائل أقوى للحصول على محصلة عادلة لهذه القضية، وبما أنه ليس لدينا ختم خاص بنا، استخدمنا هذا الختم العائد لهيئة كهنة بيلي Bellay, وداعاً».

رسالته إلى ملك إنكلترا

«من بونيفيس، إلخ، إلى الملك، إلخ:

لقـد تلقينا رسـائل من بعـض الأسـاقفـة المسـاعـدين في كـانتربري، يلتمسـون فيهـا بكل اخـلاص إقـامـة سـلام بينكم وبين الأب المبجل المسمى لكنيسـة وينكستر، والذي تسميتـه قـد جـرى قبـولها من قبل الكرسي المقـدس، ولذلـك يتـوجب تثبيتـه، وإننا بناء عليـه، رغبـة منا

بالهدوء للمملكة، وبالحفاظ على سلام الكنيسة، التي هي عرضة للخطر في هذه المناسبة، ولأن الذي يصغي، كما يليق إلى شكوى الأب المذكور، يجد من المعروف أنه مفيد ونافع لكل من الكنيسة وللمملكة، نرجو سموكم بتقوى بأن تتلطفوا بأن تعيدوا الأب المذكور إلى حظوتكم، بحكم أنكم ملك صالح، وأمير يخاف الرب، وهكذا ينبغي أن يفعل، وبما أنه ليس لدينا ختم خاص بنا» إلخ (كما من قبل).

كما أنه كتب أيضاً إلى أسقف هيرفورد، ليشغل نفسه بيقظة وبفعالية، بما يتعلق بهذه القضية، أي قضية أسقف وينكستر بالإقناع بالالتماسات وبالتهديد.

ملك هنغاريا يطلب المساعدة من الامبراطور فردريك

وكان ملك هنغاريا في هذه الآونة قد طرد من مملكته من قبل التتار، لذلك تقدم بطلب إلى بلاط الامبراطور، وطلب نصيحة فعالة ومساعدة ضد العدو المشترك، وجرت مداولات سرية وطويلة، إثر ذلك، وقد تقرر بأن يقوم الامبراطور بيد قوية بالعمل على تحرير مملكة هنغاريا من نير الاحتلال البربري على شرط قضى أنه عندما سيسترد الملك مملكته، وعندما تعود إلى الحرية والسلام بوساطة الامبراطور سوف يعدّ الامبراطور سيداً سامياً له.

وبناء عليه جرى إرسال جيش كبير، وتمكن الامبراطور من تحرير المملكة المتقدم ذكرها أعلاه من التتار المتوحشين، لكن ذلك لم يكن من دون بذل كثير من المال، والتعرض لمخاطر عظيمة ولقد طردهم بقوة وبقدرة إلى ماوراء حدود المملكة، وكان هناك بعض الذين قالوا بأن هؤلاء التتار المقوتين، قد جاءوا أولاً بموجب دسائس الامبراطور ومؤامراته، وكانوا بانتظار مطالبه، ومرتبطين بتنفيذ أوامره، وقد تصرفوا بطريقة تمكن الامبراطور من اخضاع ذلك الملك ووضعه مع مملكته

تحت سلطانه، لكن هذا ما كـان قد تهامس به الذين كـانوا غيورين منه، ومثل هذا الافتراء ينبغي عدم تصـديقه، وعندمـا على هذا صارت مملكة هنغـاريا محررة، وعـاد ملكهـا بسـلام، صـــارت هنغـاريا خـاضعـة إلى الامبراطورية، وصارت ملزمة بتقديم ثلاثمائة فارس مع أتباعهم، للقتال على الحدود لصالح الامبراطور، باخلاص واستقامة.

هزيمة امبراطور القسطنطينية والتجائه إلى الامبراطور فردريك

وفي ذلك الوقت نفســه هرب امبراطور القسطنطينيـة مـن اضطهـاد الاغريق، وبما أنه لم يكن لديه شيئاً في خزينتـه يمكنه من متابعة الحرب، أو الوقـوف ضد الهجمات المتتـابعة لـلاغريق، هرب إلى بلاط فـردريك الامبراطور الرومـاني من أجل النصيحـة والمساعـدة، وقـام الامبراطور أولاً بتقديم تهديد مـرعب ضد الاغريق، ثم إنه قام بشكل أكثـر حكمة بالمنـاقشـــات معهـم، وحصل له أخيراً على هـدنة لمدة عـــام، ووافق الامبراطور فـــردريك نفســه على زواج بين ابنتــه وبين المقــدم الكبير للاغـريق واسمـه بتّاكيـوس Battacius, وسبب هذا غضباً عظيماً وازعـاجاً لمولانا البـابا وإلى البـلاط الروماني كله، بسبب الشقـاق الذي أثير بوسـاطة بتّـاكيوس، وقـامت منذ ذلك الحين كـراهيـة قـاسية جـداً ومستمرة بين مولانا البابا، وبين الامبراطور فردريك.

التتار يتفرقون باتجاه الشرق

وفي الوقت نفســه، كـان التتـــار يتربصـون هناك، غير قـــادرين على الصمود أية مـدة أطول ضد هجمات الامبراطور، لذلك غـادروا المناطق الشمالية، وارتحلوا مسرعين نحـو الشرق، وعندما كانوا يجتـاحون بشكل وحشي بعض مناطق ايران، كـــان هناك بعض الناس المتـوحشين جـداً، والذين سكنوا على تخوم البحـر الأحمر، وكـانوا إلى حـد بعيد خـاضعين لسلطان مصر، وكانـوا يعرفون باسم الخورازميـة، وكانوا قـد هربوا من

أمام تهديدات العاصفة الهوجاء، محاولين تجنب الاجتياح التتري، وقد ذهبوا إلى سلطان مصر، وطلبوا بسرعة وبوقاحة وصلف مكاناً يسكنون به، وعندما وجد السلطان أنه إذا مارفض برعونة مطالبهم سوف يستولون بالقوة على ماطلبوه وسيحصلون عليه بحد السيف، قال لهم:

«هناك على مسافة ليست بعيدة عن هذا المكان، يوجد بعض الناس، الذين يدعون باسم الصليبيين، وهم يسكنون في الأماكن الساحلية، وهم يزدرون شريعتنا، وهم مثيرين للمتاعب لنا، ويسببون الأضرار لنا، ويهددون بالبقاء هكذا والاستمرار، ومركزهم المهم ومقرهم الرئيسي هو مدينة القدس، اذهبوا بناء عليه، واطردوهم وعيشوا حيث يعيشون الآن، وهذا عندما تحصلون عليه، سوف تصبحون أثرياء بالأسلاب الثمينة، وسوف تمتلكون أراضي خصبة، وستبتهجون بالقلاع والمدن التي تتمناها قلوبكم، وسوف تكونون من ذلك الوقت سعداء في ظل حمايتي، وظل حماية جميع شعبي»، وبناء عليه فرحوا كثيراً بهذا الكلام، وهاجموا أولاً القدس وقتلوا عدداً كبيراً من الصليبيين، حسبما حصلنا على معلومات وافية عن ذلك في رسالة من نبلاء تلك البلاد.

رسالة الامبراطور حول إفراغ الأرض المقدسة من السكان

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن ختنه المحبوب، رتشارد، ايرل أوف كورنوول، تحيات، وعواطف خالصة أكيدة:

في راما سمع صوت بكاء ونحيب، وعويل، وحزن عظيم، وهو صوت، انتشر، كما أفادت الأخبار، مثل انتشار أخبار حزننا، وهو صوت، كما يبدو يدفعه تيار الحظ المعاكس إلى آذاننا، ليوضح أن الشرور لاتأتي لوحدها، فهناك أخبار تجلجل مثل أصوات الرعد ويتردد صداها حول القدس، وتعلن عن العاصفة المقبلة، التي فيها إفناء دموي لأتباع

المسيح، وعن الخسارة المؤلمة لضريح الرب، ثم عن التدمير المريع للمدينة المقدسة، وهذا في أيامنا! وفتحت هذه البروق سحب السماء، ليس من أجل تساقط الندى، أو زخات مطر خفيفة، بل لتهطل علينا بفيض من المصائب، ولبعض الوقت أنعش الحب، والإيمان الصحيح، المسيحيين الذين نجوا من المذبحة التي عملها الخوارزمية، ليقوموا بالانتقام لذلك الدمار، ولتلك الفاجعة الكبرى، ففي اللحظة نفسها لمؤتمرات القادة، ومع رغبة كل عسكري خاص ألهم لأن يفعل شيئاً ما رداً على تلك الانتكاسة، كان بطريرك القدس، يأمل بأن يحصل لنفسه على مجد النصر كله، وكان يبحث عن كل أمير آخر، وشريك هناك غير جدير ليكون شريكاً معه، وهنا بدأ يبشر بصليبية الرب، ورفع من معنويات الذين سمعوه، وألهبهم بشجاعة وصلت إلى حد الطيش، وبناء عليه قام الجيش الصليبي، من دون انتظار للساعة الموائمة، وهي القاعدة الأكثر أهمية في الحرب، في يوم الاثنين قبل عيد القديس لوقا الإنجيلي، وهو مكوّن من جميع أنواع الفرسان الأجانب، قام أفراده بإلقاء أنفسهم على الخوارزمية المتقدم ذكرهم، الذين كانوا متوقعين للهجوم، وكانوا مستعدين للمقاومة، وهكذا حدث في هذه المعركة السيئة الطالع، أنه لم ينج أحد من جميع الصليبيين، من القتل، أو من الوقوع بالأسر، ونجا آخرون —وكانوا قلة قليلة— بفضل وسائل التفريج التي واجهوها أثناء فرارهم، وكان معظم هؤلاء من الذين لم يندفعوا بطيش إلى وسط حومة القتال، حيث كان هناك قرع للسلاح، وزمجرة ضربات المتنازلين، وكان الذين نجوا من بين جميع بارونات الأرض المقدسة، ومن عساكر مملكة القدس، ومن بين جميع عسكريي رهبان الداوية، الذين بعثوا بثلاثمائة، ومن اسبتارية القديس يوحنا، الذين كانوا قد أرسلوا مائتين، ومن بين جميع الذين حشدهم فرسان رهبان القديسة مريم للتيوتون، كان الذين نجوا من هؤلاء ليس أحداً، إلاّ البطريرك المتقدم الذكر، واللورد سيمون دي مونتفورت (الذي كان

حامل علم المملكة، وقائد المقدمة) وأربعة فرسان، وعدد ضئيل جداً من خدم الداوية، وتسعة عشر من الاسبتارية، وثلاثة خدم فقط من خدم الفرسان التيوتون، فهؤلاء فقط الذين عادوا، ولقد عادوا إما لحسن حظهم، أو بوساطة الفرار، وكان هناك رجال من ذوي الشهرة مثل أسقف اللد، وصاحب حيفا، قد سقطا على أرض المعركة، وقد أصيبا بجراحة مميتة، وقد أصيب وولتر أسقف يافا بجراحة قاتلة، أما رئيس أساقفة صور الذي لم يمت من جراحاته، فقد ألقي به في السجن، وقد علم سمونا بهذه الأشياء كلها، من الرسائل التي أرسلت إلينا من بيت رهبان القديسة مريم للتيوتون.

وتسبب هذه المحصلة المحزنة للأشياء، وتقدم في ذاتها سبباً للأسى، وتسحب المرارة من قلوبنا، ومن قلوب جميع أمراء الإيمان المسيحي، وهي تستحق انهمار فيض من الدموع من أعيننا، بسبب طبيعة الفاجعة، لأنه تقدم عليها خطأ كبير، وتبعها كثير من الإهمال، لأنه بالاضافة إلى إثارة هياج الفخار الديني للداوية، الذين عاشوا على موارد بارونات الأرض، لقد أرغموا بحرب غير عادلة وغير حكيمة سلطان مصر على طلب مساعدة الخوارزمية، وذلك في ازدراء كامل لمعاهدتنا الملكية التي عقدناها مع ذلك السلطان، ومعنا بيتي رهبان القديس يوحنا، والفرسان التيوتون للقديسة مريم، وقد أظهر هؤلاء الذين تقدم ذكرهم سذاجة طفولية، ودليل على الحماقة وذلك عندما وضعوا ثقتهم في البرابرة المتذبذبين، متوقعين أن يجدوا الوفاء لدى الخونة، فباستخدامهم لوسائل غير أمينة، اتحدوا مع سلطاني دمشق، والكرك، اللذان لم يختلفا عنهم بالعقيدة فقط، لابل تفاوتا معهم بالمصالح، وكان الهدف من ذلك تقديم العون ضد الخوارزمية والسلطان، وكانوا بهذا كمن أرسل بكميات من الزيت لصبها فوق النار الملتهبة.

وبناء عليه، حسبما سمعنا بشكل واضح، وروي لنا، من بعض

الرهبـان الذين قدمـوا من المناطق الأجنبيـة، استقبل الداوية السلطانيين المتقـدمي الذكـر، مع أتباعهما في أرباض بيـوتهم، أي بيـوت الداوية مع الفرح و الاحتفالات، وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الوهمية، وأبهتهم المدنيـة، مع الدعـاء باسم محمـد (صلى الله عليـه وسلم)، ولم يعـد من الممكن إبعـاد هؤلاء الذين وجهت إليهـم الدعـوة، ولابـأي شكل من الأشكال، ولاباللطف من طبيعتهم، كما أنهم لم ينثنوا عن البقاء بوساطة وعد التحالف، الذي أقسموا عليه، وذلك عن متـابعة ميولهم العدوانية، لابل أظهروا بشكل واضح جداً أن الحنث باليمين وليس بالحري الوفاء به، هو الذي قائمين به، أمـا سلطان حمص، الذي أرسله سلطان دمشق، لمسـاعدة الذيـن عملوا تحالفاً للقتـال ضـد سلطان مصر، والذي لم تكن لديه آمـال بنيل الخير على يدي سلطان مصر، فقـد هرب، ونجـا من المعركـة مع خمسة فقط من رجالـه، أما بالنسبة للبقيـة، فإنهم بعد صراع قصير، تظاهروا فيه بالقتـال، ذهبوا سـالمين مع رجالهم كلهم إلى سلطان الكرك، من دون قتـال، ولاحتى مايشبـه القتال، وهكذا صفـوا أنفسهم على جـانب الذين اقترنوا بهم في قلوبهم، وعـلاوة على ذلك إن الإهمال الشـديد الذي هو الخطوة الأخيرة نحـو الدمـار، عندمـا تكون سـلامـة واحـد معلقـة على عصـا، ويلفظ كل خطر، ويهددنـا بدمـار سريع، وبالنسبـة لـزعماء الشريعـة الأرثوذكسيـة —وهو أمـر نحن جميعـاً أرثوذكس— لايمكننا أن نكتب عنهم من دون ألم كبير، هم بعيدين عن التفكير حـول ترميم مثل هذه المأساة المحـزنة، باستثناء التنهـدات، وفق طريقـة أجـدادنا، من أجل مثل هذه الأحـداث المؤسفـة، ولكن وكأن الشـؤون لم تكن شـؤون المسيحيين، أو الإيمان المسيحـي، لم نهتم بجراحاتنا، ولم نهتم حول أوجـه المعالجات، فالرب قد طاردنا، ونحن لم نتشكى، فنحن محاطون مـن كل جـانب بأسقفنا المحترقـة، ومع ذلك لم نركض من أجل احضـار الماء، لابل كل واحد متمجـد مسرور في سوء حظ الآخر، ففـي المكان الأول الوحشية الجديدة للتتـار قد أذهلتنا، وفي

المكان الآخر هناك النكد القديم للشعوب البربرية يحرقنا ويعذبنا.

ثم هناك في الأماكن الأخرى الخيانة المخجلة للبيترنيين التي قد أغضبتنا، وفوق كل شيء، خيانة الذين يضعفون الامبراطورية المقدسة في إيطاليا بوساطة أعمال عصيانهم، حيث أنهم بذلك يعيقوننا عن اخضاع الشعوب البربرية إلى الامبراطورية المسيحية، وفقاً لما تطلبه الكنيسة الكاثوليكية في طقوسها المقدسة، وهكذا دفعنا في كل اتجاه من قبل الأعداء المعلنين، أو من قبل عذاب الأعداء المتخفين، والشيطان يعمل بشكل متواصل، وهو متيقظ، بينما سمعان نائم، ونحن غير مُتسامح معنا هناك، حيث يمكن للنوم أن ينعش أعيننا، وللرقاد أن ينعش قلوبنا، وانهضوا بناء عليه، أيها الرجال الشجعان، واحملوا سلاحكم وترستكم للانتقام لأذى أيامنا، فهي مدونة بشكل أننا لايمكن أن نتجنبها، والرب هو الشاهد علينا، بأننا قدمنا دوماً بكرم زائد العون لمساعدة الأرض المقدسة، أكثر مما طلبته من عون من الآخرين، لأننا نعتقد أنك لست جاهلاً بالعسكريين من وراء الألب، الذين هم قوم يحبون القتال، وكيف أنهم حملوا شارة الصليب الرائع، وعهدوا بأنفسهم لخدمة الأرض المقدسة، ثم كيف دعوا بوجوب أن يعهد بها إلى مقدم مشهور، وأن يجري توجيهها من قبل الذين كانوا يعبرون البحر، فلم يرفض سمونا منحها التأييد بموافقتنا.

علاوة على ذلك، لقد عرضنا شخصنا، أو شخص ابننا، أو أي قائد آخر، يراه هؤلاء القوم أنه شخص مناسب، واعدين بوجوب أن يصاحب الجيش ألف فارس مأجورين، نحن سوف نتولى الدفع إليهم باستمرار، للمساعدة في مثل هذا الشيء الجيد، وبناء على هذا أرسلنا بيرارد Berard, رئيس أساقفة بلرم، وأسقفي ريغيو Reggio, وفلورانسا، وكذلك غ. G أسقف سوسة، المحببين منا والمقربين إلينا، إلى غريغوري، الذي كان آنذاك الحبر الأعظم الحاكم، وذلك

ليكونوا بمثابة نواب خاصين من سمونا، ليسألوه لاشيء أكثر من الحماية —بوساطة حارس أمين ومناسب— لنا، ولأولادنا، ولامبراطوريتنا، ولممالكنا، ولكي يمكن أخيراً إرجاع اللومبارد المعاندين الوقحين والعصاة علينا، إلى معاودة الاعتراف —حسبما متوجب عليهم أن يفعلوا— بالحقوق وبالسيادة العائدة إلى الامبراطورية الرومانية، ومن أجل أنه عندما يشاهد العصاة المتقدم ذكرهم أعلاه، أن إتحادهم، أو بالحري، تآمرهم قد جرى تدميره، وقتها يمكن أن يدفعوا من أجل أن يسددوا لنا مواردنا، مثلما يفعل رعايانا الآخرون، وكما تدفع الدول الأخرى إلى ملوكها وسادتها الشرعيين.

ثم إننا بعدما قدرنا الظروف، وأحوال الزمان، رأينا مسبقاً ماوقع حالياً، وارتعبنا منه، (مع أن معرفة الذي سيكون هو أمر مرفوض ولايمكن معرفته من قبل إنسان فاني) لأن شرور الأيام قد اتسعت بشكل كبير، وأنه في سبيل دمار ايطاليا سمح البابا الحاكم للكنيسة، بموافقة مع البابوية وتنسيق بزيادة عدد أعدائنا، وغريغوري البابا الحاكم قد مات، وقد ضعفت السلطة البابوية بخلافات هذا الوقت وتمزقاته، والذي يحكم الكنيسة الآن، والموضوع على رأس البابوية، قد قدمنا له، بوساطة مندوبينا مقترحات أكبر بكثير، مما كان من قبل، وهي مقترحات ما من أحد فكر مصيباً قط، أن من الحق جواز رفضها، وعدم قبولها، وهذه المقترحات، هي أننا بعد اعتمادنا على مولانا الجبار يسوع المسيح، الملك المنتصر، صرفنا أنفسنا لأن نحمل على أكتافنا حملاً ثقيلاً، وأن نثقل أنفسنا بجميع شؤون ماوراء البحر، وعلاوةعلى ذلك فيما يتعلق بالعاصفة المهددة للتتار، وبالمخاوف من جهة امبراطورية القسطنطينية، فذلك سيكون وفقاً لما قدمه الرسول المتقدم لسمونا من تعليمات إليكم وإلى الملوك الآخرين والأمراء.

آه، كم كانت الفوائد كبيرة، التي كانت ستكون بعد حين، لفائدة

الصالح العام، من الترياق الذي تم عرضه من قبل اخلاصنا، في الوقت الذي كان من الممكن فيه معالجة الضعف، وذلك قبل وقوع الضربة الثانية من الحظ المعاكس، وتوجيهها ضد الجرح، ومضاعفة آلام الندبة الأولى، ونحن لانعتقد أن الأمور ينبغي أن تترك هكذا لليأس أو للموت من دون التفكير بعلاجات هي ممكنة وينبغي العودة إليها، وبالنسبة إلينا، إن جبروتنا لايمانع في المساهمة في خطة مفيدة من هذا النوع، لابل إننا نعد بتقديم مكاتبنا الجيدة برغبة أعظم، ولأننا نشاهد بأن الفأس قد وضع عند جذر الشجرة، نقدر أنه بات من الضروري بالنسبة لنا ولجميع أمراء الإيمان الصحيح، أن يقدموا بناء عليه المساعدة، حيث مادامت إيطاليا على كل حال بسلام معنا، وممتلكاتنا وحقوقنا التي تمتع بها أبوينا الأقربين بسلام في كل من الامبراطورية والمملكة، حيث عادت إلينا ومعنا بسلام، فإنه بذلك استرد جناحانا نشاطهما، وتماسك ريشهما، فبهما يمكن أن نحلّق عالياً بأمان أعظم. صدر في فوجيا Foggia، في السابع والعشرين من شباط، في العلامة الثالثة».

رواية موجزة حول الفاجعة المذكورة أعلاه

وكان سبب هذه الفاجعة المحزنة، التي ورد ذكرها أعلاه، والتي وقعت أولاً في مدينة القدس هو مايلي: عندما قام الخوارزمية بهجومهم المفاجىء على البطريرك، وعلى سكان المدينة، هرب البطريرك المذكور، مع أسر أهل المدينة بكل سرعة إلى يافا، للالتجاء هناك، وقام الخوارزمية المكرة، في سبيل إعادة الفارين، واصطيادهم لقتلهم، برفع أعلام الصليبيين —الذين كانوا قد هربوا فجأة— فوق شرافات أسوار المدينة، ونتيجة لهذا، فإن بعض الصليبيين الذين كانوا متخفين خارج المدينة، تركوا أماكن تخفيهم، وامتطوا خيولاً سريعة، ولحقوا ببني جلدتهم الصليبيين، بموجب عواطف روح الأخوة، ودعوهم للعودة، وأعلنوا

بأن رفاقهم الذين بقيوا في المدينة، قد انتصروا بسعادة على أعدائهم، ورفعوا أعلامهم بسرور فوق الأسوار، وبناء عليه عادوا، لكن عندما حملوا أنفسهم مع شعور بالأمان، ودخلوا إلى المدينة، أو إلى أحوازها، كان القوم المتقدم ذكرهم مسلحين حتى أسنانهم، وكانوا مستعدين من قبل، ولذلك انقضوا على الصليبيين الفارين، وقتلوهم جميعاً بحد السيف، ثم قام قومنا الذي بقيوا سالمين ولم يتعرضوا للأذى في المدن والقلاع الأخرى، فحشدوا جيشاً كبيراً، وقرروا بالاجماع طلب الانتقام لدماء إخوانهم، وأن يكون انتقامهم من أعدائهم دموياً وبأيدي ثقيلة، وأنشبوا معهم القتال، لكنهم سحقوا، كما هو واضح من رسالة الامبراطور المكتوبة أعلاه، وهكذا كان نصيب الأكثرية القتل، وكانوا قلة الذين جرحوا والذين نجوا بالفرار، بعدما تركوا أعداءهم يتفاخرون بالنصر الدموي الذي نالوه عليهم، وذلك حسبما اعترف الأعداء أنفسهم بأفواههم، بعد المعركة، التي استمرت من الصباح الباكر حتى وضع حلول ظلام الليل نهاية لها، لأنه لم يعد بمقدور أي من الفئتين تمييز الأخرى.

رسالة أخرى أكثر تفصيلاً من مقدم الاسبتارية في القدس

«إلى اللورد م. M دي ميرلي Merlaye الأعظم قوة، يرسل تحياته غ. G من القلعة الجديدة (نيوكاسل) الذي هو بنعمة الرب المقدم المتواضع للدير المقدس في القدس، والوصي على الأتباع الفقراء للمسيح:

من المعلومات الواردة في رسائلنا التي أرسلناها لكم في كل عبور يمكنكم أن تروا بها فيه الكفاية من الوضوح، كيف سارت شؤون الأرض المقدسة بشكل سيء، وذلك بسبب النزاعات التي كانت قائمة منذ زمن طويل، وذلك في وقت عمل الهدنة، وفيما يتعلق بالارتباط بموقف الدمشقيين ضد سلطان مصر، ونحن نرغب أن يعلم معاليكم

بالأحداث الأخرى بعد انقضاء الهدنة، حيث اعتقدنا أنه من المفيد أن نخبركم أنه في حوالي بداية الصيف الذي انصرم أخيراً، تصالح سلطان دمشق مع السلطان الناصر، صاحب الكرك، بعدما كانا من قبل متعادلين، فقد أقاما سلاماً فيما بينهما، ودخلا بمعاهدة مع الصليبيين، على شرط أن يعيدا إلى الصليبيين جميع مملكة القدس، والأراضي التي كانت بحوزة الصليبيين قرب نهر الأردن، إلى جانب بعض القرى، التي احتفظوا بملكيتها في الجبال، ومقابل ذلك توجب على الصليبيين أن يعطوهم كل المساعدات التي بإمكانهم في قتال سلطان مصر، وتمت الموافقة على شروط هذه المعاهدة من قبل الفريقين، وشرع الصليبيون يتخذون أماكن استقرارهم في المدينة المقدسة، بينما بقي جيشهم في غزة، برفقة جيش السلطانين المتقدمي الذكر، لمناوشة سلطان مصر ومضايقته، وبعدما انخرطوا في هذا العمل لبعض الوقت، وصل بطريرك القدس من بلاد ماوراء البحر، وبعد استراحته جسدياً لبعض الوقت، حرّكه الشوق لزيارة ضريح ربنا، وانطلق ليقوم بذلك الحج، حيث كنا أيضاً برفقته، وبعدما وفينا بنذر حجنا، سمعنا في المدينة المقدسة، بأن حشداً لاعدد له، من الجنس المتوحش والعنيد، والذين يعرفون باسم الخوارزمية، قد قام بناء على استدعاء سلطان مصر وأوامره، باحتلال جميع المنطقة الموجودة في الجزء الأقصى من أراضينا المجاورة للقدس، وتغطية وجهها، وقد جعلوا كل نفس حية طعماً للموت، بالنار وبالسيف.

وجرى عقد مؤتمر حول هذه المسألة، من قبل الصليبيين، الذين كانوا يعيشون في القدس، وبما أنه لم يكن بمقدورهم مقاومة هؤلاء الناس، ترتب بشكل عقلاني، بأن يقوم جميع سكان القدس من كلا الجنسين، ومن كل عمر، بالزحف تحت حراسة كوكبة من الفرسان إلى يافا، بحكم أنها كانت مكاناً أميناً للالتجاء إليه، وفي تلك الليلة نفسها،

وبعدما أنهينا مداولاتنا، اقتدنا قومنا بحذر إلى خارج المدينة، وسرنا ونحن مطمئنين، نصف المسافة، حيث أظهر المعيق الأكثر تدميراً لنا نفسه، وذلك بسبب تدخل الشيطان الذي هو عدونا الماكر القديم، وقد رفع القوم المتقدم ذكرهم على أسوار المدينة بعض الأعلام التي تركها الفارون خلفهم، حتى يمكنهم بهذه الوساطة إعادة الغافلين، بمنحهم الاعتقاد بأن الصليبيين الذين بقيوا، قد هزموا أعداءهم، وبادر بعض أتباعنا من الصليبيين بالإسراع خلفنا، لإرجاعنا، وبعثوا الطمأنينة بنفوسنا بملامح مشرقة، وأعلنوا بأن أعلام الصليبيين، التي يعرفونها معرفة جيدة، قد رفعت فوق أسوار القدس، وذلك بمثابة علامة على أنهم هزموا الأعداء، وهم بهذا قد خدعوا، وخدعونا معهم أيضاً، وبناء عليه عدنا ونحن مسرورين واثقين إلى المدينة المقدسة، ظانين أننا سوف نسكن هناك بأمان، وقام كثيرون انطلاقاً من مشاعر التقوى، وآخرون بأمل الاستحواذ على مواريثهم والاحتفاظ بها، بالاندفاع من دون حذر، فعادوا إلى المدينة نفسها أو إلى أرباضها، وسعينا نحن —على كل حال— لثنيهم عن هذا كله، خائفين من خيانة من هؤلاء القوم الغادرين، ولذلك تخلينا عنهم وغادرناهم، وحدث بعد أمد وجيز من مغادرتنا، أن قدم هؤلاء الخوارزمية الخونة بقوات كبيرة، وطوقوا الصليبيين في المدينة المقدسة، وحملوا عليهم حملات عنيفة يومياً، مع الحيلولة بينهم وبين الدخول إلى المدينة أو الخروج منها بكل وسيلة من الوسائل، وأنزلوا بهم البلاء بمختلف الطرق، وبسبب هذه الهجمات، والجوع، والأسى، وصلوا إلى حالة اليأس، واتفقوا جميعاً على تعريض أنفسهم لحظوظ مخاطر الموت على أيدي العدو، وبناء عليه غادروا المدينة أثناء الليل، وارتحلوا وساروا فوق الطرقات في المناطق المهجورة من الجبال، حتى وصلوا أخيراً إلى ممر ضيق، وهناك وقعوا في كمين للعدو، الذي طوقهم من جميع الجهات، وهاجمهم بالسيوف، والنشاب، والحجارة، وغير ذلك من الأسلحة، وقتلهم، ومزقهم، وقطع إلى أشلاء

حوالي سبعة آلاف من الرجال والنساء، وذلك وفقاً لأصح الاحصائيات، حتى أن دم هؤلاء المؤمنين، قد جرى على جوانب الجبال مثل الماء، وذلك كما رأيته وأنا حزين، وأخذوا الشباب والعذراوات معهم إلى الأسر، وعادوا إلى المدينة المقدسة، حيث قطعوا أعناق الراهبات والرجال المسنين الضعفاء، الذين كانوا غير قادرين على تحمل متاعب الرحلة والفرار، وذبحوهم وكأنهم أغنام كان من المقرر ذبحهم، وجاء ذلك بعدما هربوا إلى كنيسة الضريح المقدس، وإلى الجمجمة، وهوالمكان الذي تكرس بدم ربنا، وهكذا اقترفوا في هذا المعبد المقدس، جريمة، لم تشهد أعين الناس مثيلاً لها منذ بداية الدنيا.

وبعد مرور بعض الوقت، وبما أن وحشية هذه الجريمة الكبرى، التي لايمكن التهاون نحوها، أثارت المشاعر الدينية لدى جميع الصليبيين، ودفعتهم إلى الانتقام من الإهانات التي ألحقت بخالقهم، ولذلك جرى الاتفاق الاجماعي بأنه يتوجب علينا جميعاً —بعد طلب المساعدة من السماء— إعداد أنفسنا وتنظيمها، للاشتباك بمعركة مع هؤلاء القوم الخونة، وبناء عليه هاجمناهم، وقاتلناهم من دون استراحة من الصباح الباكر حتى انتهاء النهار، عندما حال الظلام بيننا وبين التمييز بين قومنا وبين أعدائنا، وقد سقطت أعداد كبيرة من جانبنا، كانت أربعة أضعاف ماقتل من أعدائنا، فهذا ما أمكن معرفته بعد القتال.

وفي اليوم التالي (عيد القديس لوقا الانجيلي) كان فرسان الداوية والاسبتارية قد وجدوا أنفسهم، قد استردوا شيئاً من قوتهم، فاستمدوا العون من عليين، مع جميع الرهبان الآخرين الذين كرسوا أنفسهم لهذه الحرب، وأوقفوا طاقاتهم عليها، واحتشد جميع الصليبيين في الأرض المقدسة، بناء على دعوة وإعلان من البطريرك، وتحت قيادته، واشتبكوا بمعركة هي الأكثر دموية مع الخوارزمية المتقدم ذكرهم، وخمسة آلاف فارس مسلم آخرين كانوا الآن يقاتلون تحت قيادة سلطان مصر، وذلك

بعد انضمامهم مؤخراً إلى هؤلاء الخوارزمية، وجرى قتال حاد من على الطرفين، ولم يكن بإمكاننا تجنبهم، لأنه كان هناك جيشاً قوياً وكبيراً على جانبينا، وكنا أخيراً غير قادرين على الصمود في وجه مثل تلك الحشود، لأن قواتاً جديدة غير متعبة من الأعداء، تابعت التدفق علينا، ذلك أنهم كانوا عشرة أضعاف تعدادنا، وكنا منهكين وجرحى، ومابرحنا نشعر بتأثير المعركة التي وقعت مؤخراً، ولذلك كنا مرغمين على الفرار، تاركين لهم ساحة المعركة، مع نصر دموي وغالي جداً، لأن أعداداً كبيرة سقطت من على جانبهم كانت أكثر مما سقط من على جانبنا، وقد سوعدنا كثيراً من قبله، الذي هو حافظ للأرواح، حتى أنه لم ينج مائة بالفرار، لكن طوال ما كنا قادرين على الصمود، شجعنا بعضنا وواسينا بعضنا بعضاً في المسيح، وقاتلنا بدون تعب وبشجاعة، مما أدهش أعداءنا، حتى وقعنا أخيراً بالأسر، وهو ما حاولنا أن نتجنبه، بأن نقتل، ولذلك قال العدو، فيما بعد، وهو مندهش، إلى أسراه: «أنتم عن طواعية ألقيتم بأنفسكم في طريق الموت، فلماذا كان ذلك»؟ وعلى هذا أجاب الأسرى قائلين: «كنا نفضل بالحري أن نموت في المعركة، ذلك أننا بموت أجسادنا، نحصل على التمجيد لأرواحنا، وذلك بدلاً من أن نفر بدناءة، فمثل هؤلاء الناس، هم بالحقيقة، يُخاف منهم كثيراً»، وسحقت في المعركة المذكورة، قدرة الصليبيين، وكانت أعداد الذين قتلوا من على الجانبين لاتحصى، وجرى قتل مقدمي الداوية والاسبتارية، وكذلك مقدمي الطوائف الأخرى، مع فرسانهم وأتباعهم، أما وولتر كونت بريين Brienne, واللورد فيليب دي مونت فورت، والذين قاتلوا تحت لواء البطريرك، فقد جرى تمزيقهم إلى أشلاء، ونجا من الداوية ثمانية عشر فقط، وستة عشر من الاسبتارية، وكانوا فيما بعد آسفين، لأنهم أنقذوا أنفسهم. وداعاً».

كيف استهدف الانكليز رمي نير العبودية البابوية

بينما كان الجنس البشري هكذا مضطرباً كثيراً، بوساطة عدد كبير من العواصف، في سورية، وفي انكلترا أيضاً، والبلدان المجاورة لها:

لعبت القدرة اللاهوتية بالأشياء الإنسانية

لأن البلاط الروماني، الآن في أيام بابانا الجديد، انوسنت الرابع، قد ألقى جانباً جميع مشاعر الحياء، وتابع دون توقف —على عكس جميع آمالنا— استخراج مواردنا بوساطة مراسيم يومية وقحة، وتفجر الآن عدم الرضا الذي شعر به الانكليز طويلاً، واعتمل في قلوبهم، نتيجة لذلك، على شكل شكايات مكشوفة، وذلك بعدما تمخض طويلاً، وتكلموا بشكل مكشوف، لأنه لم يعد بإمكانهم حبس أنفسهم، ولأن صبرهم صار إهمالاً وتراخياً، وصار تواضعهم غير مفيد أبداً، لابل بالحري مؤذياً، وفي مؤتمر جرى عقده، جرى التصريح بالاعتبارات التالية لصالح الملك والمملكة:

إذا ماقام البابا بالنظر بعين عقله إلى أوضاع الكنيسة الأولى في انكلترا، وكيف كانت في عمرها الوسيط، وكيف هي الآن، هو لن يهز أساسات الكنائس، واللاهوتيين، ولن يقوم بظلمهم والضغط عليهم على هذه الصورة، أو أن يدعي، أو أن يستخرج من الكنائس، التي ليست كنائسه، لأنه بموجب تبشير القديس أوغسطين، الذي هو رسول الانكليز، جرى تحويل الملك ايثلبيرت Ethelbert إلى الإيمان بالمسيح، وأسس كنائس: لندن، وروكستر، وكانتربري، ووضع رجال دين وكهنة في مكان أول، ورهبان في مكان آخر، وعيّن إليهم مايكفي من الأراضي والممتلكات من أجل عيشهم، وأوكل إليهم وظيفة واحدة هي أداء القداسات في الأماكن المعينة إليهم، وصب الحمد والشكر إلى الرب في الليل والنهار، ومنح الصدقات، وممارسة أعمال التقوى الأخرى، وتقديم الضيافة إلى الفقراء، وفقاً لطاقة إمكاناتهم، ووفق الطريقة نفسها أيضاً، قدم الملوك الآخرون الهبات إلى الكاتدرائيات

الأخرى، وإلى الكنائس الكهنوتية والرهبانية، وهو مايمكن رؤيته لدى تفحص تعليماتهم وقوائم أعطياتهم، وهم على كل حال، لم يعطوا هذه المقتنيات بكرم مطلق، بل كانت مقرونة بثلاثة شروط دائمة، فالأشياء الممنوحة إليهم هي من أجل الفائدة العامة للمملكة، أي من أجل الحملات العسكرية، ومن أجل ترميم وإصلاح الجسور والقلاع، لأنه بهذه الوسائط يمكن صد هجمات الأعداء، وإذا كانت هذه الأشياء —بناء عليه— قد أعطيت من الأوقاف، ومن الايجارات المدنية للملك والأمراء، إلى الأماكن الروحية فأي حق —نحن نسأل— يمكن لأساقفة هذه الأماكن، كأناس مثبتين في الكنائس الكاتدرائية، وكذلك رعاة الديرة والراعيات، يمكنهم —من دون إلحاق الأذى بحق الآخرين— تحويلهم إلى استخدامات واحد آخر، أو استخدامات أخرى؟ خاصة إلى الاستخدامات التي منها صدر الذبح، والنار، وسفك الدماء، لأنه عندما سأل بطرس قائلاً: «مولانا، إذا ضربنا بالسيف»؟ أجابه الرب: «ضع سيفك في الغمد»، ومجدداً إذا ما جرى إرسال الموارد الأساسية لرجال الدين في انكلترا إلى إيطاليا، من أين يمكنهم تأمين الوسائل لترميم الجسور والقلاع، ومن أجل الحملات العسكرية إذا كان ضرورياً؟ ومن أين يمكنهم الحصول على الوسائل لإبداء الضيافة؟ وكيف سيكونون قادرين على البقاء في الأماكن المعينة إليهم؟ ومجدداً، هناك شرور أخرى، فالذين سيذهبون من انكلترا إلى البلاط الروماني، يمكن أن يتعرضوا إلى الأذى على أيدي عمال الامبراطور، فالذي هو واضح وملموس بما فيه الكفاية، أن أراضي الامبراطور مفصولة فقط عن انكلترا ببحر ضيق، من الممكن عبوره بتيار مدّ أو جزر واحد، وبما أن الامبراطور ذاهب الآن إلى تلك الجهات، يخشى أنه إذا مااستثير الامبراطور على هذه الصورة، أن يقوم بغزو المملكة كعدو، وذلك حسبما قال المعلم وولتر دي أوكرا Ocra بحضرة الملك أثناء مؤتمر عام للبارونات

في لندن، عندما رجا الملك بحرارة عظيمة، باسم الامبراطور، بأن لايسمح بجمع المكوس من المملكة، سواء من الكهنة أو من العلمانيين، في سبيل مساعدة البابا ضد الامبراطور، وأعطاهم بالوقت نفسه أن يفهموا بشكل مكرر، أنهم إذا فعلوا كذلك، سوف تثور حروب لاتحصى في المملكة، وأن الملك ونبلاء المملكة سوف يكشطون أنفسهم إلى العظام.

ومجدداً قام الملك بناء على نصيحة الكنيسة ورغبتها وطلبها، فأعطى اخته بالزواج إلى الامبراطور، وهي التي إليه أعطت أولاداً، هم بشكل واضح من جنسنا، ومن الدم الانكليزي، فما الذي يكونه، إذا ما أسهمنا بالمال ضد الامبراطور، غير تدمير هؤلاء الأولاد الذين نبعوا من أمتنا؟ لاسمح الرب بذلك، وماذا أيضاً سوف تكون النتيجة سوى منع الامبراطور من مساعدة ملكنا في استرداد أراضيه؟ ومجدداً لو أن البابا قام بتقدير النوازل والخسائر، التي لحقت بانكلترا، على يدي الملك الفرنسي لويس، الذي غزاها، و الذي لم يوفر لاكنائس ولا لاهوتيين، بل إنه نهب كل شيء إلى درجة أن أساقفة انكلترا بات من الصعب عليهم التنفس بحرية منذ ذلك الحين فصاعداً، إن البابا لو قدّر ذلك لما أقدم على تكديس النوازل فوق النوازل ثم فوق النوازل، بل لاتخذ خطة أفضل، بالقيام بتقدير للخسائر التي لحقت بالكنيسة، ومن ثم إرسال جيوشه وبعثها ضد العدو، وهو أمر كان قادراً على أن يفعله —على الرغم من أن ملك انكلترا عارض ذلك— دون أن يطلب من الامبراطور المساعدة، ضد الملك والمملكة.

ومجدداً لدى الكنيسة ذهباً، ولديها ميراثها، وعندها مدن، وحصون وقلاع، ومع أنهم قد يكونوا غير كافين للتصدي لمثل هذا الأمير القوي، يمكنها أن تستدعي إلى بين يديها منافع الايطاليين والرومان التي منحتهم إياها، وهم ليس عددهم صغيراً، وكذلك في انكلترا، وفي

بلدان أخـــرى، ومن منتجـــات أولئـك الذين أفـــادتهم كثيراً، حيث يمكنهـا بذلك صنع ترتيبات عـدوانية، ولكن ليس بمواردنا، التي هي لم تمنحنا إياها، والتي ندين نحن بها إلى أولياء نعمتنا فقط، الذين أعطونا كل ما يستطيعون، وهم الذين علينا دعمهم في كل حـاجة، إذا ماحدث وطلبوهـا، وعلى البابا أيضـاً أن يتذكـر أنه أثناء عـذاب الاسـرائيليين وضـائقتهم، أطلق فرعـون سـراح الكهنة واللاويين وحـررهم من دفع أي مكس مهما كان نوعه.

ملك إنكلترا يكتب إلى البابا يشكو من مكوسه

وبنـاء عليـه، ثار المـلك، بسـبب هـذه المضـار، وغضب من الشـره المضاعف للرومان، فكتب إلى البابا كما يلي:

«إلى الأب الأعظم قـداسـة في المسـيح مـولانا إنـوسنت، الذي هو بنعمـة الرب الحبر الأعظم، إليكم من هنـري الذي هو بالنعمـة نفسهـا ملك انكلترا، إلخ، صحة وقبلات إلى قدميه المباركتين:

كلما أخضع الابن نفسـه أكثـر إلى رغبـات أبيه، وأظهـر نفسـه أكثـر استعداداً واخلاصاً لإطاعة أوامره، كلما استحق الحصول على حماية أبيه، وقطف منافع إخلاصه وخدمتـه، وفي هذا المقام، أظهرنا —بناء عليه— أنفسنا، خـلال حكمنا كله مع مملكتنا، طائعين لرغباتكم ولأوامـركم في كل شيء وخلال كل شيء، ومع أننا وجدنا في بعض القضايا المتعلقة بنا أنفسنا وبمملكتنـا، بشكل عـــام الاهتمام واللطـف الأبوي، مـع ذلك وجـدنـا في بعض مـراسيمكم، التي منحـت من قبلكم إلى كهنة انكلترا وبلدان أخـرى، أنـه جـرى إثقـالنا نحن أنفسنـا ومملكتنا، وظلمنا ليس بدرجـة خفيفـة، وفي الحقيقـة أثقلت الكنائس الانكليـزية بكثير من مثل هذه الاثقـالات، ومن هذه النوعيـة، إلى حد أنه ليـس فقط أولياء نعمـة الكنائس وحماتها، والذين واجبهم هو هبـة المنافع اللاهوتيـة، قد سلبـوا

من حقـوقهم، بل إلى جـانب هذا قـد جـرى التخلي عن كثير من أعمال الإحسـان، لأن المنافـع التي منحـت بالعـادة من أجل أعمـال الإحسـان، إلى البيـوت الدينيـة من أجـل عيشهـا، هي وجميع الآخرين تقريباً، قـد أنهكت بوسـاطة مراسيمكم، وبما أن الكرسي الرسولي عليه أن يظهـر الحظوة نحو المشتكين إليه، وأن يزود الآخرين بحقوقهم لا أن يتـولى إضرارهـا، رأينـا من واجبنا أن نتضرع إلى قداستكم أن تتـوقفوا عن منح مـوارد من هذا النـوع، على الأقل لبعض الوقت، وأيضـاً في الوقت نفسـه نلتمس من قداستكـم، أن تقـومـوا بمواساتكم الأبويـة بحمايـة حقـوقنا وامتيـازاتنـا، التي يمكنكـم عـدها عـائـدة لنا بشكل صحيـح، وليسـت مرتبطـة بالآخـرين، وأن تحفظـوهم غير مخروقـين وسـالمين، وأن لا تسمحوا لهم بالتعـرض للأذى في بلاطكم بأية طريقـة من الطـرق، أو بناء على اقتراحـات أية أشخـاص، وأنا واثـق بأن قداستكم سوف لن تثارون فتغضبـون ضـدنا، إذا ما كنا قد قمنا في أية نقطة بمعـارضـة فحوى أوامـركم، بما أن صراخ الفئات الشـاكيـة قـد حـرضتنـا على هذا، على أسـاس اعتقـادنا أنه لايجوز لنا أن نخفـق في الدفاع عن حقـوق أي انسـان، بل يتوجب، بمـوجب فضيـلة المنصب الملكي الـذي منح إلينـا من قبل الـرب، علينـا أن نـؤمّن العـدالة الكاملة، في القضايا المدنية».

وبطريقـة المحاججـة البارعـة نفسـها، قـام الملك الضعيـف جـداً، والمهمـل، مـن قبل بالتوجـه بالرجاء إلى سلفـه البابا غريغـوري، حتى يتـوقف عن ظلـم مملكـة انكلـترا، بمثل هذه الاستخـراجـات، لكن لا الأول ولا الثـاني تنازل ليـوقـف ميـوله في هـذه القضيـة، ونتيجـة لـذلك، نحن نعتقـد بأن الـرب، ورسـوله بطرس (الذي لم يتبعـا خطواته) قـد أثير مع سبب صحيـح، لأن يغضـب ضـد الكنيسـة الرومانيـة، فأعدّ، ولوى ذراعيها.

كيف سعى البابا إلى جلب ويلز إلى طاعته

أعتقد أنه لـن يكون غريباً عـن موضوعنا، أو غير مـرتبط به، أو غير مفيـد لتـاريخ انكلترا، أن نوضح إلى أجيـالنـا المقبلة، كيف سعى البـابا انوسنت الرابع المذكـور، إلى إعفاء داوود أمير شمالي ويلز من ولائـه إلى ملك انكلترا، الذي كـان به مـرتبطاً بطرق مضـاعفـة، وأن يحوله ليكون من رعايـا دولته، بتسلم خمسمائة مـارك منه سنوياً مقـابل استئجار شمالي ويلز ومتعلقـاتها، وكانت الـروابط والأدوات التي كان داوود المذكـور، ونبلاء ويلز مرتبطين بالملك هنري الثالث، هي كما يلي:

الشروط التي ربطت بها سينينا زوجة غريفين نفسها باسم زوجها بملك انكلترا

«جـرى الاتفـاق بين مـولانا الملك هنري الثـالث، الملـك اللامع لانكلترا، من جهـة، وبين سينينا Senena زوجـة غـــريفين بن للويلين، الأمير الأخير لشمالي ويلز (وغـريفين المذكـور هو الآن معتقل بالسجن من قبل أخيه داود مع ابنه أوين Owen)، وباسم غريفين المذكـور ونيابة عنه: لقـد تعهدت سينينا المتقـدمـة الذكر، باسم زوجهـا غريفين المتقدم الذكر، بدفع ستمائة مارك إلى مولانا الملك، على شرط أن يتدبر اطلاق سراح غـريفين المتقدم الذكر، وابنه أوين المتقـدم ذكره، من السجن المذكور، وأنه سـوف يلتزم بقرار محكمـة بلاطه، فيما إذا توجب حبسـه بالسجن، وأن مـولانا الملك سـوف يسمح له ولورثتـه فيما بعـد بالمحاكمة في محكمة بلاطه، وفقاً للقانون الويلزي، وذلك حول مايتعلق بحصـة الوراثة لأبيه للويلين الأخير، وهي الحصـة العـائدة إليـه، والتي داود قـائم الآن باستجـازها بـالقـوة ومغتصـب، لها من غـريفين المتقـدم الذكر، وإذا ماحصل غريفين المذكور، أو وررثته، بموجب حكم محكمة بلاط مولانا الملك، على الحصـة التي قالوا بأنها عـائدة إليهم من الميراث المذكور، وقتهـا تتعهد سينينا عن غريفين المذكور وورثتـه، بأن يقوم هو

وورثته المذكورين من قبل بالدفع إلى الملك ثلاثمائة مارك سنوياً، وذلك بشكل دائم، وبالنسبة لدفع هذا المبلغ، فإن ثلثه يجري دفعه نقداً، والثلث الثاني على شكل ثيران وعجول، وأما الثلث الثالث فعلى شكل خيول، وذلك بناء على تقدير محكمين اقطاعيين، ويتم دفع المبلغ المذكور إلى عمدة شروبري، ويجري حمله بيدي العمدة المذكور إلى خزينة الملك، حيث يجري إيداعه هناك، ويكون دفع القسط الأول في يوم عيد القديس ميكائيل، والقسط الثاني في الفصح، وتعهدت سينينا المذكورة أيضاً باسم زوجها غريفين المذكور وورثته، بأنهم سوف يحافظون على السلام مع أخيهم داود المتقدم ذكره، وذلك فيما يتعلق بحصة الميراث المتقدم ذكره، التي سوف تبقى لداود المذكور، وتعهدت سينينا المذكورة، نيابة عن زوجها، غريفين المتقدم ذكره، الذي هو زوجها، وباسم ورثته، أنه إذا ماقام أي نبيل ويلزي في أي وقت من الأوقات بالثورة ضد مولانا الملك وورثته، فإن غريفين المذكور وورثته، سوف يقوم على حسابه بإرغامه على تقديم الترضية للملك وورثته، وفي سبيل مراعاة جميع الشروط المتقدم ذكرها بإخلاص، سوف تعطى سينينا المذكورة ولديها: داود، وروثر Rother إلى الملك بمثابة رهائن، مع تفاهم أنه في حال اطلاق سراح زوجها غريفين المتقدم ذكره، وابنه أوين المسجون معه، لأسباب انسانية، فإن واحداً من الولدين المذكورين سوف يجرى رده إلى سينينا المذكورة، ويكون ذلك قبل اطلاق سراح غريفين المذكور وابنه، واخراجهما من السجن، ولسوف يبقى الابن الآخر كرهينة، علاوة على ذلك أقسمت سينينا المذكورة على الانجيل المقدس، نيابة عن نفسها، وعن زوجها غريفين وورثته، بأنها سوف تراعي باخلاص جميع هذه الشروط، وتعهدت بأن زوجها غريفين المذكور سوف يؤدي القسم نفسه عندما يطلق سراحه من السجن، وتنفيذاً لكل ماتقدم ذكره، قامت باخضاع نفسها باسم زوجها غريفين المذكور لحكم الأبوين المبجلين: أسقفي هيرفورد وليشفيلد، وبذلك

يمكن للأسقفين المذكورين، أو لواحـد منهما، يختاره الملك، أن يقوم بناء على طلب من الملك، بإنزال عقـوبة الحرمـان الكنسي ضد أشخـاصهم، وعقـوبة الحرمـان من شراكـة المؤمنين على أراضيهم، لإرغـامهم على مـراعـاة جميع الشروط المتقـدمـة الذكـر شرطاً شرطاً، وتعهـدت سينينا المذكـورة عن طيب خـاطر وبـاخـلاص بتنفيـذ جميع هذه الشروط التي تقدم ذكرها، وبمتابعة تنفيذهـم جميعاً، وأن زوجها غريفين المتقدم ذكره عندمـا سيطلق سراحـه من السجن سوف يقـوم مع ورثتـه بحمل هذه التعهدات وإكمالها، وسوف يعطي إلى الملك تعهداً مكتوباً باسمهم بأنهم سوف يفعلون ذلك، وفق الطريقة والشكل حسبما تقدم ذكره.

ومن أجل ضمانة أكبر حـول هذه القضيـة كُتبت ودُونت بين مـولانا الملك وبين سينينا المذكـورة، باسم زوجهـا غـريفين،وبالنسبـة لنسخـة الوثيقة التي تركت عنـد الملك، أثبت عليها ختم غريفين المذكـور بيدي سينينا زوجتـه المذكورة، وذلك بالإضـافـة إلى ختم سينينا المذكورة، أمـا بالنسبة لنسخـة الوثيقة التي تركت بحـوزة سينينا المتقدمـة الذكر، باسم زوجها غـريفين المتقدم ذكـره، فقد أثبت عليها ختـم مولانا الملك، وفي سبيل التنفيذ، والمراعاة المخلصـة لجميع الشروط المذكورة أعلاه، أعطت سينينا المتقدمـة الذكر باسم زوجهـا، غريفين المتقدم الذكـر، الأشخاص المذكورة أسماؤهـم أدناه، بمثابة كفلاء لصالح مولانا الملك، وهـم: رالف دي مـورتيمير Mortimer, ووولتر دي كلف فــورد Clifford, وروجر دي مونتهوت Monthaut, قهرمان أوف شيستر، وميلغون فتـز— ميلغـون Mailgun, ومـوردوك Murdoch فتــز— روبرت، وغريفين بن مدّوك Maddoc دي برونفيلد Brunfield, وهويل Howal ومـوردوك أخيـه، وغيريفين بن غـويـن أنوين Gwenunwin, وذلك باسم سينينا المتقدم ذكـرها ومن طرفها، وقد تعهدوا بمـراقبة تنفيذ الشروط المتقـدم ذكرها، وقدمـوا أيضاً صكوكهم

إلى الملك مـن أجل الشيء نفســـــه. أبــرم في شروبري Shrewbury يوم الاثنين التالي لما قبل صعود القديسة مريم العذراء، في السنة الخامسة والعشرين من سني حكم مولانا الملك المذكور».

صك تعهد روجر دي مونتهونت

«إلى كل من تصله هذه الكتـابة، تحيـات من روجـر دي مونتهـونت، قهرمان أوف شيستر:

ليعلم جميع الناس بأنني أعطيت نفسي كفيـلاً لسينينا، زوجة غـريفين ابن للويلين، أمير شمالي ويلز المتـوفى، وارتبطـت لصـالحهـا مع مـولاي هنري، الملك المشهـور لانكلترا، بأنها سوف تنفـذ باخلاص نحـوه جميع الذي وعدت به الملك المذكور، نيابة عن زوجها المذكور، للحصول على اطلاق سراحه مع ابنه أوين، من السجن الذي وضعه فيه أخوه، وأيضاً للحصول على الحصـة العائدة لغريفين المذكـور من ميراث أبيه، للويلين المتقدم ذكره، وهي الحصة التي اغتصبهـا داود المتقدم ذكره منه، وبمثابة شهـــادة، وضعت على هذه المدونـة ختمي. صنع في شروبـري في يوم الاثنين قبل صعـود العـذراء المباركـة، في السنة الخامسـة والعشرين من حكم الملك المذكور».

ووفق الشكل نفسـه لصك التعهـد المتقـدم ذكـره، أعطى البـارونات الانكليــز والويلزيون صكوكهم إلى الملـك، وربطوا أنفسهم بالطريقـة نفسها.

صيغة صكوك تعهد لوردات كيفي في ويلز

«ليعلم جميع الحضور والذين سيأتون، بأنني أنا مردوك فتز— هويل، قد أقسمت على الانجيل المقدس، أنني من هذا التـاريخ فصاعداً، أثناء حيـاتي، بأنني سـوف أكـون خـاضعـاً باخـلاص لمولاي ملك انكلترا، ولسوف أخـدمه باخـلاص بأمانة مع جميع قـواتي، وسوف أبذل أقص

طاقتي، في أي مكان يمكن أن يحتاج فيه إلى خدماتي، وسوف أراعي باخلاص من جانبي الهدنة التي أبرمت بين اللورد رالف دي مورتيمير وبيني، حتى عيد القديس ميكائيل، في السنة الخامسة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، وبمراعاة ولائي إلى مولانا الملك بشكل دائم، وكذلك من أجل المحافظة على الهدنة المتقدمة الذكر، حتى الموعد المذكور أعلاه، وقد وضعت نفسي تحت حكم السيد أسقف هيرفورد، وأسقف كوفنتري، وأسقف للانداف Llandaff, أو واحداً منهم، سوف يتولى الملك اختياره للغرض، وذلك من أجل أنه إذا كان أياً من أعمالي مخالفاً بأي شكل من الأشكال لولائي للملك المذكور، أو سوف يحول دون مراعاة الهدنة المتقدمة الذكر، فوقتها يكون مشروعاً لهم حرماني كنسياً وجميع قومي، وأن يضعوا أرضي تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، حتى أقدم جميع التكفيرات عن الذي اقترفته من ذنب، وإذا حدث عدم إعادة إقامة السلام بيني وبين رالف مورتيمير، المتقدم ذكره، قبل موعد عيد القديس ميكائيل، ومع أنني قد أشن الحرب بعد ذلك العيد ضد رالف مورتيمير المذكور، فإن يميني المتقدم ذكره سوف لن يعيقني عن فعل ذلك، مادمت ملتزماً بشكل مستمر بولائي نحو الملك حسبما تقدم الذكر، وإذا مانشبت الحرب بيننا بعد المدة المتقدم ذكرها، فإن الملك مع ذلك سوف يسمح لي ولأتباعي بأن نستقبل في أراضيه بمثابة رعية مخلصة له، وبالنسبة لمراعاة الشروط المتقدم ذكرها نحو مولاي الملك ونحو ورثته، أربط نفسي باليمين المتقدم ذكره، وبتثبيت ختمي على هذه المدونة من أجل ضمان أبعد للقضية المتقدم ذكرها. أبرم في اليوم التالي لعيد صعود مريم المباركة، في السنة الخامسة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث».

وأعطى الكلمات نفسها أيضاً أوين فتز— هويل، وميلغون فتز— ميلغون، ومردوك فتز— مردوك، وهويل ابن كادوول لون Cadwal,

lon وكادوول لون فتز— هويل، في صكوك تعهدهم إلى الملك.

صك تعهد داود بن للويلين أمير شمالي ويلز

«إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح، وإلى جميع الذين سوف يصلهم هذا العرض، تحيات من داود بن للويلين:

اعلموا بأنني قد أعطيت موافقتي إلى مولاي هنري المشهور، ملك انكلترا، ابن الملك جون، بأنني سوف أطلق سراح أخي غريفين، الذي أنا محتجزه بالسجن مع ابنه الأكبر وآخرين، وبسبب أن غريفين المتقدم ذكره محتجز بالسجن من قبلي، فأنا سوف أسلمه إلى مولاي الملك، ولسوف ألتزم بعد ذلك بقرار محكمة بلاطه، وذلك فيما يتعلق بوجوب إبقاء غريفين المذكور محتجزاً بالسجن، وفيما يتعلق أيضاً بالحصة من أراضي والدي المتوفى، للويلين المتقدم ذكره، وتبيان فيما إذا كان أي منها عائد إلى غريفين المذكور، وذلك وفقاً للعادات الويلزية، وذلك في سبيل امكانية تأسيس السلام وحفظه بيني وبين غريفين المتقدم الذكر، وقد أعطيت ضمانات من أجل تمسكي بذلك وفقاً لحكم بلاط الملك المذكور، وأنني أنا، وكذلك غريفين المتقدم الذكر، سوف نستحوذ على الحصص العائدة لنا، من الأرض المتقدم ذكرها، من مولانا الملك بشكل رئيس، وكذلك سوف أعيد إلى روجر دي مونتهوت، قهرمان شيستر أراضيه في مونتهوت مع متعلقاتها، وسوف أعيد إليه وإلى البارونات الآخرين والرعايا المخلصين الملكية المطلقة للأراضي التي جرى احتلالها، منذ ابتداء قيام الحرب بين صاحب الجلالة الملك جون وبين والدي، للويلين المتقدم الذكر، باستثناء حق الملكية، لأي عقد من العقود، والمواثيق، وفيما يتعلق بهذا سوف نلتزم على الجانبين بقرار بلاط الملك المذكور، وسوف أسدد إلى مولاي الملك جميع النفقات التي تحملها هو شخصياً أو أتباعه بسبب تلك الحرب، وسوف أقوم، وفقاً لقرار البلاط المذكور بعمل ترضية له ولأتباعه عن الخسائر وعن

الأضرار التي عانوا منها، أو أنني سوف أتخلى عن جميع الجناة نحو الملك، ولسوف أقدم إلى مولاي الملك جميع أنواع الولاء، التي كان والده الملك جون قد تلقاها، والتي ينبغي أن يتلقاها الملك المذكور، ولاسيما ولاء جميع النبلاء الانكليز، وكذلك سوف لن يطلق الملك المذكور سراح أي من مساجينه من دون أن يتركوا ممتلكاتهم في حوزة الملك ووكلائه، وكذلك إن أراضي انغلمير Englesmere مع متعلقاتها سوف تبقى إلى الأبد ملكاً للملك المذكور ولورثته، وكذلك سوف لن أستقبل منذ الآن فصاعداً خارجين على القانون أو قراصنة ضد مولاي الملك وباروناته من الحدود في أراضي، ولن أسمح لهم بالاستقبال هناك، ومن أجل المراعاة المخلصة الأبدية للشروط كلها المذكورة أعلاه، للملك ولورثته، سوف أقدم ضمانة عن نفسي وعن ورثتي بوساطة الرهائن، أو بوساطة الأيمان، أو بوساطة أية طريقة أخرى يمكن للملك أن يختارها ليمليها، وفي هذه الحالة والحالات الأخرى سوف ألتزم بإرادة الملك وبأوامر مولاي الملك، ولسوف أطيع قرار بلاطه في كل شيء، وكشهادة على هذا العرض، وعلى العمل الحالي المدون كتابة وضعت ختمي. صنع في ألنت Alnet قرب نهر ايلفي Elvey في أسقفية القديس آساف Asaph, في عيد قطع رأس القديس يوحنا المعمدان، في السنة الخامسة والعشرين من حكم مولانا الملك المذكور».

«وكذلك ليكن معلوماً أيضاً أن الذين محبوسين في السجن مع غريفين المتقدم الذكر، سوف يجري تسليمهم إلى مولانا الملك، بالطريقة نفسها، حتى يصدر قرار عن بلاطه حول فيما إذا كان ينبغي اطلاق سراحهم، وكيفية ذلك، وأنا داود المذكور، قد أقسمت على الصليب المقدس، الذي أمرت بجلبه إلى أمامي، أن أقوم باخلاص بمراعاة جميع هذه الشروط، وقد وعد الأب المبجل هويل أيضاً، أسقف القديس

آساف، بناء على طلبي، باسم طائفته المقدسة أن يفي بجميع الشروط المتقدمة الذكر، وسوف يبذل كل طاقاته في سبيل الوفاء بهم، وعمل ايدنفت وانغان Edenevet Wangan أيضاً، وأدى بناء على طلبي اليمين نفسه، على الصليب المتقدم ذكره. عمل، إلخ، كما ورد أعلاه».

«بالاضافة إلى هذا، لقد التزمت أنا عن نفسي وعن ورثتي، أنني إذا ما حاولت أنا أو هم أي شيء مضاد لسلام مولانا الملك، أو ورثته، بشكل معارض للشروط المتقدم ذكرها، سوف تتم مصادرة ميراثنا لصالح الملك وورثته، وفي سبيل تنفيذ جميع الشروط المتقدم ذكرها شرطاً شرطاً، وضعت نفسي وورثتي تحت حكم رئيس أساقفة كانتربري، وأساقفة: لندن، وهيرفورد، وكوفنتري، للوقت الحالي، وبناء عليه يمكنهم جميعاً أو واحداً منهم، يمكن أن يختاره الملك للغاية والغرض، امتلاك اصدار حكم الحرمان الكنسي لنا، ووضع أراضينا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، إذا ما حاولنا صنع أي شيء مضاد للشروط المتقدم ذكرها، ولقد أقنعت كل من أسقفي بانغور Bangor والقديس آساف، بإعطاء صكوك تعهد إلى الملك، تعهدا بها القيام بتنفيذ إصدار قرارات الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين، والتفوه بها من قبل رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، والأساقفة، أو أي واحد منهم، بناء على تلقي الأوامر من أجل هذه الغاية».

كيف سعى داود إلى رمي النير الانكليزي

ولقد قلت ماتقدم من التفاصيل، في سبيل أن أظهر إلى العالم طبيعة الالتزامات العظيمة والكثيرة التي التزم بها داود المذكور، الذي كان حفيداً للملك، حيث كان خائناً، وقاتلاً لأخيه، وكذلك بالنسبة للنبلاء الآخرين (مع أنهم وضيعي العادات) لويلز، و تعهد وتعهدوا بها بأنفسهم إلى مولاهم الملك، لكن الآن مزقوا جميع روابط القرابة،

وحنثوا بعهـودهم وخرقوا جميع شروط الاتفـاقية، فبـدون حياء ركلوها ضـد سلطة مــولاهم الملك، وشنوا عليـه الحرب وألحقــوا به كثيراً من الأضرار على الحدود.

عـلاوة على ذلـك وفي سبيل أن يحرر داود المتقـدم ذكـره عنقــه من الولاء إلى الملك، انضـوى تحت جناحي البابوية من أجل الحماية، واعـداً بأن يستحوذ على ذلك الجزء من ويلز العائد إليه من البابا نفسه، ونتيجة لذلك آثر البابا قضيته، والذي أعدّه حالة يتوجب أن يندهش المرء كثيراً نحوها، هـو أنه فتح له صدره، وأعطاه الملجأ إليـه، مع أنه كان عـاصياً ضد الملك، مـالم يكن —ربما— قد حـدث وحصل على مساعـدة البابا، بوساطة قمع الحقيقة، وبإفادات زائفة، لأنه مَـن من المسيحيين يمكنه أن ينكر بأن أمير ويلز كان من الاقطاعيين الصغار لملك انكلترا؟.

الملك يمنع بيع صوف السسترشيان

وفي السنة نفسها، منع ملك انكلترا نقل صـوف الرهبان السسترشيان إلى القارة لبيعه من أجل منفعتهم، وقد سعى بهذه الوسائط للعسف بهم وإلحاق الأذى بهم، لأنهم لم يرغبـوا —في الحقيقة كـانوا غير قـادرين— بإعطائه مساعدة مالية، عندما كان في غسكوني.

عمل ميرون مقدس في دير القديس ألبان

وعمل في هذا العام أيضاً ميرون مقـدس في الكنيسة الديرية للقديس ألبان، من قبل المبجل جون أسقف هارتفورد.

شهادة عن معجزات القديس إدموند المعترف

وعمل في هذا العام أيضـاً معجزات من قبل القـديس ادموند، رئيس أساقفـة كانتربري والمعترف، وغدت متـوالية الحدوث في بونتغني، حتى بدا وكأن أيام الرسل قـد تجددت، ولم تحدث هذه المعجـزات في فـرنسـا

فقط، بل في انكلترا أيضاً، خاصة في كيتباي Cateby, وهو المكان الذي كان فيه طيلسان القديس وبعض الصور المرسومة، التي اعتاد أن يحملها، فهناك كانت محفوظة، وأصبحت عدة أماكن أخرى مشهورة، وجرت زيارتها بمباركات معجزات واضحة، وبناء عليه، حتى لايتهم راعي دير بونتغني مع الجماعة الديرية بالجمود، شرع في الثناء عليه، ورغب لسبب جيد، في أن يجري تطويبه، وأن يدرج اسمه ويوضع في لائحة قديسي الكنيسة، ولذلك كتب إلى البابا كما يلي:

«إلى الأب الأعظم قداسة، والمولى انوسنت الرابع، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم، يقوم خدمه المخلصون ج ل, المسمى راعياً لدير بونتغني، وجماعة الدير في ذلك المكان، الذين هم من طائفة السسترشيان، بكل اخلاص، وخضوع، وتبجيل، بتقبيل قدميه المباركتين:

إن أعمال الخالق، التي تحمل برهاناً للمجد، وتشريفاً لكهنته، ينبغي أن لاتبقى سراً، وإذا كان من غير الممكن، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل القيام بإحصاء الوقائع التي حدثت عند ضريح ادموند، مع هذا يتوجب أن لا —كما لايمكننا— أن نبقى صامتين تماماً، تجاه مايحدث ليس فقط عند ضريح ادموند، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة كانتربري، والذي جسده، تلك الكومة المشهورة من الأرض، والذي هو راقد في كنيستنا، التي اختارها بتقوى عالية جداً لتكون مكان دفنه، أن لانبقى صامتين، لأن ذلك قد انتشر الآن في جميع أرجاء العالم، بوساطة معجزات متميزة وواضحة، لأنه حدث في أماكن متنوعة ونائية، لدىٰ التوجه بالدعاء إلى اسمه، أن عملت معجزات، ليست معجزات من نوع واحد، بل سلاسل من المعجزات واحدة بعد الأخرى، ولسوف نستعرض أخبار هذه المعجزات باختصار وبسرعة، وذلك حسبما شاهدناها بأعيننا وسمعناها بآذاننا، فقد جرى رد البصر إلى أطفال عميان، والذين كانوا عرجاناً منذ ولادتهم، استردوا القدرة

على المشي، وعاد المصابون بالاستسقاء إلى الحجم الطبيعي، والذين كانوا طرشاناً منذ الولادة، قد استردوا السمع، والخرسان منذ الولادة تكلموا بوضوح، واسترد الأشخاص المشلولين قوتهم، والذين كانوا مسكونين من قبل الشياطين تحرروا منهم، وفتحت السجون، وحلّت الأغلال، ونجا من الموت المصابون بالحمى الربعية وبحميات أخرى، وكان هناك بعض الذين يعانون من الصرع، ومن أوجاع أخرى متنوعة، ومصابين بأمراض خفية حادة، كما كان بعضهم محرومين من استخدام أطرافهم، والتي أصبحت من دون حركة، وكأنها قطعة من الخشب، وآخرون كانوا قد أصبحوا فجأة من دون عقل، وكان بعضهم قد أصيب بمرض الناسور، وآخرون أصيبوا بعلل التورم، هؤلاء جميعاً عادوا بفضائله إلى أوضاعهم الصحية السالفة، وتمّ إيقاف نزيف الدم في النساء وشفي أحدهم من اليرقان، وانتهت أوجاع الأسنان عند آخر، وزالت البقع الخبيثة من أحدهم، دون أن تترك أثراً أبداً، وجرى شفاء المصابون بالفتق، والمحدودبة ظهورهم، والمصابون بالحصا، وبالبواسير، أو بأمراض أخرى حادة، وآخرون قد سقطوا في حفر، أو في أنهار وفي مياه عميقة، وآخرون قد قذف بهم من أماكن مرتفعة، ما أن قام هؤلاء بالدعاء إلى اسمه، لم يصابوا بأي أذى جسدي، أو بشيء بسيط جداً وخفيف، وكان بعضهم قد وقع في مصائد الردة المنهكة، وجرح آخرون من قبل الأفاعي، وكاد آخرون أن يصابوا بالاختناق، وكسب آخرون القنوط، وقد حصل هؤلاء جميعاً على النعمة الرائعة لهذا الأسقف، وانتزعوا من موت كان محيقاً بهم، وتحرر آخرون —مجدداً— من ورم الفكين بفضائله وصلواته، وآخرون من ربط الحلقوم، وآخرون من نزيف الدماء، والذين تحطمت نفوسهم في أوقات الأزمات، والذين غرقوا تقريباً في أعماق اليأس، تمت مواجهتهم —لسرورهم— بالمواساة والشفاء، لدى إعادتهم لاسم هذا الأب إلى ذاكرتهم، وكان هناك بعضهم الذين تغلبت عليهم معيقات كثيرة متنوعة، وكانوا في حالات

الخطر، لكن عندما دعوا اسم هذا العابد للرب، والمحبوب من الملائكة، مع أن ذلك مزعج ومكروه من قبل الشياطين، قد تحرروا من جميع شياطينهم، وشعروا بحضور فضائل مولانا يسوع المسيح، وهذه ومعجزات أخرى عملت من قبل الرب فقط، الذي هو مبارك فوق الأشياء كلها دائماً أبداً.

ومن الوقائع المثيرة للدهشة أيضاً، هو أن الحيوانات المتوحشة قد شعرت بالمنافع من خلاله،وبناء عليه، إنه بالتقدير الرائع للرب، الذي أوجد كل شيء بشكل حكيم وصحيح تماماً، حدثت في المكان الذي يرقد فيه جسده، معجزات مجيدة كثيرة، وكانت سمعة أعمال الشفاء عظيمة جداً، وحشود الناس المجتمعين كثيفة جداً، وهم على درجة عالية من التقوى، ولذلك فإن الكنيسة تغني للرب وفق الطريقة نفسها، ومثل ذلك يمكن أن يغنوا عن عبده ويقولون: «الذين ضلوا عنك، سوف يعودون إليك، وسوف يعبدون آثار قدميك»، ذلك أن جميع أعداء هذا الأب المذكور، قد اجتمعوا مع بعضهم وتعبدوا في المكان الذي وقفت فيه قدماه،لابل حتى بعض أتباع الكفر، وأهل العناد، الذين أقدموا على الاستخفاف بفضائل الرحمة اللاهوتية، وكذلك فضائل الأب المذكور قد أصيبوا فجأة بالقناعة، وأرغموا،حتى وهم غير راضين على نشر أخبار هذه الأشياء، وهناك واقعة يعجب الإنسان نحوها أكثر من الوقائع الأخرى، وهي واقعة لم يسمع بمثلها في أي وقت من الأوقات، وقعت في قضية أحد الأطفال، وكان قد ولد من دون قدمين، واستمر هكذا لمدة ثمانية أعوام، عندما فجأة بدأ ينمو له قدمان جديدان، وكان أمراً غير اعتيادي البته إحلال أطراف جديدة حيث لايوجد أطراف، وهذا أصعب من شفاء أطراف مريضة وإعادتها صحيحة وقوية! آه أيها الكاهن صاحب الفضائل العظيمة، آه أيتها الفضائل لمثل هذا الكاهن! من الذي فكر قط بمثل هذه الجوائز، أو

بمثل هذا الامتياز لفضائله، أو مثل هذه الجدارة العظيمة لكاهن، فمثلما أضفى المسيح الحيـاة السرمـدية على الروح التي استعيـدت من الموت الأبدي، مثل هذا فعل الأسقف التقي المحب للمسيح، فبوسـاطة عملية الرحمة اللاهوتية، استرد الحيـاة الآنية إلى الأطفـال الضعفاء، وإلى الذين غـرقـوا، وإلى عـدد كبير آخـر كـانوا بالفعل أمـواتاً في الجسـد، لأن أية معجزة يمكن أن تكون أعظم روعـة من إحلال فائـدة الصحة محل شر الموت؟ وعلى هذا يبدو أن الأمر لم يكن بلا فائدة عندما تعرضت بشكل مختصر لأخبار مثل هذه المعجزات الرائعة.

«لأن المعجزات الحاليـة سوف تؤكـد المعجزات الماضيـة، والمعجزات المتوقعة في المستقبل، حيث أن هذه ستكـون ثابتة ولايمكن قلقلتها، وفي الحقيقة يبدو أن احتشاد الناس في المكان المذكور، جدير بالاعجاب أكثر من المعجـزات نفسهـا، وهذه الحالة نفسهـا هي معجـزة، لأنه مـاالذي يمكن أن يكون أكثـر اعجـازاً، وأكثر إدهـاشاً، من قيـام الناس في عـالم اليوم بعبادة إنسان، كانوا في البارحة يكرهونه؟ أي قيام الذين هربوا منه بالأمس بالفرار إليـه اليوم، وأن يقوم بالصـلاة اليوم إلى الرب من أجل الوقاية الكاملة لنا، رجل تجنبنا بالأمس كل علاقات معـه، إما خوفاً من سلطة أرضيـة، أو من خـلال سلطاتنـا الشخصيـة الشريرة، وهذا في الحقيقـة بدا لكثير من الرجال العقـلاء هو الأعظم بين هذه المعجـزات، وبالقـدر نفسـه حتى لاتندرس ذكـرى هذا الـرجل العظيم، وتهمل في قبره، وأن لايعهـد بها إلى النسيـان مع ضريحه، ألقينا بأنفسنا عند قـدمي قـداستكم، ونرجـوكم بتـواضـع وباخـلاص، أن تقـومـوا بعـد فحص مناسب وصحيح لهذه المعجـزات، بادراج اسم الأب المذكـور في قائمـة القـديسين، ونحن نعمل في هذه القضية بـأعظم ثقة، بسبب أن تومـاس المبـارك من المعـروف أنه قـد أعطى شهـادة، وأنه كـان متنبئاً مخبراً بهذه الأحداث وواعداً بها، لأن توماس المذكور، بعـدما أقام مدة طويلة أثناء

نفيه في ديرنا، بناء على أمر من البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، أظهرت له العلامات من السماء، بأنه سوف يعود إلى كنيسته، ومن هناك سوف يغادر إلى الرب، مع سعفة الشهادة، وبما أنه لم يمتلك الوسائل ليكافئنا، بوساطة هدايا كريمة، ومنافع، من أجل المعروف الذي أبدي نحوه من قبل سلفنا، وخوفاً منه أن يكون قد أثقلنا، مع أنه لم يفعل ذلك ولابشكل من الأشكال، وعد بأن خليفة له، سوف يأتي من بعده، وسوف يرضينا عوضاً عنه ولصالحه، ونحن نعلم بأن هذا جرى الوفاء به من دون إحباط، ولكي تبقى ذكرى القديس توماس الشهيد محفوظة بالفكر، كان الرجل الأول الذي شفي بفضله في كنيستنا اسمه توماس، وعلمنا من هذه الحقيقة أن علينا أن نؤمن بجميع الأعمال الجيدة المتعلقة به، في سبيل تشريف وتمجيد مولانا يسوع المسيح، الذي، إلخ».

براهين حول قداسة القديس إدموند المعترف

وبشأن مايشبه العباءة التي اعتاد الرجل الأكثر قداسة على ارتدائها، لايصح ولابشكل من الأشكال أن نقف صامتين، لأننا نعتقد بأنها كانت نوعاً لم يجرب من قبل الرجال المقدسين في العصور الماضية، ولم يسمع بمثلها في هذه العصور الحالية، فعباءته لم تكن مصنوعة آنذاك بوساطة فن الحياكة، من خيوط رفيعة، بل كانت معمولة من قبل حبال صغيرة شبكت مع بعضها مثل شبكة كثيفة جداً، فالوصلات الحاوية للعقد، عديدة مثل القصاص، في نظام كثيف، ولكي تكون العقد أكثر ضغطاً على جسد المرتدي، لم تكن العباءة سليمة في الجزء الخلفي منها، بل كانت مفتوحة من الأعلى نحو الأسفل، بفتحات صغيرة هنا وهناك، فبهذه العقد المنسوجة بشدة وإحكام، حارب نفسه،في سبيل أنه بالتعذيب الداخلي، سيتمكن من قهر الجسد، وذلك حتى يصبح شهيداً، ويحصل على النصر على نفسه، ولم يكن هو قانعاً مكتفياً بصلب الجسد بالتعذيب بوساطة العباءة، بل أراد أكثر من ذلك، وكان الذي أوقعه

زيادة على نفسه، قد ضاعف من دهشتنا أكثر من أي شيء آخر، ففي سبيل أن يربط هذه العباءة ويشدها أكثر قرباً على جسده، ولكي يمكن تمزيقه بحدة أكبر، بوساطة الحك والكشط، ربطها على نفسه، بحبل أغلظ، ومرره مرتين حول نفسه من عند الجزء الأعلى من جسده، ومرّ هذا الحبل نازلاً من صدره حتى حقويه بوساطة عدة لفات متداخلة، قد جرى ربطها، والتقت النهايتان مع بعضهما في الأسفل، وبذلك التصق الحبل بالعباءة باستخدامه، وبذلك صار من المادة نفسها.

وبناء عليه حزم نفسه بحبل من شعر، ولم يحزم حقوي جسده حسبما تطلبت الشريعة، بحبل من كتان مجدول، بل عمل مثل ابن الرب، فحزم نفسه بحزام كان عالياً حتى صدره.

وباختصار، نجد أن أجزاء جسده، التي لم يتمكن من تعذيبها بالنهار، أي بيديه، وكذلك الأجزاء العارية من رقبته، قد غطاها بقماش من الشعر أثناء الليل، حتى يتمكن بذلك من جعل جسده كله قربان حرق ذي نكهة طيبة، إلى الرب، فلماذا أنا بحاجة لقول أي شيء عن صومه الذي لم يتعب منه وعن صلواته؟ ومع أنه سمح لطعام قليل جداً بالدخول إلى فمه، كان دوماً يتفوه بالحمد والشكر إلى الرب، وكان دوماً يتلفظ بكلمات مهذبة، وكانت هذه الكلمات كأنها صادرة من نبع صدر مولانا، وكانت خطاباته عميقة ومهذبة حول اللاهوت، الذي كان به متميزاً كثيراً، حيث كان مثل أوغسطين آخر، وكان يلقي خطاباته وسط التنهدات والأنين، مع يديه وعينيه مرفوعتان دوماً —مثل القديس مارتن— نحو السماء، وبذلك أثار تقوى الجميع وجذبهم أثناء كلامه.

الشفاء الرائع لأسقف درم

ووصلت هذه البراهين وبراهين أخرى عن قداسة هذا الرجل المقدس إلى علم نيقولا أسقف درم، الذي كان مصاباً باستسقاء لايمكن

شفائـه، حتى أن لونه تغيّـر بـوساطة يرقـان أصفر، وقد تلاشـى جسده حتى أصبح هيكلاً، وفقد جميع الـرطوبة العائدة لجسـده، وجف جسده بالسعـال والربو، وصـار لونه حالك السـواد، حتى ظهـر بأنه بات على حـافـة الموت، ولم يترك له، كما ظهـر سـوى القبر، وفي هذه الحالة من اليأس والقنوط من أي علاج إنسـاني، وضع ثقة كـاملة بالرجل المقدس المذكور، وبنـاء عليه نذر، أنه إذا مـاعادت إليـه صحته الجسديـة، وصار بإمكانه، سـوف يزور بتقـوى واخلاص ضريح ادمـوند المبـارك، رئيس أساقفـة كانتربري، وعلى هذا جـرى نقله بعربة إلى الأجـزاء الجنوبية من انكلترا، لكي يستفيـد من استنشـاق هواء مـوطنه المحلي، وليكون أيضـاً أقـرب إلى بونتغني، ليفي بنذر حجه، وبعـد إقامتـه هناك لبعض الوقت صـار ضعيفاً إلى حـد بدا فيـه أنه بات صورة أكثـر منه إنسـاناً، ولذلك عمل وصيته، وقال وداعاً إلى جميع أصدقائه، وتلقى قربان الموت كاملاً، والمسح الأقصى، لكن عندما كان متمـدداً وهو في نفسه الأخير، جاء و.

W وكان واحـداً من خدمـه، كان من قبل حـلاق، وبواب القديس ادموند، عنـدما كان رئيسـاً لأساقفـة كانتربري، وكـان متصوراً في ذهنه ـــلسبب صحيح ـــ أن الرب سـوف يجعل ذلك الأسقف بين قديسيـه، لذلك احتفظ ببعض شعر لحيته، التي كان من واجبه حلاقتها، آملاً بأن هذا الشعـر سـوف يكون مفيـداً للمـرضى، في مستقبل الأيام، وعندمـا اقترب هذا من الأسقف نيقـولا، الذي كـان نصـف ميت، لكن محتفظاً بنشـاط ذاكـرته، أمــر الخادم المذكـور، أن يضع الشعــر في بعض الماء المقـدس، وإعطائــه إياه للشرب، وجـرى عمل ذلك، وبعــدمـا شرب الأسقف ذلك، أعقب ذلك غثيان، ثم خمود تورمـه وآلامه، وانتعش هو كلياً، وعاد في وقت قصير إلى الصحة تماماً.

الإمبراطور يتعهد شخصياً بالحفاظ على السلام مع الكنيسة

وفي الوقت الذي كان فيـه خادع العالم يزعج النفـوس بهذه المقلقات

المزعجة، وقع الامبراطور فردريك تحت تأثير نصيحة حكيمة، ومع أنه تظاهر بالتواضع، وعد بتقديم ترضية إلى الكنيسة وإلى الكنائس الأسقفية، وفقاً للشروط التالية: فيما يتعلق بالضمانات التي يتوجب تقديمها، نقول كما يلي: سيقدم الامبراطور ضمانة قائمة على يمين، ومكتوبة، وبكفالة من قبل الملوك، والأمراء، والنبلاء والايرلات، والكونتات، من مختلف البلدان، وعلاوة على ذلك، إنه فيما يتعلق بالضمانات المتقدمة الذكر، هو سيضع نفسه تحت إملاء صاحب القداسة البابا والوسطاء:

«فردريك الأغسطس الدائم، الذي هو بنعمة الرب امبراطور الرومان، وملك القدس وصقلية:

إننا نعلن بوساطة هذه الأداة الحالية إلى الجميع، بأننا منحنا إلى ر. R, الذي هو الكونت المشهور لطولوز، وقريبنا المحبوب، والذي هو من رعايانا المخلصين، وإلى المعلم بيتر دي فينيا Vinea, وثاديوس Thaddeus دي سيسا Sessa, القاضيين في محكمتنا العليا، واللذين من رعايانا المخلصين، منحناهم سلطة كاملة وخاصة بأن يقسموا بأرواحهم، نيابة عنا ولصالحنا، بأننا سوف نلتزم بأوامر البابا والكنيسة، فيما يتعلق بمسائل الأذى، والخسارة، والاعتداءات، التي تعرضت لها الكنيسة والأشخاص اللاهوتيين، قبل صدور قرار الحرمان الكنسي وبعده، والأسباب التي من أجلها جرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي المذكور ضدنا بشكل رسمي من قبل غريغوري، الحبر الأعظم، والتصديق علي، وتأكيد وتثبيت كل الذي سيقرر رعايانا المخلصين المتقدم ذكرهم، أنه ينبغي أن يفعل في هذه القضية، وللتذكير بها وتأكيدها، أمرنا بتنفيذ هذه الكتابة الحالية، وختمناها بختمنا الامبراطوري الذهبي والتوبازيTopaz ».

رسالة الإمبراطور فردريك إلى ملك إنكلترا

«من فردريك، إلخ، إلخ:

فيما يتعلق بمحادثات شروط السلام بيننا وبين الكنيسة، تم وضع الترتيبات الأولية، كما نعتقد من قبل قريبنا المحبوب، وحليفنا المخلص، كونت طولوز، لذلك يتوجب أن يكون رسلك حضوراً، فهذه هي رغبتنا، ونحن نرجو جلالتكم باخلاص، أن ترسل رسلاً خاصين، من أجل توجيه هذه القضية، وأن يكونوا ممن تثق بهم، وأن يكونوا أكفاء في كل من البراعة، والاخلاص الجيد، لترتيب هذه القضية. صدر، إلخ، إلخ».

بنود الإتفاقية التي وعد الإمبراطور بموجبها بتقديم ترضية إلى الحبر الروماني

فيما يخص قضية الأراضي، جرى إعداد شروط أعطت الرضا إلى الطائفتين معاً، وهي، إن جميع الأراضي التي امتلكتها الكنيسة في أيام الحرمان الكنسي، سوف يجري التخلي عنها، وأيضاً فيما يتعلق بالذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، أما فيما يتعلق بازدراء المفاتيح، يتوجب على الامبراطور أن يكتب في جميع أرجاء العالم بشكل عام، أنه باستخفافه بالكنيسة، وبسلطة الكنيسة، هو لم يعامل بازدراء الحكم الذي تفوه به سلف البابا، وبما أن القرار المتقدم الذكر لم يجر التفوه به إليه، هو تابع السير بموجب نصيحة الأساقفة وبقية النبلاء في ألمانيا وإيطاليا، لأنه لم يكن ملزماً بمراعاته، قبل أن يجري التفوه به إليه، ومع ذلك هو يعترف ويقرّ، بأنه أخفق، وتصرف بشكل سيء بالنسبة لهذه القضية، بعدم مراعاته له، لأنه كما هو معروف بشكل جيد، وحسبما يعتقد بشكل ثابت، بأن للحبر الأعظم سلطة كاملة في القضايا الروحية، وكذلك عليه وعلى جميع المسيحيين من ملوك، أو أمراء، أو رجال دين، أو علمانيين، حتى لو كان هو نفسه مذنباً، لاسمح الرب بذلك، وعلى

الرغم من كل ذلك، سـوف يقـدم الامبراطور المذكور، بسبب خطيئتـه، كـذا وكذا مسـاعـدة، عسكرية ومـالية، إلى أي أمير في العـالم المسيحي، حسبما يبدو موائماً إلى صاحب القداسة البـابا، ولسوف يقدم الصدقات، ويحافظ على الصـوم، وفق مـايرسم به البـابا، ولسوف يلتـزم باخـلاص وتواضع بقـرار الحرمان الكنسي المذكـور حتى وقت تحليله، وفيما يتعلق بالأسـاقفـة المعتقلين، في المقـام الأول: إن جميع المقتنيـات التي جـرى الاستيـلاء عليهـا في غـلايينهـم، والتي وقعت بين يدي الامبراطور، أو التي يمكن العثور عليهـا بحوزته هو سيعيدها وسيتدبر إعـادتها كاملة، وفيما يتعلق بالبقيـــة، إذا كـــان الذين عـــانـوا من الأذى، يودون وعلى استعداد، هو سوف يقدم ترضيـة لهم، وذلك وفق مايأمر به البابا، الذي يثق بلطفـه، وهـو أيضـاً تكفيراً عن الذنب المذكـور، وفي سبيل تمجيـد الرب، سـوف يبني مشـافي وكنائـس،حسبما سـوف يقـرر البـابا، وذلك بالنسبـة للعـدد والمكان، ووفق الطـريقـة التي يراها مـوائمـة، ولسـوف يمنحهم حسبما سيأمر البـابا، وبالنسبة لما تقدم ذكـره، وبالنسبة إلى جميع الأضرار والخســائـر والاعتــداءات التي تسبـب بها إلى الكنائس وإلى اللاهوتيين منذ بداية الخصومة، ومنذ صدور القرار، ومن أجل الأضرار التي حـرم بسببهـا كنسياً، هو —الامبراطور— سـوف يقسم بدقـة على الالتزام بأوامر البابا، شريطة الحفـاظ على امتيازاته ومراتبه كما هي تماماً، ومن دون أي انتقاص لامبراطوريته ولممالكه، ومع أننا نعتقد بأن ترضية كـافية قـد قدمت مقـابل الأضرار المتقدم ذكـرها، مع ذلك إنه في سبيل تقديم ترضيـة، وفي سبيل ضمان تنفيذ القضايا المتقدم ذكـرها، وأيضاً في سبيل هذه المنافع المذكـورة، سـوف يلتزم الامبراطور بخطط وبقـرارات الوسطاء، الـذين هم: ستيفن أسقف أوستيـا، والكـاردنالين: جـايلز، وأوتو، الذين سـوف —باستثناء شخص البـابا— يقـدمون مـايرون أنه ضروري أن يقـدم، على شرط، أن لايعمل الوسطاء المتقدم ذكـرهـم أي شيء، من دون نصيحة البـابا وأمره، باستثناء أنه بالنسبة للنقـاط المتقدم

ذكرها، في قضية الترضية والضمانة، سوف يفعلون كل الذي يقرره البابا المتقدم الذكر، بوساطة نصيحة إخوانه، وكذلك فيما يتعلق بالذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، نحن نقول إنه من هذا التاريخ، جميع الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، بعد بداية الخصام، مهما كانت الجهة التي جاءوا منها، سوف يعفى عنهم فيما يتعلق بجميع الأضرار التي عملت من قبلهم، قبل النزاع وبعده، سواء أكان ذلك لحساب الكنيسة أو لحساب أي جهة أخرى، وسوف يجري إلغاء جميع الحرمانات والقرارات التي صدرت ضدهم، وهو سوف يحررهم من الأعطيات، ومن الاتفاقيات، ومن الروابط، التي عملوها له، بعد صدور القرار، أو بعد وقوفهم إلى جانب الكنيسة، وسيعيد إليهم جميع ممتلكاتهم، وحقوقهم، ومراتبهم كاملة، مع أنها قد تكون قد أعطيت إلى آخرين، وفيما يتعلق بالآخرين، الذين كانوا قبل نشوب الخلاف ثائرين ضد الامبراطور، وكانوا آنذاك في حرب معه، نحن نقول بأن جميع ذنوبهم سوف يجري غفرانها كلها، والتي اقترفوها فيما بعد ضده، وضد الامبراطورية، وبالنسبة للاعتداءات والذنوب التي اقترفت قبل نشوب النزاع، سوف يلتزم الامبراطور بشروط البابا وبمراسيمه مع اخوانه، التي سوف يجري إقرارها، قبل التاريخ الذي سلف وأعده البابا، وهو سوف يمنح سلاماً كاملاً إليهم، منذ ذلك التاريخ، وبالنسبة للضمانات إلى الرومان، الذين ارتبطوا بالكنيسة بعد نشوب الخلاف، وكذلك بالنسبة لنبلاء منطقة تريفيسو Treviso, وإلى مركيز مونتسرات Montserrat, وللنبلاء الآخرين في جميع المناطق، وافق الامبراطور على أنه ينبغي عدم ربط النبلاء المتقدم ذكرهم —مالم يكن بناء على أوامر البابا— بتقديم الخدمة شخصياً إلى الامبراطور،بل بوساطة بدلاء، وأنهم سوف يدعون إلى الالتزام بقرار أتباعهم النبلاء ونظرائهم في المقاطعة نفسها، والذين ارتبطوا بالكنيسة ليسوا مستثنين، أما فيما يتعلق بالذين هم بالاعتقال، بسبب أعمال حقيقية أو شخصية، أو حتى إن كانوا متهمين بإعتداءات

جرمية، خاصة بالنسبة لحالة الرومان، سوف يقوم الامبراطور، من أجل تقديم الضمانة الأعظم إلى الذين ارتبطوا بالكنيسة، بتعيين واحد من مقدمي الأساقفة في إيطاليا، أمامه فقط يمكنهم الترافع بقضاياهم، وذلك في سبيل تقديم الترضية لصاحب القداسة البابا، وكذلك فيما يتعلق بالقضايا المدنية والجرمية، وسيجري اختيار هذا الأسقف بموافقة من البابا، ويبقى للمدة الزمنية التي يمكن أن يختارها، وأماكنهم الخاصة للدفاع، سوف يضعها الامبراطور في عهدة الذين يعتقد أنهم موائمين،، وهو لن يلمس أماكن الدفاع للمتقدم ذكره، أو يؤذيها من دون موافقة الأسقف الذي انتدب لهذه القضايا، وبالنسبة إلى الذين هم عائدين إلى منطقة تريفيسو، سوف يتعاون الامبراطور مع واحد من الرهبان يعتقد أنه موائماً للاختيار لهذا العرض، وتقديم مقدم إليه وحده سوف يرتبط الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، لتقديم تقدير حول أراضي تريفيسو المذكورة، وهو أيضاً سوف يطلق سراح جميع الأسرى الذي اعتقلوا في الغلايين، والذين اطلاق سراحهم الآن هو مطلوب، وكذلك التوسكانيين، والرومان والأسرى الآخرين، الذين اعتقلوا منذ صدور قرار الحرمان الكنسي، وسوف يحررهم من جميع الأيمان، ومن جميع المتوجبات التي ربطوا أنفسهم بها، منذ وقوعهم بالأسر، وكذلك جميع الذين أطلق سراحهم، ومثلهم الذين سوف يطلق سراحهم بعد الآن، ومن أجل هذا سوف يعطي رسائل معتمدة إلى رعاياه المخلصين، بأن جميع الذين هم سجناء، سوف يطلق سراحهم في كل مكان من قبل سجانيهم، وسوف يسمح للذين طردوا من البلاد بسبب الخلاف الأول أو الخلاف الثاني، من رجال دين أو علمانيين، بالعودة إلى مواطنهم، ليمكثوا هناك بأمان، وأن يعيد إليهم ممتلكاتهم وبضائعهم كلها.

وبالنسبة لخلافه مع الرومان، سوف يلتزم الامبراطور بالترتيبات التي سوف يعدها البابا واخوانه، وكذلك فيما يتعلق بعمل تعويضات عن

الخسائر التي عانوا منها على كلا الجانبين في تلك الحرب، وكذلك فيما يتعلق بالمسائل الأخرى، على شرط أن ذلك —على كل حال— سوف يجري ترتيبه حول مايتعلق بالخلاف حول ممتلكاته وتحديدها، باستثناء قلعة أنتكولي Anticoli, التي حولها لايقبل التسوية، وفيما يتعلق بالمضار التي عملت من قبل الامبراطور، أو موظفيه ونوابه، بناء على أمره، إلى كنائس رجال الدين، وكذلك بالنسبة للعلمانيين والكنائس الأخرى، وذلك منذ صدور القرار ضده، سوف يقدم الامبراطور ترضية، حسبما يمكن أن ترى حكمة الكرسي الرسولي ولطفه أنه من المناسب تقريره، وكذلك حيث لايعلم الامبراطور بأن الأذى قد عمل من قبله، أو من قبل جيوشه.

وقد منح إلى غريغوري دي مونت لونغو وإلى أقربائه، سلاماً كاملاً وأماناً، وأرض الكونت وليم التي استحوذ عليها من قبل الكنيسة سوف تعاد، وبالنسبة للأراضي الأخرى، سوف يجري تحكيم حولها بين الامبراطور، وبين الكاردينال أوتو، رئيس أساقفة روان، وهكذا فإنهما هما نفسيهما يمكن أن يقررا الشريعة التي ينبغي أن يقرراها.

وتفوه رسل الامبراطور وأعطوا وعدهم، بأنهم سوف يعملون تسوية حول مايتعلق بالممتلكات والمقتنيات، وفي الوقت نفسه سوف يعترفون، ويحددون، ويقسمون، أنهم سوف يسعون مخلصين تماماً ومن دون خداع، إلى اقناع مولاهم الامبراطور، بأن يسمح للأساقفة المتقدم ذكرهم، بالترافع قضائياً بشكل جماعي أو بشكل فردي حول قضية الممتلكات وحقوق الملكية، ولسوف يطلب الأساقفة الثلاثة من الامبراطور أن يفعلوا ذلك، وتعهدوا بالنسبة لأنفسهم، بأنهم سوف يتصرفون في هذه القضية باخلاص وصلاح نحو الامبراطور، شريطة أن يسمح لهم بالترافع قضائياً، حسبما يعتقدون أنه عمل موائم، في الاستماع لهذه القضية وفي تقريرها، وذلك حول المقتنيات، وحقوق الملكية، جماعياً

أو فــردياً، وأنه إذا لم يستطيعــوا جميعــاً أن يكونوا حــاضرين، وأعيق أحدهم بأي معيق معقول، يمكن لاثنين منهم الترافع بالقضية.

حول معيق تطويب القديس إدموند المعترف

وما ان جرت تسوية هذه القضيــة الصعبة، حتى اعتقد البابا بأنه حلّ جميع القضــايا بسعــادة، فــردد الشكر إلى الرب، وإلى القــديس ادمــوند، الذي طلب عونه في وقت متاعبه، وبناء عليه وعد وقرر، أن يقوم تماشياً مع طلب راعي ديــر ورهبــان بونتغني، بشكل مهيب بتطويــب ادمــوند المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، الذي عــرفه من التقرير العام بأنه أشع بكثير من المعجــزات التي تمت الاشــارة إليهـــا أعــلاه، وأرسل أندلم Andelm, رئيس أساقفــة أرماغ مع رجــال آخرين مستقيمين وذوي نفــوذ، للقيــام بفحص مناسب وتقصي حــول هذه المعجــزات، وعندمــا سمع المضطهــدون القــدامى والمتجــذرون للقـــديس المذكــور قــالوا بين بعضهم: «إنه إذا مــاجرى تطويب هذا الرجل، وتمت ترقيتــه إلى مرتبــة القــدسية المتميــزة سوف نكون في وضع مــربك مهين»، ولذلك قامـــوا مــن أجل خــراب أرواحهم، فعملوا مؤامرة مــع النائب البابــوي أوتــو، لمنــع هذا الــقديس من التطــويب مع أن الــرب قــد أظهــر للنــاس كثيراً مــن معجزاته.

تراجع الإمبراطور عن شروط السلام التي رتبها

وأبعــد الامبراطور وتغــرب بوســاطة بعض المزعجــات، والإثارة له، حيث أظهر أولاً شمــوخاً، ثم أسف لوعــوده، وتراجع بشكل محزن عن الشروط التي أقسم بمــراعــاتها، وعن التــواضع، وعن تقــديم الترضيــة المــوعودة، وفي الــوقت نفســه، حتى تزداد أحزاننا، كتب الأساقفة الذين يسكنـــون في الأرض المقــدســة، إلى الأســاقفــة الــذين يسكنــون على هــذا الجانب من البحر، مايلي:

رسالة مبكية

«إلى الآباء المبجلين في المسيح، وإلى جميع أصدقائنا: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، والأساقفة الآخرين في انكلترا وفرنسا، وإلى الذين سوف تصلهم هذه الرسائل، يتمنى لكم روبرت، الذي هو بنعمة الرب بطريرك الكنيسة المقدسة في القدس، والنائب للكرسي الرسولي، وهنري رئيس أساقفة الناصرة، وج. J, الأسقف المنتخب لقيسارية، ور. R أسقف عكا، وأسقف صيدا، والراهب وليم أوف روكفورت Rochefort, نائب مقدم بيت فرسان الداوية، ورهبان البيت نفسه، وهـ. H رئيس رهبان ضريح ربنا، وراعي دير القديس صموئيل لطائفة رهبان البريمونستريت Premonstrate, ورعاة الديرة: ب. B راعي دير جبل الزيتون، وج. J راعي دير هيكل ربنا، وب. P راعي دير جبل الطور،و ر. R راعي دير جبل صهيون، الصحة والنجاح وفقاً لرغباتكم:

قدمت حدة الحيوانات الشرسة من مناطق الشرق، ووجهت مسارها نحو منطقة القدس، التي مع أنها اعتادت في أوقات كثيرة أن تتعرض للمضايقات بطرق متنوعة من قبل المسلمين المحيطين بها قد تمتعت بالآونة الأخيرة بشيء من التنفس بحرية، لأن أعداءها القريبين قد أخلدوا إلى الراحة، ومع ذلك فإن ذنوب المسيحيين قد أثارت شعباً غير معروف، حتى يقدم على تدميرهم، وقد جلب السيف المنتقم وسلّطه عليهم، من بعيد، نعم لقد هزّ غضب التتار ورعبهم جميع منطقة الشرق، بوساطة المصائب المضاعفة والمرعبة، فقد اضطهدوا الناس سواء، ولم يميزوا بين مسيحي وغير مسيحي، بل أخذوا أسلابهم من أقصى البقاع، حتى من الذين هم أنفسهم، قد عاشوا على افتراس الشعب المسيحي، فبعدما نهب ودمّر هؤلاء التتار المذكورين جميع بلاد فارس، وشنّوا حرباً بروح فاسدة، واصطادوا أولئك الخوارزمية

المتوحشين، وسحبوهم من جحورهم، طردوهم من مقاطعاتهم، ولم يمتلك هؤلاء الخوارزمية مكاناً يسكنون به، ولم يتمكنوا من الحصول على ملاذ آمن بين أي من المسلمين، بسبب شرورهم، وقد تلقوا العون فقط من سلطان مصر، ذلك المتعقب للإيمان المسيحي، وهو وإن رفض منحهم مكاناً يلتجئون إليه في أراضيه، عرض عليهم، وقدم إليهم، ماهو ملك للآخرين، واستدعاهم ووجّه الدعوة إليهم ذلك المسلم، للسكنى في أرض الميعاد، التي وعد بها الذي هو في عليين، وأعطاها إلى الذين آمنوا به، وبناء عليه، قدموا، وهم معتمدين على عون السلطان المذكور، مع زوجاتهم وأسرهم، وعدة آلاف من الفرسان المسلحين، ودخلوا إلى ميراث الرب، الذي قالوا بأن سلطان مصر قد منحهم إياه، وكان وصولهم مفاجئاً، ولم يكن متوقعاً لا من قبلنا، أو من قبل الناس المجاورين لنا، لذلك لم يتمكنوا من انذارنا للاحتراز ضدهم، وقد دخلوا إلى منطقة القدس من خلال مقاطعتي صفد وطبرية، ومع أننا استخدمنا كل حيطة، ويقظة لابداع وسائل من أجل ارجاع الأرض المقدسة، إلى سالف عهدها من السلام والهدوء، الذي اضطرب بقدوم هؤلاء الأعداء الجدد، مع ذلك لم تكن إمكانات الصليبيين كافية للقيام بواجب طردهم، وإثر هذا استحوذ الخوارزمية الذين تقدم ذكرهم، على المنطقة كلها الممتدة من طور الفرسان على مقربة من القدس، حتى غزة، وقمنا بناء عليه، واعتماداً على نصيحة الجميع ورغبتهم، بالتعاون مع مقدمي بيتي الرهبان، أي فرسان الداوية، وفرسان اسبتارية القديس يوحنا، ومدير فرسان التيوتون للقديسة مريم، ومدير المملكة، فتوجهنا بالدعاء إلى مساعدة جميع الصليبيين، وسلطاني دمشق، وحمص، اللذان كانا آنذاك يربطهما معنا معاهدة سلام، واللذان كانا معاديين ومبغضين للخوارزمية، واللذان كانا ملتزمين، وفقاً لشروط المعاهدة، بالدفاع عن الأراضي التي هي بين أيدي الصليبيين، ضد المسلمين الآخرين، لأننا اعتقدنا أنهم أنذروا بوصول أولئك الخوارزمية المذكورين، وهم وإن

وعـدونا باخلاص وأقسمـوا على أن يقدمـوا العون إلينا، تأخـروا كثيراً بتقـديم أية نجـدة إلينا، وفي الوقت الذي كـان فيه الصليبيـون مترددون حول القتـال ضد هؤلاء الخوارزميـة، لأن أعدادهم كـانت قليلة، جداً، مقارنة بأعدائهـم، غالباً ما هاجم هؤلاء الخوارزمية مـدينة القدس، التي لم تكن محميـة بحواجـز دفـاعيةعلى الاطلاق، وبناء عليـه فإن الصليبيين الذين كـانوا في المدينة، وكـانوا يخافـون من وحشيـة هؤلاء «الكفـار»، احتشـدوا حتى بلغ عـددهم أكثـر من ستـة آلاف رجل، ووثوقـاً منهم بالهدنة التي كانت معمـولة بينهم وبين سلطان الكرك، ومسلمي المناطق الجبلية، تركـوا عدداً قليلاً في المدينة وانطلقوا خـلال هذه المناطق الجبلية مع أسرهم، وجميـع مقتنيـاتهم، للدخـول إلى أراضي الصليبيين، لكن المسلمين في تلك المناطق انقضـوا عليهم، وهاجموهم، ووضعـوا بعضهم طعمة للسيف من دون رحمة، واعتقلوا آخـرين، وعهدوا بهم إلى أسر لا أمل فيـه، وعـرضـوا الصليبيين من الجنسين حتى الـراهبـات للبيع إلى المسلمين الآخـرين، وتمكن بعضهـم —على كل حـال— من النجـاة بالنزول إلى سهل الـرملة، ووقتهـا انقض الخوارزميـة عليهم، واقترفـوا مـذبحة هائلة بينهم، إلى حـد أن الذين نجوا من ذلك الحشـد الكبير، لم يتجاوز عددهم الثلاثمائة، وكـان هؤلاء بلا حياة تقريباً، ثم دخل أولئك المتوحشون التعسـاء المتقدم ذكرهم إلى مدينة القـدس، وكانت الآن شبه خـالية من الناس، وقتلوا جميع الصليبيين الـذين بقيوا هناك، حتى أمـام ضريح ربنا نفسـه، وفي الكنيسـة التي هربوا إليهـا للالتجـاء، لابل حتى أنهم قطعـوا رؤوس الكهنة الذين كانـوا يؤدون القداسـات عند المذبح، وكـانوا يرددون بين أنفسهم: «دعـونا هنـا نصب دمـاء هؤلاء الناس الصليبيين، وذلك حيث شربوا الخمرة تشريفـاً لربهم، الذي يقولون بأنه علق هنا على الصليب»، وبالاضـافـة إلى هذا نحن نخبركم بما هو أكثـر إيلاماً وحزناً، حيث أنهم وضعـوا أيديهم الملوثة، على ضريح قيامة ربنا، ولوثوه بطرق كثيرة، ولقـد انتـزعـوا تقـريبـاً ألواح الرخـام التي كـانت

موضوعة من حوله، ولطخوا بكل وسيلة من الإهانات كانت بإمكانهم، جبل [أكـرا] الجمجمـة، حيث جـرى صلب المسيـح، والذي فعلوه بالمدينة، هو مـا لستُ بقـادر على التعبير عنه، وانتزعـوا أعمـدة الضريح المقـدس، التي وضعت أمام ضريح ربنا بمثـابة زينة، وتحدياً للمسيحيين أرسلوهم إلى ضريح محمـد (صلى الله عليـه وسلم) بمثابـة علامـة على النصر، ولكي يزيدوا من إهـانة الصليبيين خـرقـوا حـرمـة قبـور الملوك السعداء [للصليبيين] التي كـانت موضوعـة في الكنيسة نفسها، وفـرقوا عظامهم وبعثـروها في كل اتجاه، وبالنسبـة لجبل صهيـون المبجل، فقـد خـرقوا حـرمتـه، ولطخوا بأشيـاء غير معقولـة، وغير مناسبة لذكـرها، هيكل الرب، وكنيسـة وادي شعفـاط، حيـث يوجـد ضريح العـذراء المبـاركـة، وفعلوا مثل ذلك بكنيسـة بيت لحم، ومـوضع ولادة ربنا، وبذلك فاقوا بشرورهم جميع المسلمين الآخرين، الذين مع أنهم غالباً ما هاجموا الأراضي الصليبيـة، دوماً أبدوا بعض الاحترام إلى هذه الأمـاكن المقـدسة، هذا ولم يكـن هؤلاء الخوارزمية المذكـورين قـانعين بكل هذا، وكـانـوا يستهـدفـون الاستيـلاء على جميع المنطقـة التـابعـة للصليبيين وتدميرها كليـاً، وقـد استثير الصليبيـون بسبب هذه التجـاوزات والأضرار، وباتوا غير قـادرين على تحمل مثل هذه الشرور مـدة أطول، التي هي شرور كـافيـة، لإثارة كل حـزن وأسى في قلب كل تابع غيـور للإيمان الكاثوليكي، لذلك قرروا بموافقة عامة، العمل على توحيد قوى السلطانين المتقدمـي الذكر مع قوات الصليبيين، وبناء عليـه، بدأ الجيش الصليبي في اليوم الرابع من تشرين أول بالزحف ضدهم من ميناء عكا، وسار خلال قيسارية والمناطق الساحلية الأخرى.

وعلم الخوارزميـة وقتهـا باقترابنا، ولذلك تراجعـوا خـلال مناطق متعددة، ونصبوا معسكرهم أخيراً أمـام عكا، وانتظروا هناك النجدات، التي كـان سلطان مصر —الذي هو رأس ومقـدم الدنس— على وشك

إرسالها إليهم، وعندما التحق بهم حشد كبير أرسله السلطان المذكور، وصل إليهم الجيش الصليبي مع السلطانين المتقدمي الذكر، وكان ذلك عشية عيد القديس لوقا، فيومها وجدناهم أمام غزة مع حشد لايحصى، وكانت فرقهم معبأة للقتال، وبناء عليه جرى ترتيب جيشنا من قبل المقدمين وفق النظام الموائم لمهاجمة الأعداء وقتالهم، ثم قام البطاركة والأساقفة الآخرين بتحليلهم من ذنوبهم بموجب سلطان الرب القدير، والكرسي الرسولي، وأعطى الجميع شارات، وأظهروا علامات على ندم مخلص بوساطة تدفق الدموع، فهم عدّوا موت الجسد أمراً لاقيمة له، وكانوا يأملون بنيل الجزاء الأبدي، واعتقدوا جميعاً أن تموت من أجل المسيح هو أن تعيش، لأنه لابد من حدوث مصيبة جسدية لنا بسبب ذنوبنا، يتوجب أن نعتقد أن الذي هو في عليين، الذي يبحث في القلوب، ويعرف جميع الأسرار، سوف يكون مسروراً بالحصول على الأرواح بدلاً من نيل الأجساد.

ثم إننا اشتبكنا بعد ذلك مع العدو، ووقتها لحقت الغلبة بالمسلمين الذين كانوا معنا من قبل العدو، وهربوا جميعاً، وكانت أعداد منهم قد قتلت أو وقعت بالأسر، وهكذا تُرك الصليبيون لوحدهم في ميدان المعركة، ومع أن الخوارزمية والمصريين انقضوا عليهم مع بعضهم، صمد الصليبيون بحكم كونهم أبطال الرب، والمدافعين عن الإيمان الكاثوليكي، والذين جعل منهم الإيمان نفسه والآلام، إخواناً، وأظهروا مقاومة شجاعة لهم، ولكن أخيراً، بما أنهم كانوا قليلاً جداً، بالمقارنة مع أعدائهم، تحول تيار المعركة ضدهم، وانصاعوا —وأنا أكتبُ ذلك بأسف— أمام النصر الذي ناله أعداؤهم، والذين نجوا من بين جميع فرسان الداوية، ومن فرسان اسبتارية القديس يوحنا، ومن فرسان التيوتون للقديسة مريم: فقط ثلاثة وثلاثين من الداوية، وستة وعشرين من الاسبتارية، وثلاثة فقط من رهبان فرسان التيوتون، هؤلاء فقط

الذين نجوا، أما البقية فهم إما قد قتلوا، أو جعلوا أسرى، وذلك بالاضافة إلى مذبحة هائلة ألمت برماة القسي العقارة، وكذلك بالنسبة للجنود الرجالة.

وفيما يتعلق برئيس أساقفة صور، وأسقف اللد، وراعي دير القديسة مريم في شعفاط، ومقدم الداوية، ومدير التيوتون للقديسة مريم، وعدد آخر من الرهبان والكهنة، بما أنهم لم يظهروا بيننا، نحن في شكوك عظيمة حولهم، لاندري أسقطوا في المعركة، أم أنهم مازالوا قيد الأسر، فنحن غير قادرين على تأكيد الحقيقة حولهم، أما مقدم الاسبتارية، والكونت وولتر دي بريين، فقد حملا مع عدد كبير آخر أسرى إلى القاهرة، وأما بالنسبة لي أنا البطريرك، الذي بسبب ذنوبي، وقعت جميع هذه المصائب، فقد عُددت من قبل الرب، أنني غير جدير بالشهادة، ولذلك نجوتُ، وأنا نصف ميت، وتمكنتُ من اللجوء إلى عسقلان، مع النبلاء، وقسطلان عكا فيليب دي مونتفورت، والفرسان، والعساكر الرجالة، الذين نجوا من المعركة، ومع أنه ليس هناك راحة بين مثل هذا العدد الكبير من المصائب، والخسائر التي ألمت بنا، ذلك أننا خسرنا كل شيء في المعركة المتقدمة الذكر، مع ذلك إن الذي كان بإمكاننا فعله في حالة الطوارىء الحالية فعلناه، فقد قمنا بارسال رسائل ورسلاً إلى الملك المشهور لقبرص، وإلى أمير أنطاكية، ورجوناهما بحرارة وحثثناهما في حالة الضرورة الملحة هذه، أن يرسلا فرساناً وعساكر من أجل حماية الأرض المقدسة، لكننا لانعرف بعد ماالذي عازمان على فعله في هذه القضية.

ثم إننا عدنا إلى عكا، واتخذنا مقامنا في تلك المدينة، التي وجدناها، وكذلك وجدنا جميع المنطقة على طول الساحل، مليئة بالحزن، والنحيب، وبمختلف أنواع التعاسات التي لانهاية لها، ولم يكن هناك بيت أو روح حية لم تكن تبكي واحداً من الموتى قريب لها، ومع أن

الحزن من أجل الماضي كان كبيراً وقاسياً، إن الخوف من المستقبل قد استولى على الجميع، لأن جميع المنطقة التي تم نيلها بسيوف الصليبيين، هي الآن خالية من جميع بني البشر، ومن جميع المساعدات الأرضية، والحماية، وقوة المدافعين قد نزلت إلى لاشيء، ودمرت، لأن هناك فقط عدد قليل من الأحياء، ومع أن هؤلاء قد انحدروا إلى حافة الموت، ما من شيء كما يبدو قد بقي، بل يتوجب أن يسقط كل المتبقي في أيدي أعداء الصليب، وفق رغباتهم، ذلك أنهم تقدموا إلى درجة عالية من الصلف والوقاحة، حتى أنهم زحفوا فنصبوا مخيمهم، الذي امتد فوق مساحة ميلين في السهل القريب من مدينة عكا، ثم إنهم الآن يركضون بشكل وحشي، وهم أحرار، حيث ليس هناك من يعترضهم أو يتصدى لهم، في جميع المنطقة بالطول والعرض، وذلك حتى منطقتي الناصرة وصفد، وهم قد استحوذوا على المنطقة، وشرعوا يتقاسمونها فيما بينهم، وكأنها كانت منطقتهم، وقد عيّنوا رسلاً ووكلاء في جميع قرى وبلدات الصليبيين، ويتسلمون الموارد والجزية من رجال المقاطعات ومن بقية السكان، وهو ما كانوا من قبل يدفعونه إلى الصليبيين، وقد أصبح رجال المقاطعات هؤلاء الآن أعداء للصليبيين وعصاة ضدهم، ومرتبطين متحالفين مع الخوارزمية.

وهكذا فإن جميع كنائس القدس، وكذلك جميع الأراضي الصليبية، ليس لديها الآن أراضي تتجاوز بعض الأماكن الحصينة القليلة، التي يجدون مصاعب جمة ومتاعب كبيرة في الدفاع عنها، ولقد قيل أيضاً بأن المصريين الذين هم الآن عند غزة سوف يقدمون قريباً بأعداد كبيرة جداً إلى عكا، للاتحاد مع الخوارزمية في حصار المدينة، وتلقينا أيضاً في الثاني والعشرين من تشرين الثاني رسائل مع رسل من القسطلان مع الاسبتارية الذين يشكلون الحامية في قلعة عسقلان، يعلنون لنا بأن الجيش الاسلامي القادم من مصر قد ألقى الحصار على تلك القلعة،

وأن المسلمين قد طوقوها، ولقد التمسوا منا أن نرسل إليهم مساعدات سريعة ومؤناً، وأن يكون ذلك منا ومن الجماعة الصليبية.

وفي سبيل أن تثيرك تقواك للاشفاق على دمار الأرض المقدسة، لأن هذا العبء يقع على أكتاف الجميع بشكل عام، رأينا من الصواب إخباركم عن أوضاع قضية المسيح، وبتواضع نرجوكم وبالصلوات والتقوى الخالصة نلتمس منكم، أن تطلبوا الرحمة من العلي الأعلى لصالح تلك الأرض، في سبيل أن الذي كرّس تلك الأرض بدمه، في سبيل خلاص جميع الناس، أن يتطلع إلى تلك الأرض برحمته، وأن يمدّ يده لمساعدتها وحمايتها، وقدم أيضاً أيها الأب الأعظم محبة، ما تمتلك من نصيحة ومساعدة في هذه القضية، حتى تحصل من ذلك لنفسك على المكافأة في السماء، وبالنسبة إليكم يمكنكم أن تكونوا متأكدين تماماً، أنه ما لم تقدم مساعدة إلى الأرض المقدسة في العبور المقبل لشهر آذار، من يد العلي الأعلى، وبوساطة نجدات من القوات الصليبية، إن الدمار والتخريب المحيق بها الآن، لايمكن النجاة منه، وبما أننا نحتاج إلى وقت طويل حتى نبين الضروريات الأخرى التي نحتاجها، وأوضاع الأرض المقدسة بشكل عام في رسالة، أرسلنا إليكم الأب المبجل أسقف بيروت، وآرنولف Arnulph, وهو راهب من طائفة رهبان الدومينيكان، وهما سوف يحكيا إلى جماعتكم الحقيقة كلها كاملة وبصدق، ونحن بتواضع نرجوكم جميعاً الإصغاء إلى الرسولين المتقدم ذكرهما، وأن تعاملاهما بكرم، لأنهما عرضا نفسيهما لمخاطر عظيمة، لصالح كنيسة الرب، بقيامهما برحلتهما في الشتاء. صدر في عكا في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني، من عام ألف ومائتين وأربع وأربعين لتجسيد ربنا».

ووضع على النسخة الأصلية من هذه الرسالة البليغة اثني عشر ختماً.

تأثير الرسالة المتقدمة

وعُـهد بحمل هـذه الرسـالة الحزينة والمبكيـة، التي بعث بها آنذاك أساقفة الأرض المقدسـة ونبلائها، الذين لم يكن بإمكانهم تحمل توقعات الشتـاء المقبل، وتهديدات البحر المضطرب والهائج، عهـد بها إلى وولران Waleran, أسقف بيروت، والراهب آرنولـف الذي هو من طائفـة الدومينيكان، ليحمـلاها بكل سرعـة ممكنة إلى الذين هم على طرفنا من الماء، وليرياها بشكل خـاص إلى ملكي فـرنسا وانكلترا، وقـام الأسقف المتقـدم الذكر مع الـراهب، نظراً لتوفـر الحاجـة القصوى، فتحمـلا، في سبيل غفـران ذنوبهما، القيام بنقل هذه الـرسالة، لصـالح المسيح، وذلك بناء على طلب الأسـاقفة، ولم يهتما بجميع المخـاطر الشخصية، فقـاما في اليوم الأول من ميلاد ربنا بجـرأة بالاقلاع، لكن مع التواضع المطلوب، وكانا يستهدفان استنهاض قلوب المسيحيين، وإعداد طرق الولد الوحيد للرب، الذين تحت وقـايتـه سـوف يستحقـون الخلاص مـن المخـاطرة المحيقـة بهم، ونتيجـة لذنوبهم، لقـد مكثـوا في البحـر لمدة ستـة أشهـر، تعرضوا خلالها لخطر الموت من كل نوع وفي كل سبيل، وكما سمعنا من الأسقف المحترم نفسه، لقد عانى من عـدد كبير جداً من المخاطر، حتى أنه أمر مبكي الإصغاء إلى رواية حولهم، كما أنه متعب روايتهم، وأخيراً —على كل حال— وصـلا بتوجيه من الرب، وبمسـاعدة صلوات جميع الأسـاقفة الـذين تقدم ذكـرهم، الذين كـانوا قـد أوكلوا أنفسهـم إليهما، وصلا إلى ميناء البندقية، وكان ذلك في حوالي عيد صعود ربنا.

بعض الإنذارات المسبقة حول الحساب المستقبلي

إنه لمن المعلوم بشكل جيد أن تهديد الرب، لم يكن نافذاً من قبل مثله الآن حول مدينة القـدس المقدسة، وذلك حين قال: «مـا من حجرة من أحجارك سـوف تبقى فوق أخرى» إلخ، إلخ، ومن المتـوجب أن نعرف أنه قبل عدة سنوات مضت سقط تمثال محمد (صلى الله عليه وسلم) في مكة (كـذا)، وفي سبيل إنزال أعظم انتقـام لهذا الحدث، ومن أجل إيذاء

المسيح، والمسيحيين الذين فرحوا لسقوط هذا التمثال، إزداد الآن غضب هؤلاء الخوارزمية المذكورين، وتعاظم ضد المسيحيين وضد أماكنهم المقدسة، وقالوا بأنهم حصلوا على هذا النصر من خلال رضا الله، وبوساطة شفاعة محمد (صلى الله عليه وسلم).

ومضى صوتهم بعيداً (ومن الممكن القول «سوف يمضي بعد هذا أبعد» واضعاً الماضي من أجل المستقبل) «في جميع أنحاء العالم»، وبناء عليه انتشر تبشير الدومينيكان والفرنسيسكان، وعمّ ليصل إلى جميع أنحاء العالم، وذلك وفقاً لكلمات المخلص: «أنتم سوف تكونون شهودي في اليهودية كلها والسامرة حتى إلى » إلخ، إلخ، وكأنه كان يريد أن يقول: «عندما ترون هذه الأشياء، حكم عام محيق»، ولم تجاوب لا الأرض ولاالبحر، وفقاً لعادتيهما عموماً، على توقعات الناس، بل إن الماء وكذلك الأرض أصيبتا بضرب من ضروب الصمت والتعطيل، وكسفت الشمس مرتان في السنوات الثلاث المنصرمة، وهو حدث لم يتذكر مثيله بأنه وقع قط من قبل، وشوهدت النجوم تتساقط مؤخراً، ونبعت الطوائف نظراً لتقلبات العقيدة، ونشبت خلافات لم يعرف مثيل لها من قبل بين الكنيسة وبين الامبراطور، وسيطرت المجاعة وانتشر الطاعون في جيش الملك الفرنسي، وقبل عدة سنوات مضت لحق الدمار الكلي بمدينة بافوس Paphos وبعدة مدن أخرى تابعة للامبراطورية، وبجزر البحر المتوسط، بوساطة زلازل.

مواظبة البابا العمل على مصالحة أسقف وينكستر مع الملك

وأثناء تقلب العالم هكذا مع أمواج الهموم، وبينما كانت سورية مهزوره بعواصف الحوادث الأخيرة، كانت انكلترا مستثارة من دون توقف بالهموم والقلق، لأن الملك كان قد تلقى دونما مبالاة طلبات متوالية وملحة، ومذكرات من البابا لصالح أسقف وينكستر، الذي مازال منفياً في فرنسا، معتمداً على نصائح كهنة بلاطه، الذين كان همّهم

الوحيد الحصول على المرابح، ولذلك أثاروا اتهامات جادة ضد الأسقف المذكور، وقام البابا —على كل حال— الذي قيل بأن الأسقف قد دفع له ثمانية آلاف مارك، صدوراً عن عاطفته تجاه الأسقف المذكور، وكذلك بسبب مبلغ المال الذي دفع له، بالاستمرار بالاهتمام بالموضوع بنفسه، وكتب إلى ملك انكلترا لصالحه كما يلي:

رسالة البابا إلى ملك إنكلترا لصالح أسقف وينكستر

«من انوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب في المسيح، ملك انكلترا، صحة ومباركات رسولية:

بعدما رفع فضل الرب، شخصنا المتواضع إلى المنصب الرفيع للكرسي الرسولي، شعرنا بكثير من الثقة بسموكم، حتى تصورنا أنكم سوف تظهرون أنفسكم مندفعين ويقظين نحو القضايا التي هي مرتبطة بكرامة الكنيسة ورفعتها، وبما أننا كنا قد وافقنا، بناء على نصيحة إخواننا، على انتخاب أخينا المحترم، الذي كان من قبل أسقف نورويك، ليكون أسقفاً لكنيسة وينكستر، أرسلنا التماساً خاصاً إليكم، أن تظهروا أنفسكم بمشاعر طيبة، ولطف في تصرفاتكم نحوه، وذلك صدوراً عن احترامكم للذات اللاهوتية، والاحترام لنا شخصياً، وأن تقوموا بسرعة وبلطف فتعينوا له القلاع والعزب العائدة إلى تلك الكنيسة، ولقد سمعنا، ماأدهشنا وأحزننا، هو أنكم ليس فقط لم تسمحوا بتنفيذ طلبنا، لابل ماهو إثم أعظم، أنكم انفجرتم وتفوهتم بكلام فارغ من كل لطف، ومن الاحترام الأبوي، معلناً أنه لايمكن السماح لأي انتخاب في مملكة انكلترا، أو يمكن أن يكون من قبل الكرسي الرسولي، ضد رغبتكم، أي مثلما نحن نمتلك سلطة في القضايا الروحية، تمتلكون أنتم سلطة في المسائل المدنية، وأنه لايمكن لأي واحد جرى انتخابه الاستحواذ على الممتلكات الدنيوية من دون موافقتكم، وعلاوة على ذلك أضفت بأنك تعد؟ نقل الأسقف المذكور غير فعال،

لأنه تمّ الحصول عليه مننا بالزيف، وبوسائل خفية غير مستقيمة، وهذه الإجراءات ياولدنا المحبوب لاتعزز كرامة الرب، ولا كرامة الكنيسة، أو كرامتكم أنفسكم، وليس لهم طعم العدل، ومذاقهم ليس مذاق الانصاف، لاسيما وأن الاعتقاد التقوي لجميع المسيحيين، أنه بموجب الحكمة الربانية، يتمتع الكرسي الرسولي بسلطة كاملة، وسلطاته نافذة في جميع قضايا الكنيسة، وأن هذه السلطات ليست ملزمة بالخضوع إلى قرار الأمراء، أو طلب الحصول على موافقتهم في مسائل الانتخابات والاعتراضات، ففي هذه المسائل يقوم الكرسي الرسولي بإجراءاته بشكل مدروس وحكيم، حتى لاتتعرض الكرامة إلى المعاناة من أي انحراف، وما من شيء يمكن أن يحدث وفيه إيذاء للعدل، وهكذا أيضاً كانت إجراءات الكرسي الرسولي في نقل الأسقف المذكور، وبالتقدم به، رفعت رجلاً متميزاً تماماً في علمه، وفي أخلاقه، وفي استقامته، وفي حكمته، في الشؤون الروحية والدنيوية سواء، وهو رجل كان من قبل محبوباً من قبلكم، ومحبوباً جداً لديكم، وهو رجل قد سعى بكل قواه لتلبية رغباتكم، وذلك بقدر مايسمح له واجبه نحو الرب، وهو رجل حاول أن يجعلكم تكسبون المزيد من الكرامة والمنافع.

وبناء عليه لاتسمحوا لأنفسكم أن تفرض عليها النصائح الماكرة للمستشارين الخادعين، الذين يسعون لإلحاق الأذى بالناس ذوي الفضائل، في سبيل أشخاص لامبالين، همّهم فقط الحصول على منافع خاصة لأنفسهم، ولتلبية رغباتهم الذاتية، وبناء عليه نحث جلالتكم بكل العواطف الممكنة، ونلتمس منكم باسم مولانا يسوع المسيح، ابعاد آذانكم عن الاصغاء إلى الاقتراحات غير التقية لمثل هؤلاء الناس، وأن تتابعوا باستمرار استهداف رفعة كرامة كنيسة الرب، وامتيازات الحرية الممنوحة لها من عليين، مع السعي للحفاظ على هذه الامتيازات غير مخروقة.

والآن اسمح للأساقفة في مملكتك، ودعهم من الآن فصاعداً، يأخذون بحرية وبسلام الممتلكات مهما كان نوعها، التي هي عائدة إلى كنائسهم، في كل من المسائل الروحية والدنيوية، وبالاضافة إلى هذا تمعن بعمق وتفكر حول حقائق أننا بممارستنا لواجبات منصبنا الرسولي، نحن خاضعين لشرف الاسم اللاهوتي، ولذلك ينبغي أن لايرد بخاطرك، ولا تنزعج من تطبيق أي من الإجراءات التي قمنا باتخاذها، بعد بحث وتداول خاص، بشأن قضية الأسقف المتقدم الذكر، وبما أننا قررنا في قرارة أنفسنا، أن ننظر إليك بنظرة خاصة، فوق جميع أمراء الأرض الآخرين، إنك بالضرورة سوف تتصرف نحوه بشكل مشرف، وعليك أن تضع جانباً جميع المصاعب، وأن تتخلى له بإرادة طيبة وتمنحه جميع القلاع والعزب والانتاج الذي جاء منهم منذ تاريخ نقله، في سبيل أن يتمكن، تحت حظوتك الخاصة، من القيام بواجب العناية بالمنصب الذي أسند إليه، وأن تكون المحصلة من ذلك نتائج طيبة، وغير هذا، بما أننا لانختار انقاص امتيازات الكنيسة في أيامنا، بل نرغب بوجوب زيادتها، إننا لن نستطيع هكذا ظلماً تحمل أية أذية تمارس بحق الأسقف المذكور. صدر في اللاتيران، في هذا اليوم السابع والعشرين من شباط، في السنة الأولى من بابويتنا».

كيف كتب البابا أيضاً إلى ملكة انكلترا وإلى بعض الأساقفة لصالح أسقف وينكستر

وكتب البابا رسالة بليغة، وفق اللهجة نفسها لصالح أسقف وينكستر، إلى ملكة انكلترا، وقد أعلن في بدايتها، بأنها —أي الملكة— كانت من أقربائه، أما كيف كان ذلك، فنحن لاندري على أي أساس، ما لم يكن قد أراد أن يجعلها متماشية أكثر مع أعماله، وأكثر تعاطفاً مع طلباته، ثم إنه طلب منها، وحثها (عالماً بأن المرأة حملت هذا الاسم لأنها تخفض غضب الرجل وتقلل من شروره) على السعي في سبيل تلطيف

حدة غضب الملك زوجها، الذي يشعر به ضد أسقف وينكستر.

كما أنه كتب إلى رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، وإلى أسقفي ووركستر، وهيرفورد، وحثهم على الاهتمام شخصياً بكل يقظة بهذه القضية المذكورة، آمراً إياهم في نهاية رسالته أن يرسلوا إليه في رسائلهم الجوابية أسماء المستشارين السيئين الذين تولوا حرف عقل الملك.

رسالة أسقف وينكستر إلى الملك

«**إلى الأعظم سمواً، إلخ، إلخ:** بما أن رغبتنا —بقدر ماهي متوافقة مع احترامنا للرب— بذل جهودنا القصوى لتثمير رغباتكم الصالحة، استقبلنا بكل احترام لائق الراهب هوغ التابع لدير القديس تودور Tudor, الذي أرسل إلينا من قبل جلالتكم، وبعدما عرض علينا بعض الأسئلة باسمكم، أجبنا عليهم واحداً واحداً، متبعين —كما نعتقد— طريق العدل والانصاف، وذلك حسبما سيخبر الراهب هوغ المتقدم الذكر (كما سمعنا منه) جلالتكم بشكل كامل في رسائله، وبما أننا نود من صميم قلبنا أن ننفذ —بقدر مانستطيع مع الاحترام اللائق للرب— رغباتكم بشأن القضايا المذكورة، نرجوكم بكل تواضع، في تقديركم واحترامكم للكرسي الرسولي، أن ترحموا آلام كنيسة وينكستر، وأن تتقبلوني بحظوتكم ونعمتكم، وباحترام للاسم اللاهوتي، أن تستخدموا الرحمة لإلغاء الغضب الذي ربما شعرت به ضدنا، بناء على إثارة بعض النمامين،

اعتراضات الملك على أسقف وينكستر

وطالما تمت الاشارة إلى النقاط التي من أجلها أراد الملك مقاضاة أسقف وينكستر، ينبغي أن يكون معلوماً كيف وبأية حجج أجاب عليهم، ففي المقام الأول: بما أنه تم الحصول قديماً على مرسوم من أجل مايتعلق بامتيازات الملك، وكذلك مايتعلق بحق المملكة وعادتها، أي أن

الذين جرت تسميتهم وانتخابهم، عليهم بعد تسميتهم وانتخابهم من قبل الذين سموهم وانتخبوهم، أن يجري تقديمهم إلى الملك، وعليهم بعد تثبيتهم، وقبل قبولهم للإدارة في الشؤون الروحية أو الدنيوية، تأدية قسم بالولاء إليه، وهذه قضايا قد حذفت من قبل شخصية الأسقف المذكور، وقد حاول الملك وسعى للحصول على مرسوم من البابا، الذي لم يعبأ بأن ماتقدم، أي من أجل المستقبل وفي حالة قضايا مشابهة، يتوجب بقاء هذه الامتيازات، والحقوق، والعادات، نافذة، ويتوجب أيضاً تأكيدها من قبله، أي من قبل البابا.

ثانياً: يتوجب على الأسقف المذكور تحليل مدينة و ينكستر من قرار الحرمان من شراكة المؤمنين الذي أعلن ضدها.

ثالثاً: إنه لدى تسلمه ضمانة، أن يقوم بتحليل رجال الدين والعلمانيين، والآخرين، وبشكل خاص شعب وينكستر، من قرار الحرمان الكنسي، الذي أعلنه ضدهم، بسبب الخلاف الذي نشب بين الملك وبينه شخصياً.

رابعاً: إن عليه عدم خلع رئيس رهبان وينكستر، الذي وضعه الملك هناك، بل عليه إبقاءه في حظوته.

خامساً: عليه التصديق على جميع المنافع اللاهوتية في التماس عرضه، التي هي موجودة في أسقفية وينكستر، أو في أي مكان آخر، التي جرى منحها من قبل الملك منذ بداية الخلاف، وأن يسمح للمستحوذين عليهم التمتع بتملكهم بسلام.

سادساً: عليه عدم القيام بأية إجراءات قضائية ضد المعلم هنري دي سوسا، أو أي رجل دين آخر أو راهب جرت تسميته، بسبب هذا الخلاف، بل عليه العفو عن جميع الذنوب والأضرار، وأن يتخلى عن جميع مشاعر الغضب والحقد.

سـابعـاً: إذا توفـر أي إدعـاء أو سبب للعمل لديه، فيما يتعلق بنتـاج وينكستر، في الزمن المنصرم، عليه التخلي عنهـم له، أي للملك، صدوراً عن احترامه له، وأخذاً بمشاعر الكرم.

ثامناً: على الأسقف المذكـور التخلي عن جميع مشـاعـر الغضب ضـد الذين جرى نقلهم من قبل الملك، أو بناء على أوامـره، أو نقلوا إليه من قبل أسقفي ووركستر وهيرفـورد، ورئيـس شمامســة كـانتربري، وأن يتقبلهم برضـاه الكامل، وبذلك يبقـون محفوظين دون التعـرض إلى أي أذى، وذلك فيما يتعلق بصلاح أسمائهم، ومنافعهم، وأحوالهم.

جواب أسقف وينكستر

ورد أسقف وينكستر على بنـد المطلب الأول الذي عمله الملـك، بأن الذين تولوا تسميتـه، بعدمـا طلبـوا الإذن من الملك، قدمـوه إلى الملك، وفقاً لعـادة المملكة، وأنه عندما تمّ السماح بالتسمية، وجـرى تثبيتها من قبل البـابا، تدبر الأسقف المذكور، أمـر رسـائل البابا الموجهـة إلى الملك حـول هذه المسألة، بأن يجري تسليمهـا إليـه، بوسـاطة كل من الرهبـان الدومينيكان والفـرنسيسكـان، وكـذلك بوسـاطة بعـض رجـال الدين، والفرسان، الذين قاموا بناء على أوامره، بالتقدم بالرجاء الحار إلى الملك، حتى يسمح له —أي الأسقف المذكـور— بأن يقـدم نفسه إليه، ليقـوم بعمل الذي تتطلبـه عـادات المملكة وتأمـر به، ولكن بما أنهم لم يتمكنوا من الحصـول على هذا باستخـدام جميع وسـائل التوسل الملحـة، مـا من شيء يمكن أن يعـدّ قـد أهمل من قبله، أي من جـانب الأسقف، وليس عائداً إليه عدم تنفيذ كل شيء، ورد وتمّ طلبه في بند طلب الملك.

وعلى البندين الثاني والثالث، أجـاب الأسقف، بأنه إذا ما حصل على حظوة الملك (وهو مـايرغب به من كل قلبـه)، وأمكنه بسلام الحصـول على ممتلكات أسقفيته، هـو سيقوم صدوراً عن اللطـف بسحب قرارات

الحرمـان الكنسي، والحرمان من شراكـة المؤمنين بشكلٍ قـانوني، غير أنه لايمكنه، بحكم تبجيله للرب كما هـو لائق، واحتراماً منه للعـدالة، أن يربط نفسـه بهذا بأي رباط اتفـاقيـة، ولكن بتجاوب لطيف مع طلب الملك، لقـد نوى أن يمنح جميـع التحليـلات من الحرمـان الكنسي، التي يمكنه منحها من دون تعارض مع واجبه نحو الرب.

وبالنسبة للبنود الأربعـة التاليـة، أجاب، بما أنهم قـد أشاروا فقط إلى القضايا الروحيـة، أو إلى الأشياء المتعلقة بهم، والتـي بالتالي لاتسمح له بعمل عهد واتفاق، هو لايمكنه تنفيذ هذه البنود، وفق الطريقة المطلوبة من الملك، ومع ذلـك فإنه عندمـا سيجـري استقبـاله بـالحظوة من قبل الملك، ويحصل على تملك سلمي لممتلكات أسقفيتـه، هو سـوف يعمل، مع مسـاعـدة نصيحة الملك، ومستشـاريه المخلصين، ويتصرف بتسـامح كبير، ولسـوف يكون نفسه راغبـاً بتنفيـذ طلب الملك بقدر مـا يستطيع، وذلك بما يتوافق مع واجبه نحو الرب.

وبالنسبة للانتـاج المتقدم للأسقفية، أجـاب بأنه عندما سيحصل على حظوة الملك، وعلى تملك سلمي لأسقفيتـه، وعندما سيكون راضيـاً تجاه هذه الإجراءات، سوف يطيع رغبـة الملك، حتى ينال فضيلة التوصية به من قبله.

خديعة المعلم هنري دي سوسا

وعمل الملـك منذ ذلك الحين بلطـف أكبر نحـــو أسقف وينكستر، بسبب كل من التـوسـلات الملحـة للبـابا، ونظراً للتـذلل، وللجـواب اللطيف للأسقف، ولكن عندما ظهر السلام أنه على وشك الدخول إلى عتبـة البـــاب، بدأ المعلم هنري دي سـوسـا، الـذي كـان السبب والمثير للخلاف نفسـه، والذي إليه منح الملك منفعـة غنية، هي المسـؤولية عن مشفى الصليب المقدس، خارج مـدينة وينكستر، بدأ وقد انزعج بضمير

مـذنب، يتفكر، ويقدر في قـرارة نفسه، أنه إذا مـا أعيد تأسيس السـلام بشكل كامل ومعلن، بين الأطراف المعنيـة، سوف يعدّ الأسقف صـديقاً خاصاً للملك، هو الأول، وليس الثاني لأحد، ولسوف يجري إطراءه في مجالس الملك، على أنه رجل مستقيم، وحـذر، ولسوف يسبب لسبب مـا الإزعـاج، ويضعـه —أي هنري المذكـور— في أحـوال مضطربة، وأن الملك سـوف يرفض نصـائحه، بالسهـولة نفسهـا، كما كـان قد اتبعهـا، ولدى تقديرة لجميـع هذه المسائل، اتخذ بوساطـة المال الذي حصل عليه من الملـك، ولم يكن مبلغـاً صغيراً، بعـض الأصـدقـاء الجشعين غير المستقيمين، واشترى لنفسـه (وليتـه لم يفعل ذلك) أسقفيـة في منطقتـه الذاتية، وأصبح كـرسول لذاته، مثل الغـراب الذي خدع صـاحبه نوح، وبانحطاط ترك نائبـاً غير بارع، ليحمل العبء، الذي كـان قـد تعهـد بحمله على كتفيه، واختفى من المملكة، وهو مليء بالأشيـاء الجيدة منها، ولم يظهر نفسه ثانية فيها.

كيف هرب البابا بشكل سري

بينما كان مـدار السنة يسير هكذا متقلباً وسط التغييرات العـالمية، بدأ الامبراطور فردريك وقد أثاره محرض الكرامـة، يندم لقيامه —كما تقدم الذكر أعلاه— بإذلال نفسه وربطها بالخضوع إلى الكنيسة، ونصب الآن شركـاً لقـدمي البـابا، وخطط لخيـانة سرية، غـدت فيها بعـد مكشـوفـة واضحة بما فيـه الكفاية، وتم من جهة أخـرى انذار البابا بشكل مسبق، فحاول أن يتجنب بقدر الإمكان التعـرجات الثعلبية للامبراطور، وبقي متيقظاً ضـدهم، كما أنـه لم يضع أية ثقـة به، أو بأصـدقـائـه، لأنه كـان يعرفهم بشكل جيد، وفكر بالمستقبل مقارنة بالماضي.

ورغب البابا، في يوم الثالوث المقدس، أن يقوي حزبه، لأنه كان لديه في جهـوده عـدد قليل من الأصحاب، والمشـاركين له في قلقـه، فعيّـن عشرة كرادلة هم: المعلم جون الطليطلي، وكان رجلاً انكليزياً من حيث

المولد، وبعض الآخـرين من أسر متميـزة وأصحـاب أخلاق معـروفـة، وذهب في اليوم الثامن قبل عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، مع جميع الكرادلة إلى مدينة كـاستيلانا Castellana, ومنها إلى مكان يبعد ثمانية عشر ميـلاً عنها، من أجل أن يكون قريبـاً من الامبراطور، لتسوية قضيـة السـلام، التي غـدت الآن قضيـة مشكوكـاً بها، لابل في الحقيقـة قضية لاأمل فيها، ووصل عشية يوم الرسولين بطرس وبولص إلى مدينة سوتري Sutri, وتحرك الامبراطور ضده، وأرسل رسـالة إليه، بأنه لن يفعل شيئاً بشأن القضايا المتفق عليها، مالم يتسلم أولاً رسائل تحليل، وبما أن البـابا قد رفض فعـل هذا، وردّ بأن هذا مناقض للمنطق، نشب خـلاف بينهما، وبناء عليـه، تصـور البـابـا مسبقـاً ورأى نتـائج غضبـه، ولذلك قـرر القيـام بقـرار مفـاجىء وخفي، ومن دون أن يعـرف أحـد بخططه السرية، خشيـة أن يكتشفهـم الامبراطور، ويلقي معيقـات في طريق تراجعـه، وهناك —على كل حـال— بعض من يؤكـد بأنه فعل هذا، صـدوراً عن حبـه للهـدايا، التي كـان الناس، من هذا الجانب من الألب، على وشك إحضـارها له، لكنهم كـانوا لايتجـرأون على العبـور خـلال أراضي الامبراطور، وأنه هرب لاخـوفـاً، وإنما بقصـد مقـابلتهم واستقبـالهم في صـدره المفتوح دائماً، وليس خشيـة من أي واحـد يقـوم بمطاردته، وهو لهذا عمل حجـة أو أخـرى، ووجّـه خطاه بيقظة نحـو جنوى، التي كـانت منطقة متحالفـة معه، وذلك كما سـوف تبين الرواْية التالية:

وبناء عليه، في ذلك اليوم، أي عشيـة يوم عيد الرسولين، وصل خبر سري إلى البـابا (وهذا مـا أكده هو فيها بعـد) بأن هناك ثلاثمائـة فـارس توسكاني قادمين في تلك الليلة لاعتقاله، ولدى وصول هذه الأخبار إليه دهش، وظهرت عليـه آثار الخوف العظيم، ومع الهزيع الأول من الليل، تخلى عن مظـاهر الزينة البـابـوية، وعـاد ثانيـة ليكـون سينبـولد

ولبس درعاً خفيفاً، وامتطى فرساً سريعاً، وحمل Senebald,
حافظة نقود مليئة، وقام تقريباً دون معرفة خدمه، بشكل مفاجىء،
بعملية مغادرته، ولم يوفر جوانب حصانه، قبل الساعة الأولى من النهار،
وقد سافر لمسافة أربعة وثلاثين ميلاً، دون أن يرافقه أحد، لأنه ما من
أحد كان قادراً على اللحاق به، وارتفع في منتصف الليل صوت نادى
لقد غادر البابا، ذلك أنه ما من أحد كان على معرفة بمغادرته، إلاّ
بعضهم، وكان عدد هؤلاء قليلاً، من الكرادلة، وقد تبعه في سفره هذا
فقط بطرس أوف كابوا Capua, وكان معه خادم واحد، وقد
لحقه بمغامرة كبيرة، ووجده في اليوم نفسه في قلعة عند الساحل اسمها
سيفيتا فكشيا Civita Vecchia, وتقابل البابا في ذلك المكان مع
ثلاثة وعشرين غليوناً وست عشرة بارجة، وكان في كل واحد من
المراكب المذكورة ستين رجلاً مسلحين بشكل جيد، ومائة وأربعة
مجذفين، وذلك إلى جانب البحارة، ولهذا ذهب بعض المتشككين من
الناس إلى القول بأن البابا كان قبل وقت متوقعاً وصولهم وراغباً به،
وكانت جميع المراكب مشحونة برجال مسلحين، وكانوا تحت إمرة حاكم
جنوى، الذي يدعونه الأدميرال، ومعه أعيان أهل المدينة، الذين
تفاخروا جميعاً بأنهم ارتبطوا بقرابة ما، أو بالدم، مع البابا، وكذلك في
سبيل الحصول على مكافأة، وصعد البابا الآن في وقت متأخر من
النهار، على ظهر واحد من تلك الغلايين، وكان برفقة سبعة كرادلة،
وعدد قليل من الخدم، وأقلعوا نحو وسط البحر، وما كادوا يصبحون
في البحر المكشوف، حتى هوجموا من قبل عاصفة ثقيلة من الريح، ومع
ذلك لم تكن ضدهم، وقاموا بأشرعة مفتوحة —إنما ليس من دون
خوف، ومن دون خطر عظيم— بالابحار وقد حملتهم قوى العاصفة
مسافة مائة ميل، على المسار نفسه الذي كان الأساقفة قد أبحروا عليه،
حيث جرى اعتقالهم من قبل الامبراطور، ووصلوا يوم الجمعة التالي إلى
مرسى في جزيرة عائدة إلى البيازنة، حيث أمضوا الليل، وفي اليوم التالي،

تم تحليلهم من ذنوبهم، واستمعوا إلى قداس مريم العذراء، ذلك أنهم كانوا خائفين خوفاً عظيماً من البيازنة، ثم إنهم أقلعوا فوصلوا إلى جزيرة للجنويين، بعدما قطعوا مسافة مائة وأربعة أميال في ذلك اليوم، وقد نجوا من مخاطر البحر، مع كثير من المصاعب، وذلك نتيجة للعاصفة، وأخذوا طريقهم إلى ميناء فينوس Venus, وأقاموا هناك يومي الأحد والاثنين، وفي يوم الأربعاء، وصلوا وهم مسرورين، إلى جنوى، وصار البابا على مسافة سفر خمسة عشر يوماً عن المدينة، وفي هذه المدينة التي كان قد ولد فيها، استقبل من قبل أبناء بلدته، وآله وأقربائه، والأجراس تقرع، مع الأغاني وعزف الآلات الموسيقية، وهي جميعاً تصرخ بصوت مرتفع «مبارك الذي جاء باسم الرب»، وعليه ردوا ثانية: «روحنا مثل عصفور نجا من المتاعب» إلخ، إلخ، إلخ.

غضب الإمبراطور من فرار البابا

وعندما أصبحت حقيقة فرار البابا معروفة لدى الامبراطور، عضّ على أسنانه مثل ساطير (إله اسطوري) وقال: «لقد كتب: يهرب الشرير عندما لايطارده أحداً»، واستولت عليه الدهشة والحزن، واتهم حراس الموانيء والسكان بالإهمال والكسل، لأنهم سمحوا لعدوه بالنجاة هكذا بسهولة من بينهم، ثم إنه أمر بإقامة حراسة دقيقة ومشددة على جميع الطرق من حول جنوى، خاصة نحو فرنسا، في سبيل عدم حمل أية أموال إلى البابا، وأعلن الامبراطور الآن عن نفسه عدواً مكشوفاً للبابا، وقام البابا أيضاً بدوره الآن بعدم عدّ جنوى ملجأ أميناً لنفسه، لأنه كان عارفاً تماماً بقوة الامبراطور، ومتذكراً كلمات الشاعر:

ألا تعلم بأن أيدي الملوك

قادرة على الوصول إلى كل شيء؟

الإمبراطور يربح صداقة عدد من الأمراء والنبلاء

وفي حوالي الوقت نفسه، بينما كان البابا مقيماً في جنوى، تآمر الميلانيون والليغوريون وكذلك بعض الايطاليين والرومان، وكثير من نبلاء ألمانيا، مع بعضهم، بناء على تحريض من البابا، وواحد من أعظم المقدمين قوة في بلاد ألمانيا، الذين يطلقون عليه اسم «اللاندغريف»، الذي تشجع ليدعي لنفسه المقام الامبراطوري، حتى يجري انتخابه بشكل نظامي، وقد اعتمدوا على المساعدات الكثيرة من الأساقفة والنبلاء، لشن الحرب ضد الطاغية فردريك، بحكم أنه المضطهد العام والمعلن للكنيسة، وقد أظلم اسمه إلى درجة عالية وتمّ التأكيد بأنه لا يسير بخطا ثابتة في شريعة الرب، ولأنه كان متحالفاً مع المسلمين، فهو يحتفظ بعاهرات وخليلات مسلمات، ويفعل أشياء أخرى غير لائقة، وكثيرة جداً حتى يمكن ذكرها.

غير أنه عندما كان اللاندغريف المذكور على وشك القيام بمحاولته، وكان يتداول مع أتباعه من النبلاء وأصحابه، الذين اجتمعوا لهذه الغاية، ويتذاكرون حول الذي ينبغي أن يعملوه، أخبره أصدقاؤه أنه من الطيش محاولة فعل ذلك، وأن يعهد بنفسه إلى تقلبات الحظ، في الوقت الذي ينعم فيه بالهدوء والسلام، مع عدم الاعتماد على أي شيء وعده به حزب البابا، وبينما كانت آراؤهم معلقة هكذا في ميزان الشكوك، قام الامبراطور برحلة سريعة،وظهر فجأة فيما بينهم، مع عدد قليل من الأتباع، الذين عرفوا بهذه الوقائع، وتمكن بمناقشاته من تحويل عقل اللاندغريف المخنث المذكور، عن نواياه، وقبل أن يفترقا، أصبح هو واللاندغريف أصدقاء حميمين ومتحالفين، وقاما بتبادل الهدايا، وبعد الفراغ من هذه القضية غادر الامبراطور سراً وبشكل مفاجىء مثلما جاء.

وأثناء وقوع هذه الأشياء، قام الامبراطور في سبيل تقوية حزبه، الذي اعتقد أعداؤه أنه قد ضعف كثيراً في هذه الآونة، فأعطى ابنته بالزواج إلى واحد من أعظم مقدمي الاغريق قوة، وكان اسمه بتّاكيوس

Battacius, وكان انساناً مكروهـاً من الكنيسة وغير مطيع لها، ومنشقاً عنهـا، ولدى سماع أعـداء الامبراطور بهذا حـاروا واضطربوا ولم يعـودوا يعرفون مايقولون.

عصيان الويلزيين وخيانتهم الدنيئة

وفي حـوالي هذا الوقـت من السنة، قـام الويلـزيون الأجـلاف، وهم لايعـرفـون كيف، لأنهم كـانوا غير راغبين باخضـاع رقـابهم للشرائع غير المعـروفـة لمملكة انكلترا، قـامـوا فعينـوا داود بن للويلين وبعض الأمـراء الآخرين لويلز، قـادة لهم، وشنوا حرباً هي الأكثر دمـوية ضد ملك انكلترا وأعوانه، ناسين صكوك تعهداتهم، وأيمانهم، وجرت مقاومتهم —على كل حـال— بشجـاعـة، بناء على أوامـر الملك، من قبـل ايرل كلير، وايرل هيرفـورد، وتومـاس أوف مـونماوث Monmouth,وروجـــر دي ميكوت Michaut مع بعض القـادة الأقـوياء الآخـرين والمشهـورين، وذلك في سبيـل الحفـاظ على أراضيهم، مـع أنهم نالوا أثناء بـداية الصراع الحظ الأسـوأ من القتـال، لكن أخيراً، كما هـي الحالة المعتـادة للحـرب، حصلوا على نصر على أعدائهم، وسقط في هذه المعركـة مائة رجل أو أكثر، من على الجانبين.

وصول شائعات متنوعة إلى الملك وهو في سينت ألبان

كـان الملك أيام عيـد القـديس برنابا في سينت ألبـان، حيث مكث مـدة ثلاثة أيام، وأثناء وجـوده هناك، وصلـت شـائعـات عن صلف الويلزيين، وصارت متوالية إلى بعض المعـايير، وقد وصل إليه بعض الرسل مع بعض الأخبـار التي أزعجته كثيراً وأحـزنتـه، وقالـت هذه الأخبار بأن انتخـاب كـاهنـه روبرت باسلو Passlow, الذي جـرى انتخـابه إلى أسقفيـــة شيستر، قـد ألغي، وأن شخصـاً آخر، اسمـه رتشـارد دي ويك Wiche, قد جرى بشكل مفاجىء تعيينه في محله، لأن المعلم مارتن، الذي كان كاهناً

بارزاً لدى البابا، قد كـان هناك ليلقي بأصابعه الناشلة على الموارد من أجل استخدامات البـابا ومنافعه، وبالإضافة إلى التقارير المتقـدمة، سمع تقارير أخرى، ذكرت بـأن ملك سكوتلندا قد أرسل إليه بوقاحـة رسالة بأنه ليس متملكـاً لأي شيء من مملكـة سكـوتلندا منـه، أي مـن ملك انكلترا، وأنـه ينبغي ألا يفعل ذلك، ولن يفعله، وقد تناقصت صداقة هذين الملكين كثيراً جداً، منذ أن أقام ملك سكوتلندا تحالفـاً زواجياً مع ابنة انغلرام دي كوسي Engelram De Coucy, الذي كـان مثل جميع الفرنسيين، مشهـوراً بأنه واحداً مـن مقدمي —إن لم يكن مقدم— أعـداء ملك انكلترا، ولذلك قرر ملك انكلترا وعزم على الانتقام للأضرار التي ألحقت به، فقام بتشجيع الذين كانوا يتـولون الحرب ضد الويلزيين، ومساعدتهم، ووعـدهم بمزيد من المسـاعـدة الفعـالة، بالعسـاكر والمال، وبعـدمـا رتب الأعمال المتعلقـة بشـؤون الأحوال في سكوتلندا، استـولى على أسقفية شيستر ووضعهـا بين يديه، ولم يسمح للأسقف المنتخب حـديثاً بممارسة أيـة سلطة، كما أنه شعر بغضب شـديد ضد الذين تسببـوا بحدوث هذه القضيـة، ووافقوا عليهـا، وكـان غضبه هو الأشـد ضد رئيـس الأساقفـة المنتخب لكانتربري، الذي اتهمه بكل مرارة بالعقـوق، وأنه كان متآمراً بشكل خيـاني منذ بداية ترقيته، ولكي لايبدو متراخياً في جوابه على رسـالة ملك سكوتلندا، وعلى وقاحته، بعث برسـالة مكتومة إلى كـونت فلاندرز (بحكـم كونه حليفاً مخلصـاً له، ومرتبطاً به بكثير من الواجبات) ليقدم إليه مع قوة من الجند، لمساعدته ضد ملك سكوتلندا، وهو طلب استجاب له الكونت على الفور.

استدعاء أسقف وينكستر وتصالحه مع ملك إنكلترا

وعقد الملك في الوقت نفسـه مجلساً استشارياً حكيماً، فـاستدعى أسقف وينكستر بطريقة تصالحيـة، وجاء الاستدعاء له من القـارة، بناء على مبادرة من البابا ومن بعض نبـلائه الخاصين، الذين التمسوا باخـلاص رضاه عن الأسقف، وقـد وعده برضـاه، وأن يعيـد إليه الممتلكات التي أخـذت منه،

وعندها قام الأسقف وفق تصرف لائـق متوقع منه، فحصل على إذن الملك الفـرنسي، وقدم الشكر إليـه على المنافع التي أضفيت عليـه من قبل الملك، لإستقباله له، وتقديم الحماية له عندما كـان منفياً في مملكته، وعاد من ثم إلى انكلترا، حيث نزل في دوفـر بعد رحلة مـريحة، وكـان ذلك في الخامس من نيسـان، ولدى وصـوله، قـدم له جميـع الانكليـز —باستثناء أولئك الكهنة ورجـــال بلاط الملـك الذين بـذروا بذور الخلاف، والذيـن جـــرحـــوا بضمائرهم— تهانيهم، قائلين: «مبارك الذي قدم باسم الرب»، لأن الآمال كانت راسخة بأنه سوف يقوي بحكمتـه الوافرة، وبمشاعره الطيبة، الملك، ويمتن المملكة، ويجلب أسقفيتـه إلى أفضـل الأحـوال، ومثل بنفســه، وهو مسرور تمام السرور، أمام الملك، وقـد استقبله وهو يبتسم، وبنظرة راضية، وكأنه قـد كـان دوماً متحـرراً من جميع الذنوب ضـد الملك، وقـد ازدادت عـواطفهما وسرورهما بطريقـة غير اعتيـادية، وذلك من يوم إلى يوم، وفقـاً لكلمات الشاعر:

عندما تختفي غيوم الخلاف

تصبح شمس العواطف أكثر وضوحاً

وبدأ في هذه الآونة ب. B, الأسقف المنتخب لكانتربري، على عكس توقعـات جميع الذين أوجـدوه، بالعسف برهبـان كانتربري، بحـدة كبيرة، وبطريقة كانت غير متوقعة منه، متصرفاً بكل شيء بالدرجة الأولى لبهجته، دون أن يقيم أي تقدير لأي منطق.

الموت التعيس لإنغلرام دي كوسي

وفي الوقت نفسه، ومع اقتراب شهر آب، واجه إنغلرام دي كوسي، والد ملكة سكوتلندا منيته بطريقة مدهشة، وبناء عليه أرسل ولده جون قوة من الجند بوساطـة البحر، لمساعـدة ملك سكوتلندا، غير أن ملك انكلترا طرد بالقوة، وأبعد جميع الذين أرسلهم، ولقد قلت بأن انغلرام المذكور الذي هو

مضطهد قديم للكنيسة، وخاصة كنيسة كليرفو، التي أوجدها أجداده بشكل فخم، وبنوها فوق اقطاعيته، قد مات بطريقة مدهشة، ذلك أنه مات —كما حدث فعلاً— بطريقة مزدوجة، وعندما كان حياً كان معمارياً متحمساً بالمواد المادية، لكنه كان بالمواد الروحية مبدداً سيئاً، وفي أحد الأيام، عندما كان مسافراً، توجب عليه عبور إحدى المخاضات، وعندما وضع حصانه حافريه ليعبر، انزلق بسبب إحدى المعيقات، وسقط على ظهره في الماء العميق، حيث جرى —لسوء الحظ— جرّه بوساطة ركاباته، ولدى سقوطه على رأسه، خرج سيفه من غمده، وخرق جسده، وهكذا غرق وطعن بسيفه، ففارق هذه الحياة، ليجني ثمار طرقه.

وكما ذكرنا من قبل، أعطى ابنه جون، ووريثه لكل ممتلكاته، صدوراً عن عواطفه لأخته، ملكة سكوتلندا، نصيحته ومساعدته، إلى زوجها الملك، وقام هذا الملك بتحصين القلاع على حدود انكلترا، وتوسل طالباً المساعدة من النبلاء من أقربائه، ومن جيرانه، ضد ملك انكلترا، الذي كان يتآمر ضده، ومنحت المساعدة، التي طلبها هكذا في وقت الحاجة، برغبة قلبية من قبل بعض النبلاء، أما القوات الموعودة فقد أرسلت إليه بأعداد كبيرة.

الملك يطلب مساعدة مالية

وجرى في العام نفسه عقد اجتماع، بناء على استدعاء من الملك، ضم نبلاء المملكة كلها، وحوى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، فقد اجتمع هؤلاء كلهم في لندن، في حجرة الطعام في ويستمنستر، وطلب الملك، بحضور النبلاء، بفمه مساعدات مالية، وقد عبر بصمت ولم يذكر خطته بشن الحرب على ملك سكوتلندا، وكان السبب المكشوف الذي أعطاه إليهم من أجل مطلبه، هو أنه قد ذهب في السنة الماضية إلى غسكوني، بناء على نصيحتهم —كما قال— حيث صار مديوناً بمبلغ كبير من المال، وأنه لن يتمكن من تحرير نفسه من ذلك الدين، مالم يتم بشكل فعال جداً مساعدته من قبلهم،

وعلى هذا أجابه النبلاء، بأنهم سوف يتشاورون حول هذه القضية، وعندما غادر النبلاء حجرة الطعام، اجتمع رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان مع بعضهم في مكان خاص منفردين بأنفسهم، للتداول حول القضية، وبعد طويل وقت سألوا الايرلات والبارونات، عما إذا كانوا سيوافقون على نصيحتهم، في تقديم الجواب، وفي إعطاء حل لهذه القضية، وعلى هذا أجاب هؤلاء النبلاء بأنهم لن يفعلوا شيئاً، من دون موافقة عامة للجماعة كلها، وبناء عليه جرى باتفاق من الجميع اختيار ممثلين لفئة رجال الدين هم: رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، وأساقفة: وينكستر، ولنكولن، ووركستر، وجرى اختيار ممثلين لفئة العلمانيين هم: الايرل رتشارد —أخو الملك— وايرل بيغود، سيمون دي مونتفورت، وايرل ليستر، وايرل و W مارشال، وعن فئة البارونات: رتشارد دي مونتفكيت Montficet, وجون بالأويل Baliol مع راعيي ديري القديس ادموند، ورامسي Ramsey,وتقرر أن جميع الذي سيقرره هؤلاء الاثنا عشر، سوف يجري نشره إلى الجميع بشكل عام، وبناء عليه ما من بند سوف يجري تقديمه إلى الملك إلاّ بموافقة الجميع، وبما أن صك وثيقة الامتيازات التي كان الملك قد منحها من قبل، والتي من أجل تنفيذها، قدم ادموند، رئيس أساقفة كانتربري يمينه، فغدت مضمونة، ووعد صادقاً بأن الملك سوف ينفذها ويرعاها، هي لم توضع بعد قيد التنفيذ، وبما أن المساعدات التي غالباً ما أعطوها إلى الملك، لم تكن منتجة أية منافع له أو إلى المملكة، وبسبب أنه من خلال الحاجة إلى مستشار، فإن المذكرات غالباً ما أعطيت مضادة للعدالة، وعندما سألوا بأن يأتي تعيين المسؤول عن العدالة والمستشار، بناء على انتخابهم، حيث به يمكن للمملكة أن تتدعم، حسبما كانت هي العادة، قام الملك، حتى لايظهر أنه مقبل على تبني أية خطة جديدة للإجراءات القضائية بالقوة، فرفض الموافقة على التماسهم، غير أنه وعد بأنه سوف يصلح الأشياء التي جرت الشكاية منها من جهتهم، ولذلك أمروا بالاجتماع ثانية عند نهاية ثلاثة

أسابيع بعد عيد طهارة العذراء المباركة، وقد أعلنوا —النبلاء— الآن، أنه إذا ما سيقوم الملك بإرادته وحريته، بانتخاب مثل هؤلاء المستشارين، وسوف هكذا يدير قوانين المملكة، سوف يكونوا راضين، وسوف يعطونه بالوقت المذكور جواباً، وسوف يزودونه بالمساعدة، على شرط هو أنه، مهما كانت الأموال التي سوف تمنح له، فإنها سوف تنفق من قبل الاثني عشر نبيلاً المذكورين أعلاه لصالح الملك، وبعدما وضعهم الملك جانباً لبضعة أيام، سعى إلى إنهاكهم حتى يعطوه مساعدتهم من دون تأجيل ذلك حتى وقت مستقبلي، واستدعاهم للاجتماع به مراراً، غير أنه لم يستطع غلبتهم واقناعهم، لأن النبلاء وزنوا المسألة بعقولهم بشكل حكيم، فبقيوا ثابتين على قرارهم لايمكن تحريكهم، وبات الملك أخيراً ميالاً لاستمالة رجال الدين على الأقل للموافقة على رغباته، لذلك وجّه الدعوة إلى الأساقفة، وعرض عليهم جهاراً رسائل من البابا، استهدفت مايلي:

رسالة البابا إلى أساقفة إنكلترا

«من انوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، و إلى أبنائه المحبوبين رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورؤساء الشمامسة، والأساقفة الآخرين للكنائس، والكهنة في انكلترا، صحة، ومباركات رسولية:

على أمنا الكنيسة أن تسمح بإعطاء امتيازات إلى الذين رفعوا فوق أتباعهم بالمراتب الملكية، وعليها التوجه لربط الأهمية بهم، بقدر ما سلطتهم متحمسة دوماً في إخلاصها لها، أي الكنيسة، وبقدر ما هي ساهرة على خدمتها، وبناء عليه، وقياساً على ذلك، إنه بالنسبة لجميع أمراء الأرض، نضم بين ذراعينا، ولدنا المحبوب جداً في المسيح، الملك المشهور لانكلترا، ونمنحه عاطفة خاصة، لأنه واحداً —بحكم كونه أمير كاثوليكي مخلص— قد أظهر دوماً احتراماً إلى الكنيسة الرومانية، التي هي أمه، وذلك بوساطة خضوعه الابنوي، وأدائه لواجبه، بطريقة أنه لم

ينحرف قط جانباً عن عمل مايرضيها، لابل، أكثر من هذا، قام دوماً بعناية فائقة، ففعل الأشياء التي عرف بأنها ترضينا، وموافقة لنا، وبناء عليه إنها ليست قضية عجيبة، لابل إنها أصبحت مسألة عادية بالنسبة لنا، لذلك سوف نستجيب بسهولة أكبر لإلتماساته، وسوف ننشد مجده، وزيادة كرامته وأحواله، وذلك عندما ستوافقون بكرمكم مع الذين يرغب به شخصياً، وبما أن الملك المذكور قد شرح لنا من جانبه، بأنه تحمل عبء بعض النفقات الثقيلة، بسبب بعض مصاعب القضايا الكبيرة والصعبة، التي ضغطت عليه، وهو مايزال تحت حاجة تحمل المزيد من النفقات، ولذلك هو بحاجة إلى مساعدتكم، ولذلك نحن نرجوكم، ونحذركم، ونلتمس باخلاص من جماعتكم، ونأمركم بوساطة هذه الكتابات الرسولية، وذلك بقدر ماتستطيعون وبقدر ما هو موائم لكم، أن تدعموا الملك المذكور في جهوده، وأن تخففوا حمله، وأن تمنحوه مساعدة مشرفة وكريمة، من مواردكم، وذلك حتى يتمكن من دون أي ضرر لكرامتكم، وأوضاعكم، ومن دون أية خسارة، أو إرباك إلى أي منكم، من تجنب العسف به بحمل عبء ثقيل جداً، وأنه بتقديم المساعدة له بأيديكم اليمنى، يمكنه بسهولة أكبر تحمل عبء نفقاته، وأنكم بفعلكم ذلك، يمكنكم أن تكونوا قادرين في مستقبل الأيام المطالبة بحظوة وشكر الملك المذكور (وهو الذي، أنتم بلاشك بحاجة إليه) في أموره الصالحة، التي أنتم شركاء بها، وفي كرامته ومجده أيضاً، سوف تكونون كذلك، لستم من دون حصة ونصيب، ولكي نمتلك نحن الذين نرغب من هذا الوقت في أن نظهر أنفسنا ميالين أكثر لزيادة منافعكم ومنافع كنائسكم، سبباً صالحاً للاعتماد على ثبات اخلاصكم. صدر في جنوى في التاسع والعشرين من تموز، في السنة الثانية من بابويتنا».

وكتب أيضاً بالأسلوب نفسه إلى كل واحد من الأساقفة على انفراد، وكان ذلك —على كل حال— ليس من دون انفاق مبلغ كبير من المال،

كان قد أُرسل إليه من أجل متاعب الكتابة.

وتقـرر —على كل حال— بشكل جماعي، قـراراً لن ينزاح عنه النبـلاء، بأن الإجابة على رسالة التماس البـابا، لصالح الملك، تؤجل حتى قبيل المدة المحـددة من قبل، وبناء عليـه عندمـا كـانوا مغـادرين في اليـوم الأخير من المؤتمر، الذي استمــر ستــة أيام، وكل يوم حتى الليـل منه، توجــه الملك بالرجاء إلى جميـع الأساقفة، بالاجتماع ثانيـة في اليوم التـالي، واجتمعوا بناء على طلبـه في حجـرة مصح بيعـة القـديس يوحنا الإنجيلي، ووقتهـا أرسل الملك سيمون، ايرل ليستر، وب .P ايرل أوف سـافوي، ورالف فتــز— نيقولا، ووليم كانتيلوب ,Cantelupe وجون فتز— غ .G, وقام هؤلاء نيـابة عن الملك، فشرحـوا رغباته إليهم، ورجـوهم بإلحاح بإطاعـة إرادته، على أسـاس طلب قـداسة البـابا، حتى وإن لم يأخـذوا طلبَ الملك بالتقـدير، كما أنهم شرحـوا لهم مـدى الحاجـة الكبرى للملك، والمخـاطر المحيقـة به وبالمملكة، وهي أن الحرب تفجـرت في غسكوني، وأنه لابدّ من قمع وقاحة الويلزيين، وعند ذلك طلب الأساقفـة نسخة عن رسالة البابا، حتى يتمكنوا من التـداول حولها، وأثناء قيام هذه المناقشـات، وصل الملك مسرعـاً، وظهـر بينهم، واحتج بيمينه المعتـاد، بأن كـرامتهم سـوف تكون عزيزة عليه مثل كرامته، وبالمقابل ينبغيْ أن يكون هو عزيزاً عليهم بالدرجة نفسها، وكـدس الالتماس فوق الالتماس في مجال القضيـة المذكورة أعـلاه، ولكن بما أنهم أصروا على جوابهم، من أنهم سـوف يقدرون القضيـة، غادر وهو في حالة اضطراب.

وبعـد مــداولات طويلة، رغبت بعـض الفئات بأن يعطي الأســاقفـة والعلمانيين جـــوابـاً لطيفـــاً إلى الملك، وردّ عليهـم أسقف وينكستر بهذه الكلمات القائمـة على أساس لاهوتي بقـوله: «دعونا أن لانبعـد أنفسنا عن الرغبة العامة، لأنه قد كتب: إننا إذا ما انقسمنا، فسوف نموت على الفور»، وبناء عليه جرى تأجيل كافة الترتيبات، حتى الموعد الذي تقدمت تسميته،

وذلك فيما يتعلق بطلب البابا لصالح الملك، وكذلك بالنسبة للملك نفسه،

وبناء عليه عندما وجد أنه لن يستطيع اضعاف تصميمهم عندما يكونوا متحدين مع بعضهم، لجأ إلى خطة دهاء الرومان، وقرر —مثلما فعل في حالة أخرى— أن يحاول معهم واحداً واحداً بشكل إفرادي، وأن يفرض عليهم حججاً زائفة، من أجل إخضاعهم لإرادته، ولذلك عاد وسألهم الانتظار يوماً آخر، غير أن بعض الأساقفة رأوا خديعة هذا الانتظار، فرغبوا أن لايقعوا بالشراك، فغادروا في الصباح الباكر، وهكذا نجوا بشكل حكيم من المصائد التي وقعوا بها من قبل، وعلى هذا ارفض المؤتمر، مع كثير من عدم الرضا للملك.

الشروط التي عملها النبلاءمع موافقة الملك

«إنه فيما يتعلق بالامتيازات التي تمّ الحصول عليها، والتي منحت، وتثبتت بصك من الملك في وقت متقدم، إنهم من الآن فصاعداً، سوف تجري مراعاتهم، ومن أجل ضمانة لهم، سوف يجري عمل صك جديد، فيه سيكون هناك ذكر خاص لهذه المسائل، ولسوف يجري حرمان جميع الأشخاص كنسياً من قبل جميع الأساقفة، الذين يعرفون، ومع ذلك يقدمون عن عمد على خرق الامتيازات التي جرى منحها من قبل جلالة الملك، أو يعملون على منع مراعاتهم، ولسوف يجري اصلاح وضع الذين، عانوا منذ الإعطاء الأخير، من أي أذى لحق امتيازاتهم، وبما أن الوعد الذي قطع في ذلك الحين، ولم يتم تنفيذه من قبل الملك، الذي بذلك لم يعط أي اهتمام أو تقدير إلى فضيلة اليمين الذي أقسمه، ولم يظهر أي خوف من القرار الذي تفوه به الرجل المقدس ادموند، ولكي لايقع خطر من هذا النوع في المستقبل، وبذلك تقوم مخاطر جديدة أسوأ من المخاطر القديمة، تمّ الاتفاق، على وجوب اختيار أربعة أشخاص من أعلى الناس استقامة، ومرتبة، ومقدرة، بموافقة عامة، ليكونوا مستشاري الملك، وسوف يقسمون مخلصين بالعمل على تقرير جميع القضايا المتعلقة بالملك وبالمملكة،

وأن يظهروا العدالة إلى الجميع، دون تقدير للأشخاص، وسوف يبقى هؤلاء مع الملك، وإذا لم يكونوا جميعاً، على الأقل سوف يبقى اثنان دائماً حاضرين لسماع شكاوى كل واحد من الناس لابل جميع الناس، وأن يقدموا، بأقصى سرعة ممكنة التفريج إلى الذين يعانون من الأذى، وبأعمال تفتيشهم وبناء على بيناتهم، سوف تتم إدارة خزينة الملك، والأموال التي منحت إليه من قبل المجتمع بشكل عام، وسوف يجري صرفها لصالح الملك والمملكة، وفقاً لما سيرونه أكثر مواءمة ونفعاً، وهم سوف يكونوا الحافظين للامتيازات المذكورة، وبحكم أنه جرى انتخابهم بموافقة عامة من الجميع، لذلك ما من واحد منهم سوف يجري نقله أو حرمانه من وظيفته من دون موافقة عامة، وإذا ما انتزع واحد من بينهم بوساطة الموت، وقتها سوف يحل رجل آخر محله بوساطة انتخاب وموافقة الثلاثة الآخرين، خلال مدة شهرين، وسوف لن تجتمع الجماعة كلها ثانية من دون هؤلاء الأربعة المذكورين، مالم تستدعي الضرورة، أو بناء على طلبهم، والمذكرات التي جرى الحصول عليها معارضة للملك، وضد عادة المملكة، سوف تزال وتلغى، ويتوجب أيضاً عمل إشارة إلى الحكم الذي سوف يصدر ضد المخالفين، وكذلك وجوب أداء يمين بين الفئات، وكذلك فيما يتعلق بحلقة العدالة، سوف يجرى انتخاب مسؤول عن العدالة ومستشار من قبل الجميع،وبما أنهم سوف يكونون دوماً مع الملك، سوف يكونون أيضاً بين عدد المحافظين على الامتيازات، وإذا ما حدث في أية مناسبة، سوف ينتزع الملك فيها ختمه من المستشار، إن كل ماسوف يجري ختمه خلال المدة الفاصلة، سوف يعدّ لاغياً وفارغاً، وبعد ذلك سوف يعاد الختم إلى المستشار، وما من مستشار أو مسؤول عدالة سوف يجري تعيينه في مكان آخر، مالم يكن من خلال مؤتمر خاص وعام، وبالموافقة الحرة للجميع، ولسوف يجري انتخاب اثنين من مسؤولي العدالة لمنصة الحكم، وسوف يجري تعيين بارونين في الخزينة، وسوف يجري تعيين واحد على الأقل ليكون مسؤولاً عن العدالة لليهود، وفي هذه المناسبة

سـوف يجري إعـداد جميع الموظفين الرسميين المقـدم ذكـرهم وتعيينهم بمـوجب انتخاب الجميع الحر والعـام، وبناء عليـه بما أنهم سوف يتـولون تسـوية قضـايا الجميع، لذلك مـوافقة كل واحـد سـوف تكون مطلوبة في انتخابهم، وفيها بعـد، وعندما يكون ضرورياً لأي واحد آخـر استبداله، أو تعيينه في محل أي واحد مـن الموظفين الرسميين المتقدم ذكرهـم، إن التبديل أو التعيين سـوف يجرى من قبل، أو بمـوجب سلطة هؤلاء المستشـارين الأربعـة الذين تقـدم ذكـرهـم، والذيـن توفـرت حـولهم شكوك، أو الذين ليست إليهم حاجة، سوف يجري عزلهم من جانب الملك.

البابا يرسل المعلم مارتن إلى إنكلترا مزوداً بسلطات جديدة غير اعتيادية

وفي الوقت الذي كـان فيـه النبلاء مشغـولين بشكل متـواصل لمدة ثلاثة أسـابيع في ترتيب هذه المسائل في سبيل تقـدم الصالح العـام، أعاق العـدو القـديم، ذاك العدو المسبب الاضطراب للسـلام، والمؤصل للانشقاقـات، أي الشيطان، أعـاق جميع القضـايا التي تقـدم ذكـرها، بوسـاطة نهم البـابا وشرهه، لأن الحبر الأعظم اعتقـد بأن الانكليـز المرنين، سـوف —وفقـاً لعادتهم الجارية— يخضعـون رقابهم، ويستجيبـون للاسهام بناء على إلحاح الملك، وكذلك على أساس طلبـه المستعجل، فأرسل رجل دين من المقربين إليـه، اسمـه المعلـم مـارتن، الذي جـرى تزويـده بسلطات جـديدة وغير اعتيادية، أعظم مما منح إلى أي نائـب بابوي نتذكره قـد وجد من قبل، لأنه مدّ يـديه لفرض المكوس، ولفـرض الأتاوات لأسباب غير معروفـة، فقط تبعـاً لما يهواه عقله، من دون أي تقدير للمنطـق، ولأنه كان مسلحـاً بسلطة متـوحشـة من قبل البابـا، الذي منه أظهر كل يـوم صكوكاً جـديدة، وفقـاً لرغبـاته، أو لتبني أية قضيـة مفاجئة، من القضـايا الاضطرارية، استخـرج بالقـوة الموارد، حتى يجري منحهـا إلى أقرباء البـابا، ولهذا قـال كثيرون بأنه كـان لديه كثيراً من أوراق الرق غير المكتـوبة، والمختومـة بالختم البـابوي،

بحيث كـــان بإمكانه أن يكتـب في هذه الأوراق الذي رغب بـه، لاسمح الرب بذلك.

وجـرى ارسال هذا النائب البـابوي المخادع، في المقـام الأول إلى الملك، فقد ابتـدأ به ليرد المعروف إلى البابا، وليستخـدم جهوده القـو ية بمثابرة في سبيل اقناع أساقفة انكلترا، ليقدموا موافقـة عامة بأن يمنحوا هذا الإسهام إلى البـابا، أو الوعد على الأقل بدفعـة سريعـة مقدارها عشرة آلاف مـارك، وعلى هذا الطلب رد الملك بأن نبلاءه، والأساقفـة، ورجال الدين، وكذلك الايرلات، والبـارونات والفـرسـان، غـالبـاً مـاانتـزعت منهم مقتنيـاتهم، بمختلـف الطرق المخترعـــــة، حتـى أنهم بـاتوا الآن ولم يترك لهم شيئـاً لأنفسهم، وقال أيضاً:

«إنهم الآن ســوف لـن يدفعــوا شيئاً، ولايمكنهـم دفع أي شيء لي أنا ملكهم، ولا كذلك إلى البابا، وقد قمت على كل حال بالتذلل إليهم بنفسي، وتماشيت مع رغبـاتهم، فأجابوني بلطف أكبر، ووعـدوني بمساعـدة، وفقاً لإمكاناتهم»، وعنـدمـا سمع المعلـم مـارتـن هذا، غـادر وذهـب مع نظرة سلبيـة، ليس في ذهنه توقع أية مسـاعـدة مـن الملك، ومع ذلك قـام بجمع الأساقفة، وأراهم الرسائل الرسولية، وفق الشكل الوارد في الفصل المقبل، وهي موجهـة أولاً إلى رؤساء الأسـاقفة، والأسـاقفة، وبعـد ذلك إلى رعاة الديرة، سواء المعفيين منهم وغير المعفيين.

رسالة البابا إلى أساقفة إنكلترا مطالباً بالإسهام

«من أنوسنت، الأسقف، وعبـد عبيد الرب، إلخ، إلخ، إلى رعـاة الديرة المعفيين منهم وغير المعفيين وإلى إخـوانهم الرهبــان في أسقفيـة كـانتربري، صحة ومباركات رسولية:

لنا آمال كبيرة في عواطفكم الصادقـة، ونشعر بثقة كبيرة، أنه عندما تحيق أحوال الحاجـة بالكرسي الرسولي، أي بأمكم الكنيسـة، يمكننا بكل ثقة أن

نلجأ إليكم، بحكم أنكم أولادها المحبوبين والمخلصين، الذين هم دوماً متلهفين ومستعدين لتخليصها من أحمالها، وبما أن الكرسي الرسولي المتقدم ذكره غير قادر حتى الآن على تخليص نفسه من وطئة تلك الديون التي تعاقد عليها من أجل الدفاع عن الإيمان الكاثوليكي، وعن حرية الكنيسة، وعن ميراثها الذاتي، باستخدامه للمبالغ التي جمعت ومنحت لمساعدتها في انكلترا وفي الممالك المسيحية الأخرى، بموجب سلطات سلفنا البابا غريغوري صاحب الذكرى الطيبة، لذلك نحن الآن مضطرين بسبب الحاجة إلى اللجوء بثقة إلى عواطفكم الخالصة، ونقوم بموجب نصيحة إخواننا بسؤالكم وانذاركم، وبموجب هذه الرسائل الرسولية نأمر جماعتكم، أن تقوموا بموجب مشاعركم البنوية بالتقدير، كما هو مؤمل منكم، والنظر إلى الحاجة الملحة، وإلى ثقل العبء الذي عسف بشدة بالكنيسة الرومانية، التي هي أمكم الروحية، فهي مقهورة، وتقريباً مغلوبة، لذلك قدموا إليها الرحمة المستحقة في هذه القضية، وفي سبيل دفع الديون التي تقدم ذكرها، ولتقديم العون لنا وللكرسي المذكور بمبلغ من المال فيه كفاية، ووفقاً للطريقة التي يراها صحيحة ابننا المحبوب المعلم مارتن، كاهن حجرتنا، الحامل لهذه المطالب، وكل الذي يعبّر عنه ويعلنه هو باسمنا ولصالحنا.

ونحن نأمركم أيضاً بإعطاء المال الذي أسهمتم به إلى المعلم مارتن المذكور، أو إلى رسله، خلال المدة التي سوف يحددها لكم لفعل ذلك، وعليكم هكذا تنفيذ أوامرنا، حتى لانمتلك سبباً صالحاً لنأمر تقواكم، ولكي لانكون مرغمين على اللجوء إلى وسائل أخرى في هذه القضية. صدر في اللاتيران، في اليوم السابع من كانون الثاني، في السنة الأولى من حبريتنا».

وعندما جرى نشر هذا في لندن، وبات مفهوماً بشكل جيد من قبل جميع الأساقفة ورعاة الديرة بشكل خاص، رفض رعاة الديرة إعطاء جواب من

قبل أنفسهم وحدهم، وآثروا أن يفعلوا ذلك مع آخرين، لأن رسالة قد كتبت إليهم وفق الأسلوب نفسه، ولذلك عقدوا مداولات دقيقة حول القضية، وأعطوا منفذاً لشكاياتهم بين أنفسهم وقالوا:

«لقد وضعنا في موقف صعب، فملكنا وحامينا الذي أسس وجدّد كثيراً من كنائسنا، غير قادر على فعل شيء، وقد طلب المساعدة منا من أجل الدفاع عن مملكته وفي سبيل حمايتها، أي في سبيل الصالح العام، وقد طلب البابا الشيء نفسه لصالح الملك، فهذه شكاية مزدوجة، وهي قائمة بشكل متوازن وفعال من على الجهتين، وجاءنا الآن طلب آخر غير متوقع من جانب البابا، والطلب الأول، بما أنه مؤيد بشكل مضاعف، فهو مرجح أكثر، وهو جدير أكثر بالموافقة عليه، فمن كرم الملك يمكن أن نتوقع بعض المكافأة، أما من البابا فلا شيء، فلقد هوجمنا وتضررنا من على الجانبين، فمن الجانب الأول عسف بنا، ومن الجانب الثاني غللنا وتأذينا، وكأننا بين المطرقة والسندان، ولقد سحقنا بين حجري الرحا».

رسل من الإمبراطور يمنعون الإنكليز إعطاء أية مساهمات إلى البابا

عندما كانت مثل هذه الأحداث قيد الوقوع، ليس من دون تسبيب قلق حاد في قلوب كثيرين الملطخة بالدم، وصلت أخبار إلى علم جميع النبلاء، وقد انتشرت بين الناس، ووقتها لم يعرفوا الذي سيفعلونه، ولذلك لجأوا إلى الأساقفة، في سبيل أن يتبنوا الخطة نفسها في جميع الأشياء، وذلك بالنسبة لهذه المسألة المتعلقة بالصالح العام للمملكة، وحدث —على كل حال— فجأة أن وصل إلى لندن المعلم وولتر دي أوكرا Ocra, وبعض الآخرين، كرسل خاصين من الامبراطور، وذهبوا فور وصولهم إلى المستشارين، وقدموا رسالة من مولاهم، جرت قراءتها بشكل علني بحضرة الملك وجميع المستشارين، على الرغم من اعتراض المعلم مارتن وانزعاجه، وفي هذه الرسالة برأ الامبراطور نفسه من تهمة العصيان، التي

شوه بها البابا سمعته وأخلاقه، وأعلن بأنه سوف يطيع العدالة بكل تواضع، وسوف يلتزم بأوامر الكنيسة، ويقدم الترضيات إليها، ولتأكيد مصداقية هذا، قدم كل من امبراطور القسطنطينية، وكونت طولوز شهادتيهما بوساطة رسالتين ممهورتين بختميهما، وقد نشرتا هناك على الناس، وفي تسويغ لنفسه أيضاً، أعلن الامبراطور فردريك، في كل من هاتين الرسالتين، وبفهم رسله الذين رددوا الشيء نفسه، من أن البابا قد طلب بشكل مهيب أن يكون متملكاً لبعض المدن، والقلاع والأراضي، وفيما يتعلق بهم ليس واضحاً بعد، فيما إذا كانوا عائدين بملكيتهم إلى الامبراطورية، أو إلى الكنيسة، كما طالب أيضاً بإطلاق سراح بعض الأشخاص، الموضوعين في سجن الامبراطور، بحكم أنهم خونة له شخصياً، وطالب بهذا أيضاً حتى قبل أن يكون هو شخصياً، قد جرى تحليله من الحرمان الكنسي، وبناء عليه، إنه خشية منه —كما قال— من أن يقع في أحابيل البابا، أخضع نفسه إلى رأي وقرار، ملكي فرنسا وانكلترا، وبارونات المملكتين، لأنه أفاد بأن تواضعه الأصيل لم تتم رعايته كما ينبغي، أو تقديره بشكل لائق من قبل البابا، ومن أجل هذا اشتكى بمرارة إلى الجميع، وأضاف الامبراطور في نهاية المكتوب رسالة مع شيء مما يشبه التهديد، من أن جميع المال المرسل إلى البابا لمساعدته، سوف يضاف إلى الخزينة الامبراطورية، ولذلك ترجى بكل وسيلة توفرت لديه بأن لايسهم الانكليز بأي شيء إلى خصمه البابا، للإضرار به، وأضاف أيضاً، بأنه إذا مارغب ملك انكلترا الالتزام بنصائحه، يتوجب بالقوة والعدالة تحرير انكلترا من الضرائب التي فرضها البابا انوسنت الثالث، وكذلك عليه أن ينقذها من الأعباء الأخرى، التي كانت تعسف بها يومياً من قبل البابا، وبهذا استرد الامبراطور عواطف الكثيرين، لأنه أقحم في الرسالة المذكورة، بأن الملك إذا لم يقم بإطاعة أوامره —أي الامبراطور— هو سوف ينزل انتقاماً ثقيلاً، بأي واحد من رعاياه سوف يتم العثور عليه في ممتلكاته الامبراطورية.

كيف وافق نبلاء إنكلترا على إعطاء مساعدة مالية

عقد نبلاء انكلترا وأساقفتها مؤتمراً في لندن، في اليوم المحدد، أي بعد ثلاثة أسابيع من يوم عيد طهارة القديسة مريم، وعقدوا مداولات دقيقة، حول القضايا التي تقدم ذكرها أعلاه، وكان موجوداً هناك نواب الأساقفة الغياب، وهم عن رئيسي أساقفة كانتربري ويورك وثلاثة أسقفيات شاغرة، وممثلين عن هيئة كهنة كوفنتري، وشيستر، ونورويك، وجرى آنذاك تجديد طلب الملك لمساعدة مالية، وفيما يتعلق بهذه المسألة، استدعاهم الملك من يوم إلى آخر، وذلك بوساطة دعوات منه شخصياً، وكذلك بوساطة رسل خاصين، تقدم من خلالهم بالوعد بأنه سوف يحافظ، تحت سلطانهم الكامل، على الامتيازات، التي كان قد أقسم على منحها عند تتويجه، ومن أجلها منح صكاً، وفي سبيل الحفاظ على هذه الامتيازات، طالب بأن يقوم كل واحد من الأساقفة في أسقفيته، بإصدار قرار بالحرمان الكنسي ضده، وضد جميع الأشخاص الذين سوف يقفون ضد أية نقطة من نقاط الامتيازات المذكورة، وأخيراً لما أنه لم يعد ممكناً انحناءهم إلى أي شرط آخر، وافقوا على منح الملك، من أجل تزويج كبيرة بناته، منحة مقدارها عشرين شلناً من إقطاعية كل واحد من الفرسان، الذي بحوذته ممتلكات من الملك بشكل رئيسي، وكانت الحصة الأولى سوف يجري دفعها في عيد الفصح، والأخرى في عيد القديس ميكائيل.

وعندما طلب من الملك أن يتذكر هذه الأشياء، وكذلك الوقائع الماضية، تذكّر كَمْ هي كثيرة التي عمل بها بقسوة استخراجات مماثلة من رعاياه المخلصين، الذين كان واجبه نحوهم هو أن يرعاهم، وليس افقارهم، وجاء ذلك من دون الوفاء بأي وعد من الوعود قطعه لهم، فبعد الاستيلاء على بدفورد، جرى منحه على الفور ضريبة عن أرض كل محراث من انكلترا كلها، وكان ذلك شلنين لكل محراث، وفي السنة التالية جرى منحه جزءاً من خمسة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة، ومجدداً عندما كان على

وشك الذهاب إلى بريتاني تلقى مبلغاً كبيراً من الأساقفة، ومن الرهبان، ومن البورجوازية واليهود، ولدى عودته من بريتاني، أخذ منحة مقدارها ثلاثة ماركات عن كل فدان، وأعطي بعد هذا جزءاً من أربعين جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة، ثم من جديد بعد ذلك جزئاً من ثلاثين جزئاً، وثانية عندما أعطى أخته لتكون زوجة للامبراطور، تسلم بمثابة حصة زواج لها، منحة مقدارها ماركين عن كل محراث، وعند ولادة ابنه، قام، مع عار كبير لحق به، ومن دون خجل، فاستخرج بالقوة كثيراً من الهدايا، التي عملت مع بعضها مبلغاً كبيراً من المال، ومجدداً عندما كان ذاهباً إلى غسكوني، استلم مبلغاً كبيراً من المال، لابالحقيقة مبالغ لانهاية لها تقريباً، من الأساقفة، ومن رجال الدين، والبورجوازية، واليهود، ومن كل واحد كان بامكانه أن يكشط منه، وعندما عاد من غسكوني بشكل باهت، وكان رجلاً مخدوعاً، أمر الأساقفة والنبلاء باستقباله عند شاطىء البحر، وبعد انتظاره هناك عبثاً لوقت طويل، استقبلوه عندما وصل، بهدايا كبيرة لاتقدر بثمن، وعمل الشيء نفسه من قبل سكان لندن، وآخرين، وكل من تم العثور عليه وعرف بأنه لم يقدم هدية لها قيمتها، اتهم بحجة أو بأخرى، وعوقب، فكيف يمكن للملك أن يقوم بالوفاء بجميع وعوده وباتفاقاته، مقابل الإسهامات الحالية، ومن أجل الإسهامات الأخرى، وحده يعرف الذي هو ليس بجاهل بأي شيء.

جواب الأساقفة على مطالب المعلم مارتن

عندما علم المعلم مارتن، الذي كان رسول البابا، بأن نبلاء انكلترا قد أعطوا موافقة عامة بمنح الملك، أصبح متلهفاً أكثر لإنجاز المهمة التي من أجلها قد أرسل، والتي كانت ماتزال في حالة من عدم التأكد، أي الحصول على المساعدة للبابا، وبناء عليه دعا إلى الاجتماع جميعهم مع بعضهم وعندما تحقق له ذلك قال لهم:

«أيها الناس، أيها الرهبان، ويا أيها السادة، المحبوبين تماماً من الكنيسة

الرومانية، التي في صدرها ترقد جميع الآمال البابوية، ما هو الجواب الذي أعطيتموه إلى أبيكم الروحي بالنسبة لقضايا الكنيسة الرومانية، التي هي أمكم،والمعسوف بها حسبما جاءكم العلم بوساطة الرسالة البابوية؟ لقد أقدمتم طائعين على الاستجابة لأبيكم الدنيوي، أي مولاكم الملك، فلاسمح الرب أن لاتقدموا على مدّ يد المساعدة إلى أبيكم الروحي، أي البابا، الذي يضع ثقته بكم، ذلك أنه يقاتل لصالح الكنيسة المسكونية ضد أولاده العصاة»، وقدّر الأساقفة بحكمة بأن كلامه، وإن كان حلواً وناعماً فهو بسبب المناسبة، ولذلك هو أحلى من قرص العسل وأنعم من الزيت، ولكنه كان في النهاية أمرّ من الصبر،وأحدّ من السهم الخارق، ولهذا لم يتزحزحوا عن مواقفهم، وبعد مداولات كافية، عيّنوا عميد كنيسة القديس بولص في لندن، وكان رجلاً مستقيماً وفصيحاً، لإعطاء الجواب الذي وافقوا عليه بالإجماع، ومن خلاله أعادوا الجواب التالي إلى المعلم مارتن المتقدم ذكره قائلين:

«ياصاحب النعمة، إن جماعة الأساقفة الانكليز يرجون التقدم إليكم بالجواب حول كل من قضية تقديم المساعدة المالية إلى البابا، وأيضاً حول الموارد التي يطلبها صاحب القداسة من خلالكم، من كل كنيسة من الكنائس، وإن القضايا التي عرضتها علينا، فيما يتعلق بمولانا ملك انكلترا بشكل خاص، والمتعلقة بجميع أولياء نعمة الكنائس بشكل عام، وهم أيضاً يتعلقون برؤساء الأساقفة ونوابهم من الأساقفة، وكذلك جميع أساقفة انكلترا، وبناء عليه، بما أن الملك قد اضطر إلى الغياب بسبب المرض، وكذلك بما أن رؤساء الأساقفة والأساقفة، والأساقفة الآخرين للكنائس، هم أيضاً غياب، يتوجب علينا عدم إعطاء جواب، حيث لايمكننا فعل ذلك، لأننا إذا ما أقدمنا على فعل ذلك، فسيكون هذا مضراً بالنسبة للأساقفة الذين هم غياب»، وبعدما قالوا هذا، ذهب جون مارشال وبقية رسل الملك، إلى الأساقفة الذين بأيديهم بارونيات من الملك

بشكل رئيسي، ومنعوهم بكل دقة من رهن إقطاعياتهم المدنية عند الكنيسة الرومانية، لأنه —أي الملك— سوف يكون محروماً بذلك من الخدمات المتوجبة إليه، وعندما سمع المعلم مارتن هذا، عيّن يوماً في وسط الصوم الكبير للذين كانوا آنذاك حضوراً، للاجتماع به، وهو في الوقت نفسه سوف يحصل على حضور الملك وعلى حضور الأساقفة الغياب، وذلك في سبيل إنهاء هذه القضية والوصول بها إلى نهاية، غير أنهم رفضوا الموافقة على الموعد المقرر، وذلك دون الحصول على موافقة الملك، والأساقفة الآخرين الذين كانوا غياباً، وعادوا جميعاً إلى مواطنهم» ومجدداً قام المعلم مارتن، اعتماداً على سلطات رسائل جديدة، التي كان لديه كميات وافرة منها يستخدمها حسب رغباته، فدعا إلى الاجتماع بعض الأساقفة، لكنهم رفضوا الموافقة على الإسهام وزادوا بأنهم عارضوا بشدة أكثر من ذي قبل، وقدموا الجواب نفسه، كما تقدم من قبل قائلين:

«إنه في المقام الأول، بسبب فقر ملك انكلترا، المحدقة به مخاطر الحرب، لايسمح ذلك لنا بالموافقة على هذا الاستخراج لأن المخاطر تهدد المملكة كلها، وبسبب هذا الفقر، أثقلت عدة كنائس، وبشكل خاص الديرة، بديون كبيرة مرهقة، ومجدداً عندما تم الاسهام مؤخراً بناء على طلب الكاردينال الذي كان النائب البابوي، بسبب أعباء الكنيسة الرومانية كما قيل آنذاك، لقد فرض وقتها علينا عبئاً ثقيلاً، ومع ذلك فإن تلك الاسهامات لم تكن لمنفعة الكنيسة،والآن عندما عمل رسول بسيط المطلب، هناك سبب أكثر قوة للخوف من أن نتيجة مماثلة، إن لم تكن أسوأ، سوف تحصل بهذه المناسبة أيضاً، إذا ماتم الاسهام الآن من جديد، كما أن هناك أسساً قوية للخوف من أن يصبح ذلك عادة، وذلك بناء على أساس أن الشيء إذا ما تكرر، يغدو قاعدة، ومجدداً، إنه حسبما نعتقد، أو في جميع الأحوال حسبما روي، بأن البابا مقبل خلال وقت قصير، على عقد مجمع، فيه سوف —بدون شكل— يجري إثقال الأساقفة، جميعاً وبدون استثناء،

بأعباء النفقات، ومثل ذلك بالرحلة الطويلة وكذلك بنفقاتها ومتاعبها، وأيضاً بالقيام بزيارات فيها تقدمات إلى البابا، سواء أكانت موافقة أم غير موافقة، أو بزيارات إلى بعض الآخرين، الذين لم نجدهم قط يرفضون أية هدايا، ويمكن أن يحدث، أنه نتيجة للاضطرابات التي تكدست فوق الاضطرابات، سوف يكون هناك قلة فقط، يمكن لهم تحمل ثقل هذه الأعباء التي لايمكن تحملها، ومجدداً، بما أن أمنا الكنيسة المقدسة لروما مثقلة بالديون، سيكون عدلاً ومشرفاً، بما أنها غير قادرة على تحمل هذا العبء، أن تقدم المساعدة إليها من قبل أولادها المخلصين بشكل عام، الذين سوف —كما نعتقد— يلتقون في مجمع خلال وقت قصير، والذي يهم الجميع بشكل رئيسي، ينبغي أن تتم الموافقة عليه من قبل الجميع، في سبيل أنه بذلك يمكن تحرير الكنيسة بشكل أحسن، وبذلك كل واحد منا يكون أقل إثقالاً»، وعندما سمع المعلم مارتن هذه الحجج المؤثرة، ضد استخراج أية معونات مالية من الكنائس ومن رجال الدين بمثل هذا الإصرار المعلن، يقال بأنه انفجر بتهديدات عنيفة ضدهم، وتحمل الأساقفة —على كل حال— هذا بصبر، وارفض الاجتماع، فتفرقوا مبتعدين، وقد أضافوا في عروضهم، أنهم إذا ما أسهموا، فإنهم سوف يخشون تهديدات الامبراطور أكثر.

وعند ذلك ألقى مارتن الخائن بيديه الجشعتين بشكل سري على موارد الكنائس الفارغة، وقام بين أشياء كثيرة فتدبر إعطاء خزينة كنيسة سالسبري إلى حفيد البابا، واستولى أيضاً على عدد من الكنائس الأخرى، غير أن أعمال الأخذ والرد هذه، من الأفضل أن نظل صامتين حولها، وعدم حكايتها، وذلك صدوراً عن الاحترام للكنيسة الرومانية، وبقصد عدم إثارة فضيحة.

العثور على جثة ولد ميت في لندن

في الأول من شهر آب من هذا العام، تمّ العثور في مقبرة القديس

بندكت، في مدينة لندن، على جسد طفل غير مدفون، قد كتب على ساقيه، وعلى ذراعيه، وتحت صدره بخط عبري منظم واجتمع كثيرون، وهم يتساءلون حول هذا المشهد، غير قادرين على قراءة الكتابة، لكنهم عرفوا بأن الكتابة والأحرف عبرية، فبعثوا خلف بعض المتحولين اليهود، الذين كانوا يسكنون في البيت الذي أقامه الملك في لندن، وأمروهم، صدوراً عن تقديرهم لحياتهم ولأطرافهم، وتقديراً لشرفهم، وعواطفهم، وخوفهم من الملك، أن يبيحوا معنى الكتابات، من دون أي تحوير، لأنه كان موجوداً هناك بعض وكلاء الملك، الذين كانوا يتولون الحفاظ على السلام، وقد اعتقدوا —لسبب صحيح— أن اليهود الذين تولوا تعذيب يسوع المسيح وأهانوه، إما قد قاموا بصلب هذا الطفل (وهذه واقعة تكرر ذكر وقوعها)، أو أنهم عذبوه بطرق مختلفة قبل قيامهم بصلبه، ولأنه مات تحت التعذيب، اعتقدوا أنه غير جدير بالصلب، ومن ثم ألقوا بجسده حيث تمّ العثور عليه، وبالاضافة إلى هذا ظهرت هناك علامات باقية على جسد الطفل، وأن التعذيب تمّ بوساطة العصي، وقد ظهرت هنا وهناك علامات وآثار بعض أنواع أعمال التعذيب الأخرى، وبعدما جرى جلب المتحولين، من أجل قراءة الكتابات، قاموا بفحصها، وسعوا إلى قراءتها وبذلوا جهودهم لبعض الوقت من دون محصلة، لأنه بسبب تمدد الجلد، وتغير الجسد، انتشرت الأحرف فوق الجسد هنا وهناك، وتغير شكلها كثيراً وتشوهت، وبات بعضها غير مفهوم، وتمكنوا أخيراً، بعد طول معاناة من اكتشاف اسم والد الطفل وأمه مكتوبين، لكن من دون الكنية، وكانت هناك كلمة قد أفادت بأنه قد بيع إلى اليهود، لكن من قبل من، ولأي غاية؟ هذا ما لم يستطيعوا كشفه، وجرى اكتشاف أن بعض اليهود من لندن، الذين كانوا موضع ريبة، ومشكوك بهم في هذه القضية، قد هربوا آنذاك بشكل سري ولم يعودوا، وأكد بعضهم أيضاً، بأن الرب قد عمل معجزات لصالح الصبي، وجرى اكتشاف بأن اليهود قد اقترفوا في بعض الأحيان مثل هذه الجرائم، وأن الأجساد المقدسة، عندما صلبت قد استقبلت في كنائسها،

وأصبحت أيضاً مشهورة بالمعجزات، وبناء عليه، وعلى الرغم من أن العلامات كانت خمسة جروح، على الطرف، واليدين، والقدمين، وهي لم تكن مرئية على جسد الطفل المذكور، قام كهنة القديس بولص مسرعين بأخذ الجسد والفرار به، ودفنه، وسط طقوس مناسبة، وكان دفنه قرب المذبح الكبير في كنيستهم.

ظهور قديسين جدد في انكلترا

في تلك الآونة نفسها، قيل بأن معجزات أظهرت أنفسها، وأن منفعة الصحة قد أعيدت إلى المرضى، في سبيل مدح المسيح، وكان ذلك عند ضريح روجر، أسقف لندن، صاحب الذكرى التقية، وضريح المعلم جون فوكستون Foxtone, الوصي على كنيسة تلك المدينة، وكذلك عند قبري: المعلم روبرت، الذي كان أخاً لإدموند رئيس أساقفة كانتربري، والقديس روبرت أوف كاريبراغ Karrebrag (ربما: Carisbrake).

وصول كونت فلاندرز لمساعدة ملك إنكلترا

ونزل في حوالي الوقت نفسه، كونت فلاندرز في دوفر، حيث قدم لمساعدة ملك انكلترا في نيته شن الحرب على سكوتلندا، وقد أثار وصوله غضباً عظيماً وأنفة في قلوب النبلاء الانكليز، لأنهم قالوا بأن انكلترا قادرة على اجتثاث سكوتلندا، اجتثاثاً كاملاً من دونه، وجلب الكونت المذكور معه ستيناً من الفرسان، ومائة من الأتباع، جميعهم مسلحين بشكل جيد، وكل واحد منهم متشوق إلى السعي وراء نيل أموال الملك.

وسار الكونت مع أخيه رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري إلى القديس ألبان حيث التقوا بالمعلم وولتر دي سففيلد Suffield, الأسقف المنتخب لنورويك، وقد جرى تثبيته على الفور في ذلك الكرسي، من قبل رئيس الأساقفة المنتخب المذكور.

وفي هذا العام نفسه تدبرت السيدة بلانشي، تكريس الكنيسة التي

أسستها في بونتوي Pontoise.

وفي تلك الآونة نفسها، جـرى انتخاب المعلم وليم دي بيرغ Burg, أسقفاً لـ: للانداف Llandaff, وكان رجلاً محبـاً للخير، وغير عدواني، وسمعته غير ملطخة.

حول الاستخراجات غير العادية للمعلم مارتن

مورست في هـذه الآونة استخراجات غير عـادية للمال والموارد من قبل المعلم مارتن، الذي كـان مقيماً في الهيكل الجديد في لندن، عاداً نفسـه بمثابة نائب بابوي (مع أنه لم تخلع عليـه ألبسة النائب البابوي، وكـانت هذه بدعة ماكرة للحفاظ على امتيازات الملك)، وقد أرسل رسالة في جميع الاتجاهات إلى كذا وكـذا راعي دير، وإلى كذا وكذا رئيس رهبـان، يأمرهم بأن يرسلوا إليه هدايا ثمينة، من بعض الخيول الرشيقـة، واللحوم، والأشربة، والثياب المطرزة، وعندمـا فعلوا ذلك، أعـاد المعلم مـارتن إليهم الذي بعثـوه إليـه، معلناً بأنهم كانوا غير كافين، وأمرهم بإرسال هدايا أعظم قيمة، تحت طائلة عقـوبة التعليـق والتكفير، كما أنه علق الجميع وأوقفهـم عن منح منـافع تسـاوي ثلاثين مـاركـاً، فما فوق، حتى يشبعـون نهمـه، وبناء عليـه عـانى الانكليز التعساء أسوأ مما عاناه بنو اسرائيل القدماء، وحزنوا لأنهم أرغموا على تحمل العبودية المصرية في بريطانيا.

الخلاف بين ملكي إنكلترا وسكوتلندا

وأثناء العام نفسـه، أصدر الملك إعـلاناً عاماً، وبوسـاطة استدعـاء عام تدبر أن يعـرف الجميع في جميع أرجـاء انكلترا، بأن على كل بارون اقطاعي مقطع بشكل رئيسي من الملك، أن يجعل قـواته العسكرية جاهزة لإرسـالها للخدمـة تحت لواء الملك، وأن هذا متوجب على الأساقفـة، ورعاة الديرة، وعلى البارونات العلمانيين أيضاً، ثم إنه انطلق على رأس جيش كبير تعداده نحو نيـوكاسل على التين، معلناً بـأن محرضه الرئيسي مااقترفـه وولتر كمنغ

Cumming, وكـان بارونـاً مشهـوراً وقـوياً جـداً في سكوتلندا، وبعض الآخـرين من تلك المملكة، الذين تولوا تحصين قلعتين مـريبتين في غـالوي Galway, ولوثيـان Lothian, في سبيل إيذاء ملك انكلترا، وعلى عكس تصرفـات أجدادهم، بالإضـافـة إلى ذلك، دخل النبلاء المذكـورين أعلاه في تحالف مع الفرنسيين، واستقبلوا بعض الرجال المنفيين واللاجئين من أعدائه —ملك انكلترا— من ذلك على سبيل المثـال غيوفري مارش في هذه الأيام، وبعض الآخرين من قبل، وكـانوا بذلك —كما هو معروف— يسعون لسحب ولائهم من هذا الملك، مع أن ذلك حق له وحـده، وبعدما حشد الملك جميع جماعة النبلاء في انكلترا قرب القلعة المتقدمة الذكر، جرى عقـد اجتماع في حـوالي أيام عيـد صعـود مـريم المبـاركـة، وكـانت هناك مداولات متقنة قـد دخلوا فيها حول القضيـة، وفي هذا المؤتمر، تم التوصل إلى بنود مصـالحة بين الملكين، وكـان ذلك بتـدبير من الايرل رتشـارد وبوسـاطة حكيمـة قام بها بعض النبـلاء الآخـرين من الجانبين، لأن ملك سكوتلندا، كـان رجـلاً مستقيماً، وتقيـاً، وصـاحب عقل متحـرر، ولذلك حظي بحب جميع الانكليـز، وبحب شعبه أيضـاً، وكـان لديه أيضاً جيشـاً كبيراً جداً، وقـوياً، مؤلفاً من ألف فـارس مسلحين مع أن مطاياهم لم تكن اسبانية، أو ايطالية، أو من خيول أخرى ثمينة وثمنها مرتفع، وكانت محمية بشكل جيد بدروع من الفولاذ أو من الكتان، ومع هؤلاء حوالي المائة ألف من الجنود الرجّـالة، كلهم كانوا على رأي واحـد، وكانوا جميعـاً قد عملوا الاعتراف وجـرى تشجيعهم، وتثبيتهم بكلمات مـن وعـاظهم، من أنهم كانوا سيقـاتلون في سبيل قضية عادلة لصـالح بلادهم، ولذلك كان لديهم القليل من الخوف، وفي سبيل منـع سفك دمـاء مثل هذا العـدد الكبير من المسيحيين، والدعـاء إلى الرب بالانتقـام، ومن ثم الاسـاءة إليـه، الذي بين يديه من المرعب وقـوع الانتقـام، أعيـد تأسيس السـلام بسعـادة، وجـرى تدوين ذلك في الصك التالي الشاهد على ذلك.

وفي هذه الآونة، أي في اليوم الذي جاء عقب عيد القديس لورانس، مات البارون المشهور رتشارد دي ستوتفيل Stuteville.

صك ملك سكوتلندا

«من الاسكندر، الذي هو بنعمة الرب، ملك سكوتلندا، إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح الذين سوف يرون أو يسمعون محتويات هذه الأداة، تحيات:

بودنا أن تعلموا، أننا من جانبنا، وباسمنا، وباسم ورثتنا، قد وافقنا، وأعطينا وعدنا، إلى مولانا الاقطاعي المحبوب منا كثيراً، هنري الثالث، الذي هو بنعمة الرب، الملك المشهور لانكلترا، وسيد ايرلندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو، وإلى ورثته، بأننا سوف نحافظ بشكل أبدي على الاخلاص الصالح معه، وسوف نتملك مشاعر طيبة نحوه، وإننا أيضاً سوف لن ندخل مطلقاً، بأنفسنا، أو بوساطة أشخاص آخرين من طرفنا، في أي تحالف مع أعداء مولانا المذكور، ملك انكلترا، أو ورثته، سواء بتسبيب نشوب حرب، أو شنّها، بحيث يمكن أن تحدث مضار بوساطة ذلك، أو يمكن أن تحدث لهم أو لمملكتهم، مملكة انكلترا وايرلندا، أو أية مناطق تابعة لهم، وذلك مالم يقوموا بإيذائنا، ولسوف تظل الاتفاقيات السالفة قائمة تماماً بيننا وبين مولانا المذكور، ملك انكلترا، وهي الاتفاقيات التي دخلنا بها مؤخراً في يورك، بحضور أوتو، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا، في سجن توليان، والذي كان آنذاك نائب الكرسي الرسولي، مع الحفاظ أيضاً على ميثاق الزواج الذي عقد بين ابننا وبين ابنة مولانا المذكور، ملك انكلترا، وفي سبيل تمتين موافقتنا هذه، ووعودنا باسمنا وباسم ورثتنا، وتثبيتها، أمرنا حاجبنا ألان Alan, وهنري بيلأويل Baliol, وديفد لندسي Lindsay, ووليم غيفارد Giffard, أن يقسموا بروحنا، بأننا سوف نلتزم باخلاص بالشروط المتقدم ذكرها، ونطبقها تماماً، وتدبرنا أيضاً اداء يمين مشابه، من قبل الآباء المحاين:

ديفـد، ووليم، وغيوفـري، وكليمنت، الذين هم أسـاقفـة سينت أندروز، وغـلاسكو، ودنكالد Dunkald, ودمبلين Dumblane, كما تدبرنا أداء يمين من قبل النبلاء التـالين، وهم من رعايانا المخلصين: باتريك ايرل أوف دنبر Dunbar ومالكولم ايرل أوف فيف Fife, وماليس Mal-ise ايرل أوف ستراثيرن Strathearn, ووولتر كـــومن Comyn أوف مونتإيث Monteith, ووليم ايرل مار Mar, والاسكندر ايرل أوف بوشان Buchan, وديفد هيستنغ Hastings إيرل أوف أثول Athol, وروبرت بروس Bruce, وآلان حـاجبنا، وهنري بيـلأويل، وروجر دي مـاوبري Mowbray, ولورانس دي أبرنثيــا Abrinthia, ورتشـارد كـومين Comyn, وديفـد لندسي Lindsay, ورتشـــارد سيــوورد Seward, ووليم لندسي، ووولتر أوف مـــوري Moray, ووليم غيفـــارد Giffard, ونيقــولا دي سلّـي، ووليم أولـــــد بردج Oldbridge, ووليم بيفير Bevire, وأليـــــوم Aleome دي ميسوك Mesuc, وديفد غـراهام Graham, ورتشارد سمنغهـــام Smingham, فهؤلاء جميعاً أدوا اليمين للغاية التـالية وهي: إذا ما قمنا نحن أو ورثتنا بالعمل بشكـل مضـاد للاتفـاقيـة المتقـدم ذكـرها وللوعـد —لا سمح الرب بـذلك— سـوف لـن يقـدمـوا لا هم ولا ورثتهم لا النصيحـة أو المساعـدة إلينا ولا إلى ورثتنا بشكل مضـاد للمـوافقة المتقـدم ذكرهـا وللوعد، وبقـدر مايمكنهم منعها، وعـدم السماح بتقديمهـا لنا من قبل الآخـريـن، بل الذي سـوف يفعلـونه هم وورثتهم —بـالنسبـة لنا ولورثتنا— ويجعلـونه شغلهم الشـاغل، هو رؤية أن الشروط التي تقــدم ذكرها قد جرى تطبيقها بكل دقـة واخلاص، ومراعاتها من قبلنا ومن قبل ورثتنا، وأيضاً من قبلهم ومن قبل ورثتهم، وشهـادة على ماتقدم قمنا نحن وكـذلك الايرلات، والأسـاقفـة، والبارونـات، بتثبيت هذه المدونة بوضع أختـامنا عليها. وشهـد: الأسـاقفة، والايرلات، والبـارونات الذين تقـدم ذكرهم أعلاه، في سنة حكمنا، إلخ، إلخ».

وعلى هذه الوثيقة جرى على الفور وضع أختام: الاسكندر ملك اسكوتلندا، ووليم دي بيفري Bevire, ووليم أولد بردج Oldbridge, ووليم لندسي، وستيفن سمنغهام، وبعد ذلك ختمت بأختام الآخرين، وقد جرى إرسال هذه الوثيقة إلى ملك انكلترا في عيد الميلاد التالي، وحملها إليه بيديه رئيس رهبان التينماوث Tynemouth, الذي حرص على بذل أفضل مساعيه، للوصول إلى هذه الاتفاقية لصالح كرامة الفئتين.

وأرسلت هذه المدونة، مع الآخرين المذكورين أدناه إلى البابا، في سبيل أن تكون ثابتة بشكل دائم بشكل أفضل إلى الأبد، في الرسالة التالية:

التثبيت البابوي لما تقدم أعلاه

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، انوسنت، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم، إننا الاسكندر الذي هو بالنعمة نفسها، ملك سكوتلندا، وايرل باتريك، وإيرل أوف ستراثيرن Strathearn وإيرل ليفنات Levenath, وإيرل أوف أنيغريا Anegria, وإيرل أوف ميرا Mera, وإيرل أثول Athol, وإيرل أوف روس Ross وإيرل أوف كيثنس Cathness, وإيرل أوف بوت Bute, وروجر دي ماوبري Mowbray ولورانس أوف ألبيرينث Alberinth, وبطرس دي ماوفير Mouvere, ورتشارد كومين Comyn, ووليم أولد بردج، وروبرت بروس Bruce, وروجر أفنل Avenel, ونيقولا سللنغ Sulling, ووليم مورري Murray, و.... أوف دنفلد Dunfeld, ووليم موريف Muref, و.... أوف بيتين Petene, وجون بيست Bissett الأصغر، ووليم لندسي، وجون دي فوكس Vaux, وديفد لندسي، ووليم غيفارد Giffard, ودنكان دي ايرغاتيلا Ergatila, وجون دي ماترفيل Matervalle, وإيلنر Aylnne وابنه روجر إيرل أوف وينكستر، وهـ .H ايرل أوف أكسفورد، و و

W. دي فسي Vescy, ورتشـارد سيـوورد Seward, ووليم دي روس Roos, وروجـر دي كلير Clare, وهنري ابن كــونت دي بريتر Britter, ويوستاس دي ستوتفيل Stuteville, ومالكولم ايرل أوف فيف Fife, وإيرل أوف مينيثشـاير Menethshire, ووولتر فتـز— ألان، ووولتر أوليفارد Oliphard, وبرنارد فـريسر Fraser, وهنري بالأويل، وديفد كومين Comyn, وديفد مارشال، وديفد فتز— رالف، ووليم دي فـورثير Forthere, وجــون بالأويل، وروبرت دي روس Roos, الصحة، ونقدم جميع الاحترام المستحق والتشريف:

إننا نـرجـو أن نخبر قـداستكم، بأننا أدينا يميناً، أقسمناه بـأرواحنا وأجسادنا، أمام الأب المحترم أوتو، الذي هو الكاردينال الشماس للقديس نيقـولا في سجن توليان، والنائب في الوقت الحاضر، للكرسي الرسـولي في انكلترا، وسكوتلندا، وايرلندا، وعملنا أيضاً صكاً، بدايته كانت كما يلي:

ليعلم كل من يصل إليـه، أنه جـرى الاتفـاق بحضور صـاحب النعمـة أوتو، إلخ، إلخ، وقـد شهـدنا على هذا الصك ووثقناه بـأيدينا، وتركناه في حوزة صاحب الجلالة ملك انكلترا، وهناك صك آخر، بدايته:

نحن بودنا أن تعلموا جميعاً، إلخ، إلخ، وبناء على الشروط المتوجبة علينا المتقـدمـة الذكـر، والتي نحن مـرتبطون بها، قـد أخضعنا أنفسنا لسلطان إدارتكم، بسبب أنكم تمتلكون السلطة على ضبطنـا وضبط ورثتنا بوسـاطة الروادع الكنسيـة، إذا مـا حـاولنا في أي وقت من الأوقـات العمل ضـد شروط السلام المتقـدم ذكرها، وإذا ما حـدث في أي وقت من الأوقات أن حاول بعض رعايانا، أو أي واحد منهم، ونوى باستخفاف العمل ضدهم، أو أية محاولة من هذا النوع، أو فكر أن يفعل مثل ذلك، الأمر الذي سينجم عنه قيـام مخاطر ضد أنفسنا وأنفس ورثتنـا، وسوف يكون من جـراء ذلك حصولنا على أضرار جسيمة لنا شخصياً ولممتلكاتنا، ولذلك نرجوكم، أيها الأب المقـدس، اصدار أوامـر إلى واحد من الأسـاقفـة المساعـدين لرئيس

أساقفة كانتربري، أن يتولى ارغامنا على مراعاة شروط السلام المتقدم ذكرها، بشكل كامل حسبما جاء في أدوات التنفيذ المتعلقة بهذه القضية، وأيضاً القيام بضبط المتقولين والمتذمرين ضد شروط السلام المذكورة، وفقاً للأحكام الشرعية، إلخ، وفي سبيل الوفاء بالتماسنا وضعنا أختامنا على المدونة الحالية».

وبعد الفراغ من هذه الترتيبات، أصبح ملك انكلترا صديقاً لملك سكوتلندا،وكان الأمل أن تكون هذه الصداقة صداقة لايمكن فصمها، وذلك من دون أي تظاهر، أو خطابات مراوغة ومشاكسة، وعند ذلك ترك الملك هنري ملك سكوتلندا، وذهب إلى المناطق الجنوبية من انكلترا، وهناك على الفور جرى التفكير بأن يزحف هذا الجيش ضد الويلزيين، وكان ملك سكوتلندا قد حمل نفسه إلى المناطق الداخلية من بلاده، ولدى مغادرة ملك انكلترا لنيو— كاسل على التين، جرى تقدير تعداد جيشه، بأنه تألف من حوالي خمسة آلاف فارس مسلحين بشكل جيد، وذلك بالاضافة إلى كتلة كبيرة العدد كثيراً والقوة، من الجنود الرجالة.

غارات الويلزيين

وخلال هذا الوقت كله، كان الويلزيون يخرجون من مخابئهم، وينتشرون مثل النحل، وكانوا ينشرون النار والقتل، ولم يتوقفوا عن نهب المناطق المجاورة لبلدانهم، وكان الملك مسرعاً على طريق عودته إلى لندن، ولم يرغب بمتابعة سيره نحوهم، مع أنه سمع بتجاوزاتهم، وكان عليه أن يقود جيشه نحوهم، حيث كان جاهزاً ومستعداً تماماً، وآثر أن يتبع الخطة النسائية، فبادر مسرعاً إلى ويستمنستر، أي إلى ملاذ متعته المعتادة، وأرسل ثلاثمائة فارس، تحت قيادة هيوبرت فتز— متى، مع الأموال المحتاجة، والمؤن من أجل الطريق، ليتولى ضبط الاعتداءات الويلزية، وحدث على كل حال، أنه قبل أن يصل إلى لندن، تجرأ الويلزيون، لأن الملك سرّح جيشه، ولأنه انخرط في الاستراحة، ولن يقدم —حسبما كانوا خائفين—

على الاتحاد مع الجيش السكوتلندي، ولن يقوم الجيشان بالهجوم عليهم، وقاموا بجرأة بالهجوم على جيش النبلاء الانكليز، على الحدود، أي على حدود الأراضي التي كانت عائدة إلى ايرل هيرفورد، الذي كان سبب الكراهية ومصدر الخلاف، لأنه رفض أن يعطي إلى أخته الثالثة، التي تزوجت من داود، حصتها الثالثة، وهاجموا أيضاً الجيش العائد إلى رالف ومورتيمير Mortimer, وبعدما مزقوا فارسين اثنين شجاعين، وفارس نبيل إلى قطع، قطعوا رأس الثالث، وقتلوا حوالي المائة من الجنود الرجالة، ووضعوا الجيش الانكليزي كله في حالة من الاضطراب العظيمة، تراجعوا ثانية إلى مواضع اختبائهم، وهم مسرورين بانتصارهم، ولدى سماع روبرت المذكور بهذا زحف في اليوم التالي ضدهم، وكان برفقته ثلاثمائة فارس، كان يدفع لهم، وكان متخيلاً أنه سوف يطوق الويلزيين، ويحاربهم وهم في هذا الوضع، لكنه فوجىء من قبل العدو، ولذلك هزم، وتراجع نحو بلداته، لكن ليس من دون المعاناة من خسارة كبيرة بالرجالة والخيول، وحتى في بلداته لم يكن سالماً تماماً من أعدائه.

كيف لحقت الهزيمة ببطرس رئيس أساقفة روسيا من قبل التتار

وفي الوقت الذي كان الموت فيه يحيط بمشاكل الدنيا، حدث لواحد اسمه بطرس، كان رئيس أساقفة روسيا، وكان رجلاً مستقيماً، وتقياً، وموثوقاً، وذلك بقدر مايمكن الحكم عليه، أن هزم من أراضيه، ومن رئاسة أسقفيته، من قبل التتار، وقدم إلى مقاطعات شيسالباين Ci-salpine للحصول على النصيحة والمساعدة، والمواساة في وضعه المضطرب، وذلك إذا أمكن بعون الرب الحصول على ذلك من الكنيسة الرومانية، وأن ينال معروف أمراء تلك المناطق الذين يمكنهم مساعدته.

ولدى سؤاله عن سلوك التتار وتصرفاتهم حسبما خبرها، أعطى الرد التالي:

«إنني أعتقد أنهم بقايا المدينيين، الذين هربوا من أمام جدعون، إلى أقصى مناطق الشرق والشمال، والتجأوا إلى ذلك المكان المرعب وتلك الفيافي الشاسعة، التي اسمها ايترين Etren, ولديهم اثني عشر قائداً، يدعى رئيسهم باسم خان التتار، ومنه صدر اسم التتار، مع أن بعضهم يقول بأنهم عرفوا هكذا من تارّاكونتا Tarrachonta, الذي منه انحدر كيارثان Chiarthan, الذي كان لديه ثلاثة أولاد، كان اسم الأسن منهم جنكيز Thesir خان، والثاني غوري Churi خان، والثالث باثاتار Bathatar خان، ولدوا، ونشأوا بين أعلى الجبال، التي لايمكن خرقها، فكانوا متوحشين، وبلا قانون، وغير انسانيين، وقد تربوا في الكهوف والمغائر، وذلك بعد أن طردوا الأسود والثعابين منها، هؤلاء على الرغم من هذا كله ارتقوا إلى أكثر أماكن العالم إغراءً، وبناء عليه قدم الأب والأبناء، وانطلقوا من أماكنهم المنعزلة، وهم مسلحين وفق طرائقهم، وكان برفقتهم حشود لاتحصى عدداً من المقاتلين، وألقوا الحصار على مدينة اسمها إرناك Ernac, واستولوا عليها، واعتقلوا حاكم المدينة، الذي قتلوه على الفور، وطاردوا حفيده قطز Cutzeusa الذي هرب، خلال عدة مناطق، وقد نهبوا جميع الأراضي التي آوته، وكان من بين البلدان التي عاثوا فيها ونهبوها قبل ستة وعشرين عاماً شطراً كبيراً من روسيا، حيث صاروا لوقت طويل رعاة للقطعان التي سلبوها، وبعدما قهروا الرعاة المجاورين لهم، تولوا قتلهم، أو جعلوهم رعاة خاضعين لهم أنفسهم، وبذلك زاد عددهم، وأصبحوا أكثر قوة، وعينوا قادة فيما بينهم، وتطلعوا نحو الأشياء الأكثر علواً واستولوا على مدن وأخضعوها لأنفسهم، وذلك بعدما تغلبوا على السكان، وزحف جنكيز خان ضد البابليين، وغوري خان ضد الأتراك، وبقي باثاتار خان في إرناك، وأرسل قادته ضد روسيا، وبولندا، وهنغاريا، وضد عدة ممالك أخرى، ويقوم الآن ثلاثة مع جيوشهم الكبيرة بتهديد البلدان المجاورة لسورية، وقد مضت الآن خمسة وعشرين عاماً على انطلاقهم أولاً من صحراء ايترين».

ولدى سؤال رئيس الأساقفة عن شكل عقيدتهم، أجاب بأنهم يعتقدون بأن هناك حاكم واحد للعالم، وعندما بعثوا رسولاً إلى سكان موسكو، بدأوا رسالتهم بهذه الكلمات: «الرب وابنه في السماء وجنكيز خان في الأرض»، وبالنسبة لطرائق حياتهم قال:

«إنهم يأكلون لحوم الخيول، والكلاب، وأية لحوم دنسة أخرى، ويأكلون في أوقات الحاجة لحوم البشر، ليست من دون طبخ، بل مطبوخة، ويشربون الدم، والماء، والحليب،ويعاقبون الجرائم بقسوة ويعاقبون كذلك الزنا، والسرقة، والكذب، والقتل، بالإعدام، وهم لايمقتون تعدد الزوجات، وكل واحد منهم لديه زوجة، أو أكثر من واحدة من الزوجات، وهم لايقبلون أناساً من شعوب أخرى للزواج من بينهم، أو لإقامة علاقات وطيدة معهم، أو للبحث في قضايا الأعمال، أو الاطلاع على اجتماعاتهم السرية، وهم ينصبون معسكرهم منعزلين بأنفسهم، وإذا ما تجرأ أجنبي على القدوم، هم يقتلونه على الفور».

وفيما يتعلق بطقوسهم، وغيبياتهم قال:

«إنهم يرفعون في كل صباح أيديهم نحو السماء يتعبدون خالقهم، وعندما يتناولون أطعمتهم يلقون بأول لقمة في الهواء، وعندما يكونون على وشك الشرب، يصبون بعضاً من السائل على الأرض، في تعبد للخالق، وهم يقولون أيضاً بأنهم يتخذون من يوحنا المعمدان قائداً لهم، وهم يفرحون، ويقومون بطقوس مهيبة في أيام القمر الجديد، وهم أقوى وأكثر رشاقة مما نحن عليه، وهم أفضل قدرة في تحمل المصاعب، ومثل ذلك خيولهم، وقطعانهم ومواشيهم، والنساء مقاتلات، وفوق كل شيء بارعات جداً في استخدام القوس والنشاب، وهم يرتدون دروعاً مصنوعة من الجلود، من أجل حمايتهم، وهي دروع من النادر خرقها، وهم يستخدمون أسلحة مسممة في هجماتهم، ولديهم أنواع كثيرة جداً من الآلات الحربية، التي تقذف الرمايات بقوة شديدة، وبشكل

مباشـــر نحـو الهدف، وهم يأخـذون راحتهم في الهواء الطلق، ولايعبأون مطلقاً بالأنواء العـاصفـة، وقـد أغـروا عـدداً مـن الشعـوب والفـرق للالتحـاق بهم، وهم عازمون على اخضـاع العالم كلـه، ولقد قـالوا بأنهم أوحي إليهم من السماء بأنهم سـوف ينهبـون العـالم كله لمدة تسعـة وثلاثين عـامـاً، مـؤكدين بـأن الانتقام الربـاني قد طهّـر العـالم بوسـاطة الطوفـان، ولسوف يتطهـر الآن بوساطة اخلاء عـام له من السكان، وبدمار كلي، هم أنفسهم سـوف يتولـون تنفيذه، وهم يعتقـدون، لابل إنهم يقـولون، بأنهم سيكون لهم صراع حـاد مع الرومـــان، وهم يدعـون جميـع اللاتين باسم رومـــان، وهم يخافـون من صنع معجـــزات من قبل الكنيســـة، وأن من الممكن أن يصـدر ضدهم قـرار بالإدانة في المستقبل، وهم يعلنون، أنهم إذا ما تمكنوا من غلبتهم، فلسوف يصبحــون على الفور سادة العالم كله، وهم يقدمون احترامـاً صحيحاً للمعاهـدات، في حالة الـــذين قـدموا أنفسـهم عن طواعيـــة لهـم، وتولـــوا خدمتهـــم، باختيـارهم أفضـــل الجنـود من بينهم، الذين عندمـا يقـاتلـون، يضعوهم دوماً أمامهم، وبالطريقـة نفسها يبقـون فيما بينهم مختلف أنواع الحرفيين، وهم لايظهـرون رحمة نحـو الذين يثـورون ضـدهم، ويرفضـون نير حكمهم، أو يقفـون ضـــدهم في أرض المعـــركـــــة، وهم يستقبلـون الـرســـل بلـــطف، ويسهلون أعمالهم، ويرسلونهم عائدين».

وأخيراً سئل رئيس الأســاقفـة المذكـور عن طرائقهـــم في عبـــور البحـــار والأنهار، وعلى ذلك أجـــاب بأنهم يعبرون الأنهار على ظهـــور الخيـــول، أو على جلود صنعت لهذه الغـــاية، وأنهـم بنوا سفنـاً في ثلاثة أمـاكن على شـاطـئ البحـر، وقـــال أيضـاً بأن واحـداً مـن أولئك التتـار المذكـورين، وكـان اسمـه جـلال الدين Kalaladin، وكـان صهـــــراً لجنكيـز خـان، قـد اكتشف بأنه تحدث كـذباً، وقـد نفـوه إلى روسيـــا، ووفـرت حيـاته من قبل مقدمي التتار، مراعاة ولطفاً نحو زوجته.

رسالة مرعبة من التتار

وفي العام نفسه، ومع نهاية الصيف، أرسل الملك الرئيسي للتتار، مرتين رسائل إلى أمير أنطاكية، بوساطة رسل متنوعين، حيث أمره بإطاعة رغباته، في ثلاثة أشياء، وإلاّ فإن سيفاً دموياً سوف ينزل به انتقامه منه، وكان الأمر الأول، هو وجوب قيامه بتدمير أسوار جميع مدنه وقلاعه، وكان الثاني أن يرسل إليه جميع الموارد الناتجة من إمارته بالذهب والفضة، وكان الثالث هو أن يرسل إليه ثلاثة آلاف عذراء، وعندما سمع الأمير بهذه الرسالة استولى عليه الأسى وقال:

«مادام الرب موجوداً، ومادام قديسيه موجودين، أنا لن أستجيب لأي من هذه المطالب الثلاثة، وأفضل بالحري أن نتحارب من أجل حياتنا، وأن يتقرر هذا الخصام فيما بيننا أمام الرب»، وبعد هذا، عندما وجد الرسل منفذاً للتهديد عادوا إلى ملكهم، وجرى حمل رسالة مشابهة، من قبل الرسل التتار المتقدم ذكرهم، إلى ملك أرمينيا، وإلى بعض السلاطين المسلمين الأقوياء، غير أننا لانعرف أية رسائل أرسلت جواباً على مطالبهم.

المصالحة بين كنيسة وينكستر وبين أسقفها

وفي هذه الآونة، استأذن أسقف وينكستر الملك الفرنسي، والذين فتحوا له صدر الرحمة أثناء عيشه في المنفى، وبعد تقديمه الشكر لهم، ولكونه كان متأكداً من حظوة ملك انكلترا، بادر مسرعاً إلى وينكستر، ليكرس نفسه إلى الأعمال الأسقفية العائدة لكنيسته البائسة، وليصلح أوضاعها الفوضوية، ولدى سماع رئيس الرهبان في ذلك المكان باقترابه، عمل الضروريات اللائقة المحتاجة، مع أن ذلك جاء متأخراً، وتواضع بنفسه أمامه لدى وصوله، وبالطريقة نفسها تصرف الآخرون، سواء من العلمانيين والرهبان، والذين كانوا واثقين كثيراً جداً بحماية الملك، أي الذين كانوا

المثيرين للفتن، والمتسببين بالخلاف، عملوا الآن تكفيرات، وحولوا عواطفهم نحو أسقفهم، وما لبث بعد ذلك، في يوم عيد قطع رأس القديس يوحنا المعمدان، أن جرى سحب القرار الذي تفوه به الأسقف، والذي قضى بحرمان مدينة وينكستر وكنيستها، والذي كانوا واقعين تحته منذ وقت طويل، وجرى بذلك تحليل السكان بشكل حر بوساطة صيغة الشريعة.

ومع أن رئيس الرهبان المتقدم الذكر جون دي كوز Cauz, قد جرى تحليله مع رفاقه بالطريقة نفسها، قد جرى خلعه مع آخرين معه، كان رئيس الرهبان المذكور قد تجرأ على تعيينهم موظفين لديه، ووكلاء علمانيين، وخضع عمدة المدينة، الذي اقترف الذنب الأعظم، إلى تكفير أثقل، وعقوبات أشد.

وفي السابع من تشرين الثاني، مات آدم أسقف كونور Connor, وحدثت وفاته في ويردون Waredon, حيث كان لبعض الوقت راعياً للدير، وفي ثمانية عيد القديس مارتن أبحر أسقف لنكولن من أجل عقد محادثات سرية دقيقة مع البابا، من أجل تقرير مسألة العلاقة الضرورية بينه وبين رهبانه، ومالبث بعد ذلك أن قام عميد تلك الكنيسة، وبرفقته بعض الرهبان، بالابحار، في سبيل الدفاع عن قضيته ضد الأسقف.

تكريس روجر إلى كرسي باث

في الحادي عشر من أيلول، في هذا العام، جرى تكريس المعلم روجر، رئيس جوقة المغنين في كنيسة سالسبري، والذي كان رجلاً صاحب أخلاق أدبية، ومتمتعاً بمعرفة كبيرة في مواضيع اللاهوت، جرى تكريسه في ردنغ لكرسي باث، وعندما كان هذا الكرسي شاغراً، اعتمد على موارده المعلم مارتن، فباعتماده على سلطات قداسة البابا، ألقى هذا باسم البابا يديه الجشعتين، من أجل منحهم لواحد من أقرباء البابا المذكور.

وصول ملك فرنسا إلى الهيئة الكهنوتية للسسترشيان

ومع اقتراب عيد القديس ميكائيل، اجتمع رعاة طائفة ديرة السسترشيان، من مختلف البلدان والمناطق، لعقد اجتماع الهيئة الكهنوتية العامة لديهم، حسب عادتهم، وذهب الملك الفرنسي بشكل تقوي إلى هناك، ليسأل مساعدة صلوات جميع الرهبان، الذين اجتمعوا هناك، وكان برفقته النبيلة السيدة بلانشي أمه، التي كانت قد حصلت من البابا على امتياز السماح لها بالدخول إلى البيوت الدينية لطائفة الرهبان السسترشيان، وكان برفقتها اثنتي عشرة امرأة، لتقدم صلواتها، وكان هناك أيضاً مع الملك المذكور، وأمه، ومن أجل الغاية نفسها، أخوي الملك، كونتي أرتو وبواتو، ودوق بيرغندي، وذلك بالاضافة إلى ستة كونتات فرنسيين آخرين، ولدى وصولهم إلى شيستر، ترجلوا عن خيولهم، احتراماً للكنيسة، وساروا بشكل منتظم، وكانوا يصلون بتقى، وذلك من تلك البقعة إلى الكنيسة، وهي مسافة تعادل رمية قوس زيار، ولدى وصولهم إلى الكنيسة، خرج جميع رعاة الديرة، مع أعضاء ديرتهم، الذين بلغ تعدادهم حوالي الخمسمائة، وجاءوا بمسيرة لاستقبالهم، صدوراً عن الاحترام للملك الفرنسي، لأنها كانت المرة الأولى والوحيدة التي قدم فيها إلى ديرهم، وكان البابا على معرفة مسبقة بقدومه، فأرسل رسالة إلى الهيئة الرهبانية، التمس فيها بكل حرارة من الرعاة ومن الرهبان، أنه عندما سيكون الملك بينهم، لطلب صلواتهم، أن يتقدموا بالرجاء له، وهم جاثين على ركبهم مع أيد متشابكة، حتى يقدم مساعدته القوية وحمايته، حسب القاعدة الفرنسية القديمة، إلى أبيه، أي الراعي الأعظم، والحاكم الرئيسي للكنيسة، يعني الحبر الأعظم، ضد الإهانات التي كان يسعى لتجنبها، والمقدمة له من الامبراطور فردريك، الذي سماه برسالته بابن الشيطان، وإذا ما تطلبت الحاجة، أن يفتح صدر رعايته، وأن يستقبله بلطف في مملكته، مثلما كان قد فعل من قبل إلى البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، عندما كان في المنفى، هارباً من اضطهاد الامبراطور فردريك المذكور، ومثلما فعل، كما هو

معروف، أيضاً إلى توماس المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، الذي هو الآن شهيد مجيد، حين قدم له المواساة، ومكانا للالتجاء، عندما نجا من غضب هنري، ملك انكلترا.

وعندما، بناء عليه، وصل الملك المذكور، تتقدمه أمه، وأخذ مقعده في قاعة هيئة الرهبان، في وسط النبلاء والرعاة، قام الرعاة مع رهبان الديرة، وهم جاثين على ركبهم مع أيد متشابكة، ودموع متدفقة، فتقدموا بتواضع بالطلب المذكور أعلاه إليه، ثم إن الملك، لدى رؤيته لهم على هذه الحالة، ولدى سماعه بطلبهم، جثا هو على ركبته نحوهم، ومنحهم المعروف المطلوب، وأعلن أنه بقدر مايسمح الشرف، سوف يصد عن الكنيسة الإيذاء المقدم إليها من الامبراطور فردريك، وإذا ما كان رأي نبلائه موافقاً، الأمر الذي لايمكن لملك فرنسا أن يرفضه، هو على استعداد لاستقبال البابا شخصياً، إذا ما أرغم على نفي نفسه.

وعند ذلك رد الرعاة بالشكر على معروفه هذا، ومنحوا الملك حصة خاصة في جهود أعمالهم الصالحة، هذا وكان للامبراطور أيضاً رسلاً خاصين هناك للحيلولة دون حصول مطالب البابا على أية نتيجة جيدة.

تكريس فولك باسيت أسقفاً للندن

وفي يوم عيد القديس دايونيسيوس Dionysius جرى تكريس فولك باسيت Bassett, عمدة يورك، أسقفاً للندن، وكان مشهور الأصل، ومشهوراً أيضاً بنقاوة أخلاقه، وتم التكريس في كنيسة الثالوث المقدس، في تلك المدينة.

ذهاب أوتو وبعض الكرادلة الآخرين بشكل سري إلى البابا في جنوى

وفي حوالي الوقت نفسه، تلقى أوتو أسقف بورتو، وبعض الكرادلة

الآخـريـن، على الرغم الشـديد مـن حـراس الامبراطور فـردريك، ومع التسبيب لهم باضطراب عظيم، وهم الحراس الذين مـركـزهم الامبراطور لحراسة الطرقات، تلقوا أماناً من الميلانيين، ومن دول أخرى كانت مساندة للبـابا، ومن مـركيـز مـونتسرّات Montserrat وشخصيـات تسـانـد الكنيسة، وذهبوا دون أن يصابوا بالأذى، أو التعرض للخسائر إلى البابا في جنوى، وذلك على الـرغم من الحرس الذين وضعهـم الامبراطور لمراقبـة الطرقات، ولدى وصولهم فرح البـابا كثيراً وابتهج، وشعر بآمال بالتحسن في أوضـاعه التي كـانت مضطربة آنذاك، ومنذ ذلك الحين تدفق عليـه، من جميع منطقة جنوى، أعـداد كبيرة من أقربائه، وآله، وأصدقـائه، وكل الذين كانت لهم أية عـلاقة به، ومع أنه كان بالمنفى، فقد تطلب الأمـر، إما بسبب القـرابة أو الصداقـة منحهم موارد، لإستخـدامات أولادهم وأحفـادهم، وبشكل خاص أن تكون هذه الموارد، من مملكة انكلترا.

وصول حملة الصليب إلى إنكلترا

في يوم الاثنين، قبل عيــد جميع القـديسين، وصل إلى مجمع الأسـاقفـة لروكستر، بعض الأشخـاص، مظهرين نـوعاً جـديداً من الرهبـانية، وقـد عـرفـوا باسم رهبـان حملة الصليب، من حملهم صلبـاناً على عصي، وطلب هؤلاء الرجـال من النبلاء مكاناً للإقـامـة، مظهرين امتيـازاً لم يسمع به من قبل، منح إليهم من البابا، من أنه لايجوز أن يسمح لأحد بنقد طائفتهم، أو إهانتها، أو توجيه الأوامر إليهم، وقـد منحوا سلطة التفوه بأحكام الحرمان الكنسي ضـد الأشخاص الذين يفعلون مثل هذا الشيء، وعجب الرجـال الحكماء والمستقيمون كثيراً، وأصيبوا بالدهشة من ظهور مثل هذه الطوائف الجديدة يومياً، وتكاثرها ونمـوها من دون نهاية، وبناء عليه حدث أن كثيراً من الرجـال المتعلمين، قد تخلوا عن نظـام بندكت الأعظم مباركـة، والذي تمثلت فيه روح جميع القـديسين، وعن نظام أوغسطين النبيل، وعملوا ضد مبادىء ومقـررات المجمع العام الذي عقـد في أيام البابا إنوسنـت الثالث،

صاحب الذكرى المجيدة، وهربوا فجأة إلى هذه الطوائف التي لم يسمع بها من قبل، والمخترعة حديثاً، ففي ذلك المجمع كان قد تأكد بشكل ثابت، وتقرر أنه بعد القبول، ومنح الشرعية لكل من الدومينيكان والفرنسيسكان، وجوب عدم قبول أية طوائف جديدة من ذلك الوقت فصاعداً، أو إذا جرى قبولها، عدم منحها الشرعية، حتى لاتتضرر الطوائف المقبولة والشرعية، وتصبح أقل تقديراً، ويتم التخلي عنها، وعلى هذا المرسوم أعطى جميع الكرادلة، وكل جماعة المؤتمر موافقتهم.

كيف حمل البابا نفسه إلى مدينة أستي

وفي حوالي الوقت نفسه، ذهب البابا إلى مدينة أستي Asti, بناء على مبادرة أقربائه في جنوى، الذين كانوا عطاشى يسعون متشوقين وراء المال، والذين أقنعوه بالذهاب على الفور، واستقبال الانكليز والفرنسيين، وجيرانهم، الذين كانوا جالبين الهدايا إليه، وأن لايغلق يده ويرفض الهدية المقدمة إليه من قبل أي انسان، وأن يدعو أيضاً في الوقت نفسه إلى مجمع عام، لإعلان قرار ضد الامبراطور فردريك، الذي كرهوه، ولكي يشبعوا رغباتهم بالانتقام، وكذلك في سبيل نيل الثروة، وبناء عليه انطلق البابا، يحيط به حشد من الجنويين المسلحين، وركب الطريق بشكل مفاجيء وسري إلى المناطق الأكثر قرباً من الأراضي الفرنسية، وحيث قامت الآن مدينتا أستي، وأليساندريا Alessandria,وعدة مدن أخرى. فانسحبوا من كل ولاء وطاعة إلى الامبراطور فردريك، وتحولوا إلى البابا، وبذلك نفذوا قول الشاعر:

يتقلب العامة دوماً مع أميرهم

البابا يسير إلى ليون

وبعد إقامة قصيرة في أستي، قام البابا الذي شعر بالاستراحة وجدّد نشاط نفسه، فغرر بحرس الامبراطور الذين كانوا متمركزين باتجاهات

مختلفـة، لإعـاقـة رحلتـه، ومع بـداية نهاية الصيف، حمل نفسـه إلى ليـون، ليمضي هناك الشتـاء، حيث ارتحل مسرعـاً، مع محطات مفـاجئة في كل من الليل والنهار، لكن ليس من دون مخاطرة كبيرة.

رفض منح ملك إنكلترا مساعدات مالية

في اليوم التـالي لعيد جميع الأرواح، اجتمع نبـلاء انكلترا، ووقتها طالب الملك بإلحاح شديد، إن لم نقل من دون حياء، مجدداً بالمسـاعدة المالية منهم، ولكن بما أن الضرر قد لحق بهم مراراً وخدعوا قاموا بالاجماع، وأعلنوا بفم واحد، رفض طلبـه في وجهه، وكـان الملك مصمماً آنذاك على إرسال جيش كبير العدد ضد الويلزيين، وبالإضافـة إلى ذلك كان مداناً ديناً كبيراً إلى تجّار القـارة، وإلى تجّار الخمـور وسـواهـم، من أجل الجعـة وحـاجيـات أخـرى للحيـاة، حتـى أنه كـان نادراً مـايري نفسـه بين الناس، بسبـب الطلبـات الصاخبة للأشخاص الذين كانوا يطالبون بما هو حق لهم، ومن ذلك الحين بات واضحاً أنه هوجم بشكل مهين ووقع في المصائـد المخادعة للأجانب: الذين كانوا ينشدون فقط مرابحهم.

كيف جرى استخراج المال من سكان لندن

وبناء عليـــه بات الملك يسعى لاهثـاً وراء المال، ولذلك قـام من دون استشارة جماعـة المملكة بشكل عام، أو على الأقل من دون مشورة نبـلائه، من دون حيـاء، فاستخـرج بالقـوة ألفـاً وخمسمائة مـاركـاً من سكان لندن، مقدمـاً تعليلاً منطقياً، أو جعلهم يفهمون ذلك من قبله ومن قبل وكـلائه، ذلك أن فـريق الملك قـد أكـد، بأن اللندنيين قـد استقبلوا منذ عشرين سنة خلت واحـداً من أبناء مدينتهـم واسمه وولتر دي بوكـريل Buckerell, الذي نفي بشكـل عـادل من المدينة، ومكث وقتـاً طويـلاً في المنفى، لكن سكان لندن نقضـوا هذا، وأعلنوا بأنه قـد عمل من الرعيـة بشكل شرعي، بوسـاطة الالتماسات، والهدايا التي قـدمت من قبل أخيـه أندرو إلى الملك،

وبناء عليه عفي عنه بموافقة الملك وأمره، وصار بذلك واحداً من أهل المدينة، ويشهد على ذلك ملفات الملك، وعلى هذا رد المعترضون على الفور بتفاهة باسم الملك، بأن الملك كان في ذلك الوقت صغيراً، وضعيفاً، ومن السهل قيادته والتغرير به، ولذلك فإن الذي وافق عليه بات فارغاً ولاقيمة قانونية له، ولاشك أن هذا جاء لصالح إهانة الأوصياء عليه، لأن القرار لم يكن مؤيداً بالمنطق، بل بالإرادة فقط، والذي حدث أخيراً أن السكان أرغموا على دفع المبلغ المالي المذكور، ليرمى به للأجانب.

حول النصر الذي ناله نيقولا دي مولي قهرمان غسكوني

وحوالي هذا الوقت من العام، حدث أن نيقولادي مولي Molis, قهرمان غسكوني، الذي كان الملك قد تركه في تلك البلاد، وعيّنه حاكماً على تلك المقاطعة، والذي كان مشغولاً بحرب ضارية ضد ملك نافار، حدث أن واتاه الحظ في إحدى المعارك، ونال نصراً عليه.

موت مرغريت أخت ملك سكوتلندا

وفي يوم عيد القديس هوغ، ماتت مرغريت أخت ملك سكوتلندا، وأرملة غيلبرت ايرل مارشال في لندن، ودفنت بطقوس موائمة واحترام بين رهبان الدومينيكان.

موت وليم أسقف وينكستر

وبعد ذلك بوقت قصير، دفع دين الطبيعة وليم دي برويير Bruyere, أسقف وينكستر، وكان رجلاً مايزال في أول حياته، ومن أسرة جيدة، ومتميزاً بأخلاقه وعلومه.

كيف استرد ملك فرنسا صحته بطريقة رائعة وحمل شارة الصليب

في هذا العام، ومع ميلاد مولانا، وقع الملك لويس، ملك فرنسا، الذي

كان مـايزال يعاني من بقـايا المرض الذي أصيب به، عندما كـان منشغلاً في بواتو، وقع في حـالة سبات تشبـه الموت، وتمدد لعـدة أيام وكأنه كان ميتـاً، ووفقـاً لما ذكره عـدد من الذين جلسوا من حـوله، كان قـد حرم تمامـاً من التنفس، وأعتقـدت أمه مع أخيـه وبعض الآخرين من أصـدقائـه المقربين، الذين وقفوا هناك، بأن الملك صار متيبساً بسبب الموت، وتفوهت أمه التي كانت متـأثرة بالحزن أكثر من الآخـرين، تفوهت والآهات تقطع كـلامها، بالكلمات التالية:

«ليس لنا يارب، يارب ليس لنا، بل أعط لإسمك المجد، واحفظ في هذا اليـوم مملكة فــرنسـا، كما فعلت دومــاً حتى الآن بشكل مشرف»، ثم إنها وضعت على جسد ولدها الصليب المقـدس، وتاج المسيح، والرمح، وهي الأشياء التي جرى تملكها في أيامه، وعملت تعهداً باسمه، أنه إذا ما تلطف المسيح بزيارته، وقام بحفظه، ورده إلى الصحة سوف يحمل —أي الملك— الصليب، وسوف يزور ضريحه المقدس، الذي كان قد كرّسه بدمه، وبعدما قامت أمـه، وجميع الآخرين الذين كـانوا حضوراً، بمتابعـة الصلاة لبعض الوقت من أجله، بكل اخـلاص للقلب، قام الملك، الذي اعتقـدوا أنه كان ميتـاً بالتنهد فجأة، ومـدّ ذراعيه وسـاقيـه، مع صوت عميق، كأنه صـوت واحد قد قام من القبر، وقال:

«لقد قام الذي نبع من عليين —بنعمـة الرب— بزيارتي، واستعادني من الموت»، ومـا لبث بعـد ذلك أن استرد صحتـه، وحمل بشكل مهيب شـارة الصليب على كتفيـه، مقـدمـاً نفسـه، بشكل تطوعي قـربان محرقـة للرب، وعمل نذراً، أنه إذا مـا سمح له مجلس المملكة، الذي كـان قد تولى شـؤون الحكومة، وسمح له، سوف يزور بشخصه الأرض المقدسة.

مساعي داود أمير شمالي ويلز لتحرير نفسه من النير الإنكليزي

وفي هذه الآونة، أرسل داود أمير شمالي ويلـز، وابن أخت ملك انكلترا،

وكان خائفاً كثيراً من غضب الملك المذكور، الذي أثير ضده بشكل عادل، أرسل رسلاً خاصين إلى البابا، مخبراً إياه بوساطتهم، بأنه قد عهد بنفسه وبجميع أراضيه إلى كنيسة روما، لكي يحمى من قبلها ضد إدعاء ملك انكلترا، وليعد نفسه، أي داود وورثته، اقطاعياً مستأجراً منها مقابل خمسمائة مارك سنوياً، وبعدما ترافع بطلب العدالة، حصل على رسائل حول هذه القضية، لكن ليس من دون انفاق كبير للمال، و كانت صيغة ما حصل عليه كما يلي:

الكتابات التي حصل عليها الأمير المذكور ضد ملك إنكلترا

«إلى هنري اللامع، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وإلى راعيي ديري أبركونوي Aberconway وكمير Kemereمن طائفة السسترشيان، المفتشان المعينان من قبل قداسة البابا، صحة في الرب: لقد تسلمنا وصاية من البابا، فيما يلي نصها»:

«من أنوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى ولديه المحبوبين كثيراً، راعيي ديري أبيركونوي وكمير من طائفة السسترشيان، المقيمين في أسقفية بانغور Bangor، صحة ومباركات رسولية:

'لقد عرض علينا، باسم النبيل داود، أمير شمالي ويلز ولصالحه، أنه بما أن الحروب، قد دامت قائمة بينه —أي داود المذكور— الذي كان والداه قد قدماه ولد رعاية إلى كنيسة روما، وبين ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك المشهور لانكلترا، وأن ذلك قد استمر حتى بعد الوصول إلى تسوية، بوساطة رجال صالحين، حيث عملت من قبل أخينا المبجل أسقف القديس أساف مع رفاقه، من أن كلا الفريقين سوف يلتزم بقرارهم في جميع قضايا الشكايات، لابل إن يميناً جرت تأديته من قبل الفريقين لهذا الغرض، لكن الملك المذكور لم يقم تقديراً لذلك، وقد خرق قرارهم، حيث لم يكن قانونياً بالنسبة له فعل أي شيء في القضية، وقام بشكل غير متوقع

فعمل حرباً ضد الأمير المتقدم الذكر، وبوساطة القوة وبوساطة الرعب، الذي يستولي في بعض الأحيان، على أشجع الرجال، تمّ إرغامه على التخلي عما كان قد أقسم عليه، ومثل فعل الملك مع آخرين من رعيته بشأن القضايا المذكورة أعلاه، التي من أجلها عملت التسوية، وبناء عليه، بما أن الأشياء التي عملت من خلال الخوف، أو بوساطة القوة، ينبغي أن تعد فارغة من التأثير، إننا بوساطة هذه الوثائق الرسولية، نأمركما، بناء على إخلاصكما، أن تقوما بالتقصي في هذه القضية بكل يقظة، بحثاً عن الحق في هذه المشكلة، وإذا ما وجدتما القضية، حسبما تقدم الذكر أعلاه، حررا بموجب سلطاتنا الأمير المتقدم ذكره، من أية مراعاة أو تقيد باليمين، الذي استخرج هكذا منه، وكذلك قوما من دون أية صعوبات بتحليله، لأن ذلك عدل، بموجب صيغ الكنيسة، أي تحليله من أي حكم صدف وصدر ضده، من قبل أي واحد، فيما يتعلق بهذه المسألة، سواء ضد شخصه أو ضد أراضيه. شهد، إلخ، صدر في جنوى في اليوم السادس والعشرين من تموز، في السنة الثانية من بابويتنا». «وإننا بناء على قوة هذه السلطة، نأمركم بالظهور أمامنا في كيروس Keyrus في كنيسة غستفند Gustefend, في عشية عيد القديسة العذراء أغنس Agnes,للإجابة هناك عن الأمير المذكور، حول القضايا الواردة في الوثيقة المذكورة، حسبما ترياه مناسباً».

وعندما وصلت هذه الوثيقة إلى علم الملك وعلم نبلائه، وبعدما طارت بعد ذلك على أجنحة الشهرة إلى بقية المقدمين، غضبوا غضباً شديداً، وأقنعوا الملك بعدم الانصياع إلى أية أوامر من هذا النوع، وحثوه على الحرب، ومهاجمة داود المذكور من دون أي تأخير، وعندما سمع البابا بهذا، تغاضى عما حدث، وأخفاه كلياً، لكنه على كل حال لم يُعد إلى داود الهدايا التي كان قد تسلمها منه.

حول رعد سمع في الشتاء

في شهر تشرين الثاني من هذا العام، والحوادث الحزينة تقوم بالعبور،

جرى سماع رعـود بشكل واضح، ورؤية بروق، استمـرت لمدة خمسة عشر يوماً متوالية، وتبع ذلك حالة من الأنواء مزعجة.

حول التفتيش الذي جرى بشأن احتلال الغابة الملكية

وفي هذه الآونة، نصح روبرت باسلو Passlow, وكان كـاهناً لدى الملك، بأن يتبنى سلوكاً قـاسياً، يكون في الوقت نفسه مفيـداً له، وكان هذا بأن يقـوم بتفتيش دقيق حـول احتـلال الغـابات الملكيـة، أو الأراضي التي ليست بغـابات، التي هي بين النـاس القـاطنين على مقـربة منهـا، في سبيل تحميل الذين أقدموا على مثل هذه الاحتلالات، عقوبات قاسية، وقام هو، بناء على أمر الملك، بجمـع كل رفاقه من أجل هذه الغـاية، وهم: لورانس، الكاهن في كنيسة القديس ألبان، وغيوفري دي لانغلي Langley, وكان فارسـاً، وذهب روبرت المذكور إلى دوائر مختلف الكونتيـات، وفرض على كثيرين، بوساطة حجج مضاعفة، وقام في سبيل إغناء الملك، بإفقار الجميع بشكل لايمكن الخلاص منـه، وكـان الذيـن أفقـرهـم: رهبـان، ورجـال علمانيين، ونبلاء، وعاديين، وجـاء افقارهم إلى درجة أن كثيرين منهم باتوا من دون بيـوت، ومتجولين، وقد أرغمـوا على التسول، وألقى بآخـرين في السجن، أو جـردهم من ممتلكاتهم كلهـا، فعاشـوا حـالة مـزرية طويلة من الحاجـة والشقاء، وكـان من بين هؤلاء: جـون دي نيفيل Nevill, الذي كان مسـؤولاً أعلى عن الغابات، وكـان أبوه هوغ قد شغل الوظيفـة نفسها قبله، والذي لم يكن الأقل بين نبلاء انكلترا، وقـد جرم وأهين بشكل عميق إلى حـد أنه ألقي به في السجن، وكـان مـن المتـوقع حـرمـانه من ميراثه، أو إرغامـه على دفع فدية مـذلة، أو المعاناة من عقوبة أخـرى قاسيـة، ما لم تقم الرحمة الملكيـة بالتخفيـف من قسـوة العقـوبة، بناء على وسـاطة قـوية، أو وسـاطة بعض النبـلاء الآخـرين، وهـوعلى كل حـال لم يستحق الرحمة من أناس رحماء، لأنه عندمـا كـان مزدهراً، لم يعـرف كيف يرحم الذين كـانوا خاضعين له، في مثل هذه المصيبة.

انتخاب روبرت باسلو إلى كرسي شيستر وهو الانتخاب الذي ألغي بعد ذلك على الفور

وبإضافة هذا المذكور روبرت باسلو، بضعة آلاف من الماركات إلى الخزينة الملكية، حصل على حظوة الملك إلى درجة مدهشة، ولدى رؤية كهنة شيستر هذا، اعتقدوا أنه شخص مناسب، ومفيد كثيراً، ليتولى حكم كنيستهم، بحكم كونه عاقلاً، ورجلاً بارعاً، وقد أملوا بذلك إرضاء الرب وإرضاء الملك والحصول بالوقت نفسه على حظوة الملك وحمايته، وتقدم كنيستهم بذلك، ولذلك انتخبوا روبرت باسلو المذكور أسقفاً لهم، لكن غضب من ذلك غضباً شديداً الرئيس المنتخب لأساقفة كانتربري مع عدد كبير من الأساقفة، وجاء ذلك عندما عرفوا به، واكتشفوا ذلك، وألقى جانباً كل خوف من الملك ومن تعاطفه، وتولى فحص روبرت المذكور، ببعض الأسئلة الصعبة جداً، وجاء ذلك من خلال أسقف لنكولن، ورفض أخيراً انتخاب الأسقف، وألغى انتخابه على الفور، ومن دون أن يطلب موافقة الملك، وعيّن المعلم رتشارد دي ويتز Witz, واشتعل غضب الملك لهذا، وكان ذلك ضد الأسقف المنتخب، وضد الأساقفة الآخرين، وأعطيت موارد المعلم رتشارد المذكور، حتى بعد انتخابه، إلى أشخاص موائمين ويستحقون، لأن المعلم مارتن، كاهن البابا، والذي كان حاضراً وجاهزاً، وكان قد عيّن من قبل البابا لهذه الغاية، غاية السعي بلهفة وراء الموارد الشاغرة، وعندما سمع الملك بهذه الإجراءات، غضب غضباً شديداً، ومنع الأسقف المنتخب حديثاً، والذي جرى اختياره من دون أخذ رأيه، مما سبب إساءة كبيرة له شخصياً وللمملكة، منعه ولم يسمح له بالقبول في أية بارونية تابعة لكنيسته، أو إلى أية ملكية علمانية، وهذا قد جرى ذكره من قبل.

منح الملك لبعض الهدايا الثمينة في كنيسة القديس ألبان

في يوم عيد القديس توما الرسول، ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، ليقيم هناك، وعندما ذهب صاعداً —حسبما جرت العادة— إلى المذبح الكبير، ليقدم هناك صلواته، قدم رداء ثميناً، وثلاثة أطواق ذهبية، ليجري تعليقها في المعبد، بمثابة ذكرى له، وتشريفاً للشهيد، مع أنه كان قد قدم سبعة من قبل.

وأقام الملك لمدة ثلاثة أيام في ذلك المكان، وعندما كان هناك، وصله تقرير بأن كونتسة فلاندرز، قد دفعت دين الطبيعة، وبناء على هذه الأخبار، أمر —حسبما جرت العادة مع الملوك المسيحيين— بتقديم صدقات كبيرة إلى الفقراء، لصالح روحها، وبإقامة جناز مهيب، يعمل بشكل تقي في سدة جوقة القديس ألبان.

عرض مختصر لأحداث هذا العام

وهكذا انتهى هذا العام، الذي كان خلاله كله وافراً بانتاج الفواكه والقمح، وكان ذلك بالفعل كثيراً جداً، إلى حد أن سعر مقياس القمح نزل إلى شلنين، وكانت حوادثه ضارية جداً بالنسبة إلى الأرض المقدسة، وقد تميز بالاضطراب في انكلترا، وكان مشحوناً بالرعب بالنسبة للمملكة الفرنسية، وقد أثار الشكوك في الكنيسة، والشغب بين الايطاليين.

احتفال الملك بعيد الميلاد في لندن
ومنحه شرف الفروسية لجون دي غيتدن

سنة ١٢٤٥، التي هي السنة التاسعة والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، فيها أمضى عيد الميلاد في لندن، واحتفل بمهابة بذلك العيد، برفقة كثير من نبلائه، وفي ذلك المكان، منح في يوم الميلاد شرف الفروسية لجون دي غيتدن Gatesden, الذي كان كاهناً قد تمتع بكثير من المنافع

الغنية، لكنه قام الآن، كما ينبغي، بالتخلي عنها كلها، وكان جون هذا رجلاً حكيماً، ومواظباً، قد قام بوساطة صناعته بإغناء نفسه بكثير من الممتلكات العلمانية، ولدى زواجه من ابنة سيدة نبيلة، اسمها روشيا Roisia دي بروس، تخلى عن المعالجة الخطيرة للأرواح، وتقدم ليصل إلى مكانة أعلى النبالة، ونتيجة لذلك، فإن كثيراً من الذين كانوا نبلاءً من حيث المولد، مع أنهم كانوا وضعاء من حيث العقل، أصبحوا حاسدين له، وأقاموا المصائد لإيذائه، لكن جون المذكور، الذي كان حكيماً نجا من محاولاتهم، لكن ذلك لم يكن من دون مصاعب.

كيف قام رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري مع أسقفي ووركستر وهيرفورد بالعبور إلى القارة

بينما كانت هذه الحوادث في سياق الوقوع، قام بونيفيس رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري مع أسقفي هيرفورد وووركستر، الذين كانوا من بين جميع أساقفة انكلترا الأصدقاء المقربين جداً من البابا، وكانوا المشكوكين بهم الأكثر من قبل الانكليز، قاموا فجأة بالإبحار للذهاب إلى البابا، في سبيل القيام ببعض الأعمال السرية (التي لم تكن معروفة لدى الجماعة بشكل عام)، وكانت جميع القضايا قد جرى توزيعها في دير كانتربري، أو كل ماتعلق بالتجمع الديري، وحسبما هو معتاد في بلاطه، كانت الوظائف مع الموظفين تحت تصرفه، أكثر من أي واحد من سلفه قد سمح له أن يفعل، وكان بونيفيس، بعدما قام أيضاً بفحص دقيق، قد أعلن بأن كنيسة كانتربري، كانت مكبلة بديون لايمكن جبرها، وذلك لصالح رئاسة الأسقفية، وقد بلغت الديون إلى مبلغ خمسة عشر ألف مارك، وبناء عليه عندما كان على وشك المغادرة والاقلاع من دوفر، أمر بجميع الأشجار الحراجية العائدة إلى رئاسة الأساقفة، بأن تقطع وتباع، وأن تجري جباية ثقيلة وفرض ضرائب أيضاً بين رجال الدين، وكذلك بين الناس، وقال بعض الناس، بأن هذه الجبايات قد عملت بقصد القيام بحرب ضد واحد

من فرسان بروفانس، الذي كان عندما سمع بمحتويات وصية ريموند، كونت بروفانس، أبدع خطة للتآمر، يخطف بموجبها الابنة الصغرى للكونت، لأن الكونت عندما وجد نفسه على حافة الموت، وعلى وشك توزيع ممتلكاته، وعمل وصيته، دعا إليه ابنته الصغرى، وخاطبها بهذه الكلمات:

«ابنتي العزيزة، المحبوبة لدي أكثر من جميع أخواتك، أنا مدرك أنه بقدر من الرب، تمتعت بناتي كلهن، باستثنائك وحدك، بزواج مغبوط إلى أعلى الدرجات، وكان ذلك موضع اعجاب جميع المسيحيين، وإليك بناء عليه سوف أعطيك وأهبك عند زواجك —بإرادتي ووصيتي— جميع أراضي، مع أموالي، وقلاعي، وجميع ممتلكاتي الأخرى، لأن أخواتك لسن بحاجة إلى تقسيم الميراث، في سبيل إعطاء حصة لكل واحدة منهن»، ونتيجة لذلك، وكما ذكرنا من قبل، فإن أحد الفرسان الذي كان صاحب ملكية صغيرة، لكن كان جريئاً وشجاعاً في الحرب، انجذب بجمال السيدة، وكذلك بالميراث الغني العائد إليها، فقام باختطافها بشكل سري، ووضعها في مكان آمن، في قلعة قريبة، كانت عائدة إليه، عاداً ما عمله ذنباً مغفوراً تماماً، تبعاً لقول الشاعر:

المرأة جائزة مفرحة

وغضب جميع أقرباء الكونت وأصدقاؤه من هذا العمل المتهور لهذا الفارس، وشنوا الحرب ضده، وكان الفارس —على كل حال— واثقاً من كونه كان متملكاً للجائزة، ومعتمداً على حقه، زاد يومياً من تعداد أصدقائه، ودافع عن نفسه بشجاعة، وعن هذا، صدر لذلك، في تلك المناطق صراع كبير، وكانت هناك اضطرابات مؤذية بين الفئتين، بسبب هذه السيدة، ثم إن الملك الفرنسي، بحكم وجود الابنة الكبرى، التي كان متزوجاً منها، ادعى بجرأة وطالب بالحق العائد إليه بشكل خاص، وبهذا ازداد الصراع عنفاً يومياً، لأن البروفانسيين كانوا يشعرون بكراهية عظيمة

ضد الفرنسيين، وأعار بونيفيس، الرئيس المنتخب لأساقفة كانتربري مع أخيه فيليب بال Bal اهتمامهما لهذه الحرب، لأنهما كانا خالا الفتاة، مما سبب نفقات كبيرة وأذى عظيماً للكنيسة الانكليزية، ففي سبيل تقوية الحرب، اخترعا كثيراً من الأعذار من أجل جمع المال، وكدسا معاً الكنز فوق الكنز، ووزعا هذه الأموال بين الفرسان المدفوع إليهم مع رجال آخرين من أقربائهما، وأكدا —في سبيل إعطاء لون ما لشرورهما— أنهما بحاجة كبيرة لهذا المال في سبيل تحرير كنيسة كانتربري، التي قالا: (كثيراً في سبيل إيذاء أسلافهما، الذين كانوا على رأس تلك الكنيسة، وحكموها دوماً من دون ملامة) بأن رؤساء الأساقفة المتقدمين، قد أثقلا الكنيسة بأعباء من الديون قد يكون من غير الممكن الوفاء بها وسدادها، وحصل بونيفيس من البابا على امتياز غير اعتيادي، لم نسمع قط، ولانذكر بأنه قد منح مثله من قبل إلى أي إنسان، وحصل أخوه فيليب أيضاً —الذي كرس نفسه إلى السلاح في هذه القضية— على امتياز من البلاط الروماني، مقابل نفقات عالية، حيث أعطي إذناً بالاحتفاظ بالموارد، التي قد حصل عليها في انكلترا، وكذلك انتاج أسقفية بلنسية، وكذلك بعض الموارد الأخرى الكبيرة، التي كانت مستفيدة آنذاك، وحول هذا سوف تحكي الرواية التالية التفاصيل وتوضحها.

ولادة ملكة إنكلترا لصبي

في يوم عيد القديس مرسيلوس Marcellus, ولدت الملكة إليانور صبياً، منح —بناء على أمر الملك— اسم إدموند.

موت كونتسة أكسفورد

في يوم عيد طهارة القديسة مريم، غادرت كونتسة أكسفورد، التي عرفت رسمياً باسم ايزابيلا دي بيلبك Belbec, هذه الحياة، وقد دفنت في كنيسة الرهبان الدومينيكان، في اكسفورد، التي كانت هي المؤسسة لها.

موت بلدوين إيرل أوف ديفون

في اليوم التـالي لعيد القـديس فالنتـاين، مات بلدوين ايـرل أوف ديفون Devon, وكان في مطلع شبابه، وكان يعرف بشكل عام بـ «دي لى آيل» L'Isle وكان مـوته مناسبة للبكاء، حتى مـن قبل أعدائه، إن كـان له أياً منهم.

حرمان الإمبراطور كنسياً ثانية في فرنسا

ومع بداية الصـوم الكبير، أمر البابا بأن يحرم الامبراطـور كنسياً في جميع أرجاء فرنسا، وذلك بسبب بعض الأذى الجديد الذي اقترف من قبله، ضد أقربائه —أي البابا— وضد بعض اللاهوتيين، ولدى ارسال هذا الأمر من قبل واحد من موظفيه إلى واحد من الكهنة كان يعيش في باريس، شعر هذا الكاهن بحزن عظيم، لأنه غدا من نصيبه القيام بحرمان الامبراطور كنسياً، ونحن لانعرف لماذا كـان لديه تقديراً له، ولقد لعن البـلاط الروماني، الذي كانت له تجربتـه معه، وبناء عليـه قال في يوم العيـد، بشكل علني إلى أعيان الباريسيين الذين كانوا حضوراً بأعداد كبيرة:

«أصغوا إليّ أنتم جميعـاً، لقد تسلمت أوامر، بأن أقـوم والشموع مشتعلة والأجراس تقـرع، بإصدار قرار مهيب بالحرمـان الكنسي ضد الامبراطور فـردريك، وأنا جـاهـل بسبب هذا، لكنني لست جـاهلاً بالصراع الجاد، والكراهيـة التي لايمكن اخمادها، والتي نشأت بينه وبين البـابا، وأنا على دراية بأن أحـدهما اقترف أذى ضد الآخـر، لكن من الذي هو المذنب ضـد الآخـر، أنا لاأعـرفـه، وإنه بالنسبـة لسلطاتي، على كل حـال، التي تشمل الحرمـان الكنسي، فإنني أعلن أنه محروم كنسيـاً الذي اقترف أذى بحق الآخـر، وليكن أي واحد من الاثنين، وإنني أحلل الذي عـانى من الأذى، الأمر الذي هو مضر بالنسبة لقضية المسيحية».

وقـد تفـوه بهذه الكلمات الخفيفـة، على شكل مـزاح، وفـق طرائق

الفرنسيين، وقد صارت على الفور في أفواه الكثيرين، وقد انتشرت بالطول وبالعرض، حتى وصلوا مؤخراً إلى علم الامبراطور، الذي قام بعدما قدر معانيهم ومراميهم، فأبدى سروره من الكاهن المذكور، وأرسل إليه بعض الهدايا اللطيفة، لكن البابا اتهمه بالاستخفاف، وبالكلام الطائش، وعاقبه.

الاستيلاء على ثلاثمائة ويلزي

وأثناء الصوم الكبير نفسه، جرى مقتل ثلاثمائة ويلزي، وأكثر في مونتغومري Montgomery, وجاء مقتلهم على أيدي الانكليز تحت قيادة قسطلان قلعة ذلك المكان، الذي وضع ببراعة كميناً خلفهم، ثم إنه أظهر مايشبه الذعر، فتراجع أمام الويلزيين، وعندها هاجمهم الانكليز الذين كانوا متخفين من الخلف، وجعلوهم جميعاً طعمة للسيف.

اعتقال مونثونت من قبل الويلزيين

ورغب في الأسبوع نفسه داود بأن يعوض خسائره، فناوش الانكليز وضايقهم بوساطة غارات ليلية مستمرة، وشغل نفسه من دون توقف بالقتل والنهب والاغتصاب، لكن عندما قدم بعض الفرسان الانكليز الشجعان من الحدود للتصدي للويلزيين مع الحدوديين الخاضعين لهم، وقام الويلزيون، حسب عادتهم بالفرار إلى الأماكن الوعرة، والتي لايمكن الوصول إليها في الجبال لنصب الكمائن لأعدائهم العابرين، قذفوا من رؤوس الجبال بالحجارة والأسلحة، حيث جرحوا عدداً كبيراً من الانكليز، كان من بينهم نبيل انكليزي اسمه هيربرت فتز— متى، الذي قهر بوساطة كتلة من الصخر، حطمت رقبته، وسحقته حتى الموت، وإلى هيربرت هذا نفسه، حدث له حادث مدهش، يستحق الرواية، وتدوينه كتابه، فبعدما كان قد تمّ الاتفاق، وتقرر من قبل الانكليز في اليوم المتقدم، بأنهم ينبغي الزحف في اليوم التالي على تعبئة ضد داود وعساكره الويلزية، انزعج هيربرت المذكور في منامه بوساطة حلم، أو بالحري بوساطة رؤيا،

حتى أنه أفاق وهو في حالة خوف عظيم وهو يرتجف، وبقي غير قادر على الاستراحة وعلى النوم طوال بقية الليلة، وأرسل في الصباح الباكر خلف كاهن، وعمل له اعترافاً كاملاً، وحصن نفسه بأخذه أيضاً قرباناً صحيحاً، وعندما سئل عن السبب لفعله هذا، خاطب رفاقه وهو يتنهد، وكأنه يتحدث بوساطة روح منذرة سلفاً، وحدثهم عن غرائب حلمه المرعب، وقال بالوقت نفسه:

«مراراً كثيرة انشغلتُ أنا كثيراً في استخدام السلاح، وعرضتُ نفسي لمخاطر الحرب، لكن اليوم أنا أعتقد باخلاص أن براعتي المتوالية باستخدام السلاح، سوف تصل إلى خاتمة نهائية»، ولدى سماع رفاقه بالسلاح لهذه الكلمات، والذين كانوا يقدمون تأويلاً صالحاً لكل شيء، أعلنوا أنه يتوجب وضع ثقة قليلة بالأحلام، وأخذوه بعيداً معهم، في سبيل أنه، وهو الذي غالباً ما هزم أعداءه، ينبغي عدم اتهامه بالخوف، ولكن في اليوم نفسه، عندما كانوا يعبرون خلال مكان ضيق، يدعى بشكل عام باسم الممر، حدثت المأساة التي تقدم ذكرها، وسقط مقهوراً بكتلة من الصخر، وحزن الانكليز كثيراً لوقوع هذا الحادث، وتوقف جميع الجنود، ودفنوا جسده، بمراسيم مهيبة، وحدثت وفاته في اليوم التالي لعيد طهارة القديسة مريم.

الموت المأساوي لهيربرت فتز— متى

وذكر أشخاص آخرون بأن هيربرت فتز— متى، سقط من على حصانه، وعندما كان ما يزال حياً، جاء ويلزي، وتصارع الرجلان مع بعضهما بعضاً، حول من سيكون الآسر للآخر، من أجل الحصول على الفدية، وأراد أحدهما أن يضع نهاية للصراع، فطعن هيربرت بطعنة مرت من الخلف خلال جسده قائلاً: «الآن يمكن أن يختار أن يأخذه»، وجرى العثور عليه في اليوم التالي، ويده موضوعة على جرحه، وكان عارياً، وأمكن فقط التعرف عليه بين الموتى من خلال خاتم زمرد، وتشجع

الويلزيون كثيراً بهذه الحادثة، وانشغلوا بجرأة أعظم مما هو معتاد في تدمير أعدائهم، وكثيراً ما حققوا النصر في غاراتهم، وحدث على كل حال، بوساطة حادثة غير متوقعة، أن جرى مقتل ثلاثمائة من الويلزيين في مونتغومري، نتيجة لكمين وضع في ساقتهم، لكن داود، وبعض مرافقيه نجوا، وألقى الحصار على قلعة مونتهوت، التي استولى عليها في وقت قصير، وكان ذلك بعدما قتل جميع الذين وجدهم هناك، أو جلبهم إلى جانبه، وقد تمتع بنصره حسبما رغب، لكن صاحب القلعة،وهو روجر دي مونتهوت، لم يعثروا عليه هناك، لأنه كان قد حمل نفسه إلى مكان آمن، وغدت الحرب منذ ذلك الحين حرباً هي الأكثر دموية، ولم تظهر أية فئة أي احترام للجنس، أو العمر، أو المرتبة، بل تورطوا مثل بعضهم في دمار عام.

عقد مؤتمر خياني من قبل بعض الكرادلة

وفي تلك الآونة، وبمبادرة من البابا، إنما بشكل سري، قام بعض الكرادلة، الذين أحبوا المال فقط، مع مايشبه صداقة كبيرة، فأرسلوا رسالة إلى الملك، كان محتواها ومقصدها هو مايلي:

«نحن نرجوك، بطريقة صديقة، بأن نوصي لك بخطة، سوف تكون مفيدة ومشرفة لك شخصياً، ومجيدة وذات منافع كبيرة للمملكة، وذلك بأن تقوم بوساطة رسل خاصين، أنت تتولى ارسالهم بطلب إلى البابا بأن يتطلف، ويشرف بحضوره مملكة انكلترا، التي كما هو معروف له فيها حق خاص، ونحن من جانبنا سوف نبذل كل ما لدينا من قدرة لدعم التماساتك. بجعله متعاطفاً مع طلبك، لأننا راغبين في زيادة فوائد مملكتك، لأنه سوف يكون تشريف عظيم جداً وتمييز لك، ولمجدك الأزلي، أن يظهر البابا، الذي هو أبو الآباء، شخصياً، في أيامك، في الأراضي الانكليزية وهي واقعة، ليس من المتذكر أنها وقعت في أي وقت مضى، ونحن نتذكر بأننا سمعناه يقول بأنه سوف يكون مسروراً، بأن يرى بهجة ويستمنستر، وثراء لندن»، وعندما علم الملك بهذا، بات مسروراً جداً، وكان على

استعداد للاستجابة لهذه الخطة الخيانية، لو لم يكن تلقى التشجيع لمعارضتها ولعدم الموافقة عليها، بوساطة نصيحة مستشارين عقلاء، الذين قالوا بأن طهارة انكلترا كانت كافية، وأنها تلوثت كثيراً بربا القرصان، وبالسرقات وبالسيمونية الممارسة من قبل الرومان والايطاليين، مع أنه شخصياً لم يبدد ممتلكات الكنيسة، ولم يسع لالتهام الأشياء الجيدة العائدة للمملكة، وهو في الوقت نفسه لم يسمح له بالدخول إلى مملكتي فرنسا وأرغون، وهو ما بعث يطلبه بوساطة رسل خاصين، لأن الاسم الشرير للبلاط البابوي، والرائحة النتنة له التي وصلت بدخانها الملوث القذر حتى السحب، تستحق الوصول إلى مثل هذه المحصلة.

البابا يدعو إلى عقد مجمع عام في ليون

وفي حوالي منتصف الصوم الكبير من العام نفسه، وصل رسل البابا إلى انكلترا، بقصد الدعوة إلى عقد مجمع عام، وكانوا يحملون الرسالة التالية من البابا:

«من انوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أولاده المحبوبين كثيراً رعاة الديرة ورؤساء الرهبان في جميع أرجاء انكلترا، صحة ومباركات رسولية:

إن فضيلة الرب وحكمته التي هي خاضعة لجلالتها —التي لايمكن وصفها— جميع الأشياء، وهي من بداية الدنيا قد ميزت كنيسته بالعظيم من أعماله الصالحة، وهذا الامتياز المنفرد من السلطة، قد جعلها هكذا متميزة، حيث من خلالها يمكن تحقيق العدالة، ومن الممكن إطفاء لهيب الحرب، وتحقيق الهدوء في جميع أرجاء العالم، وفي الوقت الذي جرى فيه تعييننا —مع أننا لانستحق— بوساطة الحكمة الربانية لنتولى الرئاسة على حكومة الكنيسة بشكل عام، ولذلك سوف ندفع كل الاحترام المستحق إلى عظمة ومجد ذلك المنصب، ومع ذلك صرنا قلقين في قلوبنا من أن شدة العاصفة التي اضطربت منها الكنيسة، واهتزت الديانة المسيحية إلى

أسسها، ولكي يمكن برضا السماء وعطفها تجنب ذلك بمساعدة ترتيباتنا، وبناء عليه قررنا دعوة ملوك الأرض، وأساقفة الكنيسة، والأعيان الآخرين للعالم بشكل عام، في سبيل أن تتلقى الكنيسة نفسها المشورة الصحيحة، والعون المفيد لجميع المسيحيين الحقيقيين، ولكي تتلقى جميع التشريف الذي تستحقه، ومن أجل توفير المساعدة المستعجلة للأرض المقدسة، في وضعها المأساوي المفزع، ولمعالجة بلوى الامبراطورية الرومانية، ولكي نحصل على وسيلة للتخلص من التتار وضدهم، ومن خصوم الإيمان الآخرين والمضطهدين للشعب المسيحي، وكذلك كي يجري تقدير قضايا الخلاف بين الكنيسة وبين الامبراطور، ونحن أيضاً نرجوكم، ونحثكم في تقواكم، وبوساطة هذه الرسائل الرسولية نأمركم، بأن تضعوا جانباً كل الحجج والمعاذير، حتى تظهروا شخصياً في حضرتنا في العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان، في سبيل أن تشعر الكنيسة ببهجة روحية، بتشريفها بزيارتكم، وبمشوركم النافعة في أعمالنا، وعلينا أن نخبركم أيضاً، أننا في موعظتنا قد دعونا الامبراطور المتقدم الذكر، للظهور شخصياً، أو بوساطة رسالة، في المجمع الذي سوف يجري عقده، وليكون هناك حتى يجيبنا ويجيب الآخرين، الذين من الممكن أن يتقدموا بأية شكوى ضده، وليقدم ترضية مناسبة حول المسائل المعروضة، وبالنسبة للعدد المتواضع من المرافقين، ومن أجل التسهيل عليك عندما تأتي إلى هاهنا، مارس ماينبغي من حكمة، في سبيل الحيلولة دون تحمل كنائسكم الكثير من الأعباء مع النفقات. صدر في ليون، في هذا اليوم الثالث عشر من كانون الثاني، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف أرسل ملك إنكلترا وكيلاً إلى البلاط الروماني

وعاني الملك في هذه الآونة مما بدا له ولأصدقائه، أذى عظيماً، بما أن عدداً كبيراً من الأساقفة جرى تعيينهم من دون موافقته، وقام بناء عليه، في سبيل الشكاية من هذا، و لكي ينجح دعواه ومطلبه الذي حصل عليه،

والذي تقرر في الأيام الخالية، أرسل المعلم لورانس من كنيسة القديس مارتن، وكان كاهنه، ورجلاً قديراً، وبارعاً في القانون، أرسله ليكون وكيلاً له في بلاط روما، من أجل تلك الغاية، وفي الوقت نفسه لمعالجة بعض القضايا الأخرى الصعبة، المتعلقة بالملك وبالمملكة، وكان عمله الرئيسي مرتبطاً على كل حال بأعمال روبرت باسلو، الأسقف المنتخب لشيستر، الذي كان انتخابه من دون استشارة الملك حول المسألة، والذي ألغي فجأة في بيت كهنة شيستر، في وسط المملكة بالذات، وخلع روبرت المذكور من قبل بونيفيس، رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، الذي كان الملك قد استدعاه مؤخراً إلى مملكته، ورقاه إلى تلك المرتبة العالية، ليس من دون شكايات وعدم رضا توفر بين عدد كبير من الناس.

وكان الملك جديراً بأن لاينال، ولاأدنى حظوة حول هذا الجانب من القضية، ولكن لأنه غالباً ما استخدم محاججات بارعة، ومعاذير متنوعة متقلبة، قد تمكن من رفض عدد من الرجال الموائمين، خاصة من الرهبان، الذين كان مرتبطاً نحوهم بترقيتهم وبحمايتهم، مثلما فعل الملوك المقدسين للعصور الخالية، وتم الحصول على علاج للخلاص من مثل هذا الشر العظيم، تسبب من دون أن يعرف هو الذي صممه بشرور عظيمة، أو أنه حتى لو عارضه، كان يتوجب تقديم ما تحتاجه الكنائس المترملة، التي كانت بحاجة لأن يعيّن فيها بالسرعة الممكنة أشخاصاً مناسبين وموائمين، وذلك في سبيل أن لاتستمر رعية الرب عرضة للأذى، وهو أمر يبدو أنه منسجم مع المنطق، وحزن النبلاء تجاه هذه الاضطرابات، وتجاه دمار المملكة، أكثر من انزعاجهم تجاه اضطرابات الملك.

أعذار عملت من قبل الملك من أجل بعض الأساقفة الذين كانوا غير ذاهبين إلى المجمع

وعندما وصلت الدعوة العامة للحضور والمشاركة في المجمع إلى مسامع الأساقفة، عمل عدد منهم الاستعدادات للسفر، وآخرون كانوا

مرتبطين بأعمال الملك، أو كانوا مرضى أو مسنين، تقدموا باعتذاراتهم عن المشاركة والحضور، إما من خلال الملك، أو بإرسال نواب أساقفة أكفاء، وبالنسبة للملك، الذي التمس بكل تواضع الحصول على إذن لغياب بعضهم من البابا، ردّ عليه قداسته بالايجاب كما يلي:

رسالة البابا

من انوسنت، الأسقف، إلخ، إلخ، إلى ابنه المحبوب في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، صحة، ومباركات رسولية:

نحن نشعر تجاه شخصكم، بحكم كونكم ولداً مخلصاً للكرسي الرسولي، بتقدير أبوي خاص، وبالنسبة إلى التماساتكم، نحن نمنحها أذناً صاغية، بقدر ما يتماشى ذلك مع احترامنا للرب، ولذلك نحن نمنحكم موافقة راضية، وبما أنكم رجوتمونا بتواضع بوساطة رسولكم المعين، المعلم لورانس، المحبوب لدينا كثيراً، وكذلك بوساطة رسائلكم، بأن نيتكم في الصيف المقبل الزحف مع جيش لمعاقبة وقاحة بعض المتمردين من رعيتكم، فإننا سوف نعدّ ذلك اعتذاراً عن حضور المجمع، الذي سوف نعقده —بإذن الرب— في العيد المقبل لميلاد القديس يوحنا المعمدان، وفيما يتعلق بأخينا المبجل أسقف أوف كارآيل، وابننا المحبوب راعي دير ويستمنستر، اللذين بحكمة عينتهما، ليتوليا المسؤولية عن مملكتك أثناء غيابك في تلك الحملة، وكذلك بالنسبة لأخينا المبجل أسقف للانداف، الذي حرم من جميع ثروة أسقفيته بوساطة أعداء جلالتك، وكذلك بالنسبة لولدينا المحبوبين: راعي دير القديس ادموند، الذي يعاني من النقرس، وراعي دير والتهام الذي عجز وأقعد بسبب السن، إننا في رغبتنا المخلصة في زيادة تقدم مملكتكم، وفي سبيل ترسيخ السلام فيها، على استعداد لإظهار جميع الحظوة والنعمة لكم ولصالحكم، لرفاقكم، وذلك بقدر ما نستطيع فعل ذلك تماشياً مع واجبنا إلى الرب، وبناء عليه إننا بوساطة هذه المعروض، نمنح طلبك، ونلتمس بحرارة، في الوقت نفسه، من جلالتكم

عدم الغضب تجاه رؤيتنا أنه من غير المناسب، الاستجابة لكم بقبول العذر لصالح أخينا المبجل، رئيس أساقفة يورك، وذلك حسبما أشير إليه في رسائلكم المتقدم ذكرها، وكذلك حسبما حثنا على ذلك المعلم المتقدم ذكره باسمكم، لأنه، بحكم كونه عضو شريف في كنيسة الرب، نحن نعدّ حضوره ضرورياً بالنسبة للمجمع المتقدم ذكره. صدر في ليون، في هذا اليوم العشرين من أيار، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف بقي بعض الأساقفة الإنكليز معذورين وكيف جرى اتهام راعي دير بيتربورا الذي أرغم على الذهاب إلى البلاط الروماني وأسيئت معاملته

وفي الطريقة نفسها جرى أيضاً منع بعض رجال الكنيسة الانكليز، والأساقفة وكذلك رعاة الديرة (وكان من بين هؤلاء أسقف إيلاي وراعي دير القديس ألبان) من حضور المجمع بوساطة أسباب كثيرة جرى التعبير عنها، وأرسلوا اعتذارات معقولة، إما أنهم كانوا غير أصحاء، أو مسنين، أو ضعفاء، وكان ذلك من خلال وكلائهم، الذين أرسلوا بوساطتهم تحياتهم إلى البابا والكرادلة، وكذلك بعض الهدايا الجميلة، وبحصولهم منهم على قبول الشكاوى بهذه الوسائط، سمح لهم بالبقاء في الوطن، وكان راعي دير بيتربورا —على كل حال— رجلاً غير مؤذ، وكان قد تلقى من البابا أمراً خاصاً، أكثر من سواه حول هذه القضية، فذهب إلى البلاط الروماني، ولدى وصوله إلى هناك تلقى اتهاماً ثقيلاً، وقد وجّه هذا الاتهام ضده من قبل المعلم مارتن، كاهن البابا، الذي كان مقيماً في انكلترا، بأنه قد رفض أن يتخلى عنه (وهذا بالفعل ماتوجب عليه أن يفعله) —أي إلى المعلم مارتن— من أجل استخدامات واحد من أقرباء البابا، عن احدى الكنائس، التي كان راعي الدير قد أعطاها إلى شخص صاحب كفاءة وكان موائماً، وعلى هذا عندما ظهر راعي الدير في البلاط الروماني، قام البابا، أو أصدقاء البابا، من خلاله، بإهانته وتوبيخه، وأمروه في سبيل الحط من شأنه

وعـدم احترامه، بالتخلي عن قصره، ونتيجـة لذلك هو لم يعرف بعـد ذلك الهناء، بل وقع، من خـلال الحزن، بمـرض لايمكن الشفاء منه، وغـادر في العام نفسـه طريق الجسد، مما شكل خسـارة عظيمة لكنيسته، التي سـاسها بحكمة عظيمة وبعقلانية.

موت غيلبرت دي هنفرنفيل

وفي الوقت نفسـه، أي في أسبوع آلام ربنا، مات غيلبرت دي هنفـرنفيل Hunfrunville وكـان بارونـاً مشهـوراً، وحـاكماً وزهرة للمقـاطعـات الشماليـة من انكلترا، تاركـاً ولداً طفـلاً بمثـابـة وريث لممتلكاته، ومنحت حكومتـه على الفـور إلى سيمـون، إيرل أوف ليستر، مما أغضب كثيراً ايرل رتشارد، الذي كان متطلعاً إلى الوظيفة نفسها.

موت كاردينال دي تيرن

ومـات في العـام نفسـه أيضـاً الكاردينال غيـوفـري دي تيرن Turne, وكان خصيصـاً بالبابا وصديقـاً نافعاً له، ولم يكن هناك من هو أكثـر شهرة منه لعلمه وأخلاقه.

كيف أرسل الإيرل رتشارد والملك الفرنسي وبعض آخر نجدات إلى الأرض المقدسة

وفي الوقت نفسه وردت تقارير متواليـة من الأرض المقدسة، كانت غير مـواتية كثيراً، إلى حـد أنه خيف من أن البـلاد كلها بـاتت عرضـة للخطر، وبناء عليـه أرسل الايرل رتشارد مع بعـض الأصدقـاء المقربين إليـه، ألف باوند إلى هناك، على سبيل المساعدة للبـلاد، من خلال الاسبتارية، وكذلك في سبيل تجفيف الدموع من على وجنتي أمنا الكنيسة، التي كانت تبكي على أولادها الذين قتلوا مؤخراً، أرسـل الملك الفرنسي، والداوية والاسبتارية، إلى هناك بكل سرعة، عشرين فارساً جديداً، وكتلة من الجنود مع مبلغ كبير من المال من أجل عون ومساعدة الذين كانوا يسكنون هناك، والذين كانوا

يتحملون هجمات يومية من الخوارزمية ومن المسلمين الآخرين، وحصل الملك الفرنسي أيضاً، واستفاد من حضور نائب بابوي لسن، وواعظ مستقيم، في فرنسا، ليتولى التبشير بحملة صليبية هناك.

مثابرة المعلم مارتن على جمع الموارد

وكان في الوقت نفسه المعلم مارتن، الذي وردت الإشارة إليه مراراً، والذي هو كاهن البابا، مثابراً جداً، وشاغلاً من دون توقف، نفسه، في جمع الموارد، بأية طريقة رغب بها، من أجل استخدام البابا، وفي منحهم إلى أقرباء البابا، وبشأن جرأته، وشرهه المؤذي، أنا أعتقد أنه أشرف وآمن —صدوراً عن الاحترام لكنيسة روما المقدسة— أن أكون صامتاً، فذلك أفضل من أن أؤذي مسامع جمهوري، ومن ازعاج عقول المسيحيين بالقيام بحكاية مثل هذه الأشياء، فلقد جرى الاستيلاء على خزينة سالسبري مع خزائن كثيرة أخرى، وحسبما ذكرنا من قبل أعلاه، جرى الاستيلاء عليهم بالقوة، وأخذوا بشكل خاص من الرهبان، وجرى طلب ارسال الأموال والهدايا إليه على الفور، والذين رفضوا الاستجابة جرت معاقبتهم بشدة، وآثر الملك قضيته أيضاً، وحماها ضد جميع الفئات ربما صدوراً عن أمل التعويض، وهكذا صارت أحوال المملكة الأكثر تعاسة.

كيف جرى وضع الحرس على المرافئ لمنع رسل البابا من دخول المملكة

في هذه الحالة الحرجة جداً التي عاشتها مملكة انكلترا، صدرت أوامر من بعض النبلاء، الذين بكوا، وتأثروا كثيراً من المظالم الكثيرة والتي لم تتوقف، ومن نهب المملكة، بوجوب مراقبة جميع الموانىء البحرية للمملكة بيقظة وعن قرب، في سبيل أن رسائل البابا، التي كانت تجلب يومياً إلى انكلترا، لاستخراج المال، يتم القبض عليها، وحدث في هذا الوقت، وصول واحد من رسل البابا، وقد نزل في دوفر، وهو يحمل

بالرسائل من أجل هذه الغاية، وكلها مختومة بالخاتم البابوي، وقام حاكم ذلك الميناء ووالي البلدة، باعتقاله على الفور، حسبما كانوا قد أمروا، وبعدما أخذوا منه جميع الرسائل المختومة، والرسائل الأخرى، التي كانت تحتوي على كثير من الأمور البغيضة، على شكل حجج متنوعة من أجل استخراج المال، سجنوا الرسول نفسه، في قلعة دوفر، وعندما سمع المعلم مارتن بهذا، ذهب إلى عند الملك، ليتقدم بشكوى إليه حول هذا الإجراء، وأنكر الملك على الفور بأنه كان المحرض على ذلك، وقام في سبيل إيذاء المملكة، والحط من كرامته، فأمر باطلاق سراح الرسول، وبانتزاع الرسائل بالقوة من عمدة دوفر، وبتقديمها إلى المعلم مارتن، الذي فرح كثيراً من خلال تأثير تقديم بعضهم.

حريق حجرة البابا

في أسبوع الابتهالات (الأيام الثلاثة قبل عيد الصعود) حدث حادث محزن، فقد تعرضت حجرة البابا في بيته في ليون للحريق، وكانت حجرته الخاصة، أي خزانة ملابسه، فقد احترق كل شيء كان فيها، وأعلن بعض من المسؤولين الأشرار للأشياء، بأنها أحرقت عن عمد، في سبيل أن يمتلك البابا الحجة من أجل طلب المال واستخراجه من الأساقفة، الذين كانوا قادمين إلى المجمع، وقد استعرت النار —على كل حال— بشدة أكبر مما هو متوقع، وأحرقت بعض الأشياء التي نظر إليها نظرة تقدير خاصة، وانتشرت أخبار بين كثير من الناس، بأن الصك المقوت، فيما يتعلق بالضريبة الانكليزية، وهو الذي عمل في أيام الملك جون —صاحب الذكرى الحزينة— قد تحول إلى رماد، بوساطة النار نفسها.

كيف جرت معارضة البابا من قبل كهنة ليون في مسعاه لغزو بعض الأوقاف الشاغرة

وفي حوالي الوقت نفسه، رغب البابا، من دون التشاور مع الهيئة

الكهنوتيــة، في تعيين بعض الأجانب، أو الأقــرباء، أو بعض أصــدقائــه في بعض الأوقاف الكنسية الشاغرة في ليــون، وقد عارضه كهنة تلك الكنيسة مجابهة، وهــددوا معلنين ومقسمين، أنه إذا مـــاظهـــر أي مــن مثل هــؤلاء الأشخــاص في ليــون، فإنه لارئيس الأســاقفة، ولا الكهنة ســوف يكونــوا قادريــن على حمايتهم، من إلقائهم في نهر الــرون، ولذلك فإن الذين كــانــوا على وشك قبول المنافع، لم يظهروا هناك مطلقاً.

وفي حــوالي الوقت نفســه، تصرف واحــد من بوابي البــابا بشكل أشـــد خشــونة ووقــاحة مما ينبغي، فــرفض السماح بالدخــول لواحــد من سكــان ليــون، الذي طلب السماح له بتواضع وأدب، ونتيجــة لذلك صار الليــوني غــاضبــاً، وحانقــاً، فبتر يد البــواب بشكل كــامل، وتقــدم الرجل الجريــح بشكوى جــادة أمــام البــابا، وأراه في الوقت نفســه ذراعـــه المبتـــور، وبناء عليـــه طالب صــاحب القداسة بالانتقام، وفقاً لقــانون المدينة، الأمر الذي تدبــره بطــرس الوصي على ســلام الكنيســـة، بطريقـــة أو أخـــرى، أمكن بوساطتهــا الحفاظ على شرفه، وعلى الأقل ظاهرياً رممت كرامته.

وفي حوالي هذا الوقت، أيضاً، مات المعلــم إيليا أوف درم، وكان كاهــن سالسبري، وقام المعلم مــارتن بوضع يديه الجشعتين على الفور على موارده الشاغرة، من أجل استخدام البابا.

كيف منح الملك مرتبة الفروسية إلى رتشارد دي كلير في لندن

في أحــد الشعانين، أقــام الملك احتفــال هذا العيــد بأبهة كبيرة في لنــدن، حيـــث منــح مرتبـــة الفــروسـية إلى رتشــارد دي كلير Clare, الذي كــان الآن يحمل مــرتبة ايرل، وحــدث ذلك بحضور حــوالي الأربعين نبيلاً شــابــاً، وبناء عليــه احتفل الفــارس الجديد، وأكمل تنصيبــه بسرور عظيم وســـط أتباعــه الفرســان، وأقام الملك في الوقت نفســه بحثاً دقيقــاً في جميع الكونتيـــات، لمعرفــة كمية الموارد التي تسلمهــا الرومان، وكــذلك لمعرفــة

عـدد الايطاليين الذين أغناهم البلاط الروماني بالخداع وبالقوة في انكلترا، وقـد تبين أن هذه الموارد تصل سنوياً إلى مبلغ ستين ألف مارك، وهو مبـلغ أكـــبر من المورد السنـوي لانكلترا كلهـــا، ولذلـك ثارت دهشـــة الملك —وإن جاء ذلك متأخراً— وأثير —ليس من دون سبب جيد— غضبه.

وفي حـوالي الـوقت نفسـه، منح راعي ديـر كلوني البـابا، ثـلاثين مهـراً جيـديـــن ورشيقـــين، حسبـــوا بشكل مناســـب مع العــدد نفســه من حيـوانات التحميـــل الذين ندعوهـم باسـم «خيـول التحميـــل»، وجرى تجهيـز هـؤلاء ليكونوا منهم.

كيف جرى إرسال رسل من قبل جماعة إنكلترا إلى المجمع

ثم إن الملك شرع —وإن كان ذلك قد جاء متأخراً— يتأمل وهو يشعـر بالتقزز تجاه الجشع اللامحدود للبلاط الروماني، وحول الاستيـلاء المـؤذي، والسرقـات اللاقـانونيـــة، التي عـانت منهـا الكنيســـة، لابل في الحقيقـــة المملكة كلهـــا، وبنـاء عليـه جـــرى إعـداد رسـالة مـؤثرة من قبل جمـاعة المملكة بشكل عـام، في محتـوياتها جـرى تقـديم عـرض —حسبما ســـوف تظهـر الرواية التـالية— حول الاستخـراجات اللامحـدودة للبـابا وحـول المكوس المتنـــوعة والمضاعفـة التي فرضهـا نوابـه، وبعض الكهنـة الذيـن جرى تزويدهم بسلطات لم يسمع بمثلهـا، ومع هذه الرسـالة، جرى آنذاك ارســـال بعض النبـلاء والرجال الأكـفاء، إلى المجمع، ليتقدمـوا بشـكوى ثقيـلة حول هـذه القضايا، وخاصـة حول فرض المكـوس، التي لم تـوافـق الجمـاعة الانكليزيـة عليها مطلقـــاً، وليلتمســوا انقـاذاً لمملكة انكـلترا من مثـــل هذه الأعبـاء التي لايمكن تحملهـا، ومـن أجـــل هذه الغـاية جـرى الاختيـار باســـم الجماعـة في مملكـة انكلـترا كلهـا، وإرســـال التـالين إلى مجمـــع ليـــون: الايـرل روجـر بيغــود، وجـون فتز— غيوفـري، ووليـم دي كينتلـوب Cantelupe, وفيليب باسيـــت، ورالـــف فتـــز— نيقولا، والمعـلم وليـم دي باوريـك Poweric, وكان كاهناً.

-٧٥٠٠-

مغادرة المعلم مارتن لإنكلترا خائفاً

وفي هذه الآونة كان الملك قد منع عقد بعض المبارزات من قبل بعض الأشخاص كانوا قد اجتمعوا في ليوتون Luton, وفي دنستيبل Dunstable, لأنه نية هؤلاء كانت شريرة، بسبب —كما قال— خطرهم، وقد جرى ارسال فولك فتز— وارن، باسم جماعة المملكة بشكل عام، في اليوم التالي لعيد الرسولين بطرس وبولص، إلى المعلم مارتن، كاهن البابا، الذي تردد ذكره مراراً، ولدى مثوله في حضرته، نظر فولك المذكور إلى الكاهن بحاجبين مقطبين، وخاطبه كما يلي: «غادر، واترك انكلترا على الفور»، فسأله المعلم مارتن: «من الذي أمرك لتفعل هذا؟ هل تفعل هذا بناء على سلطتك الخاصة؟» وعلى هذا رد فولك: «لقد أُمرت أن تفعل ذلك، بوساطتي، باسم جماعة الفرسان المسلحة، التي اجتمعت مؤخراً في ليوتون ودنستيبل، وإذا ما أصغيت إلى مشورة حكيمة، عليك عدم البقاء هنا حتى اليوم الثالث من هذا الموعد، خشية أن يجري تمزيقك وجميع رفاقك الذين معك إلى قطع»، ولدى مغادرة فولك المذكور مغضباً، وبعدما كدس التهديد فوق التهديد، مع أيمان مرعبة، ذهب المعلم مارتن على الفور إلى الملك، وهو منقطع الأنفاس رعباً، وقال للملك: «مولاي لقد سمعت كذا وكذا من أشياء، هل تم فعل ذلك بناء على تفويضك، أوأن ذلك بناء على وقاحة رعيتك»؟، وعلى هذا أجاب الملك: «إنني أعلن أنني لستُ الفاعل لهذا الإجراء، لكن من الصعوبة بمكان، أن يتمكن باروناتي من ضبط أنفسهم ومنعها من الثورة ضدي، لأنني قمت حتى الآن بالتساهل تجاه الانتهاكات والأذى، الذي اقترف من قبلك في هذه المملكة، ومارسته ضدهم، والذي تجاوز جميع حدود العدالة، وبصعوبة تمكنتُ حتى الآن من منعهم وهم في حالة غضبهم، من مهاجمتك، وتمزيق أطرافك طرفاً عن طرف»، وعند ذلك قال المعلم مارتن، وهو يرتجف وبصوت منخفض: «إنني بناء على هذا، أسأل جلالتك، صدوراً عن

حبـك للرب، واحترامك للبـابا، أن تمنحني خـروجـاً حـراً، وأن تأذن لي بالمغـادرة سـالماً تحت ضمانتـك»، وعلى هذا أجـابه الملك، وهـو شـديد الانفعال، ومستثـار إلى حد الغضب قائـلاً: «ليأخذك الشيطان، وليحملك إلى جهنم، وخلالها»، وعندما قام النبلاء الذين كانوا جالسين هناك، بتهدئة غضب الملك، أمر روبرت نورس Norris, قهرمـان القصر الملكي بأن يرافق المعلم مـارتن بـأمـان إلى شـاطىء البحـر، وبناء عليـه، انطلق المعلم مارتن برحلتـه، وأدام الالتصاق بجانـب دليله روبرت، وكان كلما رأى أية أشخاص راكبين، أو مارين بهما، كان يستولي عليه خوف شديد، ويرتجف، حتى أنه كـان يتمنى لـو أن الأرض انفتحت لأخفى نفسـه، تحت غطائهـا، ولدى متـابعتهما سفـرهما على طريقهما، وصـلا إلى حـدود أحـراش، كـان رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، قـد عرضها للبيع، وحيث كان بعض رجـال الريف قد تجمعـوا لاختيار الأشجـار، التي رغبوا بشرائهـا، ولدى رؤيتهم، قـال المعلم مـارتن وهو مـرعـوب لروبرت دليلـه: «واأسفـاه، واأسفـاه، إن الذي قد خفت منه، هو على وشك الوقـوع، إنظر إليهم، إنهم مقبلون على مهـاجمتنا، يامولاي وصـديقي روبرت، هل لديك أي ولد، أو حفيد، أو قريب، أو صـديق، أنت ترغب بأن ينتفع بمورد لاهوتي؟ أنا على استعـداد لمنحك أي طلب، يمكن أن تعملـه، إنظر إنهم جـالسين ينتظرون أخـذ حيـاتي، احميني في ظل جناحيك»، فـأجـابه روبرت: «الرب يمنع أي واحد من أقـربائي، أن يتم قبوله هكذا من خلال وسـائطي، لنيل أية منفعة لاهوتيـة: أنا لاأعـرف من هؤلاء، أنت تريث هنا وانتظـرني، وأنا سـوف أذهب سريعاً إليهم، حتى إذا عـرفت أنهم أشخاص يريدون اقتراف الشر، أنـا سـوف أضبط تهورهـم، وأوقفهم، بجعلهـم يرون التفـويـض الملكي»،وعندما —بناء عليه— وصل إلى عندهم، وعلم الحقيقة، عاد على الفور إلى المعلم مارتن، لكن حتى يضغط عليه ويؤثر به قال:

«لقد تمكنت بصعـوبة من ضبط غضبهم، ومنعتهم من تمزيقك إلى قطع،

ودعنا الآن نسير خلسة وبحذر، خشية أن يحدث أي شيء مكروه لك، وعندما تقلع مسافراً، عليك —إذا ما كنت عاقلاً— ألا تعود قط، خشية أن تقع في أيدي الذين يطلبون حياتك»، ومن ذلك الوقت لم يوفر المعلم مارتن جنبي فرسه، بل عمل كل سرعة ممكنة حتى يصل إلى ساحل البحر، موجهاً النقد لدليله لتأخره، ولدى وصوله إلى دوفر، أقلع على الفور، وبمغادرته أبهج قلوب الكثيرين، غير أن تأثير قوة ذلك الوباء المعدي، لم يتوقف تماماً، ذلك أنه أعطى السلطة إلى واحد، اسمه المعلم فيليب، ليبقى كي يمارس جميع السلطات التي منحت إليه شخصياً في أعمال استخراج الموارد، وبذلك ترك آثاره الملوثة خلفه، وهكذا قلت كثيراً، حتى يعرف كل واحد كم هؤلاء الساعين وراء المال هم جبناء، عندما تتعرض ضمائرهم للأذى.

ومالبثت هذه الأشياء أن وصلت إلى مسامع عدد من الايطاليين، الذين كانوا يسمنون على ثروات الموارد في انكلترا، وبناء على ذلك اختفوا على الفور، وبحثوا عن مخابىء بعيداً عن الأماكن المطروقة، وقام كثير من القراصنة أيضاً، الذين كانوا حتى الآن ينشرون سمومهم القاتلة، بوساطة الربا الذي كانوا يمارسونه بين المقاطعات الغربية، والذين كانوا جاهلين بهذه الإجراءات، قاموا الآن بالمغادرة بشكل سري.

كيف مات غيوفري مارش في المنفى والفقر كرجل منفي

وحدث في هذه الآونة، أن غيوفري مارش، الذي كان من قبل نبيلاً، هو ليس الأدنى بين أعيان ايرلاندا، والذي نال وصمة لايمكن زوالها بالقتل الخياني للايرل رتشارد مارشال، والذي كان الآن منفياً، ورجلاً تعيساً، ومحروماً، حيث قد جرى نفيه من سكوتلندا، وطرده من انكلترا، وقد حرم من ميراثه في ايرلاندا، بعد الموت الشائن لابنه، وبعد فقدانه لجميع أصدقائه، حدث أنه هو نفسه أخذ من بيننا، وبذلك أنهى أخيراً كثيراً من الميتات، بموته هو.

شكوى المعلم مارتن إلى البابا

وقدم في الوقت نفسه المعلم مارتن إلى البـابا، وقدّم إليه رواية كاملة عن الأحداث التي جـرى وصفها أعلاه، ولدى سماع البـابا ذلك صرّ بأسنانه، وانفجر بغضب شـديد، وأعاد إلى الذاكـرة بأن ملكي فرنسا وأراغـون، قد رفضـا منحه مـدخلاً إلى أراضيهما، وأن ملك انكلترا، سـوف لن يسمح له بالذهاب إلى انكلترا، وما هو أسوأ إنه لعن رسوله، وطرده بشكل مهين من انكلترا، ثم قال بصوت متهدج فيه علامات الغضب، وكان مقطباً، وشامخاً بأنفه:

«إنه من الموائم بـالنسبـة لنا أن نعقـد شروط صلح مع أميرك، في سبيل سحق هؤلاء الأمراء الصغار الذين يتحركون ضدنا، لأنه عندما يتم سحق التنين أو تهدئتـه، من السهل وضع الأفـاعي الصغيرة تحت الأقـدام»، ومـا لبث هذا القول أن انتشر في الخارج، وسبب غضباً في قلوب كثيرين.

استعدادات ملك إنكلترا لحملة إلى ويلز

قبل بداية شهـر تموز، استـدعى الملك في رسـائله الملكيـة، وحشـد جميع الايرلات، والبـارونات، والفـرسـان، والنبـلاء الآخـرين لانكلترا، الذين يدينون له بـالخدمـة العسكرية، للحـاق به إلى ويلز، إلى حيث كـان ناوياً الانطلاق، حيث أنه لم يعد قـادراً، ولم يعد راغبـاً أن يصبر أية مدة أطول في تحمل الهجمات المفاجئـة والغارات التي كان يقـوم بها الويلزيون، وعمل في الوقت نفسـه استعداداته الشخصيـة للالتحاق بالحملة، ولغـزو أراضيهـم، تحيط به كتلة كبيرة من الفرسان، وبناء عليـه قدم إلى كنيسة القديس بولص في لندن، ليقـوم بوداع أهل لندن، الذين كان من الممكن أن يجتمعـوا كلهـم هناك.

كيف تخلى وليم الأسقف المنتخب لكوفنتري عن إدعائه

في هذه الأيام، عندما كـانت ثورة الوقت تجر معها ثورة الأحـداث، قام

وليم دي مونتبلر Montpellier, وكان راهباً ورئيســاً لجوقة المنشدين في كـوفنتري، وكـان رجـلاً بلا خطيئة أو مطمح، الذي انتخب إلى كـرسي كـوفنتري، وكـان المعلـم وليم أوف دروهيـدالي Drouhedale الذي كان محاميـه الغيور في انكلترا، الآن يمـوت، وكان الملـك على غير استعداد لقبول تعيينه، والمعلم لورانس الذي كنا قـد تحدثنا عنه من قبل، معارضاً له باستمـرار، ومـداوماً على اتهامـه، وكـان كهنة ليشفيلد Lichfield قد اتخذوا أيضاً موقفاً مضاداً له، وقـد شعر هو شخصياً بأن دير كوفنتري كان يعاني بسبب انتخابه، وكان يشعر بانزعاج شديد بسبب انتخابه، وقد ذهب وهو في هذه الضائقة، إلى البابا، ومزج كلماته بالآهات وقال:

«إنني أيها الأب المقـدس، قـد هوجمت من جميع الجهات، وأنـا مزعـوج تماماً، فقـد قام ملك انكلترا مع مستشـاريه بتلطيخ براءتي إلى درجة عـالية، والرب يعــرف أنني لم أستحـق مطلقاً هـذا الاضطهـاد، وإنني إذا كنت سأحتفظ بالمنصب الرفيع الذي انتخبتُ إليه بشكل صحيح، فإنني لن أتمتع بالسلام قط في انكلترا، ولذلك إننـي أتخلى عن كل شيء وأضعه بين يديك، وليمنع الرب أن أبقى أيـة مـدة أطول مصـدراً للخســارة، أو للاضطراب لكنيستي، ولابد لعنايتك الأبوية أن ترعى شؤون تلك الكنيسة، في الوقت الذي هي فيـه محرومة من أسقفهـا»، ووافق البابا على هذا، وقـام الأسقف المنتخب بالمغــادرة، وكأنه قـد تحرر مـن حمل ثقيل، وحـزن الذيـن رغبـوا باخـلاص في انقـاذ روح ملك انكلترا، لرؤية هذا، وخـافـوا كثيراً، من أن رعبـاً عظيماً سوف يحيق بهم قـريباً، بهم أنفسهم، وكـذلك بالمملكة، بسبب هذه القضية، وقضايا أخرى مماثلة، ولأنه اتخذ موقفاً متحزباً شديداً في هذه القضية.

انتخاب روبرت دي ويزهام عميد لنكولن لكرسي شيستر

وعندمـا أصبـــح هذا معـروفـاً جـرى انتخــاب المعــلم روبرت دي ويزهـام، عمـدة لنكولن، والذي كـان رجـلاً متميـزاً لأخلاقـه ولعلمــه،

وذلك بشكل رئيسي بناء على مبادرة أسقف أوف لنكولن، انتخابه وتعيينه أسقفاً لشيستر أوكوفنتري، عوضاً عن وليم مونتبلر المذكور، (الذي — كما تقدم الذكر — تخلى متطوعاً عن إدعائه)، وتمّ فعل هذا من دون طلب موافقة الملك، من أجل أن لايقوم بوساطة حجج سخيفة أو تعليلات — حسبما كانت عادته — بالطعن بهذا الانتخاب أو بإعاقته، في سبيل إيذاء روحه والإساءة إلى اسمه الصالح.

ثم إن أسقف لنكولن رغب في الحصول على انجاز لرغباته فيما يلي، وهو الفصل الكلي والإبعاد التام لكنيسة آيلسبري Aylesbury — الأمر الذي رغب أن يفعله منذ زمن طويل — عن عمادة لنكولن (لأنه اعتقد بأن العميد سوف يقوم، بسبب الحالة الغنية لتلك الكنيسة، بتملك الجرأة، ويعمل ضده، أي ضد الأسقف)، وأعطاها على الفور إلى المعلم روبرت مارش — ليس من دون ضرر عظيم وأذى لكنيسته — حسبما هو واضح لكثيرين، لأن من المعروف اتحادها بعمادة لنكولن منذ زمن أزلي.

التكريس في ليون لبونيفيس البروفانسي لرئاسة أساقفة كانتربري

ور. R دي ويتز إلى أسقفية شيكستر ور. R دي ويزهام إلى أسقفية شيستر

وأثناء هذا العام جرى تكريس بونيفيس الذي كان من أصل بروفانسي، رئيساً لأساقفة كانتربري، وكان ذلك من قبل البابا، في ليون، وكان بونيفيس هذا رجلاً متميزاً بأسرته أكثر من تميزه بعمله، وكان انساناً يخشى منه في الأمور الدنيوية أكثر من الأمور الروحية، وقد جرت ترقيته إلى هذه المرتبة (لو أنها كانت ترقية سعيدة) بوساطة نفوذ ملك انكلترا، وبنفوذ ابنة أخيه الملكة، وفي الوقت نفسه جرت ترقية أخيه فيليب بال، الأسقف المنتخب لبلنسية، لأن يتملك رئاسة أساقفة ليون، وقد أذعن رئيس الرهبان إلى هذا لأسباب سوف نذكرها، ولقد حصل على هذه الحصة من

البابا حسب الشروط التالية: التي هي:

إنه سوف يحتفظ بسلطات رئاسة الأساقفة هذه مع كل فوائدها، وسوف يتسلم البابا موارد أسقفية بلنسية، وكذلك أيضاً بعض الأسقفيات الأخرى الغنية، التي كانت بحوزته في انكلترا، وفلاندرز (وكان هذا واضحاً، بأنه قد عمل في سبيل أسباب دنيوية أكثر منها أسباباً روحية) وأنه يتوجب أن يحولهم بحرية إلى استخداماته الخاصة، وأنه ينبغي أيضاً أن يستحوذ على الأسقفية في بروغس Bruges, وكان هذا الرجل، ذي المظهر الرشيق، كان بارعاً جداً في استخدام السلاح، وقد سمن على موارد وافرة، وقد كان موجوداً في المجمع الذي عقد في ليون، وقد عمل منه بالفعل، مقدماً للفرسان البابويين، وحارساً قوياً للسلام، وكان السبب الرئيسي لهذا، أنه كان متميزاً بأصله النبيل.

وكان هناك أسقفين آخرين جرى تكريسهما من قبل البابا في ليون، وهما: المعلم رتشارد دي ويتز لكرسي شيكستر، والمعلم روبرت دي ويزهام، عميد لنكولن إلى كرسي شيستر، وكانا كلاهما رجلان متعلمان، وأصحاب أخلاق جيدة، وما من شيء حذف من طريق الترافع بوساطة وكيل الملك، الذي أبدى دهشته واعتراضه ضد هذا الإجراء، لأن موافقة الملك لم تطلب في قضية ترقياتهم، ولقد أخبر —على كل حال في وجهه— أنه بما أن الملك أساء استخدام المنصب الرفيع الذي منح له وكذلك الامتياز، جعل نفسه غير جدير بالتمتع بهذا الشرف، وهكذا فإنه بسبب ذنوب الملك، فإن كرامته وكذلك كرامة المملكة كانت تتداعى، لكن عندما وصلت هذه الأشياء إلى علمه، أمر بمصادرة الممتلكات العائدة إلى كل من أسقفيتي شيكستر وشيستر.

حول الإضافات إلى خزانة الملك بوساطة التفتيش في الغابات

وفي الوقت نفسه، كان كاهن الملك روبرت باسلو مع رفاقه شاغلاً نفسه من دون توقف من أجل تعويض الملك، منتزعاً الأرزاق القليلة للفقير، وزائداً أموال الملك، ساحباً الموارد القليلة لدى المحتاجين بوساطة آلة سحبه الشرهة، من أجل أنه بوساطة نقاط الذين هم محتاجين، يمكن أن يزيد بحار الذين يعيشون بوفرة، ومن دون توقف ذهب إلى دوائر مختلف مقاطعات انكلترا، منفذاً واجباته بإقامة العدالة، خاصة حيث الغابات كثيرة جداً، وحيث سكن الناس على حدودهم، وبتيقظ ودقة قام بفحص أعمال الإسكان الجديدة التي عملت في الغابات، وأي واحد وجده مقترفاً لذلك، أثقله بغرامة مالية كبيرة، وبذلك طرد كثيرين من بيوتهم، وحولهم إلى قوم بلا سكن ومتسولين، وكان من بين هؤلاء —كما ذكرنا من قبل— جون دي نيفيل، الذي كان خاضعاً لكثير من المخالفات، وقد أدين بشكل مهين، فتحول من الغنى إلى الفقر، وهو على كل حال لم يتلق لا العطف ولا الرحمة من أي واحد، لأنه عندما عاد من الأرض المقدسة قبل عدة سنوات مضت، قام بوساطة طرائق بارعة وحجج واهية، فحرم جميع الذين كانوا خاضعين له من أرزاقهم وممتلكاتهم، وهكذا وقع الآن مستحقاً في المصائد نفسها، وبنود المصادرات سوف تكون مكتوبة على شكل ملحق يضاف إلى هذا الكتاب.

كيف أمر الملك بتوسعة كنيسة ويستمنستر على حسابه

وفي العام نفسه، قام الملك، وقد شعر بالتقوى نحو القديس ادوارد، فأمر بتوسعة كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر، وبناء على ذلك تدبر هدم الأسوار القديمة مع البرج على الجهة الشرقية، وجرت إشادة أسوار وبرج أكثر رشاقة، وتمت أعمال البناء الجديدة من قبل مهندسين بارعين على حسابه، وأمر بتغيير باقي البناء على الجانب الغربي بما يتناسب مع البناء الآخر.

البابا يتلقى هدايا ثمينة من عدد من الأساقفة

وتابع البـابا الآن التشكي بمرارة إلى أصـدقائـه، بأن الكنيسة الرومـانية معسوف بها إلى حد يكاد يصعب فيه نجـاتها، ومرهقة بالدين، وعلى الفور انتشرت هذه الشكاوى بالخارج بـوسـائطهم، وجعل في هذه المناسبـة من المفهـوم، أنه في أقصى حـالات الحاجة إلى مسـاعـدة ماليـة، وكـانت هناك أعداد من الأساقفة الذين لديهم وفـرة من الأشياء الجيدة لهذا العالم، وكانوا متلهفين سـاعين وراء المزيد من المقتنيـات، وهؤلاء قد جـاءوا إليـه طالبين حظوته، بمثابة أب، وقـد أبدوا أسفهم لما عاناه ولمخاوفـه، وبما أنه الآن قد نجا من متـاعب الامبراطور، قد وصـل إلى بين أولاده المخلصين، فإنهم قد قدمـوا مسرعين لتهنئته، وقدمـوا إليه أكثر الهدايا قيمـة على شكل: خيول، وآنية، ومـلابس، وذهب وفضة، وجميع أنواع الأثاث المفيـد، وكان من بين هؤلاء، راعي دير كلوني، الذي لم يرغب بأن يعدّ متخلفـاً، حتى لا ينظر إليه أنه كان خاملاً، فقام بافقـار كنيسته، وتجريد رؤساء الرهبان لديه، فقدم إلى البابا مبلغاً كبيراً من المال، مما أثار بحجمه الدهشة، والاستغراب المستحق، بين جميع الذين سمعوا به، ولهذا كوفيء بترقيته إلى مرتبة أسقف لـ: لانغري Langres, وفي الحقيقـة علمت من رواية رئيس رهبـان ويستأكـري Westacre, الذي كـان من قبل واحـداً مـن رهبـان كلوني، بأن راعي الدير المذكور، قد أعطى إلى البابـا ثمانين مهراً رشيقاً، كانوا الأجمل والأبدع تجهيزاً، وأعطى إلى كل واحد من الكرادلة، الذين كـان موجوداً منهم هناك حوالي الاثني عشر كاردينالاً، مهراً، وفرس حمولة من النخبة، وآثر البابا أن يكون راعي الدير هذا المتـولي لاسطبله، بدلاً من أي انسان آخـر، فأمره أن يتـولى العناية —من أجل استخدامـه— بالخيـول التي كان قـد أعطاها له، وأعطى راعي الدير المذكور إلى البابا كميات كبيرة من الثروات، على شكل أموال جـاهزة وآنية ثمينة، ولقد قيل أيضـاً بأن راعي دير سيتو Citeaux, قلد مثاله واتبعه، وكان محرضاً باخـلاص الابن، وبالرغبة أن لا يعدّ ثانياً إلى

أي واحـد، فقـدم هذه الهدايا حتى تكون ليست أقل قيمـة إلى أبيـه المتضرر والمحتاج، أي البـابا، ورغب رئيس أساقفـة روان أيضاً في إرضاء قـداسته، ولكي لايتهم بأنه الأكثـر تخلفـاً، ورط نفسه وكـذلك كنيستـه في بعض من الديون الثقيلة، لهذه الغـاية، وزاد الخزانة البـابوية بمبلـغ من المال لم يكن صغيراً، ولدى سماع راعي دير القديس دينس بهذه الإجراءات، وهو الذي كان متشوقاً، بالعمل بشكل مفيد، ليصل إلى منصب رئيس أساقفة، وذلك من خـلال الاستخراجـات، وبوساطة خـداع كنيسته، جمع آلافـاً كثيرة من البـاوندات منحهـا على شكل صـدقـات إلى البـابا، فكـان أن نال مكافأته برتقيته إلى كـرسي رئاسة الأساقفـة في روان، وكان ذلك من خلال الفـائدة المؤثرة لسلفـه، الـذي هو الآن كـاردينالاً، ولـدى سماع الملك الفـرنسي —الذي كان المدير الخاص والحامي لكنيسة القديس دنس— بالإجراءات التي قـام بها راعـي الدير المذكـور، أرغمـه على أن يستجـدي هذا المال في منطقـة أخـرى، وهكـذا فإن هذيـن الشخصين: راعي الديـر، ورئيس الأساقفـة، قد تركا أثراً قـذراً خلفهما، ليطير إلى محطات أعلى، وذلك بإفقار الكنائس التي توليا الحكم فيها، مما أصل فضائح في أرجاء كثير من الممالك، وبعد وقت قصير من هذا، قام رئيس أساقفة ليون، وكان رجلاً بلا عيوب، لكنه الآن بات متقدماً بالسن، وضعيفاً، فتخلى عن جميع مناصبه، ووضعها بين يدي البابا.

وتدفق الآن يومـاً إثر يوم، أساقفـة آخرون على البلاط الـروماني، حيث تنافس أحدهم مع الآخر في تقديم الهدايـا الأكثر قيمة إلى البابا، وهي هدايا أثارت بحق دهشـة جميـع الذين رأوهم، وهكـذا بات واضحـاً لكثيرين، وأمراً مؤكـداً لديهم، بأن البابا جاء إلى ليون عن رغبـة، وليس بقصد الفرار من أي واحـد، وإلى جميع هذه الهدايا فتح البـابا صـدره المتسلم، حتى أنه لم يُظهر أية عـلامـة على الرفض، أو الإباء لديه، وقـد أعلن بأنه بحـاجـة إلى كميـة كبيرة أخرى من المال، واستمـر في تقديم أسبـاباً جيدة لحاجتـه، لأنه

وفقاً لتأكيداته (التي لاندري فيها إذا كانت صحيحة) كانت الكنيسة الرومانية المقدسة مدانة بمبلغ يزيد على مائة وخمسين ألفاً من الباوندات الاسترلينية، وذلك إلى جانب الفائدة التي تصل إلى قرابة مبلغ الدين الأساسي.

وفي سنة النعمة ألف ومائتين وخمس عشرة، في أيام البابا انوسنت الثالث، جرى عقد مجمع عام، فيه رسم، وأودع كتابة، بأن المجمع العام، يتوجب حقاً أن يعقد مرة كل خمسين سنة، التي هي حقبة يوبيل، ففي سنة اليوبيل، أو خلال إطارها، يتوجب عقد مجمع عام، فيه يتم إصلاح جميع المخالفات، وأن يجري إعادة كل شيء وتثبيته في نظام جيد.

بداية إجراءات المؤتمر في ليون

عندما سارت الشمس في مدارها، ووصلت إلى أقصى ارتفاعها، أي في حوالي منتصف الصيف اجتمع في ليون —من أجل عقد هذا المجمع— جميع الأساقفة المحترمين تقريباً من جميع أرجاء العالم المسيحي، أو جميع نوابهم الكفاة، وكذلك نواب الامبراطور، وعدد كبير آخر من الأمراء، الآخرين، وقد اجتمعوا بناء على ولاية خاصة من البابا، وأعطى كثير من الأساقفة الذين لم يحضروا، أسباباً شرعية لتسويغ أنفسهم، من خلال وكلائهم الذين أرسلوهم محلهم، وكان بعضهم —على سبيل المثال— من مملكة انكلترا، كما ذكرنا بشكل مفصل أعلاه، وكان من بينهم راعي دير القديس ألبان، الذي كان رجلاً بديناً، وقد تقدمت به السن، ولذلك أرسل عذراً معقولاً عن غيابه بوساطة راهب من ديره اسمه جون دي بولوم Bulum, والمعلم روجر هولدن Holden, وكان كاهناً، وفي الحقيقة بالنسبة لهذه القضية، أعطى المعلم مارتن، الذي كان لبعض الوقت ساكناً في انكلترا، هذه الشهادة، وبناء عليه بقي غير عرضة للنقد وبسلام، مرسلاً رسالة لطيفة إلى البابا، بوساطة رسوليه المذكورين، أما من مملكة هنغاريا، التي تعرضت لدمار كبير من قبل التتار، لم يقدم أحداً، ومن ألمانيا التي

كـانت مضطربة بالحرب مع الامبراطور، جاء عـدد قليل من الأساقفـة إلى الاجتماع، ومن الأرض المقدسة، التي كـانت عرضة لخطر عظيم، لم يستطع أحداً القدوم إلى المجمع، كما أنه لم توجه إليهم الدعوة.

وبالصدفة، قدم إلى هاهنا، من الأرض المقدسة، واحد فقط، هو أسقف بيروت، وكان الرسـول العام لكل سـورية، وللتجمع المسيحي في الأرض المقـدسة، وقـد جلب معـه تقريراً مبكيـاً، حـول الدمار الذي أحـاق بتلك البلاد، بإذن من الرب.

كيف أعطى البابا في اليوم الأول تعليمات إلى المجمع

عندما رأى البابا أن عدداً كبيراً من الأسـاقفة —مع أنهم ليسوا جميعاً— قد اجتمعوا، قام في يوم الاثنين، بعد عيـد ميلاد يوحنا المعمدان، بالدخول إلى غرفـة طعام رهبـان القديس جست Just في ليون، يحيط بـــه إخوانه الكرادلة، والبطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأسـاقفة، والقساوسة الآخرين الذين وجهت إليهم الدعـوة إلى المؤتمر، وكـذلك نواب الأسـاقفة الغيـاب والأمراء، وكان هناك حـاضراً إلى جانب الكرادلة، اثنان من البطاركة، هما: بطريرك القسطنطينيـة، الذي هو بالوقت نفسه بطريرك أنطاكيـة، وبطريرك أقـويليـا Aquileia, الذي كـان أيضـاً بطـريرك البندقيـــة، وامبراطور القسطنطينية وكـونت طولوز، والنواب من انكلترا، وايرل بيغود مع بعض من أتباعه النبلاء، ومائة وأربعين رئيس أساقفة، وأسقف.

ثم عـــرض بطريرك القسطنطينيـــة الشروط والحاجيـــات الضرورية لكنيسته، وأعلن بأنه كـان لديه من قبل أكثر من ثلاثين أسقفـاً تحت إمرته، وقد بقي منهم الآن ثـلاثة فقط، وعلاوة على ذلك أضاف بـأن الإغريق مع أعداء آخرين للكنيسة الرومانية، قد استولوا بالقوة على جميع الامبراطورية البيـزنطية (رومـانيـا) حتى أبواب القسطنطينيـة تقـريباً، وأنهم لايطيعـون الكنيسة الرومـانية في شيء، لكن بتخليهم عنها، يعارضـونها بكل الوسائل

العدوانية التي بقدرتهم، وأنه بسبب الأسى والفوضى المحيقة بجميع المسيحية، فإن كنيسته المذكورة كانت الكنيسة ذات الامتياز الأول، وتستحق التكريم أكثر من الكنائس الأخرى، لأنه في المقام الأول، حسبما هو معروف حقيقة، بأن القديس بطرس، قد قام في الأيام الخالية، بالسكنى في أنطاكية (وهي المدينة التي كانت خاضعة للإغريق) وسبب الاضطراب، والفرار من هناك لسمعان ماغوس ولآخرين من الهراطقة، وعند سماع هذا حافظ البابا على الصمت.

وفيما بعد تمّ الوعظ بقداس، جدير بالقبول كله، فيما يتعلق بتطويب القديس ادموند، الذي كان من قبل رئيس أساقفة كانتربري، الذي جعله الرب مشهوراً بإظهار أعظم المعجزات، وفي الحقيقة المؤكدة أن ثمانية رؤساء أساقفة، وحوالي العشرين أسقفاً، قدموا براهين، وتوسلوا باخلاص بوجوب أن يجري تطويبه بوقار عظيم في هذا المجمع، وعلى هذا كان البابا معارضاً، ليس بميوله الشخصية، بل جرى تحريضه هناك بوساطة روح الحسد لدى الآخرين، وأجاب:

«هناك بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالكنيسة تضغط علينا الآن، وهي لاتسمح بالتأخير، لذلك ينبغي أن تبقى هذه المسألة معلقة لبعض الوقت، وعلى كل حال، إننا ما دمنا أحياء لن ندع قضيته تعاني من الإهمال، ونحن مسرورين بالرب، ونقدم شكراً وافراً له، من أن الرب، والعالم أجمع يقدمون الشهادة على قداسته وفضائله».

وكان هناك أيضاً موجوداً في المؤتمر، نائباً عن الامبراطور فردريك، هو ثاديوس دي سيسا Thaddeus de Sessa, وكان رجلاً صاحب حكمة، ووحيداً بفصاحته، وفارساً، ودكتوراً في القانون، وقاضياً للقصر الامبراطوري، وقد قدم ليجيب بجرأة وكذلك بحذر، ودقة، عن مولاه، وليقيم سلاماً مع البابا، وليعيد تأسيس صداقتهما الماضية، وبثقة عرض استرداد جميع رومانيا —أي امبراطورية الإغريق— وإرجاعها للاتحاد

مـع الكنيسـة الرومانية، وأن يتصدى بشخصـه، كجندي مخلص للمسيـح إلى التتـار، والخوارزميـة، والمسلميـن والأعـداء الآخـرين وخصـوم الكنيسـة، وسـوف يقـوم كـذلك بقـدر مـاباستطاعتـه، بـإعـادة تأسيس الأوضاع في الأرض المقـدسة، التي هـي الآن عرضـة لمخاطر عظيمـة جداً وقريبة، وأن يعيـد بالوقت نفسه إلى الكنيسة الرومانيـة الممتلكات التي كان قـد أخـذها منهـا،وأن يعطيهـا ترضيـة كـاملة، وفي جـواب على جميع هذه العروض قال البـابا متسائلاً: «آه، كم هي وعود عظيمـة وكثيرة، ما من أي واحد منها جرى تنفيذه بأي شكل من الأشكال، أو سوف يجري الوفاء به، ومن الواضح الآن أن هذه الوعـود قـد قطعـت بغـاية أنه بالخداع وبالخرق يمكن إلغاء المؤتمر وتشتيته، ذلك أن الفأس قد وضع الآن على الجذر، ومن الممكن وضعـه جـانباً بـوساطة التـأخير، المتوجب عليـه هو مـراعـاة بنود السلام، التي أقسم عليهـا مؤخراً بروحه، وذلك وفقاً للمقصد الذي أدى من أجله اليمين، ووقتها أنا سوف أوافق على عرضه، لكن إذا ما أقدمت أنا الآن على الموافقـة على طلبـه، ومن ثم اختـار هـو التراجع عن اتفـاقـه، من الذي سيكون ضامناً له لإرغامه، إذا ما نأى عن تنفيذ عقده؟»، ولدى وعد ثاديوس بأن يكون كل من ملكي فرنسا وانكلترا، الكفيلين في هذه القضية، أجاب البابا: «نحن لانختار قبولهما، لأنه إذا ما أراد في أي وقت في المستقبل أن يعدل الصفقة، أو أراد أن يلغيها كلية، (ونحن لانتوقع أية نتيجة أخرى، مما فعله مـراراً)، إننا سوف نرغـم على الدخول في مـواجهة معهما، ووقتهـا سـوف يكون للكنيسـة ثلاثة أعـداء، مـا من أحـد أقـوى منهم، لابل في الحقيقة، ليس هناك من يوازيهم في القـوة العلمانية»، وبما أن حجج ثاديوس لم تكن كـافيـة لـلاجـابة على هـذا، وبما أنه لم يكن هناك وقت كـاف، لزم الصمت وهو كئيب.

حول الأخبار السيئة من الأرض المقدسة التي نشرت في المؤتمر

وقـام وولران Walleran, أسقف بيروت، الذي تحمل مصـاعب

الرحلة لمدة ستة أشهر وسط مخاطر البحار، وشهراً على البر، في سبيل —كما ذكرنا أعلاه— أن يجلب رسالة حول مصائب الأرض المقدسة، وليطلب المشورة والمساعدة، قام بتوجيه الأمر إلى الراهب الدومينيكاني آرنولف Arnulph, أن يقرأ بشكل علني الرسائل التي كان النبلاء الذين بقيوا في الأرض المقدسة قد أرسلوها إلى جميع مسيحي الغرب، وقد أقحمت هذه الرسائل في جزء متقدم من هذا العمل، وأثارت الآن محتوياتهم المبكية جميع الذين سمعوهم، وجعلتهم يبكون، ولم يكن ذلك من دون سبب حسن.

إجراءات اليوم الرابع من الأسبوع

وفي يوم الأربعاء التالي، دخل البابا، وكان مرتدياً لثيابه الحبرية، إلى كنيسة القديس يوحنا، وهو محاط بجميع الأساقفة الآخرين الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وهم يرتدون أيضاً ثياباً إحتفالية، كل حسب ماهو عائد إليه، وبعد التوجه بالدعوة إلى الروح القدس، حيث أعقب ذلك ابتهال، وصلوات أخرى قرئت بشكل موائم، وعظ البابا بقداس مهّد له بالنص التالي: «آه، أنتم الذين تمرون بالطريق، قفوا وتمعنوا هل ترون حزناً مثل حزني»، ثم إنه تابع بتلاوة قداس فصيح، فيه عقد مقارنة بين أحزانه الخمسة الرئيسية وبين الجروح الخمسة للمصلوب، وكان أول هذه الأحزان وحشية التتار اللاانسانية، الذين كانوا يعيثون فساداً في البلدان المسيحية، وكان الآخر هو انشقاق كنيسة رومانيا، أي الكنيسة الإغريقية، التي انفصلت قبل عدة سنين خلت —في أيامنا هذه— عن صدر أمها، التي غدت وكأنها زوجة أبيها، والأمر المحزن الآخر كان تسلل هرطقات جديدة، التي هي هرطقات البيترينيين، والبوغاريينيين، والجوفينيين، ومنشقين آخرين، وعدد لايحصى من الفرق، التي لوثت إلى درجات عالية كثيراً من مدن المسيحية، ولاسيما مدن لومبارديا، وكان الأمر المحزن الآخر متأصلاً مع الأرض المقدسة، حيث قام الخوارزمية الممقوتين بتسوية بيوت

الداوية والاسبتارية بالأرض، بعد تدميرها كلياً، وتدمير مدينة القدس، ومدناً مسيحية أخرى، وسببت سفكاً عظيماً للدماء المسيحية، لا بل اقترفت مذبحة عامة، وأمر محزن آخر تسبب به أمير، يعني الامبراطور، الذي كان من المفترض ارتباطه في أن يكون المدير الرئيسي للشؤون الدنيوية، والحامي للكنيسة، قد أصبح الآن العدو الفعّال والقوي لكنيسة المسيح، لا بل في الحقيقة العدو الرئيسي، والظالم المعلن لرجال الدين فيها.

ثم إن البابا تابع التعامل مع هذه المواضيع، بقدر ما بدا موائماً، وتمكن تماماً من ملامسة جميع سامعيه والتأثير عليهم بالحزن، لأن عيونهم سالت بدموع وافرة، وتقاطعت تنهداتهم مع خطابه، وفي نهاية قداسه، عرض عدوانيات الامبراطور فردريك، بالهرطقة، والدنس، وذكر من بين ذنوبه، أنه عمّر مدينة واسعة وقوية، في الديار المسيحية، وأسكنها بالمسلمين، مستخدماً، أو بالحري مسيئاً استخدام عاداتهم، وأوهامهم، مع الرفض لجميع الآراء المسيحية والديانة المسيحية، وأنه قد عقد —كما أكد قداسته— صداقة حميمة مع سلطان مصر، ومع بعض الأمراء المسلمين الآخرين، وأنه انحرف بعيداً، وضل بصلات زنا وفحش، وبلا حياء لطخ بالعلاقة مع نساء مسلمات، أو بالحري مع عاهرات، من دون تمييز، وعزا إليه كثيراً من أعمال الحنث باليمين، وكان ذلك من دون أي اهتمام بالصدق، مع أنه لم يحافظ قط على اتفاقاته، كما أنه لم ينفذ وعوده ولم يحافظ بأي شكل من الأشكال على عهوده، وفيما يتعلق بهذه التهم، ولكي يكون أكثر اقناعاً لسامعيه، أراهم كثيراً من الرسائل كلها تحت ختمه الذهبي الامبراطوري، وبرهن بذلك بوضوح أنه مجرم بالحنث باليمين، ثم ان ثاديوس نهض غير هياب أمام المجمع كله، واعترض على كلام البابا هذا، وعرض رسائل كثيرة جوابية مختومة بختم البابا، ظهر فيها ما يناقض بوضوح ما عرضه البابا قبل قليل، وعلى كل حال إنه لدى الفحص الدقيق لمحتويات هذه الرسائل من على الجانبين، الذي سوف يكون متعباً القيام

بشرحهم وعرضهم كاملين في هذا الفصل، سوف لايظهر بشكل ايجابي وجود تعارض أو تناقض بين أحدهم والآخر، فقد كانت رسائل البابا رسائل شرطية، وكانت رسائل الامبراطور رسائل ايجابية، وظهر أن خرق الصدق هو من جانب الامبراطور، الذي مع أنه قد وعد ايجابياً بكل شيء، هو مع ذلك لم يف بأي شيء وفقاً لوعوده، وعلى هذا سعى ثاديوس بكل قوة إلى الرد بحجج متنوعة، بدت على الأقل قائمة على أسس قوية، في سبيل أن يبرىء مولاه الامبراطور من التهم، وعرض رسائل أخرى من البابا، كانت جوابية، معلناً أنه ورد في محتوياتهن، ما لم تجر رعايته، وبناء عليه لم يكن الامبراطور ملزماً بالارتباط بوعوده، أما بالنسبة لتهمة الهرطقة، الصادرة ضد الامبراطور، أجاب كما يلي، بعدما نظر من حوله إلى جميع الحضور، وكأنه كان سيخاطبهم جميعاً:

«سادتي، إنه بالنسبة لقضية التهمة هذه، التي هي التهمة الأكثر جدية، ما من أحد يمكن أن يكون مقنعاً تماماً، ما لم يكن الامبراطور حاضراً، حتى يمكن للذي هو مغلق عليه في قرارة نفسه بشكل سري، يمكن استخراجه وسماعه من فمه، ولكن كونه غير هرطقي، من الممكن البرهنة عليه وضرب أمثلة عليه، فهو لم يسمح لأي مرابي بالسكنى في امبراطوريته أو ممالكه»، وبذلك ألقى بالتهمة بين أسنان البلاط الروماني، الذي كان من الواضح معسوفاً به بهذا الشر، وجواباً على التهمة التي عملت ضد الامبراطور، من أنه كانت له علاقة مريبة وحميمة مع سلطان مصر، ومع بعض المسلمين الآخرين، الذين سمح لهم بالسكنى في أراضيه، فقد أوضح بأن «هذا قد عمل بشكل تطوعي، وبدوافع من الحكمة، لضبط بعض أعمال العصيان والتمرد لبعض الخاضعين بموجب الحق إليه، ولقمع أعمال الشقاق، وفي استخدامه لهم في حملاته، هو يعتقد أن أية مصيبة سوف تقع لهم، لن يكون محزوناً عليها من قبل أي مسيحي، وبعمله هكذا وفرّ سفك الدم المسيحي من دون فائدة، وهو لم يتورط بعلاقة مع عاهرات،

ومن يمكنه أن يبرهـن ذلك، لكنه كـان يسلي نفسـه ببعض الحركـات، وببعض الأداءات لبعض النسـاء، اللائي قـد صرفهن الآن، وهـن لن يرجعن، لأنهن غـدون مصـدراً للشكوك»،وعندما أنهى ثاديـوس كلامـه، ترجى بأن يمنح مهلة قصيرة من الوقت، حتى يكون قادراً على بعث رسالة إلى الامبراطور، وأن يستخدم وسـائل مؤثرة لإقناعه بالقـدوم شخصياً إلى المجمع، الأمر المتوقع منه، أو أن يمنحـه المزيد من الصلاحيات، وعلى هذا أجاب البابا:

«لاسمح الرب بهذا، إننـي أخشى من المصـائـد التي وجـدت بعض الصعوبات حتى نجوت منها، وإنه إذا ما جاء، أنا سأغادر، لأنني لاأرغب بالدم، ولاأشعر أنني شخصياً موائماً للشهادة، أو مستعداً لها، أو للسجن».

وحـدث في اليـوم التـالي، أنه بناءعلى مبـادرة نواب الملكين الفـرنسي والانكليـزي، الذين تضـايقـوا كثيراً من خطر توجيـه الاهانة إلى مثل ذلك الأمير العظيم، وتضـايق بشكل خـاص نواب الملك الانكليـزي بسبب العلاقـة والتحالف المعقود بين مـولاهـم وبين الامبراطور، جرى منح مهلة أربعة عشر يوماً إلى ثاديوس، وكـان ذلك مؤذ لكثيرين ممن كانوا مقيمين في ليون، وعندمـا جرى إخبـار هذه الأشياء إلى الامبراطور، قيل بأنه قـد قال وهو مضطرب نفسياً كثيراً:

«إنني أرى بوضوح مثل الضوء، بأن البـابا قاصداً بجميع جهوده للحط من شأني، وهو مثار برغبـة وبشعور بالانتقام لنفسـه، لأنني تدبرت اعتقال أقـربائـه في البحـر، وهـم القـرصـان الجنويين، الأعـداء القـدمـاء المعلنين للامبراطورية، وسجنهم مع الأسـاقفـة، الذين كانوا قـادتهم وحماتهم، لأنه من الواضح أنه دعـا إلى عقـد هذا المجمع، لغـاية واحـدة لاغير، ومن غير الممكن للامبراطورية المقـدسـة أن تلتـزم بقـرار مجمع، هو مجمع معـاد لها بشكل خـاص»، وعندمـا وصل إلى علم البـابا، والجماعـة المجتمعـة بأن الامبراطور قـد قـال هكذا، وأنـه رفض الحضـور، أو الالتـزام بقـرارهم،

سحب كثيرون تعـاطفهـم معـه، وهم الذين كـانوا حتى الآن متفقين فيما بينهم على تأييـده، ووجّـه اللوم بشكل كبير إلى الانكليـز، لانحيـازهم له، وبناء عليه جرى اتهام الامبراطور فردريك بقسـوة متناهية وبحدة شديدة، في مجمع عـام، وصدرت مـلامته عـن سكان أربعة أطراف الدنيـا، على أنه متمرد وعاص ضد الكنيسة كلها، وقـام واحد من رؤساء الأساقفة، ووجّه اللوم إليه بحرارة أكثر من البقية، واتهمـه بجريمة الخيانة العظمى، في قضية اعتقال الأساقفة الذين تقدم ذكرهم، وبتهم أخرى ثقيلة.

وعلى هذا كله، وقف ثاديوس تقـريباً لوحده، ورد لصـالح الامبراطور، ونظر إلى متهمه وقال:

«ما من ثقة يمكن أن توضع بك، ومع ذلك لايجوز لكلامك أن يمر وأن يقابل بالصمت، لأنك ابن خـائن، قد جرت ادانته بشكل قـانوني في محكمة مـولاي الامبراطور، وقـد جـرى شنقـه، وأنت تتبع خطواته، وتسعى لأن تسير خلف أبيك في كل شيء»، وعند هذا كان المتهم صامتاً، ولم يتجرأ على التفوه بأية كلمة أخرى، كما أنه لم يسمح لـه بذلك، وبالطريقة نفسها أيضاً، قـام المعلم ثاديوس بعقـلانيـة، لكن بجـرأة، بالرد على اتهامـات بعض الآخرين ونقضها، وتجددت المناقشات مع روح جـديدة بوساطة عدد كبير من أقرباء وأصدقاء الذين ألقيوا بالسجن أو غرقوا، وقد وجهوا الملامة إلى الامبراطور، من أجل عملية الاعتقال التي تقـدم ذكرها، وجاء ذلك بحدة أكثـر، وبجرأة أعظـم، حيث أنهم رأوا نقصان التعـاطف معـه، وعليهم رد ثاديوس قائلاً:

«إن مـولاي بالحقيقـة آسف لتلك الواقعـة التي حدثت صـدفـة، وعلى عكس رغبـاته، ولم يكـن باستطاعتـه، كما هو معـروف بشكـل جيـد، أثناء معركة مفـاجئة وقتال عنيف في البحر، أن يفرق بين هـؤلاء الأساقفة وبين أعدائـه، حتى يحول دون عدم تمييزهم واشراكهم مع أعدائـه، لكن لو كان مـولاي الامبراطور هناك، لبذل أقصـى جهوده في سبيل الحفـاظ عليهم»،

وعلى هذا رد البابا قـائلاً: «بعد إلقـاء القبض عليهم، لماذا لم يسمح للأبرياء —مع أنهم عسف بهم وتعرضـوا لجراحات مضـاعفـة— بالمغـادرة وهم أحـرار، واحتفظ بالآخـرين فقط؟»، وعلى هذا رد ثاديـوس: «لابد من التذكر أن صيغة الدعوة إلى الاجتماع قد تغيرت، وكذلك اجتماع الأساقفة الذين دعيوا إلى المؤتمر الذي عقد في أيام البابا غريغوري، وجاء هذا التغيير من أجل الأسوأ، وعـدم تغيير الامبراطور لمشاعره، كان أمـراً مسوغاً، لأن البـابا مع أنه توجب عليه أن يجمع فقـط الذين وجهت إليهم الدعوة، دعـا معهم الذين هم أعـداء معلنين لـلامبراطورية، من علمانيين، ومشعـوذين، مؤيدين بعصـابات مسلحة، وكان بينهم كونت بروفـانس وآخرين، حسبما جاء واضحاً في الرسائل إلى ملك انكلترا، التي قدمت أعلاه، ومن الواضح أنهم دعيوا ليس بسبب حكمتهم، أو من أجـل الترتيب لسلام، بل بالحري لزيادة الشقاق، ولهذا السبب أرسل مولاي الامبراطور رسائل إلى انكلترا، وكذلك إلى مناطق أخرى، راجيـاً الأساقفة بطريقة صديقـه، بأن لايقدموا إلى مثل هذا المجمع الخياني، وأنذرهم مسبقـاً، أنهم إذا ما قدموا مع أعـدائه شخصيـاً، وأعـداء الامبراطورية، فـإنهم سـوف يهاجمون، كما أنه رفض منحهم جواز مرور آمن خلال ممالكه، وبشكل مهذب أنذرهم من المخاطر التي تحيق بهم، ولذلك فإن الرب أرسل بهم بشكل عـادل إلى بين يديه، بين يديه هو الذين استخفـوا به، ومع ذلك فإنه وإن كان مغضبـاً، تذكر الرحمة، ولان بوسـاطة نصائح مستشـاريه المخلصين، وقـد رغب في اطلاق سراح هؤلاء الأساقفة، والأناس غير المحاربين بشكل سلمي، عندما حدث فجأة أن أسقف برنستي وآخرين من الأساقفـة الوقحين، قاموا بتكديس التهديد فـوق التهديد، ومع أنهم كـانوا مسجـونين لم يترددوا بحرمـان الامبراطور كنسيـاً في وجهـه، دون رعايـة لذلك الرأي الصحيح الذي قـال: «تواضع بنفسك أمام يد القـوة، وهكذا بعدما كانوا عصـاة، أصبحوا بلا أذى، لابل معتـوهين، ومن كـونهم أصدقـاء أصبحـوا أعداء، وقـد استحقـوا الايداع بالسجن»، وقـد أجاب البـابا قـائلاً: «ينبغي أن يكون مـولاك الامبراطور

مقتنعـاً، مالم يكن غير واثق بقضيتـه، ذلك أن مثل ذلك الجمع الواسع لمثل أولئك الرجـال الصالحين، كان بالحري سـوف يحرره بدلاً من أن يكبله، لو أنه استحق أن يتحـرر، لكن من سلوكـه كان من الواضح بأن ضميره كـان يضايقه، وأن الإثم الذي اقترفه، وصار مجرماً به، قد جرحه»، وعلى هذا رد ثاديوس قـائـلاً: «كيف كـان لمولاي أن يتـوقع، في مـؤتمر يرأسـه البـابا غـريغـوري، الذي هو عـدوه الرئيسي، أن يجد الذين يـؤثرونه، وهـم الذين تحالفـوا مع أعدائـه، وذلك عندما رآهم يتحـركون ضـده، ويهددونه وهـم سجناء؟»، وعلى هذا أجـاب البابا: «صحيح أن واحـداً بنقـده له، قد فقـد حظوته، لماذا جـرى توريط الأبرياء الآخـرين في المصيبـة العامـة؟، إنه من مخالفاته المضـاعفة، لابد أن إهانته وطرده الكامل أن يكون قريبـاً»، وعندما سمع الانكليــز هذا صرخــوا لصـالـح أولاده، وأبدوا اعتراضهم على أن يتعـرض الابن للمعـاناة بسبب مخالفـات الأب، وأن يتم ازدراء النهـر كله بسبب نبعه.

وفي الجلســة الثـالثة للمجمـع ظهر ثاديـوس أمامـه للاجـابة، وللتقـدم بالتماس لصالح الامبراطور لأنه كان حزيناً وشـاعراً بالخطر، خاصة بسبب أن ابنة دوق النمسا إمـا قد تزوجت، أو على وشك الزواج من الامبراطور، وكان خطر الخلع بالاضافة إلى الحرمـان الكنسي محيقاً به، فهي سوف تبتعد عن عناق واحد ممقـوت، هذا وعندما بدأ بتقديم الالتماس بوسـاطة أعذار كثيرة لصالح الامبراطـور، ولكن لم يصغ إليه، تقدم بـالتماس لعقد المجمع العام التالي، لأنه لاجميع الأساقفة ولا نوابهم، ولانواب الأمراء، قد ظهروا في هذا المؤتمر، وعلى هذا الالتماس، رد البـابا قائلاً: «إن المجمـع العام لكثير من البطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأسـاقفة، والنبلاء الآخرين من مختلف بقـاع العالم، كـانوا جميعاً ينتظرون مـولاك الامبراطور أن يتواضع بنفسـه، وبذلك كـان سيكون راضيـاً تمامـاً، وبـالنسبـة للذين هم غيـاب، إن الذي منعهم من الحضور والمشاركة، هو أنهم بالشراك التي نصبها مولاك، لذلك

إنه من غير الموائم لقـرار الخلع، الذي سيصـدر بحقـه، أن يجري تأجيله أية مدة أخرى، خشية أن يستفيد من مكره، لأن المخادع ينبغي أن لايستفيد من أي واحد».

الشكوى التي عملها وكلاء جماعة إنكلترا في مؤتمر ليون

عندما أخذ وكلاء الجماعة الانكليـزية، الذين تقدم ذكرهم، مقاعدهم في المؤتمر، نهض المعلم وليم دي بـاوريك، المتحــدث باسمهم، وعمـل باسم الجماعـة الانكليزية كلهـا شكوى جـادة، حول الظلم الذي كـان يمارس في تلك المملكة، عـــارضـاً ذلك بخطبــة فصيحـة، وبيّـــن أنه في أيام الحرب استخـرجت ضريبـة مـؤذية من قبل البـلاط الرومـاني، عليهـا لم يوافق قط أسلاف نبـلاء المملكة، كما أنهم لايوافقون عليها اليـوم، كما أنهم لن يوافقوا عليهـــا بالنسبـة للمستقبـل، ولهذا هم يطلبـون العـــدالة وأن يقـــدم إليهم الخلاص، وعلى هذا الطلب لم يجب البـابا ولابكلمة واحـدة، كما أنه لم يرفع عينيـه، وبعد صمت قصير أعطى وليم المذكـور تفصيـلاً بالاستخراجـات المضـاعفـة للمـوارد التي مـورسـت في انكلترا من قبل البـلاط الرومـاني، وأراهم بالوقت نفسه الرسالة التالية:

رسالة من جماعة إنكلترا حول استخراجات البلاط الروماني

«إلى الأب المبجل في المسيـح، انوسنـت، الذي هو بنعمـــــة الرب الحبر الأعظم، يبعث إليـه نبلاء انكلترا والجماعة بشكل عـام، بإطرائهم، ويقبلون قدميه المباركتين:

إننا نحب أمنا الكنيسـة الرومانيـة ونقـدرها من كل قلوبنا، كما ينبغي أن نفعل، ونهدف بكل عواطفنا الممكنة لزيادة كرامتهـا وتقدمها، ومعها ينبغي أن نمتلك مـلاذاً في الأوقـات المناسبـة، في سبيـل إزالة أسف الابن المظلوم ورفعه بمـواساة الأم، وهذه المواساة على الأم تقديمهـا إلى الابن بمزيد من اللطف والسهولة، وفي مقابل تغـذيتها له بلطف الأم، إنها تطلب من الابن الامتنان والاخـلاص، والأم، بالفعل، لايمكن أن تكون جـاهلة بالامتنان

الذي أظهرته لسنوات كثيرة، مملكة انكلترا نحوها، فقد منحتها ثماراً وافرة من التمجيد وفي سبيل أمنها الأعظم، في سبيل أنه بهذه الوسائط، من الممكن تأسيس تحالف من التعاطف يكون أكثر ثباتاً بين الكنيسة والمملكة المذكورة، وهذا المورد قد عرف مع مرور الأيام، باسم «بنس بطرس»، ولم تكن الكنيسة على كل حال مكتفية بمعونة من هذا النوع، وفي الأوقات المتأخرة طالبت بالمساعدات بوساطة النواب البابويين، وبرسل آخرين متكررين، وجاء ذلك بطرق مختلفة، اتبعت في المملكة المتقدم ذكرها، وهذه المساعدات جرى تقديمها من قبل أولادها المخلصين بكرم، وكأنهم كانوا يحتضنون أمهم بأذرعة عواطف مختلفة، ونحن نعتقد أيضاً، أن قداستكم غير جاهلين بأن أجدادنا بحكم أنهم كانوا كاثوليكاً حقيقيين، كانوا جميعاً يحبون الرب ويخافونه، ويرغبون بضمان خلاص أرواحهم وأرواح أجدادهم، وكذلك أرواح أولادهم، وأنهم قد أسسوا ديرة، وأغنوها من ممتلكاتهم بكل من الممتلكات الأرضية والرعاية من قبل الكنائس في سبيل أن يتمكن الرهبان من تأدية واجباتهم الدينية بشكل جدير بالثناء في تلك الديرة، وأن يخدموا العلي الأعلى بيقظة، ولكي يتمكنوا من التمتع بالسلام والأمان، ولمواجهة ما يحتاجونه في خدمة الدين، تسلموا الوسائل الضرورية للعيش، وذلك بما يتواءم مع واجباتهم الدينية، من أصحاب الممتلكات المذكورة، ولكي يتمكن كهنتهم من وضع كنائسهم تحت حمايتهم، ولكي يؤدوا الأعمال في الخارج، ويلتزموا بالفرع الثاني للدين، وليتمكنوا من حمايتهم من غارات الآخرين، وبناء عليه، لن يمر الأمر من دون اغضاب شديد لنا، وأنه سيكون أذى شديداً لنا لايمكن تحمله، عندما يحدث ويجري تضليل الرهبان المذكورين وابعادهم عن امتيازات حماتهم، وعن الارتباط بكنائسهم، لكن الآن، حدث من قبلكم، ومن قبل أسلافكم، الذين ليس لديهم تقدير، فبالاضافة إلى الموارد المتقدم ذكرها، استغنى الايطاليون الآن (الذين يوجد منهم أعداد بلا نهاية تقريباً) على حساب الكنائس العائدة إلى حماة هؤلاء الرهبان أنفسهم، وهم الذين

يدعون باسم قساوسة الكنائس، وهكذا تركوا هؤلاء الذين توجب عليهم الدفاع عنهم، وقد اجتثوا تماماً، ولم يعودوا يعطون الاهتمام لأرواح الناس، بل تركوا هؤلاء الذئاب الأكثر جشعاً ليتولوا تمزيق القطيع، ولاختطاف الشياه، وعلى هذا يمكنهم القول صادقين، بأن هؤلاء الأشخاص ليسوا رعاة جيدين، لأنهم لايعرفون شياههم، كما أن الشياه لاتعرف شيئاً عن الرعاة، فهم لايمارسون أعمال الضيافة، أو تقديم الصدقات المتوجبة على الكنيسة، بل إنهم يتسلمون الثمار فقط لحملها إلى خارج المملكة، مفقرينها إلى درجة كبيرة، باستحواذهم أنفسهم على مواردها، وبذلك فإن إخواننا، وأحفادنا وأقربائنا الآخرين، الذين هم أشخاص جديرون بالعناية من قبل المملكة المذكورة، ينبغي أن ينتفعوا، لكنهم لايستطيعون، ولايمكنهم برحمة وتقوى أن يكونوا قادرين على ممارسة أعمال الاحسان المذكورة وأعمالاً أخرى، وهم يرغبون شخصياً أن يخدموا الكنائس المذكورة، وذلك وفقاً لكلمات بطرس، بأن الذين يخدمون المذبح، يمكنهم العيش مع المذبح، غير أنهم اضطروا الآن بحكم الضرورات لأن يصبحوا رجالاً علمانيين ومنفيين، وفي سبيل أن تكون الحقيقة معروفة لديكم، فإن هؤلاء الايطاليين يتسلمون ستين ألف مارك، لابل أكثر سنوياً من انكلترا، وذلك بالاضافة إلى جبايات أخرى متنوعة، وهم ينقلون منها ربحاً صافياً على شكل موارد من المملكة أكثر من الملك نفسه، الذي هو حامي الكنيسة، والممسك بمقاليد السلطة في تلك المملكة، علاوة على هذا لقد أملنا بعد تنصيبكم (ومازلنا نأمل بالشيء نفسه، لأننا واضعين ثقتنا بكم) أنه بتدخل من عاطفتكم الأبوية، سوف ننال البهجة، ونعيد في أيامكم تأسيس إعطاء الصدقات المتقدم ذكرها إلى وضعها السالف الصحيح.

ونحن —على كل حال— لايمكننا أن نمر صامتين بمظالمنا، لأننا نحن لم نتضرر فقط، بل عسف بنا إلى أبعد الحدود، ففي المقام الأول، قام المعلم مارتن، الذي دخل مؤخراً إلى المملكة، من دون إذن الملك، وهو مفوض

بسلطات أكبر من أي سلطات نذكر أنها منحت إلى أي نائب بابوي، وطلبت من الملك من قبل (ومع أنه لم يمتلك شارة النيابة البابوية، مارس الواجبات المتنوعة لمنصبه)، فقد كان يمارس يومياً، ويعرض سلطات جديدة، لم يسمع بها من قبل، وخلال ممارسته للسلطة كان يقوم باستمرار بتجاوزات وخروقات، فقد منح بعض المنافع الشاغرة بمبلغ ثلاثين ماركاً أو أكثر سنوياً، إلى بعض الايطاليين، وعندما يموتون سوف يتولى آخرون ويتعينون مكانهم، من دون معرفة الحماة، وهكذا نجد أن هؤلاء الحماة قد تعرضوا للغش في امتياز عطيتهم، لابل أكثر من هذا، لقد حاول المعلم مارتن المذكور أن يعين منافع مشابهة، عندما صدف وكانوا شاغرين، إلى أشخاص متنوعين، واحتفظ للكرسي المقدس بحق منح بعض المنافع، وعلاوة على ذلك استخرج جبايات قاسية جداً من الرهبان، وكان يتفوه بأحكام الحرمان الكنسي، والتعليق مع الحرمان من شراكة المؤمنين، في جميع الإتجاهات ضد المتقولين، المتململين، وكان المعارضون عرضة لخطر عظيم، وللرعب على أرواحهم، وبناء عليه، إنه بالنسبة للمعلم مارتن المذكور، وبالنسبة للاضطراب العظيم الذي عانت منه المملكة كلها، فقد مارس المذكور أعمالاً قضائية، نحن لايمكننا أن نصدق أنها صدرت عن علمكم، لأنه مارس واجبات عالية، كانت بالحقيقة أعلى مما نتذكر قط أنه قد مورس من قبل، من قبل أي نائب بابوي، حيث انحرف كثيراً عن الامتياز، الذي جرى منحه من قبل إلى صاحب الجلالة الملك، من قبل الكرسي الرسولي، الذي رسم من قبله، أن ما من واحد سوف يملأ منصب النائب البابوي في انكلترا، ما لم يكن جرى طلبه بشكل خاص من قبل الملك، وبناء عليه، إننا مع كل التذلل الممكن والاخلاص، نرجو قداستكم، وبالندر نفسه نلتمس العاطفة الأبوية لأن تمدّ يد الرحمة لإنقاذ الأولاد المظلومين، بوساطة مساعدة مؤثرة ومعقولة، من المضار التي تقدم ذكرها أعلاه، ومن المظالم، لا.. مع أن ملكنا، الذي هو كاثوليكي صحيح، وغيورعلى تأدية واجباته الدين، دون الاهتمام بتبديد جسده، هو ير غ... ف...

تأديته لواجبه نحو يسوع المسيح، وفي احترامه للكرسي الرسولي، ويود أن يرفع من شأن الكنيسة الرومانية، ويزيد من كرامتها ومنافعها، وذلك كما ينبغي على ولد محب كثيراً أن يفعل، بيد أنه في الوقت نفسه أن يكون ذلك مع الحفاظ على الامتيازات الملكية، وعلى الكرامات، ومع ذلك إننا نحن الذين نتحمل متاعب وحرارة اليوم في خدمته، والذي واجبه يقتضي ذلك، مع الملك المذكور، حتى نرى الحفاظ على المملكة، نحن لايمكننا أن نتحمل بصبر هذه المظالم المذكورة، والتي هي ممقوتة للرب وللانسان مع مثل هذه الأعباء التي لايمكن تحملها، وبحق نعمة الرب لن نتحملهم أية مدة أطول، من خلال تدخل مساعدتكم الفعالة التي نأمل ونثق بأن نتلقاها سريعاً، وأثناء المناسبة، ولعله بناء عليه، يرضي قداستكم إعطاء إذن مصغية متعاطفة إلى التماساتنا، حتى تنال باستحقاق شكراً خاصاً من نبلاء انكلترا، ومن الجمع العام للجماعة في انكلترا، وذلك بحكم كونهم أكثر الأبناء حباً في المسيح».

البابا يؤجل إعطاء جواب للرسل من إنكلترا

ومع أن الرسالة قرئت، ونشرت بشكل مكشوف، وسط صمت عام، لم يقدم البابا جواباً، لأنه أكد أن مثل هذه القضية الصعبة تتطلب مداولات طويلة، ولهذا أخّر إعطاء جوابه لبعض الوقت، ومع أن النبلاء المتقدم ذكرهم، والرسل الخاصين شددوا على حثه على إعطاء الجواب على الفور، هو لم يقبل، بل وعد أنه سيفعل ذلك بعد مدة ليست طويلة، وبالاضافة إلى الشكاوي التي تقدم ذكرها، أضاف الرسل المذكورون أيضاً شكوى أخرى ثقيلة، وكانت حول المظالم الخبيثة، والأذى الذي لايمكن تحمله، والمكوس اللاأخلاقية التي مورست، بسبب تلك الإضافة المقيتة للفقرة التي غالباً ما أقحمت في الرسائل البابوية، وهي «دون تقدير» إلخ، إلخ.

غير أن البابا كان منصرفاً نحو قضايا أعظم أهمية، ومع أن المعلم ثاديوس، وكيل الامبراطور ترافع ضدها بفصاحة، قام البابا الآن من دون

أي تردد، أو خداع، أوتأخير، فتفوه مزمجراً بقرار الحرمان الكنسي ضد الامبراطور فردريك، أمام المجمع كله، مما أدهش جميع الذين سمعوه وأرعبهم.

كيف حرم البابا كنسياً الإمبراطور فردريك في مجمع ليون

«أنوسنت، الأسقف، عبد عبيد الرب، إلخ:

بحضور المجمع المقدس، وفي تذكر دائم للحادثة، وفي تمجيد للكرسي الرسولي، قمنا نحن الذين —وإن كنا لانستحق— جرت ترقيتنا إلى المنصب البابوي بتقدير من الجلالة اللاهوتية، والذي علينا أن نعطي عنايتنا المتواصلة واليقظة إلى جميع المسيحيين، فمنحنا عين التقدير العميق، لنميز الأعمال والأقوال لكل واحد من الناس، ولكي نزنهم بميزان التقدير الحكيم، في سبيل أن نتمكن من مكافأة الذين يستحقون المكافأة، الذين بعد فحص دقيق تبرهن أنهم جديرين بذلك، ولنوقع العقوبة المستحقة على الذين نجدهم مجرمين أو ملومين بأي طريق من الطرق، وذلك وفقاً لطبيعة ذنوبهم، ولسوف نزن دوماً فضائلهم وجوائزهم في ميزان متعادل، معاودين الدفع إلى كل واحد كمية الجائزة أو العقوبة، وفقاً لطبيعة أعماله، سواء أكانت جيدة أم سيئة.

وبالنسبة للحروب المستعرة المديدة، التي أزعجت منذ وقت طويل بعض المقاطعات والمناطق التي تؤمن بالمسيحية، رغبنا من قلبنا كله بإعادة الهدوء والسلام إلى كنيسة الرب المقدسة، وإلى جميع المسيحيين بشكل عام، وقدرنا أنه مفيد لنا القيام بإرسال رسل خاصين إلى الأمير الرئيسي العلماني، الذي كان هو المقترف لهذه التمزقات والاضطرابات، والذي كان لتجاوزاته محروماً كنسياً من قبل سلفنا، البابا غريغوري، صاحب الذكرى السعيدة، لقد قمنا بناء عليه، بإرسال رجال رفيعين بالمسؤولية ممثلين لنا ولصالحنا، وهم: أخينا المبجل ب. P راعي دير ألبانو في ذلك الوقت،

ورئيس أساقفة روان الآن، وو. W أسقف سابينا الآن، ومن قبل أسقف مودينا Modena,وابننا المحبوب كثيراً وليم، الكاهن الكاردينال لكنيسة الاثني عشر رسولاً، والذي كان في ذلك الحين راعي دير القديس فاكندوس Facundus, وكلهم كان مشحوناً بالرغبة لخلاص ذلك الأمير المذكور.

وأوضحنا من خلالهم بأننا مع إخواننا، نسعى، بقدر ما نمتلك من قوة، لأن نكون في سلام معه في كل جانب، وذلك حسبما كنا جاهزين لأن نكون مع جميع الناس، ونحن نرغب في أن نمنح له السلام والهدوء وإلى جميع العالم، أما مايتعلق بإعادة الأساقفة، والكهنة وجميع الآخرين الذين في حبسه سجناء، وكذلك بالنسبة لجميع الكهنة، وكذلك العلمانيين، الذين أسرهم في الغلايين، إن ذلك سوف يكون مساعداً على صنع السلام والمصالحة، وسألناه بوساطة الرسل أنفسهم وطلبنا منه، أن يعيدهم إلى الحرية، (وذلك حسبما كان هو وكذلك رسله قد وعدوا سلفنا المذكور، وذلك قبل دعوتنا إلى المنصب الرسولي)، وأعلنا علاوة على ذلك، بأن الرسل المذكورين، كانوا مستعدين، باسمنا لإستماع مقترحاته من أجل، وفي سبيل ترتيب بنود للسلام، وللإصغاء إلى أية تقديمات واقتراحات للترضية، يمكنه —أي الأمير المذكور— أن يختار عرضها في المسألة المتعلقة بكل قضية حرمانه الكنسي، وبالاضافة إلى هذا، إذا كانت الكنيسة قد آذته بطريقة غير صحيحة (التي لاتعتقد بأنها فعلت ذلك) هي على استعداد للقيام بالإصلاحات، ولأن تعيده إلى وضعه الطبيعي، وإنه إذا ما قال بأن الكنيسة أو نحن شخصياً قد ألحقنا به الضرر في أية طريقة من الطرق مضادة للعدالة، إننا على استعداد لأن ندعو الملوك، والأساقفة، والمقدمين، ورجال اللاهوت، وكذلك العلمانيين، إلى الاجتماع إما شخصياً، أو من قبل رسلهم الخاصين، في مكان ما آمن، وإن الكنيسة مستعدة، وفقاً لقرار المؤتمر، لأن تقدم إليه الترضية، إذا ما كانت قد آذته بأية طريقة من الطرق، وأن تلغي أي قرار بالحرمان الكنسي، كانت قد أصدرته ضده بشكل غير

عـادل، وأن تعـاملـه بكل لطف ومـرحمة، بقـدر مـا يمكنهـا أن تمنح، مع احترامهـا للرب، ولكـرامتهـا الذاتيـة، وأن تتسلم ترضيـة منه عن الأذى والمضار التي اقترفت ضد الكنيسة المذكـورة من قبله، أو من قبل أتباعه من خلالـه، وإن الكنيسة ترغب أيضـاً في السماح إلى جميع أصدقـائه والمرتبطين به، أن يكونـوا في سـلام، وأن يتمتعـوا بأمن كـامل، وبـذلك لايمكن في المستقبل بشكل مطلق، تعرضهم للخطر أو للرعب حول هذا الشأن.

ولكن مع أننا سعينا بوساطة عتابنا الأبوي، وبوساطة الالتماسات العامة أن نحـرضه على السـلام، قلّد الأمير المذكور بعناده فـرعون، وأغلق أذنيـه مثل ثعبـان، في ذروة عنـاده، وتبنى حـالة العجـرفـة والتشـامخ، وازدرى ورفض التماساتنا وتحذيراتنا حـول هذه القضية، ومع أنه حـدث من خلال مرور الوقت، في السنة التـالية، في يوم عيد العشاء لربنا، والذي كـان العيد الأخير، بحضـور إخـواننـا الكرادلة، وكـذلك ولدنا المحبـوب كثيراً في المسيح، امبراطور القسطنطينية المشهور، وحشد كبير من الأساقفة وشيوخ وحكماء شعب رومـا ومجلس شيـوخهـا، وجمع كبير مـن الآخـرين، الذين كـانوا قـد اجتمعوا لـدى الكرسي الرسولي في ذلـك اليوم، بسبب مهـابتـه ومكانتـه، من جميع أرجاء الدنيـا، أن قـام الأمير المذكور من خـلال النبيل كونت طولوز، والمعلم بطرس دي فينيا، وثاديوس دي سيسا، القاضيان في بلاطه، ووكلائه، في ظل أوامر منه حـول هذه القضية، فأعطى يمينا مهيبا، بأنه سوف يلتـزم بأوامرنا وبأوامر الكنيسـة، ومع ذلك هو لم يف بعد ذلك بالذي أقسم عليه، وفي الحقيقة، إنه من المعتقد بشكل صحيح، ومن الممكن استخراج الأمـر واستنتاجـه من الإجراءات التي عملهـا فيها بعد، أنه أدى ذلك اليمين لغـاية الخداع وليس لغاية طـاعة الكنيسـة، لأنه على الرغم من مضي سنة حتى الآن، هو لم يقم بالعودة إلى صـدر الكنيسة، كما أنه لم يكلف نفسه ولم يزعجها بتقديم ترضية حول الأذى والخسائر التي عانت منها من قبله، مع أنـه طلب منه مـراراً أن يفعل ذلك، وبناء عليـه، بما أننا لم نعـد

راغبين، ولسنا قـادرين ــدون أن نذنب ذنباً عظيماً بحق يسـوع المسيح ــ أن نتساهل تجاه عدوانيته وذنوبه، ولقد أرغمنا بضميرنا على اتخاذ إجراءات ضده.

وإذا مـا التـزمنا بالصمت الآن حـول جرائمـه الأخـرى ومظالمه، لقـد اقترف أربعة آثام ثقيلة جداً، لايمكن تسويغها بأية وسيلة تلطيف، ذلك أنه غالبـاً ما أقسم يميناً تعهـد به بمراعاة السـلام الذي أعيد تثبيتـه رسمياً بين الكنيسـة والامبرطوريـة، ثم قـام بطيش بخــرقـه، كما أنه اقترف إثماً كبيراً بتسببـه باعتقـال كــرادلة الكنيسـة الرومـانيـة المقـدســة، وكهنة الكنائس الأخرى، والرهبان، والعلمانيين، الذين كـانوا قادمين إلى المجمع الذي رأى سلفنا المذكور أنه من المناسب الـدعوة إليه، وهو أيضـاً متهم بالهرطقة ليس على أسس مشكوك بها أو أرضيــة ضعيفـة، بل على أســاس بينات مبرهن عليها، وأنه اقترف كثيراً مـن أعمال الحنث باليمين واضحة بما فيـه الكفاية، لأنه عنـدمــا كـــان فيما مضى مقيماً في صقليــة، قبـل انتخــابه للمقـــام الامبراطوري، قام بحضور غ. G الكادرينال الشماس للقديس ثيودور، وصـاحب الذكـرى الطيبة نائب الكرسي الـرسولي، فقـدم يمين الولاء إلى سلفنا البـابا انوسنت، صـاحب الذكـرى الطيبـة، وإلى خلفائـه من بعـده، وكذلك إلى كنيسـة روما، مقابل تقـدير التنازل عن مملكة صقلية له من قبل الكنيسـة المذكـورة، وحسبما روي، إنه بعد انتخـابه لذلك المقـام المذكـور، وبعد وصـوله إلى المدينة جدد ذلك اليمين أمام انوسنت المذكـور، وإخوته الكرادلة، وبحضور عدد كبير آخر، وقدم ولاءً قـانونياً إلى البابا المذكور مع يدين مرفوعتين.

وبعـد هذا، عندمـا كـان بألمانيا، عمـل يميناً بحضور الأمـراء والنبـلاء العائـدين للامبراطورية، قضى بالحفاظ على البـابا انوسنت المذكور، ولدى وفـــاته، على البـابـا هونوريوس سلفنا، وعلى خلفـــائـــه، وأن يحمي بإيمان صالح، وبقدر ماهو متوفـر في قدرته، شرف، وحقوق، وممتلكات الكنيسة

الرومانيــة، وأن كل ماسـوف يأتي إلى بين يديه، سوف يعيـده إليها من دون أية معـارضـة، وقد ورد ذكـر الممتلكات المذكـورة بوضـوح في بنود يمينه، الذي أكده فيما بعـد، فوز حصوله على تـاج الامبراطورية، لكن بالنسبة إلى هذه الأيمان الثلاثة، لقد برهن عن نفسه، أنه غير ملتزم جريء، وخارق لها، وبهذا نال وصمـة الخيـانة وتهمـة الخيـانة، لأنه أرسل إلى الإخـوة الكرادلة رسـائل تهديد ضد سلفنـا غريغـوري، وضد إخـوانه المذكـورين، وكما هو ظاهر من الرسائل التي أرسلت من قبله، أقدم على تشويه سمعة غريغوري المذكور بين إخـوانه المذكوريـن، وحسبما ورد في رسائل لها المحتـوي نفسه للتشهير بطرائق مضـاعفة في جميع أرجـاء العالم، كما أنه أمـر أيضاً باعتقـال شخصي لأخـــــوينـا المحترمين: أوتو، أسقـف بـورتو، في ذلـك الحين، وكـاردينال شماس للقـديس نيقـولا، في سجن توليـان، وج. L أسقف برينستي، صاحب الذكرى الطيبـة، والنائب البابوي للكرسي الرسولي، مع أعضاء بارزين من الكنيسة الرومانية، وانتزع من آخرين مقتنياتهم، وحملهم بشكل مهين عدة مـرات وطاف بهم حول وخلال أمـاكن متنوعة، ثم ألقى بهم في السجن، وعـلاوة على ذلك، سعى بكل مـا أوتيه مـن قوة لانقـاص امتيازات الكنيسـة، أوبالحري، لانتزاع هذه الامتيازات كلهـا، التي منحها مولانا يسوع المسيح إلى القديس بطرس وخلفائه، والتي تمثلت بقوله:

«إن كل الذي سـوف تربطـه على الأرض، سـوف يربط في السماء، وكل شيء سـوف تحله على الأرض، سـوف يجري أيضـاً حله في السماء»، (ففي هذا الامتياز ترسو قـوة وسلطة الكنيسة الرومانية)، ولقـد كتب رسالة بأنه لايقيم تقديراً لقرار الحرمان الكنسي الذي صـدر ضده من قبل سلفنا البابا غريغوري، وبذلك استخف بمفاتيح الكنيسـة، بعدم رعايتها بشخصه، ولم يكتف بهذا بنفسه، بل أيضـاً بوساطة وسـائل موظفيه، فـأرغم آخرين على عـدم مراعـاة قرار الحكم هذا، أو قـرارات الحرمان الكنسي الأخـرى، مع قرارات الحرمـان من شراكة المؤمنين، فهذا كله لم يعبأ به، أما بالنسبـة أيضاً

لممتلكات الكنيسة الرومانية، وهي تخوم ودوقية بينيفنتو، (التي أمر بتدمير أسوارها وأبراجها) وممتلكات أخرى كانت بحوذتها في أجزاء من توسكانيا ولومبارديا، وفي بعض الأماكن الأخرى، مع بعض من الاستثناءات القليلة، فقد تجرأ على الاستحواذ عليهم، وكأن هذا لم يكن فيه كفاية، وذلك حين أقدم على هذا العمل، لقد قام بشكل واضح ومكشوف بخرق الأيمان المتقدم ذكرها، وأقدم شخصياً أو بوساطة موظفيه على إرغام السكان في هذه الممتلكات، على إقسام يمين، حللهم فيه —مع أنه لايمتلك السلطة بموجب الامتيازات أن يفعل ذلك— من يمين الولاء الذي كانوا مرتبطين به بموجب الأمر الواقع، إلى الكنيسة، وبعدما أرغمهم على الحنث بيمين الولاء المذكور، أرغمهم على أداء أيمان ولاء له شخصياً.

وكونه قد برهن عن نفسه، أنه خارق للسلام، فهذا واضح تماماً، لأنه من قبل، أثناء السلام، الذي أعيد تأسيسه بين الكنيسة وبينه، أدى يميناً أمام جون دي أبيفيل، صاحب الذكرى الطيبة، أسقف سالسبري، والمعلم نوماسيوس، الذي كان آنذاك كاردينال —كاهن للقديس سابينا— وبحضور عدد كبير من الأساقفة، والأمراء، والبارونات، بأنه سوف يلتزم تماماً ومن دون شروط بأوامر الكنيسة، وسوف يكون مطيعاً لها في القضايا التي من أجلها جرى حرمانه كنسياً، ذلك أن أسباب ذلك الحرمان قد جرى شرحها له تماماً، كما أنه قام في الوقت نفسه، من خلال كونت أسيرا Acerra, فأدى يميناً بروحه، بأنه سوف يعفو عن جميع الجرائم ويلغي كل العقوبات، بالنسبة لسكان ألمانيا، ومملكة صقلية، وجميع الآخرين، مهما كانت أحوالهم أو مراتبهم، من الذين كانوا واقفين إلى جانب الكنيسة، وأنه سوف لن يؤذيهم في أي وقت من الأوقات، أو أن يتسبب لهم بأي أذى، بسبب وقوفهم إلى جانب الكنيسة، ومع ذلك فإنه فيما بعد لم يشعر بأي حياء بسبب تورطه بحنث كبير، وذلك أنه أخفق في رعاية هذا السلام

وأيمانه هذه، لأن هؤلاء الناس أنفسهم الذين تقدم ذكرهم من نبلاء ومن آخرين، أمر بهم، فيما بعد، فجرى اعتقالهم وسجنهم، وبعدما أفسد جميع مقتنياتهم، قام أيضاً بسجن زوجاتهم وأولادهم، وبالاضافة إلى هذا، وعلى عكس الوعود التي أعطاها إلى ج. ل أسقف سابينا، والكاردينال توماسيوس، قام بدون وقار فغزا أراضي الكنيسة، مع أن الأسقفين المتقدم ذكرهما، قد أعلنا بحضوره عن قرار الحرمان الكنسي ضده، إذا ما أقدم في مستقبل الأيام على نقض الشروط المتقدمة والبنود، وقام الأسقفان نفساهما بموجب السلطات التي كانت ممنوحة لهما من الكرسي الرسولي، فحرما عليه أن يقدم شخصياً، أو بوسائل أي واحد آخر، بمنع التسميات، والانتخابات، والتثبيتات في الكنائس والديرة، وأن يحول دون عملها حرة، في المملكة المتقدمة الذكر بالنسبة للمستقبل، تماشياً مع مرسوم صدر عن مجمع عام، كما أمرا أنه ما من واحد، يحق له من ذلك الحين فرض ضرائب أو اسهامات على اللاهوتيين في تلك المملكة، أو على بضائعهم ومقتنياتهم، وأنه ما من كاهن أو لاهوتي في تلك المملكة يجوز أن يستدعى من الآن فصاعداً، للمثول أمام قاض مدني، في أية قضية مدنية أو سبب جرمي، ما لم تكن قضية الخلاف قضية مدنية تتعلق بالايجارات، وقد فرض عليه أيضاً، أن يقدم ترضية مناسبة إلى الداوية والاسبتارية، وإلى اللاهوتيين الآخرين عن الأضرار، والخسائر التي لحقت بهم، ومع ذلك قد رفض تنفيذ جميع هذه الأوامر.

ومن الواضح أيضاً، أن هناك إحدى عشر رئاسة أساقفة، مع عدد كبير جداً من الكراسي الأسقفية، وكذلك من رعويات الديرة، وكنائس أخرى، هي في الوقت الحاضر شاغرة في المملكة المتقدمة الذكر، وأنهم من خلال وسائله —كما هو واضح تماماً— قد حرموا، منذ وقت طويل، من إدارة الأساقفة، مما يسبب ضرراً عظيماً للكنائس نفسها، ورعب لكثير من الأرواح، مع أنه، ربما قد جرت في بعض الكنائس، في تلك المملكة

انتخابات بوساطة هيئات الكهنة، إنه بسبب الكهنة الذين جرى انتخاب أصدقائهم، من الممكن أن نستخلص، أنهم لم يمتلكوا وسائل القيام بانتخابات حرة، وهو لم يتسبب فقط بالاستيلاء على أساسيات ومقتنيات كنائس المملكة المذكورة، ومن ثم الاستحواذ عليها لتكون تحت تصرفه، بل إنه نهب الصلبان، وكؤوس القربان، والشمعدانات، وبقية الكنوز المقدسة الأخرى، والأقمشة الحريرية العائدة إليهن، وكأن ذلك جاء ازدراءً للعبادات المقدسة، وإنه على كل حال، قد ذكر بأن بعضهم قد أعيد جزئياً إلى الكنائس المذكورة، لكن هناك كمية قد جرت المطالبة لها من قبل، وعسف بالكهنة بطرق مضاعفة كثيرة، بالجبايات وبالمكوس، وهم لم يجرجروا فقط ليقفوا أمام محكمين مدنيين، لا بل —كما روي— قد أرغموا على المعاناة من محنة المبارزة الفردية، وقد سجنوا، وقتلوا، وعذبوا على المشانق، مما شكل ازعاجاً وإهانة إلى النظام الكهنوتي كله، ولم تتوفر هناك أعمال تعويض إلى الداوية والاسبتارية، وللأشخاص اللاهوتيين الآخرين مقابل الخسائر والأضرار التي أنزلت بهم.

وأما أن يكون مجرماً بتدنيس الأمور المقدسة، فهذا أمر مؤكد، لأنه عندما كان أسقفا بورتوا، وبرنيستي مع آخرين من الأساقفة، وكهنة الكنائس، وكذلك الرهبان والعلمانيين قادمين عبر الماء إلى الكرسي الرسولي، من أجل غاية حضور المجمع، (الذي طلب هو، أي الامبراطور، بأن يعقد) كانت جميع الطرق في أراضيه مغلقة بناء على أوامره، وكان قد أرسل ابنه هنري مع عدد من الغلايين، حيث كمن بانتظارهم قرب شاطيء البحر، مع بعض الآخرين الذين كان قد استأجرهم في توسكانيا، من أجل القيام بانقضاض عليهم بكامل القوات، وبغضب شديد، وقد تجرأ أن يضع يديه المدنستين عليهم، وقد جرى إغراق بعض الأساقفة مع أشخاص آخرين، وقت الاستيلاء، وبعضهم جرى قتله، وأرغم آخرون على الفرار، وقد طوردوا من قبل أعدائهم، وجرى تجريد البقية من جميع

مقتنياتهم، وحملوا بشكل مهين من مكان إلى آخر في مملكة صقلية، ثم عهد بهم بعد ذلك إلى السجن هناك، حيث تلاشى بعضهم بالأمراض، وعسف بهم بالحاجة، وآل بهم المآل إلى أوضاع تعيسة.

وعلاوة على ذلك، هناك سبب جيد، لاتهامه بالهرطقة، وهو ناشيء عنه، فبعدما نال حكم الحرمان الكنسي، الذي أصدره ضده ج. L المتقدم الذكر، أسقف سابينا، والكاردينال توماسيوس، وقيام البابا غريغوري المتقدم ذكره بإصدار حكم التكفير، ضده، وبعد اعتقال الكرادلة الرومان والأساقفة، وكهنة الكنائس، عندما كانوا مسافرين من مختلف الأرجاء إلى الكرسي الرسولي، ازدرى ومازال يزدري مفاتيح الكنيسة، وتسبب، بقدر ما هو قادر على التأثير عليها، بممارسة الطقوس الدينية، أو بالحري بتدنيس الطقوس الدينية أمامه، مؤكداً بجرأة، كما ذكرنا أعلاه، بأنه لايخاف من قرار الحرمان الكنسي، الذي تفوه به ضده، البابا غريغوري، وبالاضافة إلى ذلك، لقد تحالف بحلف مقيت مع المسلمين، فهو غالباً ماأرسل الرسل والهدايا إليهم، وفي المقابل تلقى بعض الهدايا منهم مع الاحترام والبهجة، وقد تبنى عاداتهم، محتفظاً بهم بشكل معلن في خدماته اليومية، وبدون حياء، عيّن حرساً على زوجاته، اللاتي تسلمهن من المنحدرات من أصول ملكية، بعض الخصيان، بشكل خاص أولئك الذين تدبر مؤخراً خصيهم، والذي هو إثم أعظم، أنه عندما كان من قبل في بلاد ماوراء البحر، عمل نوعاً من الترتيبات، أو بالحري من التحالف مع السلطان، وسمح لاسم محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يجري إعلانه بشكل عام في هيكل الرب، نهاراً وليلاً، وقام مؤخراً، بالنسبة لقضية سلطان مصر، الذي صنع بيديه ومن خلال وكلائه أضراراً وأذى لايمكن التخلص منه، إلى الأرض المقدسة، وإلى سكانها المسيحيين، وجعل سفراء ذلك السلطان، في تقدير منه لسيدهم، أن يجري —كما قيل— استقبالهم بشكل مشرف، وأن يعاملوا بشكل كريم، في مملكته في صقلية.

كما أنه في معارضة للمسيحيين أساء باستخدام الطقوس الخبيثة والمرعبة للكفار الآخرين، وذلك في تحالف صداقة مع الذين يدفعون بشكل شرير قليلاً من الاحترام إلى الكرسي الرسولي، لابل هم يزدرونه، وانفصم عن الوحدة مع الكنيسة، وألقى جانباً بكل احترام للديانة المسيحية، وتسبب —كما هو مؤكد تماماً— بمقتل دوق بافاريا، صاحب الذكرى اللامعة، على أيدي الحشيشية، كما أنه أيضاً أعطى ابنته بالزواج إلى بتاكيوس، الذي هو عدو للرب وللكنيسة، وهو الذي قد طرد مع معاونيه ومستشاريه، ومحرضيه، بشكل مطلق من الجماعة المسيحية، بوساطة قرار بالحرمان الكنسي، ولقد رفض إجراءات وعادات الأمراء الكاثوليك، وأهمل مسألة خلاصه الذاتي، وطهارة سمعته، ذلك أنه لايستخدم نفسه ولايشغلها في أعمال التقوى، والذي هو أكثر (إذا ما سكتنا عن ممارساته الشريرة والمقيتة) هو أنه وإن كان قد تعلم ممارسة الظلم إلى درجة عالية جداً، هو لم يتعب نفسه، ولم يكلفها بالتفريج عن المظلومين بالأذى، بمدّ يده —كما ينبغي أن يفعل كأمير مسيحي— لتقديم الصدقات، علماً بأنه قصد بتشوق أن يدمر الكنائس، وقد سحق الرهبان، والأشخاص اللاهوتيين الآخرين، بالأعباء، وباضطهاد نيره، ولم يكتشف بأنه قد بنى قط، أو أسس، لاكنائس، ولاديرة، ولامشافي، أو أية أماكن تقوية أخرى، وهؤلاء على هذا ليسوا أرضيات خفيفة، بل مقنعة، للتشكك والاقتناع برميه بالهرطقة، وبما أن القانون المدني يرى بأن هؤلاء موجودين في لائحة الهرطقات، وينبغي خضوعهم للأحكام الصادرة ضدهم، أي ضد الذين انحرفوا ولو بدرجات خفيفة، عن قضاء وحكم الديانة الكاثوليكية.

وبالاضافة إلى هذا، إن جزيرة صقلية، التي هي النصير الروحي للقديس بطرس، والتي هي بين يدي الأمير المذكور، بمثابة إيجار من الكرسي الرسولي، هذه الكنيسة، قد تدنت من قبله إلى حالة من الفراغ والعبودية، أما ما يتعلق بكل من الكهنة والعلمانيين، فإنهم قد طردوا من

بيـوتهم وأخرجـوا من البلاد مع الإهانات،وذلك بعـدما جـردوا من جميع ممتلكاتهم، والذين قد بقيـوا هناك، قد أرغموا على العيش في حـالة عبودية، حسبما هو الحال، وأن يهينوا، ويهاجموا الكنيسـة الرومانيـة بكثير من الطرق المضاعفة، وهم الذين بالفعل رعاياها وأتباعها في الجزء الأكبر.

وهو ينبغي أيضـاً لسبب جيـد أن يلام، لأنه أوقف لمدة تسعـة أعـوام وأكثر، دفع الجعالة السنوية، التي مقدارهـا ألف قطعة، التي مرتبط بدفعها إلى الكنيسـة الرومـانيـة، مقـابل ايجار المملكة المذكـورة، ونحن بناء عليـه، بعدمـا تداولنا بنضج وبدقة مـع إخواننا الكرادلة، والمجمع المقـدس حول الأفاعيل التي تقدمت تسميتها أعلاه، وأفاعيل أخرى شائنة اقترفها، ورأينا —مع أننا لانستحـق— أننا على الأرض نمتلك سلطات مـولانا يســوع المسيح، الذي قال إلينـا بشخص القديس بطرس: (إن كل مـا سوف تربطه على الأرض، سوف يكون مربوطاً في السماء، و، إلخ)، ولذلك نحن نعلن، أن الأمير الذي تقـدمت تسميته أعـلاه، والذي حول نفسـه لأن يكون غير جدير، بمراتب السلطة، وأنه بالنظر لجرائمه، قد جرى خلعه من عرشه من قبل الرب، وليكون مربوطاً بذنوبه، وملقى به منبوذاً من قبل الرب، ومجرداً من جميع مراتبه الشرفية، ونحن هنا نحكـم عليه ونجرده، ومعه جميع الذين هم مـرتبطون به بأية طريقـة من الطرق، بيمين الولاء، ونحن نحلل هؤلاء بشكل دائم، ونلغي التــزامهم بذلك اليمين، ونمنع بكل دقــة، بمـوجب السلطات الرسـوليـة، أي واحـد من إطاعتـه، أو أن يحاول بأية طريقـة من الطرق اطاعتـه كـامبراطور أو ملك، ونحن نرسم، بأن أي واحـد، سـوف يقدم إليـه، من الآن فصاعـداً، مساعـدة أو نصيحة، أو أن يظهـر نحوه أي تعـاطف، كامبراطـور أو ملك، سوف يكون بحكم الأمـر الواقع، محرومـاً كنسيـاً، ويمكن للذيـن في الامبراطورية، الذيـن إليهم آل شأن انتخـاب امبراطور، أن ينتخبوا بحرية خلفاً يحل محله، أما فيما يتعلق بمملكة صقلية المتقدمة الذكـر، سوف نقوم، مع نصيحة إخـواننا الكرادلة، بتقديم حل لها

حسبما يكون مناسباً لنا. صدر في ليون، في السادس عشر من تموز، في السنة الثالثة من حبريتنا».

مغادرة وكلاء الإمبراطور في حالة اضطراب

وعندما جرى نشر هذه الرسالة في المؤتمر المعلن، أصابت بالرعب جميع الذين سمعوها، وكأنها كانت تنشر بريقاً، أما المعلم ثاديوس دي سوسا، ووولتر دي أوكرا Ocra, ومعه الوكلاء الآخرين للامبراطور، وخدمهم، فقد تلقوا ذلك بدهشة وأسف، حيث كانوا يضربون أطرافهم وصدورهم، ولم يتمكنوا من حبس أنفسهم عن البكاء وذرف الدموع، وقال المعلم ثاديوس صارخاً وقد علته الدهشة: «آه، إنه يوم مخيف، إنه يوم غضب، يوم مصيبة، وشقاء»، وفي تلك الأثناء، كان البابا وقد جلس من حوله الأساقفة في المجمع، قد تفوهوا مزمجرين، والشموع مشتعلة، بقرارات الحرمان الكنسي ضد الامبراطور فردريك، ووقتها قام وكلاؤه بالانسحاب وهم في حالة اضطراب.

مراسيم من أجل التفريج عن الأرض المقدسة وحول شؤون الصليب

وكان البابا مليئاً بالقلق من أجل التفريج عن الأرض المقدسة، وحول مايتعلق بشؤون الصليب، ولذلك عمل الخطابات التالية، حول هاتين القضيتين: «مطعونين في القلب، ذلك أننا نعاني من رعب محزن حول الأرض المقدسة، وبشكل خاص حول ماحدث مؤخراً إلى المسيحيين الذين يعيشون هناك، ونحن نمتلك الرغبة من قلبنا كله، لأن نفرج عنها، ولقد قررنا بالتداول مع المجمع المقدس، أن نقوم بوساطة الدومينيكان ورسلنا الخاصين، بدعوة جميع المسيحيين الحقيقيين، الذين عملوا ترتيبات لعبور البحر، في أن يستعدوا لحمل الصليب، وأن يجتمعوا في وقت موائم من أجل هذه الغاية، وأن يكون ذلك في مكان مناسب، منه يمكنهم السير

إلى مساعدة الأرض المقدسة، مخاطين بالمباركة اللاهوتية، وكذلك بمباركة الكرسي المقدس، ويتوجب على الكهنة، وعلى رجال الدين الآخرين، الذين من الممكن أن يكونوا مع الجيش الصليبي، سواء أكانوا من المراتب الدنيا، أم كانوا أساقفة، أن يشغلوا أنفسهم، بإثارة الناس وتحريضهم بشكل متواصل، وبالصلاة وبالتعليم لهم، بالكلمة وبالفعل، وأن يضعوا دوماً أمام أعينهم الخوف من الرب، وحبه، وأن لايقولوا أي شيء، أو يفعلوه، يمكن أن يغضب جلالة الملك السرمدي، وإذا ما حدث في أي وقت من الأوقات وسقطوا في الذنب، عليهم أن ينهضوا سريعاً من جديد، مع توبة صحيحة، وأن يقودوا أنفسهم بكل تواضع، في كل من القلب والجسد، وأن يتمسكوا بالاعتدال بطعامهم وكذلك بلباسهم، وأن يتجنبوا تماماً الخلافات والمنازعات، وأن يزيلوا من أنفسهم كل حقد وكل حسد، وبذلك فإنهم عندما سيكونون محميين بالأسلحة الروحية وكذلك الأسلحة الدنيوية، يمكنهم القتال بأمان أكثر ضد أعداء الإيمان، غير معتمدين —على كل حال— على قوتهم أنفسهم، بل يثقون بالفضيلة اللاهوتية، و يتوجب على نبلاء الجيش ومقدميه، وعلى كل الذين يمتلكون وفرة من الأموال والثروات، أن يجري تحريضهم بوساطة التحذيرات ومحرضات الأساقفة، أن يتمنعوا —احتراماً منهم للمسيح، الذي من أجله حملوا شارة الصليب— عن جميع النفقات الفارغة والتي هي بلا فائدة، وبشكل خاص عن الذين يقومون بكثير من الاحتفالات، ويكثرون من الانفاق على الطعام الباهظ الثمن، وأن يحولوا أموالهم لاستخدامات أولئك الأشخاص الذين يمكن لشؤون الرب، أن تتقدم بوساطتهم، وإلى هؤلاء، بناء على هذا، سوف يجري منحهم عفواً عن ذنوبهم، وفقاً لحسن تصرف الأساقفة المذكورين، وإلى الكهنة المتقدم ذكرهم قد منحنا مهلة الاحتفاظ بمنافعهم لمدة ثلاثة أعوام، وذلك بأن تكون كاملة، وكأنهم مقيمون في الكنائس، وإذا كان ضرورياً يمكنهم وضعهم تحت الوصاية خلال تلك الآونة، وفي سبيل —بناء عليه— أن لايتراجع هذا التصميم

المقـدس، أو أن يعـاق بأي شكل من الأشكال، نحـن نأمـر بكل دقـة جميع الأساقفة، كل جماعة منهم في أمـاكنهم، أن يقوموا بكل نشاط بانذار واقناع الذين وضعـوا الصليب جـانبـاً، بأن يعيـدوا حمله، وأن يرسمـوهـم هـم مع الآخـرين بتلك الاشـارة المقدسـة، وأن يقـوم الذين مـازالوا يرتدون تلك الشارة، بالوفاء بنذورهم إلى الرب، وإذا كان من الضروري، بإرغامهم على فعل ذلك، بوســاطة قـرارات الحرمــان الكنسي، والحرمـان مـن شراكـة المؤمنين، واضعين جانباً كل الأعذار.

وبالنسبـة إلى هذا المقصد، مـن غير الممكن حذف أي احتمال في شـؤون مولانا يسـوع المسيح، وإنها ارادتنا وأوامرنـا، بأن يقوم البطاركـة، ورؤساء الأسـاقفة، والأسـاقفـة، ورعاة الـديرة، والآخرين الذيـن يتولون معـالجة الأرواح، بالتبشير بحماس بكلمـة الصليب، إلى الشعـب الذي عهـد به إلى عنايتهـم، وباسم الأب، والابن، والـروح القــدس، وهـم الـرب الحقيقي الواحــد، والواحـد فقط، وأن يلتمســوا بحـرارة من الملـوك، والأمـراء، والدوقات، والمركيزات، والايرلات، والبارونات، والنبلاء الآخرين، ومن الفئات التي تكونـت في المدن، والبلدات، والقـرى، ومن الذين لم يـذهبـوا بأشخـاصهم إلى الأرض المقـدسة، لتقـديم عـدد كاف مـن العساكـر، مع النفقــات الضرورية، لمدة ثلاثة أعــوام، وفقـاً لإمكـاناتهم، من أجل محي ذنوبهم، حسبما جرى التعبير عنه في الرسائل العـامة، التي أرسلناها مؤخراً إلى جميع أنحــاء العــالم، والتي —من أجل ضمان أعظم— ســوف يجري التعبير عنها أدناه».

ملاحظة تتعلق بالرسالة

«وهذه الأشيـاء كلهـا قـد كتبت في سنـة النعمـة ألف واحـدة ومـائتين وثلاث وأربعين، قبل أي قداس بليغ»، انظر بعد موت رتشارد مارشال.

«وفي محي الذنوب هـذا، نحن نرغب بأن نكـون شركـاء ليس فقط مع

الذين يقدمون سفنهم، بل مع الذين يشغلون أنفسهم في بناء سفن من أجل المناسبة، إنما بالنسبة للذين يرفضون إنه إذا ما صدف وكان هناك عدم عرفان إلى مولانا الرب، عليهم أن يحتجوا لصالح الكرسي المقدس، حتى يمكن أن يعرفوا أنه في يوم الحساب الأخير الدقيق، عليهم أن يجيبونا عن هذا أمام قاض مرعب، وقبل ذلك —على كل حال— طلب منهم أن يقدروا بأي ضمير، أو بأي أمل بالسلامة سوف يكونوا قادرين على الظهور أمام الابن المنجب الوحيد للرب، الذي أودع الرب بين يديه جميع الأشياء، فإذا ما رفضوا في هذه القضية —بشكل شاذ جداً لذاتهم— أن يخدموه، وهو الذي كان قد صلب من أجل ذنوبهم، والذي بعطيته هم يعيشون، وأنهم بلطفه هم مدعومون، وأنهم بدمه قد جرى انقاذهم.

وبموافقة المجمع كله بشكل عام، نحن نرسم، أنه يتوجب على جميع الكهنة، سواء من المراتب الدنيا، وكذلك من الأساقفة، أن يسهموا بجزء من عشرين من جميع موارد الكنيسة، من أجل مساعدة الأرض المقدسة، لمدة ثلاثة أعوام كاملة، بأيدي أشخاص، سوف يكونوا متسمين بحكمة الكرسي المقدس من أجل هذه الغاية، متوقعين —على كل حال— أن يكون هناك بعض الرهبان، الذي يمكن أن يكونوا معفيين من مثل هذا الاسهام، على أرضية صحيحة، وكذلك أولئك الذين حملوا الصليب، أو أنهم على وشك حمل الصليب، وهم سوف يسيرون إلى الأرض المقدسة، شخصياً، أما نحن مع إخواننا كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، فلسوف ندفع عشراً كاملاً، ونحن نود أن يعلم جميع الناس، أن عليهم فعل هذا، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وبناء عليه فإن الذين سيعرفون بممارسة الغش في هذه القضية، سوف ينالون عقوبة الحرمان الكنسي.

وإنه بموجب التقدير العادل، حقيق بالذين يعملون بخدمة الحكم الرباني، أن يتمتعوا بجزاء خاص، فالذين سوف يحملون الصليب سوف يعفون من الاسهام ومن الضرائب، ومن التكاليف الأخرى، وبعد حملهم

للصليب سوف نتسلم أشخاصهم وممتلكاتهم تحت حماية القديس بطرس، وحمايتنا، وقد رسمنا أيضاً، بأن تظل ممتلكاتهم تحت حماية رؤساء الأساقفة، والأساقفة وقساوسة كنيسة الرب، ومع هذا فلسوف يجري تعيين حماة موائمين لهذا الغرض الخاص من قبل أنفسنا، وبذلك يمكن لممتلكاتنا أن تبقى دون إزعاج وكاملة، حتى يمكن الحصول على خبر مؤكد حول عودتهم، أو موتهم، وإذا ما أقدم إنسان على أن يعمل عكس هذا، سوف يجري ضبطه بوساطة الروادع الكنسية.

وإذا ما كان أي واحد من هؤلاء الذين سوف ينطلقون بهذه الحملة، مرتبطاً بيمين بأن يدفع فائدة، نحن نأمر الذين هم مقرضين لهم، تحت طائلة العقوبة المتقدمة ذكرها، أن يقوموا باعفائهم من اليمين الذي عملوه، وأن يتوقفوا عن مطالبتهم بالفائدة، وإذا ما حاول أي واحد من مقرضيهم ارغامهم على دفع الفائدة، نحن نأمر بارغامهم على إعادة المبلغ نفسه، تحت طائلة عقوبة الحكم نفسه، ونحن نأمر، بأن يجري إرغام اليهود بوساطة السلطات العلمانية على إلغاء الفائدة، وإلى أن يقوموا بإلغائها، سوف يكونوا ممنوعين من الاتصال مع المسيحيين، بوساطة استخدام حكم الحرمان الكنسي، أما فيما يتعلق بالذين لايمكنهم في الوقت الحاضر أن يدفعوا ديونهم إلى اليهود، على رجال السلطات العلمانية، أن يقوموا بوساطة تأخير مفيد، عمل ترتيبات تقضي، أنه من الوقت الذي سوف ينطلقون به بالحملة، حتى يمكن الحصول على خبر، إما عن عودتهم، أو عن موتهم، وإلى ذلك الوقت لن يتعرضوا لمضايقات دفع فائدة، وبالنسبة لليهود المرغمين —إنهم بعد حذفهم جميع النفقات الضرورية— سوف يحسبون عائدات المال المتعهد به، التي تسلموها في الوقت ذاته كجزء من الدين، لأن فائدة من هذا النوع لايبدو أنها تسبب خسارة كبيرة بالالتزام بها، ثم إنه بتأخير الدفع، لايعني ذلك إلغاء الدين، وبالإضافة إلى هذا، فإن أساقفة الكنائس الذين سوف يظهرون أنفسهم مهملين في تقديم العدالة

إلى الذين حملوا الصليب، أو إلى أسرهم، عليهم أن يكونوا متأكدين بأنهم سوف ينالون عقوبات قاسية.

ومجدداً إنه بالنسبة للقراصنة ولصوص البحر، الذين يعيقونا كثيراً عن إرسال المؤن والإمدادات إلى الأرض المقدسة، بالاستيلاء على الذاهبين إلى تلك البلاد والآيبين منها، ونهبهم، إننا نحرمهم كنسياً، ونحرم معهم مساعديهم الرئيسيين ومحرضيهم، ونمنع كل واحد إذا كان مدركاً لها، تحت طائلة عقوبة التكفير، من القيام بالاتصال بهم، في أية قضية من البيع أو الشراء، ونحن نفرض على حكام المدن والأماكن الأخرى، بأن يوقفوا وأن يحبسوا القراصنة المذكورين، ومنعهم عن ممارسة هذه الآثام، ومن جهة أخرى، بما أن رفض ازعاج الأشرار، ليس أقل من رعايتهم، فكل من يتمنع عن معارضة الجريمة الظاهرة، ليس معفياً من الشك فيه أن له تنسيق سري مع المقترفين للجريمة، وبناء عليه، إن إرادتنا وأمرنا، يقضيان باتخاذ إجراءات لاهوتية قاسية ضدهم، ووضع ذلك قيد الممارسة من قبل أساقفة الكنائس.

ونحن علاوة على ماتقدم نحرم كنسياً ونكفر المسيحيين الزائفين والأشرار، الذين في معاداة منهم للمسيح، ولشعب المسيح، يحملون السلاح إلى المسلمين، والحديد، والخشب من أجل غلايينهم، والذين يبيعونهم غلايين أو سفناً، وكذلك الذين يشغلون مناصب قباطنة في السفن الاسلامية، وكذلك الذين يقدمون إليهم أية نصيحة أو مساعدة في آلاتهم الحربية، أو في أية قضية أخرى، تؤدي إلى الاضرار بالأرض المقدسة، ونحن نرسم بأن مثل هؤلاء سوف يغرمون بمصادرة جميع ممتلكاتهم، وسوف يكونون خدماً للذين سوف يلقون القبض عليهم، ونحن نأمر أن يعاد نشر مثل هذا القرار ضدهم، في كل يوم أحد، وكل يوم عيد، خلال جميع المدن على شاطىء البحر، وأن صدر الكنيسة سوف لن يكون مفتوحاً لمثل هؤلاء الأشخاص، ما لم يقوموا بتحويل كل ما تلقوه

من هذه التجارة الملعونة، ومثل ذلك أرباح ممتلكاتهم، إلى مساعدة الأرض المقدسة، وبذلك يمكن أن يعاقبوا بقضاء غير منحاز، وفقاً لأخطائهم، ولكن إذا صدف أنهم لم يستطيعوا دفع هذا، إن كل من هو مجرم باقتراف مثل هذه الأعمال، سوف يعاقب بطريقة أخرى ما، في سبيل منع أي واحد آخر عن الإقدام على اقتراف مثل الإجراءات الآثمة.

وعلاوة على ذلك إننا نمنع جميع المسيحيين، ونوقفهم تحت طائلة التكفير، عن نقل سفنهم إلى أراضي المسلمين الذين يسكنون في الشرق، خلال مدة مقدارها أربع سنوات، لأنه بهذه الوسائط سوف تتوفر كميات عظيمة من السفن، من الممكن الحصول عليها لصالح الذين يرغبون بالذهاب إلى مساعدة الأرض المقدسة، وإنه بذلك يمكن حرمان المسلمين من المساعدة، والتي كانوا بهذه الوسائط يحصلون على فوائد كبيرة.

ومع أنه في كثير من المجامع العامة جرى تحريم المبارزات، تحت طائلة عقوبة محددة، وبما أن الحملة الصليبية الآن معاقة كثيراً بهذه المبارزات، نحن نحرم بكل دقة عقدها لمدة ثلاثة أعوام، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وفي سبيل تنفيذ هذه القضايا، من الضرورة بمكان، وفوق كل شيء، أن يكون أمراء المسيحية وشعوبها بسلام فيما بينهم أنفسهم، ونحن على هذا نرسم بناء على نصيحة المجمع العام، أن تجرى مراعاة السلام بشكل عام في جميع أرجاء العالم المسيحي، لمدة لاتقل عن أربع سنوات، وأنه بوساطة تدخل أساقفة الكنائس، من الممكن إقناع الذين هم على خلاف بأن يقوموا من دون تقصير بمراعاة سلام كامل، أو على الأقل أن يرتبطوا بهدنة، وإذا ما رفض أي واحد التماشي مع هذا سوف يرغمون على مجاراة ذلك وتطبيقه، بإصدار عقوبة الحرمان الكنسي ضد أشخاصهم، والحرمان من شراكة المؤمنين ضد أراضيهم، ما لم تكن أضرار أذاهم، قد بلغت إلى درجة، تحول دون تمتعهم بمثل هذا السلام وإذا ما دفعوا قليلاً من التقدير، أو لاشيء إلى الروادع الكنسية، سوف يمتلكون سبباً جيداً،

لأن يخافوا، بأن نفوذ الكنيسة، سوف يجلب بالضغط عليهم من قبل السلطات العلمانية، بحكم أنهم مفسدون لشؤون المصلوب.

وإننا بناء عليه، نمنح بوساطة رحمة الرب القدير، واعتماداً على سلطة الرسولين المباركين: بطرس، وبولص، وعلى السلطة التي منحنا الرب إياها —مع أننا غير جديرين— وهي الحل والربط، إلى جميع الذين سوف يدخلون لأداء هذا الواجب بأشخاصهم، وعلى حسابهم ونفقتهم، عفواً كاملاً عن ذنوبهم، التي سوف يتوبون منها، ويعملون اعترافاً حقيقياً، مع قلوب نادمة، وكجائزة إلى المستقيمين، نحن نعد بزيادة هي خلاص سرمدي، إلى الذين لايذهبون إلى هناك بأشخاصهم، بل إنهم —مع ذلك— سوف يرسلون أشخاصاً موائمين إلى هناك على حسابهم الخاص، وذلك وفقاً لإمكاناتهم ومراتبهم، ونحن أيضاً نمنح إعفاءً تاماً من الذنوب، كذلك إلى الذين سوف يذهبون إلى هناك بأشخاصهم، مع أن ذلك على حساب واحد آخر، وبالنسبة إلى هذا الإعفاء نحن نرغب، ونسمح بالمشاركة (وفقاً لمقدار مساعدتهم ولطبيعة اخلاصهم) إلى جميع الذين سوف يقدمون مساعدة كافية إلى الأرض المقدسة، من ممتلكاتهم، أو أنهم سوف يقدمون عوناً مفيداً ونصيحة حول المسائل المتقدم ذكرها، وإلى جميع الذين يقدمون بتقوى العون في هذا العمل، سوف يخصه المجمع المسكوني المقدس بمساعدة أدعيته، ورغباته الطيبة، فذلك يمكن أن يكون له وزن مفيد نحو ضمان خلاصهم. آمين».

مايتعلق بقرار الحرمان الكنسي

«يتسبب القضاة بالأذى، عندما يسيئون استخدام الروادع الكنسية، وقت سعيهم باخلاص لفصل البريء عن صدر أمه الكنيسة، وذلك بسبب خطيئة فئة أخرى، التي نجد بسببها أن الشخص الذي وسم بشكل غير صحيح، هو لم يتضرر، لكنه أصبح جانبياً متهماً، وإنه بناء عليه، وفي سبيل تجنب هذه الرعونة، أو بالحري انعدام البراعة، لمثل هؤلاء

الأشخـاص، إننا بهـذه العـروض نرسـي مـرسـوماً، يقضي أنـه لايجـوز لأي قاض، قبـل اتصاله مع رجـال القانون، الاقـدام على الحرمان الكنسي بوساطة أي حـرمان كنسي صغير، ضد الذين أصبحـوا شركاء مع شخص محـروم كنسـياً من قبلهـم، لعقـده محادثـات معــه، أو أي شيء آخـر بوساطته تحولا إلى شركاء، باستثناء —على كل حال— الأحكـام القانونيـة الـتي أذيعت ضـد الذين تجرأوا على المساهمة في جـريمـة أخرى، قـد أدين بموجبها.

لكن إذا مـاسقط شخص بوسـاطة المحادثـة، أو الاستخفاف بالأشيـاء المقدسـة، أو بأية وسـائط التي بموجبهـا، المشاركة مـع انسان محروم، تحت حكم صغير، إنه سـوف ينال عقوبة الحرمـان الكنسي الأعظم، من أجل أن يتمكن بسهـولـة أكبر أن يعـود بوسـاطة تكفير سـالف، للحصـول على التحليـل، ويمكن للقاضي بعد الاتصـال القانوني، أن يـزور المتشـاركين مـع ذلك الشخصي نفسـه، مع عقوبة مشابهة، وإلاّ فإن عقـوبة الحرمان لن تكون جيدة ضد المشـاركين، والذين يتفوهون بالحكم، سوف يكون لديهم سبباً للخوف من عقوبة شرعية».

العقوبة من أجل تمرد عدواني على شخص غائب

«إذا مـا تخاصـم أي شخص مع متملك آخر، حـول مايتعلق بأية منفعـة مرتبطة بمـرتبة، أو شخص، أو أية منفعـة لاهوتية، على أسـاس اعتداء فئة مخاصمـة في سبيـل الحفـاظ على تملـك الشي نفسـه، نحن نرسـم بأن لايوضع بالتملك، خشية أن قبوله بهذه الـوسائط يمكن أن يظهر أنه خطأ، ومـن الممـكن —على كل حال— أن يكون قانونياً في هذه القضيـة، حسبما يفعـل الحضور الـلاهوتي من أجل غياب الفئـة المتمردة، مع أن القضيـة لم تجـلب للمحـاكمـة، للقيـام بفحص دقيق، ومن أجـل القـرار الصحيـح حـول الشيء نفسه».

وجوب عدم وضع أي معيق لمحاكمة أية قضية خلافية

«إن التدخل، قبل عرض القضية على المحاكمة، مثل الاستثناءات الوقفية، أو أي اعتداء رئيسي عائد للاعتراف بالقضية، أو وارد فيها، مالم يعمل المتقاضي استثناءً في قضية المسألة قيد المحاكمة، أو الصفقة أو اتخاذ قرار، لن يعيق أو يوقف محاكمة القضية، مع أن المعترض قد يقول بأن جواباً قد تم الحصول عليه، في القضية، حيث أسس الاعتراض للمدعي قد عملت معروفة للادعاء».

لا يعهد بالقضايا إلى وكيل قضاة ما لم يكن ذلك في أماكن معروفة جيداً

«في الحلول والتسويات النهائية لأعمال القضايا، الغموض مكروه، وينبغي تجنبه، وإذا لم يوجد أي شيء حول الأشخاص والأماكن فهذا موائم كثيراً ويوصى به، وفي هذه القضية، فكرنا لذلك أنه من الموائم أن نرسم، وأن نأمر بكل دقة، بأن ما من قضايا سوف يعهد بها من قبل الكرسي الرسولي أو وكلائه، إلى أي فريق، ما لم يكن ذلك إلى أشخاص موهوبين بمؤهلات موائمة، أو معينين في كنائس كاتدرائية، أو في تجمعات أخرى محترمة، وأن مثل هذه القضايا لن تجري مناقشتها في أية أماكن، بل في المدن، أو في الأماكن الواسعة المتميزة، حيث يمكن توفر عدد من البارعين في القانون، وأية قضاة هم معارضون لهذا المرسوم، وسوف يستدعون واحداً من الفريقين، أو كلاهما، إلى أية أماكن أخرى، يمكن عدم طاعتهم مع افلات من العقاب، مالم يكن الاستدعاء قد صدر بموافقة الطرفين».

لن يسمح بالاستدعاء إلى مستدعي متمرد

«إذاً ما أهمل أي مستدعي الظهور في التاريخ المحدد الذي استدعى إليه خصمه، سوف يحكم عليه قانونياً، إلى الشخص المتهم— إذا ماظهر—

بالنفقات التي تحملها في القضية، ولن يسمح له القيام باستدعاءات أخرى، مالم يقدم ضمانات كافية بأنه سوف يظهر في الموعد الذي تقرر».

لايجوز إرغا م أي واحد على الظهور أمام قضاة مختلفين من أجل أعمال شخصية مختلفة

«نحن نرغب بكل الوسائط الممكنة بأن نزيل، وأن نبقي في حدود العدالة، نفقات القضايا التي هي موضع خلاف، ونحن نوسع مرسوم البابا انوسنت الثالث، صاحب الذكرى الطيبة، الذي أعلن حول هذه القضية، وهو مرسوم قضى وأمر، أنه إذا ما اختار أي واحد أن يحضر عدة أعمال شخصية ضد آخر، عليه أن يسعى للحصول على تراخيص تتعلق بجميع القضايا، ليس من عدة قضاة، بل من واحد فقط، وإذا ماسيقدم أي واحد على العمل بشكل معاكس لهذا المرسوم، فلسوف يحرم من جميع منافع التصاريح وفوائدها، والإجراءات القضائية التي تمّ الحصول عليها، بناء على قوتها، سوف تصبح لاغية، وعلاوة على هذا سوف يقضى عليه بأن يدفع جميع النفقات القانونية إلى المدعى عليه، إذا ما تعرض للأذى بوسائطهم، وكذلك إنه إذا ما أقدم المدعى عليه أثناء المحاكمة فبيّن بأن المستدعي مرتبط به بتعويض أو ميثاق، فإنه إذا مارغب بالحصول على ترخيص ضد المدعى عليه، فإن عليه أن يطالب بحقه أمام بعض القضاة، مالم يستطع أن يرفضهم على أساس أنهم موضع ريبة، وكل من سوف يقف ضد هذه الإجراءات سوف يعاقب مثل ذلك».

حول الأشخاص الذين سوف يرغمون على الظهور أمام القضاء

«لايبدو أنها نقطة في القانون، إذا ماقام قاض مناسب، لم يتسلم أمراً خاصاً من الكرسي الرسولي من أجل ذلك، أنه لايستطيع أن يأمر أياً من الفريقين على الظهور شخصياً أمامه للمحاكمة، مالم تكن القضية قضية إجرامية، أو أنه سوف يأمر الفريقين على الظهور شخصياً أمامه، بقصد ذكر

الحقيقة، أو أداء يمين حول مايدعيانه».

مايتعلق باقتراحات سلبية

«نحن نرسم ونأمر بوجوب عدم قبول القضاة بشهادات سلبية، لايمكن برهنتها، مالم يكن ذلك من الفئة المضادة، عندما يرون في العدالة الموائم».

حول الانتخاب

«إنه بالنسبة للأيام والظروف الأخرى من أجل الإجراءات القضائية، ليست هناك حاجة إلى إقرار قانوني، وبين الإجراءات القانونية، يعدّ إقامة الانتخاب من أجل حبر أعظم، هو الأعظم أهمية، وهو يماثل ببعض الروابط زواجاً روحياً، يجري عقده بين المنتخبين والمنتخب، ونحن نشجب ونحرم في الانتخابات، التسميات والتدقيقات، التي منها صدرت حقوق الانتخاب، وكل الأصوات التي هي شرطية، ومتغيرة، وغير مؤكدة، ونحن نرسم بأن جميع الأصوات التي هي من هذا النوع أن تعدّ وكأنها لم تعط مطلقاً، فكل الانتخابات ينبغي أن تصدر عن موافقة حرة للجميع».

استطراد يتعلق بأمراء ألمانيا

«إن نبلاء ألمانيا، الذين لاينتخبون الامبراطور هم:

— ملك بوهيميا.

— دوق اللورين.

— دوق برونزويك Brunswick.

— دوق سوابيا.

— اللاندغريف أوف ثورنجيا.

— دوق أوف ليمبورغ Lemburg.

— دوق أوف كارينثيا Carinthia.

— دوق سكسوني.

— كونت غويلدرس Gueldres.

والمنتخبون للامبراطور هم كما يلي:

العلمانيون

— دوق النمسا.

— دوق بافاريا.

— دوق سكسوني.

— دوق برابانت (الذي هو دوق لوفين Louvain).

الأساقفة

— رئيس أساقفة كولون.

— رئيسا أساقفة: مينس Mayence وسالزبورغ Salzburg.

وهم الرئيسيون.

ويجري نقل هؤلاء الذين يحق لهم الانتخاب، إلى جزيرة في نهر الراين، ويتركون هناك لأنفسهم، فجميع القوارب سوف يجري نقلها، وهناك يناقشون انتخاب الامبراطور، وما من أحد سوف يذهب إليهم، حتى يتفقوا في اختيارهم، وتكون الرئاسة في هذه القضية إلى رئيس أساقفة كولون، ورئيس أساقفة مينس هو الثاني بعده، ورئيس أساقفة سالزبورغ هو الثالث».

وإلى هؤلاء المنتخبين جرى ارسال انذارات عاجلة جداً والتماسات من قبل البابا، بأن عليهم انتخاب امبراطور آخر عليهم، وقد وعد بالنصيحة والمساعدة منه شخصياً، ومن الكنيسة كلها، وقد وعدهم بالمقام الأول، مع أمل النجاح بخمسة عشر ألف باوند من الفضة، وقد مُنع هؤلاء بقوة حجج الامبراطور فردريك، الذي كان متحداً معهم بروابط القرابة، وخاصة مع دوق النمسا، ولذلك أظهر المنتخبون قليلاً من الطاعة إلى انذارات البابا والتماساته.

لايجوز جلب الناس من مسافة أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة لحضور محاكمة

«في العديد من نقاط القانون، كثيرها وقليلها، مايستحق الشجب، ولذلك فكرنا أن من الموائم بشكل حكيم أن نرسم: إنه بالنسبة للفقرة العامة التي تبدأ بـ (بعض آخرين، إلخ) التي غالباً ما أقحمت في رسائلنا، الناس سوف لن يجلبون من مسافة سفر ثلاثة أيام أو أربعة للمحاكمة، ورسمنا أيضاً أن الحماة —الذين منحناهم إلى عدة فئات— يمكنهم أن يدافعوا عن الذين عهدنا بهم إلى حمايتهم، ضد العنف والايذاء المكشوف، لكن ليس لديهم السلطة لمدّ حمايتهم إلى أشياء أخرى تتطلب حرماناً كنسياً قضائياً».

لايجوز لأحد إعاقة الانتخابات أو التسميات

«نحن نرسم إنه إذا ما أقدم أي واحد على إعاقة انتخابات، أو تسميات، أو عمل تجهيزات، بالقيام بأي اعتراض على صيغ أو أفراد، وتمّ عمل التماس إلينا نتيجة لذلك، على الفئتين: الفئة المعارضة والفئة المدافعة عن الالتماس، مع جميع الذين لهم علاقة بشكل عام بالقضية، الانطلاق إلى الكرسي المقدس، خلال شهر من وقت عمل الاعتراض، إما بأنفسهم شخصياً، أو بإرسالهم وكلاء، قد عهد إليهم بالقضية، لكن أية فئة منتظرة لم

تظهر خلال عشرين يوماً بعد وصول الفئة الأخرى، إن مسألة الانتخاب سوف تجري وفقاً للقانون، دون الاهتمام بغياب أي واحد، وإن ارادتنا تقضي وكذلك أوامرنا بمراعاة هذه الأحكام، في الأسقفيات، ومن قبل الأشخاص، والكهنة».

العقوبة التي توقع على الذين يخفقون في براهينهم

«وعلينا أن نضيف أنه إذا ما أخفقت أية فئة في تقديم برهان كامل على الذي عرضته في الصيغة، هي سوف يحكم عليها بأداء النفقات، التي سوف تبرهن الفئة الثانية بأنها قد دفعتها وتكبدتها في هذه المسألة، وليتأكد كل واحد سوف يخفق في البرهنة على الاعتراض الذي عمله ضد أي شخص مهما كان، بأنه سوف يعلق من الإفادة من المنافع اللاهوتية لمدة ثلاثة أعوام، وإذا ما أقحم نفسه أثناء ذلك وورطها بطيشه سوف يحرم بشكل عادل من منافعه إلى الأبد، من دون أي أمل بالحصول على الرحمة في هذا المجال، مالم يظهر ببراهين واضحة تماماً ومنطقية، وبما يكفي من تعليل بأنه قد تبرأ من الخطيئة التي اقترفها».

واجبات النائب البابوي

«إن واجب منصبنا هو التجهيز والاسهام للتفريج عن رعيتنا، فلبعض الوقت رفعنا عنهم أعباءهم، وأزلنا أسبابهم للذنوب، وها نحن الآن نتمتع بالراحة في هدوئهم، ونرعى سلامهم، ولذلك إنه بناء على هذه المعطيات، نحن نرسم بأن النواب البابويين للكنيسة الرومانية، عندما يشغلون منصب النيابة البابوية تماماً، سواء أجرى إرسالهم من قبلنا، أو كانوا في أعمال لصالح كنائسهم، سوف يمارسون بأنفسهم الواجبات الكاملة للنيابة البابوية، ولن يكون لهم، بمزية منصب النيابة البابوية هذا، أية سلطة بمنح منافع، مالم نكن قد رأينا أنه من الموائم بشكل خاص منح هذه السلطة إليهم، وهذا —على كل حال— لانعني مراعاته في قضية إخواننا، أثناء

ممارستهم لواجبات النيابة البابوية، لأنهم يتمتعون بإمتياز شرف، لذلك نحن نخول إليهم بأن يمتلكوا سلطات كاملة».

حول إعادة البضائع المسروقة

«لقد سمعنا بآذاننا شكاوى متوالية ومستعجلة، لأن الالتماسات والمرافعات حول السلب قد جرى تقديمها بشكل زائف، في عملية ملاحقة إدعاء ما، الأمر الذي يعيق كثيراً، ويسبب الاضطراب للقضايا اللاهوتية، وتأتي الالتماسات في بعض الأحيان مستعجلة، ويحدث في بعض الأوقات أن الالتماسات يجري التدخل بشأنها، وبذلك يجري اعتراض سماع القضايا الأساسية، وفي بعض الأحيان يلقى بها جانباً، وعلاوة على ذلك بما أننا نستخدم جهودنا متطوعين للحصول على الهدوء للآخرين، ورغبة منا بوضع حد للتخاصم، وقطع مواد جميع مثل هذه الادعاءات، نحن نرسم أنه بالنسبة للقضايا المدنية، على القاضي أن لايقوم بتأجيل الإجراءات في القضايا الرئيسية، بسبب التماس دعوى سلب يتقدم بها أي انسان، باستثناء المستدعي، لكن في القضايا المدنية، إنه إذا ما تم تقدم الالتماس من قبل المستدعي في قضايا إجرامية، إنه إذا ما أعلن المتهم بأنه قد تعرض للسلب والضرر من قبل أي واحد، عليه أن يبرهن هذا الأمر خلال خمسة عشر يوماً شروعاً من اليوم الذي كان به الادعاء، وإلا فإنه سوف يحكم بدفع النفقات التي تحملها المستدعي، وفي الوقت نفسه، وبسبب ذلك، جرى من قبل فرض ضريبة قضائية، وهو سوف يعاقب أيضاً، بطريقة أخرى ما، إذا بدا ذلك عادلاً بالنسبة للقاضي، وفيما يتعلق بالشخص المتأذي في هذه القضية، إنه عندما يكون الاتهام إتهاماً جرمياً، نحن نرغب إليه أن يتولى تأكيد فيما إذا كان قد تعرض لسلب جميع ما لديه بالقوة، أو لبعض ذلك، ووفقاً لهذا، لابد من الاعتقاد بأن القانونين قالوا بشكل حكيم، بأنه إذا كان عارياً، علينا عدم منافسته، وإذا كان مجرداً من السلاح، ينبغي عدم عمل معارضة في قضية الخطيئة، لأن الطرف المجرد

ن كل شيء، لديه المزية التالية، وهي بما أن عار: لايمكن تجريده، وهناك
لك عام وعدم اتفاق بين العلماء، حول فيما إذا كان الطرف الذي عانى،
انى من سلب من الدرجة الثالثة، وتقدم بالتماس سلب ضد المتهم، إنه في
ض الأوقات ينبغي أن يسمح من قبل القاضي، وفي خلال ذلك بإدعاء
تعويض، خشية حدوث أنه بذلك يرغب بتملص كل متهم، وهذا ما
تقد بأنه متوافق مع العدل، وإذا لم يقم أثناء الوقت الممنوح بطلب
تعويض، ولم يجلب القضية إلى نهاية في الوقت الذي كان يستطيع به فعل
لك، من الممكن منذ ذلك الحين فصاعداً أن يتهم بإعماله الاعتراض على
لبه، وبالاضافة إلى هذا، نحن نرسم بأن سلب الممتلكات الخاصة، سوف
ن يجري الترافع من أجله في القضايا اللاهوتية، أو العكس».

حول الاتهامات

«مع التعاطف التقديري، رسمت الكنيسة الأم، بأن الترافع من أجل
لحرمان الكنسي الأعظم، في أي جزء من المحاكمة قد وضع، سوف يؤخر
قضية، ويحجز الفرقاء، وبأنه من هذا من الممكن أن تكون الروادع
كنسية أكثر إخافة، وأن مخاطرة الحرمان الكنسي يمكن تجنبها، ومن
مكن ضبط التمرد، والأشخاص المحرومين كنسياً، أثناء حرمانهم من
إجراءات العامة، يكونون مقهورين بالعار والاضطراب، ووقتها
كونون ميالين بسهولة نحو التواضع والتصالح، ولكن بما أن شرور بني
لانسان قد ازدادت، والذي جرى تجهيزه بمثابة علاج قد تحول إلى
ررهم، لأنه غالباً عندما التقدم بهذا الالتماس في قضايا لاهوتية من
خلال الشرور، يجري تأخير العمل، وتتعرض الأطراف للأذى
لاضطراب والنفقات، وبناء عليه، بما أن هذا قد تسلل إلى ما بيننا بمثابة
رض عام، رأينا من المناسب استخدام علاج عام، وإنه بناء عليه، إذا ما
مل أي واحد اعتراض على أساس الحرمان الكنسي، عليه أن يبين نوع
لحرمان الكنسي واسمه، وعليه أن يعلم أن عليه جلب الأوضاع إلى

الملاحظة العامة، وأن عليه أن يبرهن عليها بأكثر الوثائق وضوحاً، خلال مدة مقدارها ثمانية أيام دون حساب اليوم الذي تقدم به بالاعتراض، وإذا لم يتمكن من البرهنة على صحة اعتراضه، على القاضي الاستمرار في القضية من دون تردد، والحكم على المتهم بالنفقات التي سوف يبرهن المستدعي بأنه قد تحملها أثناء تلك الأيام، بسبب ذلك الأمر، بالاضافة إلى الضريبة التي جرى أخذها من قبل، ولكن إذا حدث فيما بعد، أثناء المقاضاة، وحل موعد تقديم البرهان، وتم وضع الاعتراض ثانية حول مايتعلق بالحرمان الكنسي نفسه، أو واحد مختلف، وتمت البرهنة على القضية، فإنه سوف يجرى حجز المتهم في الاجراءات المقبلة، حتى يحصل على تحليل، ومن المتوجب ابقاء الاجراءات السالفة قائمة بسلطة كاملة.

شرط: إن الاعتراض لايجوز تقديمه أكثر من مرتين، إلاّ عندما يقوم حرمان كنسي جديد، أو استخلاص برهان واضح وجاهز حول الحرمان الكنسي السالف، لكن بعدما يكون قد قضي بالمسألة، وجرى عرض مثل هذا الاعتراض وتقديمه، إنه سوف يؤخذ بمثابة عذر، ولسوف لن ينال الحكم الذي صدر، قوة أقل، باستثناء حدوث تعرض المستدعي للحرمان الكنسي، وقد علم القاضي بذلك أثناء أي وقت من الأوقات، ومع أن المدافع سوف لن يدخل هذا الاعتراض، على القاضي القيام من دون تأخير، بطرد المستدعي من مكتبه».

حول الحكم والمسألة المتعلقة به

«بما أن قضاء القاضي صاحب الحكم السرمدي لم تجعل مجرماً القاضي الذي أدان بشكل غير عادل، ويشهد على ذلك قول النبي «ليس هو الذي أدانه، عندما صدر الحكم بالإدانة ضده»، ويتوجب على القضاة اللاهوتيين أن يكونوا واعين، وأن يتخذوا احتياطات حكيمة، بعدم السماح بوجود أي تقدير غير صحيح، سواء من كراهية أو حظوة، وعليهم إزالة كل خوف، وعليهم أ لا يسمحوا بقلب العدالة لابوساطة جائزة أو الأمل بنيل جائزة،

بل ليحملوا بالميزان بأيديهم، وأن يزنوا بالتساوي بين الفرقاء، وذلك في جميع المسائل التي أمامهم على شكل قضايا، ولاسيما في تقرير الأحكام والتفوه بها، فهنا عليهم أن يضعوا الرب نصب أعينهم، مقلدين الذي عندما دخل إلى خيمة العهد، أحال جميع شكايات الناس إلى الرب، له حتى يقررها بحكمه وقضائه، ولكن إذا ما أقدم أي قاض لاهوتي، أو حتى قاض مناب، لايعبأ باسمه الطيب، وهو مدمر لشرفه الخاص، فعمل على عكس مايمليه عليه ضميره، والعدالة، فتوصل إلى أي قرار لإيذاء أي من الفريقين، من خلال حظوة أو في سبيل ربح قذر، فسوف يعلق عن ممارسة واجبات وظيفته لمدة سنة، وإذا لم يرتدع بهذا، سوف يحكم عليه بأن يدفع إلى الفريق المتضرر، وفقاً لحجم الأضرار، ونحن نريد منه أن يعرف أيضاً أنه إذا ما أقحم نفسه في أيام تعليقه، في الخدمات الدينية، هو سوف ينال عقوبة عدم الالتزام بالنظام، وفقاً لأحكام القانون، وهي عقوبة يمكنه أن يتحلل منها فقط بوساطة الكرسي الرسولي، باستثناء —على كل حال— المراسيم التي توجه وتنزل العقوبات على القضاة الذين يعطون أحكاماً غير عادلة، لأنه موائم أن يتلقى أي واحد يقوم باقتراف مثل هذه الآثام، بمثل هذه الطرق الكثيرة، عقوبات مضاعفة».

مايتعلق بالتماسات التمييز

«إن رغبة قلبنا هي إزالة الخصومات، وأن نحرر رعايانا من اضطراباتهم، وبناء عليه رسمنا، إنه إذا ارتأى أي واحد كان تحت المحاكمة، أو خارج المحكمة، أن من الموائم رفع التماس تمييز إلينا، بشأن إجراءات متشابكة، أو أي أذى ألحق به، وأن يكتب في التماسه اسم القاضي وأن يعبّر عن سبب التماسه، وعندما لايجري قبول الالتماس، أو حدث أي تأخير بالقضية، خروجاً عن الاحترام للرئيس الأعلى، بعد هذا سوف يجري منح وقت إلى الملتمس لتقديم التماس استئنافه، وذلك وفقاً لمسافة المكان، ولطبيعة العمل، إذا ما رغب الملتمس بذلك، وإذا ما طلب الفرقاء

الرئيسيون أوامر موائمة للاجراءات، وجاء الطلب من قبلهم أنفسهم، أو بوساطة الوكلاء، وطالبوا بأسس ووثائق تتعلق بالقضية، على هذا ليذهبوا هكذا مستعدين إلى الكرسي الرسولي، وبذلك إذا بدا موائماً لنا، عندما يجري تقرير مسألة الالتماس، أو يجري اسقاطها بموافقة الفريقين، عليهم السير بالقضية الرئيسية بقدر ما يستطيعون، ويتوجب عليهم بموجب الحق، دون —على كل حال— أن يغيروا المراسيم، التي عملت في القديم حول مايتعلق بالالتماسات المعمولة من قرارات حكم محددة، لكن إذا لم يراع الملتمس المراسيم المتقدم ذكرها، سوف يُعدّ وكأنه غير ملتمس، وسوف يعود إلى قرار القاضي السالف، وأن يحكم عليه بالوقت نفسه بأداء جميع النفقات القانونية، لكن إذا ماقام الشخص المترافع ضده بإهمال هذا البند، فإن الإجراءات سوف تتخذ ضده وكأنه شخص متمرد —وذلك بقدر ما هو مسموح بالقانون— ويدان بسداد كل من النفقات، وماتعلق بالقضية نفسها، لأنه من العدالة بمكان أن تثور القوانين ضد الذي يغش الشريعة والقاضي والخصم».

قرار الحرمان الكنسي

«بما أن المقصود من الحرمان الكنسي هو الشفاء وليس القتل، والتقويم وليس التدمير، شريطة أن لايقوم الذي صدر القرار ضده بالاستخفاف به، ينبغي على القاضي اللاهوتي أن يأخذ حذراً كبيراً، بالتفوه بهذا القرار، ليظهر أنه يتبع طريق المصحح والمعالج، وبناء عليه عندما يريد واحد حرمان أي واحد كنسياً، عليه أن يدون ذلك كتابة، وينبغي أن يضيف بشكل واضح كتابة السبب الذي من أجله جرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي، وعليه أن يربط نسخة من هذا المكتوب —إذا تطلب الأمر ذلك— ليرسلها إلى الشخص المحروم، خلال شهر، من يوم إصدار القرار، وحول مايتعلق بقرار الإدانة هذا، تقضي إرادتنا بوجوب تدوين أداة عامة، أو رسائل توثيق تتم كتابتها، وتختم بختم رسمي، وإذا ما أقدم

أي قاضي بطيش على خرق هذا المرسوم، هو سوف يعلق ويمنع من دخول الكنيسة، ومن سماع القداسات، لمدة شهر، وسوف يقوم الرئيس الذي تتم العودة إليه، من دون معارضة، بسحب القرار، وسيقوم بإدانة المذيع له، بأن يدفع جميع النفقات، وأن ينزل به بطرق أخرى عقوبة مناسبة، في سبيل، أننا من عقوبة القضاة، يمكن أن نعلم كم هو أمر جاد الزجرة بقرار الحرمان الكنسي ضد أي واحد من دون مداولات ناضجة، وإن إرادتنا تقضي أيضاً بأن تتم مراعاة هذه الأحكام نفسها في قرارات التعليق والحرمان من شراكة المؤمنين،لأنهم إذا ما قاموا بأداء القداسات —كما من قبل— عندما يكونوا هكذا معلقين، سوف لن ينجون من عقوبة مخالفة النظام، وفقاً للأحكام القانونية، وفي هذه الحالة، سوف لن يكونوا قادرين على الحصول على التحليل، إلاّ من خلال الحبر الأعظم».

حول المسألة نفسها

«إنها مسألة مشكوك بها بشكل عام عند بعضهم، حول عندما يطلب أي واحد أن يتحلل بوساطة أي رئيس على أساس تقديم كفالة، وعلى أن يعلن في الوقت نفسه، بأن قرار الحرمان الكنسي ضده هو ساري المفعول، إن منفعة التحليل سوف تمنح له، من دون أي اعتراض، وإذا ماقام أي واحد قبل هذا التحليل، فعرض، على شرط المحاكمة، بأن يبرهن بأنه قد حرم كنسياً بعد استئناف قانوني، وأن خطيئة ملموسة قد اقترفت بشكل واضح في القرار، وينبغي تجنبها في قضايا أخرى، باستثناء ذلك البرهان المذكور، وإنه بالنسبة لمسألة الشك الأولى، نحن نرسم بأن التحليل لايجوز منع اعطائه إلى أي واحد يسأله، مع أن المصدر للحرمان الكنسي أو الخصم سوف يعارض ذلك، وفي مثل هذه الحالة سوف يجري السماح بثلاث تأخيرات لمدة ثمانية أيام، للذي يعمل هذه الإفادة، مالم يبرهن على صحة الذي التمس استئنافه في الاعتراض، كما أن القرار لن يجري سحبه، ما لم تكن ترضية كافية قد أعطيت من قبل، أو ضمانة للالتزام بالحق، إذا ما

جرى عرض شك حول الذنب، وبالنسبة للمسألة الثانية، نحن نرسم، بأن أي واحد جرى قبوله للبرهنة، عليه أن يتجنب، أثناء البرهنة المذكورة، في المسائل الأخرى، التي من الممكن أنه جرى قبولها كطرف في القضية، لكن بعد المحاكمة سوف يجري قبوله —على الرغم من ذلك— لأداء واجباته، إلى أعمال التسمية والانتخابات، والاجراءات القانونية الأخرى»(★).

مايتعلق بالحملة الصليبية

عندما غدت هذه المقررات معروفة لدى الجميع، أعطوا القناعة إلى جميع الجزء العاقل من الجماعة، وفي الحقيقة، استحق البابا ونال عن جدارة شكر وامتنان الجميع بشكل عام، هذا وكانت بعض المقررات قد عملت قبل عقد المجمع، وبعضها أثناء عقد المجمع، وبعضها الآخر بعد عقد المجمع، وكانت بعض المراسيم قد عملت بشكل حكيم وعقلاني أثناء المجمع، تتعلق بمسألة الحملة الصليبية، ولكن عندما تمت الإشارة إلى الاسهام بالمال، ووجه البابا بالرفض علانية، بشكل خاص بسبب الفقرة المكروهة بشكل عام، والتي نصها: «إنهم سوف يقدمون مساعداتهم على أيدي الذين جرى تعيينهم لتلك الغاية، بوساطة بصيرة الرسل»، لأنه في كثير من المرات، وبطرق مضاعفة كثيرة، اشتكى المؤمنون من أتباع الكنيسة، بأنهم قد خدعوا من قبل الكنيسة الرومانية، حول المال الذي كانوا قد أسهموا به من أجل مساعدة الأرض المقدسة، هذا وإنه بالنسبة للمراسيم الأخرى التي صدرت بشكل حكيم، فقد أعطت القبول إلى قول ومسامع المسيحيين، وكانت قد جرت كتابتهم كلمة كلمة، وفقاً للكلمات التي كان قد عملها البابا غريغوري في عام مولانا ألف واحد، ومائتين وثلاث وأربعين، وتحت هذا التاريخ تمّ العثور أيضاً على نص

(★)- وردت مقررات هذا المجمع بالأصل مشوهة، ولذلك بذلتُ غاية الجهد في ترجمتها لتأتي مفهومة ولاأعتقد أن مختصاً بالقانون أو باللاهوت يمكنه أن يفعل أحسن مما فعلته، والله الموفق إلى السداد.

قداس فصيح جـداً، كان قد جرى نظمـه من قبل البابا غريغـوري، وجرى الآن ترديد هذا القـداس نفسـه، في هـذا المجمع، من قبل البـابا انوسنت الرابع، وكأنه قداس جـديد، وقد أعلن قـداسته أيضاً، بأنه سـوف ينفذ بلا تردد، جميع هذه المراسيم، خاصة المراسيم المتعلقة بالامبراطور.

ولدى سماع المعلـم ثاديوس، هـذا قـال وهو يتـأوه: «لاأرى أن هناك عـلاجاً مكشـوفاً لهذا الرعب»، ثم إنه أضـاف مع البكاء والنحيب: «الحق أقـول إن هذا اليوم، كـان يوم غضب»، ومثل ذلك كـان قد قـاله من قبل، عندما قلب جميع الأساقفة حـاملات شموعهم المشتعلة، وأطفأوهم عندما كانوا يخلعون الامبراطور فردريك المحـروم كنسياً، وقال المعلم ثاديوس في نهاية خطابه:

«من هذا اليوم فصاعداً سوف يغني الهراطقة، وسوف يحكم الخوارزمية بشكل مطلق، وسينهض التتـار بقـواهم، وسـوف يسيطرون»، ثم إنه عـاد ليروي أخبـار هذه الوقـائع كلهـا إلى الامبراطور، ثم إن البـابا قـال بشكل معلن إلى الجميع: «لقـد قمتُ بواجبي، والآن ليفعل الرب الذي يرضيـه، وليقض بالذي يريده في هذه المسائل».

كيف قام فردريك بعد خلعه من قبل البابا بتتويج نفسه

عندمـا سمع فـردريك، وبات عـارفاً تمامـاً بهذه الاجـراءات، لم يستطع ضبط نفسـه، بل انفجر غـاضبـاً بعنف، وبات يمتلك منظراً مـرعباً، وقـد انتفخ، فهكذا رآه الذين كانوا من حـوله، ثم زمجر قائلاً: «لقـد أهانني البابا في مجمعه، وانتزع مني تاجي، فمن أين جـاءت كل هذه الوقاحة؟ ومن أين صـدرت مثل هـذه الإجـراءات الطائشـة؟ أين هـي صناديقي الحاوية على ثرواتي الجاهزة»؟ ولدى جلبهـم، وفتحهم أمـامـه، بناء على أوامـره قـال: «ابحثوا عن تيجاني، هل فقدت الآن»؟ ثم إنهم وجدوا واحداً منها، فتناوله ووضعه على رأسـه، وبعدما تتوج هكذا، انتصب قـائماً، وبعينين مهددتان،

وبصوت مرعب، وبهياج وانفعـال غير منضبط، قال بصوت مرتفع: «أنا لم أفقد تاجي بعد، كما أنني لن أحرم منـه بوساطة أي قتال للبابا، أو للمجمع المسكوني، من دون صراع دموي، فهل دفع به تشـامخه المبتذل، وأوصله إلى هذه الدرجة، حتى يتمكن من قـذفي من المنصب الامبراطوري، فأنا الأمير الأعظم في العـالم، ولايوجـد من هو أعظم مني، فهـا أنـذا ليس هناك من يساويني، ففي هذه المسألة كان وضعي الإحسان، ففي بعض الأشياء كنت مرتبطاً بالطاعة، على الأقل صدوراً عن الاحترام له، لكنني الآن قد تحررت من جميع روابط العــاطفـة والاحترام، وكـذلك من الالتــزام بأي نوع من السلام معـه»، وبناء عليه، أمر من ذلك الوقت فصاعـداً بإيذاء البابا بشكل أكثر تأثيراً وفعـالية، وفعل كل أنواع الضرر لقـداسته، في أمـواله، وكذلك أصدقائه وأقربائه.

وقام بناء عليـه، حتى يزيد من قوة حـزبه، فلجأ إلى خطة الزواج من ابنة دوق النمسـا، ولكي يحقـق هذا، أرسل رسـلاً خــاصين، بكل سرعـة، إلى الدوق المذكور، لكن عندما وصل علـم هذا إلى السيدة، رفضت بثبات كل ارتبـاط أو زواج مع الامبراطور فـردريـك، حتى يجري تحليله، وقـد وافق والدها على ذلك، وقد بعث إلى الامبراطور يخبره بهذا الموقف، فشعـر بعار كبير، لأن رفضـه جاء منهما معـاً، وقـد أصبح —على كل حـال— قاسيـاً، وسعى إلى تحويل قلوب الملوك والأمـراء عن تقديم الاحترام إلى الكنيسـة، وكذلك إلى الأساقفة، وبشكل خاص إلى البابا، ولكي يتوصل إلى مقصده، كتب رسـالة بليغة جـداً، فيها أخـرج من جـوفه النوايا السـامة لقلبـه التي أخفاها لمدة طويلة.

رسالة الإمبراطور فردريك

«**من فـردريـك، إلخ، إلى ملك انكلترا، إلخ**: هناك قــول قــديم يصف بالمحظوظين الذيـن تعلمـوا الحذر من مصــائب الآخـريـن، لأن أوضــاع الخليفة تتمتـن بأسس السلف، ومثلما يتلقى الشمع الضغط من الختم، مثل

ذلك تشكلت نهاية الحيـاة البشرية بالشكل نفسـه، لقـد رغبت بأن تكون جـلالتـك قـد تقـدمت علي، أو جئـت قبلي لنيل هذا الحظ الطيب، وخبرة الحذر التي ندعهـا الآن لك، أيها الملك المسيحـي، من الأذى الكبير الذي عمل لأنفسنا، أو بالحري ترك لنا من قبل الملوك والأمـراء، الذين تعرضـوا للأذى مثلنا، وعلاوة على ذلك، إن هؤلاء الذين يعدون الآن كهنة، والذين سمنوا على صدقات آبائنا، يتولون الآن ظلم أبناء الذين هم أولياء نعمتهم، وأبناء هؤلاء الـرعيـة لنـا، الناسين لأحـوال آبـائهم، لايتنازلون لإظهـار الاحترام المتوجب لا إلى الامبراطور، أو الملك، فور تكريسهم لحمل ألقاب الآباء الرسـوليين، وحقيقـة ما هو مـوجـود هنا، والتي أشير إليهـا بكلامنا باسهاب قد تبرهنت الآن تمامـا، بإقدام البابا انوسنت الرابع، التي تولى جمع مجمع عـام —حسبما سماه— وتجرأ على اصـدار قـرار بالخلع ضـدنا، نحن الذين لم توجـه إلينا الدعـوة لحضـور المجمع المذكـور، كما لم يتبرهن أننا مدانون باقتراف أي خداع، أو شرور، وهو قـرار لايمكن تأسيسه من دون ضرر عظيم لجميع الملوك، لأنه مـا الذي سـوف يبقى هناك إلى أي واحـد منكم أيها الملوك من كل مملكة، إلاّ أن تخافوا من وجه مثل أمير الكهنة هذا، إذا ما أقـدم على خلعنا، نحن الذين جرى تشريفنا حقيقـة من السماء بالتاج الامبراطوري، بوساطة انتخـاب مهيب من الأمراء مع استحسـان الكنيسة كلها، عندمـا كان رجال الدين مزدهـرين بإيمان وتدين، ونحن الذين نتولى حكم كثير من الممالك الفخمـة الأخـرى، لأنه ليس من شأنه أن يمارس أية سلطة ضـدنا، وذلـك بقـدر مـا يتعلق الأمـر بالضرر الـدنيـوي، لابل من الممكن استخلاص قضايا قـانونية من ذلك، لكن لست أنا الأول، كما أنني لن أكون الأخير، الذي يتعرض لأذى سـوء الاستخدام الكهنوتي للسلطة، هذه السلطة التـي تسعى لاسقـاطنا من الـذروة نحـو الأسفل، وإن هذا بالحقيقـة الذي تفعله، تفعله باظهـارك الطاعـة إلى الذين يدعـون القداسـة ويتظاهرون بها، والذيـن آمـالهم وطمـوحـاتهم (أن يصب الأردن كله في أفواههم)، آه، حبـذا لو أنك تقوم وفقـاً لكلمات مخلصنا بتحويل ثقتك عن

لطف الكتّـــاب والفـريسيين، الذي هـو رياء، وأن تصغي إلى نفسك، وأن تتـذكر كم هي دنـاءات ذلك البلاط، التي كنت تتمنـى أنه كان بمقـدرتك شجبها، مع الاقتباسات التي هـي محرمة بالشرف والحياء، والموارد الوافرة، التي استغنوا بها، في سبيل إفقـار عدة ممالك، كما تعـرف أنت شخصياً، قـد منحتهم الفجـور والشمـوخ، والمسيحيـون والحجـاج يرجـونك بأن يأكل البـاتـرانيين بيننا، فأنت هناك تدمـر بيـوت شعبك، حتـى تتمكن من بناء بلدات إلى أعدائك، وهكذا إنه بوساطة عشـورك وصدقاتك، تمكن هؤلاء الفقراء من أتباع المسيح من العيش، لكن دون مقابل أي تعويض، لابل أي امتنان أظهروه أنفسهم، أنه صادر عن الضمير وعن اللطف؟ فكلما مددت يديك عن طواعيـة، كلما ازدادوا شوقـاً للامساك، ليس فقط اليـدين، لابل الذراعين، حـابسيننـا في شبـاكهم مثل طيـــور صغيرة، كلما زدنا من محاولة الفرار، كلما زادوا من ربطنا بشدة أكبر.

وللوقت الحاضر، جعلنا شغلنا أن نكتب بعيـداً —مع أن ذلك ليس فيه كفاية— نشرح رغبـاتنا ولسوف نعطيك معلـومات أكثر، هي أكثـر سرية، حـــول الاستخـدامـــات التي لجأ إليهـــا هؤلاء الناس المبـــدعين الشرهين الطامعين بأموال الفقراء، وحول التصاميم التي تصورناها أنفسنا، وأرغمنا على عملها، فيما يتعلق بالسلطة الامبراطورية، وكيف توفرت النية، بجهود الوسطاء، لإعـــادة تأسيس الســـلام —على الأقل ظاهـرياً— بيننا وبين الكنيسة، وكيف اقترحنا لنرتب حـول مايتعلق بشـؤون الملوك بشكل عام، وكل واحـد منهم بشكل خـاص، والترتيبات التي عملت حـول مـايتعلق بالجزر في المحيط، وكيف أن ذلك البـلاط كـان يتـآمـر ضـد جميع الأمـراء بشكل عـام، بمـوجب بعض الخطـط، ومع أن هذه الترتيبـات قـد عملت بشكل سري، مـــا كـان لها أن تنجـو من مـــلاحظتنا، أو مـــلاحظة بعض الأشخاص الخاضعين إلينا، وأصـدقائنا، الموجـودون هناك، وكيف أننا مع عسـاكرنا كلهم مستعـدون للحـرب، وباستخدام جميع مسـاعينا، نحن مع حلول الربيع القـريب، أن نكون قـادرين على الضغط على الذين يضغطون

الآن علينا، وسوف نفعل ذلك حتى ولو وقف العالم كله ضدنا، هذا وإن كل ماسوف يبلغك إياه أفراد رعيتنا المخلصين، الحاملين لهذه الرسالة، ويذكروه لك، يمكنك أن تصدقه تماماً، وأن تضع فيه ثقة ثابتة جداً، وفيهم، وكأن القديس بطرس قد أخذ العهد عليهم.

ونحن نرجوك —على كل حال— أن لاتقدر، أن جلالة مقامنا العالي قد انزعجت بالقرار الذي جرى التفوه به ضدنا من قبل البابا، لأن ضميرنا نقي، وبالتالي الرب معنا، الذي إليه ندعو، ليكون شاهداً على صدق كلامنا، ولقد كان اهتمامنا دوماً ورغبتنا إقناع رجال الدين من كل طائفة، وبشكل خاص ذوي المراتب العليا، بأن يسلكوا طريقاً يستهدفوا من ورائه غاية العيش في حالة الكنيسة الأولى، بممارسة حياة رسولية، وبتقليد تواضع مولانا، لأنهم اعتادوا على رؤية الملائكة، وهي تشع بالمعجزات وهي أيضاً تشفي المرضى، وتعيد الموتى إلى الحياة، وأن تنزل الملوك والأمراء إلى الخضوع إليهم، ليس بوساطة السلاح، بل بوساطة القداسة، لكن هؤلاء القوم، كرسوا أنفسهم للدنيا، وأن يسكروا في متعها، واضعين الرب جانباً، وبثرواتهم الوافرة، ومقتنياتهم الغنية جرى طبخ الديانة كلها، وأن يجري انتزاع الثروة المؤذية من مثل هؤلاء الأشخاص، المثقلين الآن بها حتى حد لعنتهم، هو من أعمال الإحسان، ولهذه الغاية، عليك على هذا، وعلى جميع الأمراء الاتحاد معنا، وأن نستخدم كل الجهود المتواصلة لجعلهم يضعون جانباً جميع الثروات الفائضة، وأن يعبدوا الرب، وهم قانعين بممتلكات متواضعة».

كيف تناقصت سمعة فردريك يومياً

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع الملكين المسيحيين لفرنسا وانكلترا، بات واضحاً لهما مثل وضوح الضوء، وكذلك لنبلائهما، بأن فردريك كان يسعى بوساطة جميع الامكانات المتوفرة لديه، إلى تدمير حرية الكنيسة وكرامتها، وهي الكنيسة التي لم يزد قط لاحريتها ولاكرامتها، مع أن أسلافه النبلاء، قد بذلوا غاية جهدهم لتأسيسها، وبهذه الحقيقة بالذات حوّل

نفسه إلى متهم بالهرطقة، قد قام بوقاحته وقلة حيائه، فأطفأ ودمّر كل شعاع حسن رأي بحكمته، واحترام لحكمته، وهو ماكان موجوداً حتى الآن بين الناس، غير أن هذين الملكين، حتى لايظهرا وكأنها يتصرفان وفق أخلاق النساء، وبشكل غير مشرف، بالقيام على الفور بمهاجمة واحد، كانا قد حمياه من قبل، لذلك قاما لبعض الوقت بإخفاء غضبهما، وحافظا على الصمت، لكن ليس من دون تذمر، وبناء عليه، اتمد تحسنت بهذه الاجراءات أحوال البابا، وبدأ يسترد أنفاسه.

وكان هناك —على كل حال— جرحاً كبيراً، ضغط على الأمراء، وكذلك على الأساقفة، بدرجة أثقل من كل شيء، وكان هذا، هو أنه صحيح أن الامبراطور فردريك قد استحق، بسبب عدد كبير جداً من القضايا، أن يتعرض للإذلال، وأن يجرد من جميع مراتبه، وأنه بعون الرب، يحق للسلطات البابوية خلعه من دون تردد، إنما هنا تكون الكنيسة الرومانية قد أساءت استخدام حظوة الرب، وسوف تنتفخ في المستقبل إلى درجة من العجرفة والتكبر غير المحتمل، مما سيدفعها أمام سبب بسيط من الأسباب، إلى خلع المقدمين الكاثوليك —وبشكل خاص الأساقفة— مع أنهم عادلين وأبرياء، أو أن تقوم بتهديدهم بشكل مشين بالخلع، والرومان، وإن ولدوا من دم جلف، سوف يتحدثون بتشامخ، ويتبجحون قائلين: «نحن قد وطئنا بأقدامنا أعظم السادة وأقواهم، وهو الامبراطور فردريك، فمن أنتم حتى تفكرون بطيش بمقاومتنا؟»، وإذا ما حدث وأثير الأمراء على هذه الصورة، سوف يثورون عليهم، وبانتقام الرب، سوف تكون السلطات الرومانية عرضة للدمار.

كيف أن محاولات وكلاء الجماعة الإنكليزية قد حرمت من تأثيرها

بالنسبة لوكلاء الجماعة الانكليزية، أي الايرل بيغود، ورفاقه الذين تقدم

ذكرهم وتسميتهم، الذين كانوا ينتظرون جواباً مفيداً من البابا، حسبما كان قد وعد، لقد جعلوا أخيراً يفهمون أنهم لن يحصلوا على مطالبهم، ولذلك غادروا وهم مغضبين كثيراً، وأعطوا مجالاً للتهديد، وأقسموا بيمين رهيب، بأنهم سوف لن يشبعوا النهم المقيت للرومان مطلقاً، بدفع الضرائب، كما أنهم لن يسمحوا بدفعها، ولن يقبلوا بعد الآن بإعطاء موارد الكنائس (وبشكل خاص الموارد التي من المعروف أن نبلاء المملكة هم أولياء نعمتها) واستغلالها منذ الآن فصاعداً، ومع ذلك مرّ البابا بهذه الأشياء كلها متظاهراً بعقل صابر، وبعينين قانعتين، وانتظر بهدوء الوقت لاتخاذ اجراءات هي الأكثر قسوة، عندما يبتسم الحظ له.

ولذلك أرسل إلى جميع أساقفة انكلترا يأمرهم بكل دقة، بأن يقوم كل واحد منهم بوضع ختمه على صك الضريبة المقيت، الذي عمله الملك جون، صاحب الذكرى غير السعيدة، دون أن يعبأ بمعارضة ستيفن، رئيس أساقفة كانتربري، في سبيل أنهم عندما يفعلون ذلك، يمكنه تثبيت هذا الصك وجعله أبدياً، وهذا، ياللأسف ماقد فعله الأساقفة من خلال الخوف، بعدما صاروا ضعفاء كثيراً، مما سبب ضرراً هائلاً للملك وللمملكة، ولدى سماع الملك بهذا، ثارت ثائرته، وغضب غضباً شديداً، وأقسم أنه، مع أن الأساقفة قد خضعوا بشكل مهين، إنه سوف يقف بشجاعة للدفاع عن امتيازات المملكة، وأنه مادام على قيد الحياة، لن يدفع أية ضريبة للبلاط الروماني، تحت اسم جزية، وكان فولك أسقف لندن، آخر واحد أعار نفسه لهذه الخطة الشريرة، فوضع ختمه على هذا الصك، ولذلك استحق ملامة أقل من الآخرين.

وبالطريقة نفسها، ومن أجل تثبيت أفضل لقرار الخلع، الذي صدر ضد الامبراطور فردريك، وفي سبيل إقامة ذكرى دائمة للواقعة، قام جميع الأساقفة بوضع أختامهم على صك كبير متعلقاً بالأمر نفسه، كان قد جرى نسخه كلمة كلمة من الصك المختوم بالختم البابوي.

ثم إن المجمع ارفض، وعاد الذين كانوا قد اجتمعوا هناك مع المباركة إلى أوطانهم، باستثناء الذين احتجزوا بسبب عمل خاص، كان البابا قد أخره حتى مابعد انتهاء المجمع.

الوصاية البابوية على هيئة رهبان السسترشيان

بينما كان جيشان العالم يحدث هذه الوقائع معه ويستدرجها، قام رعاة دير السسترشيان من مختلف البلدان، كما هي عادتهم، لدى اقتراب عيد تمجيد الصليب، بالقدوم على شكل حشود لحضور اجتماع هيئتهم الرهبانية، وعندما التقوا جميعاً، تلقوا رسالة من البابا، كان محتواها كما يلي:

«نحن نود أن نعلم أخوتكم، بأن الكنيسة هي في وضع مرعب كثيراً وهي بحاجة إلى صلواتكم المستعجلة بشكل أكثر ديمومة، لوجود أزمة حالية تهدد جميع المسيحية بطريقة مخيفة، ولذلك لن نزعج أنفسنا باستخدام السيف الفولاذي ضد الامبراطور الروماني فردريك، ذلك العدو القوي والعنيد لكنيسة المسيح، بل سوف نستخدم السيف الروحي فقط، وأفواه الذين يتكلمون بالشر قد أغلقت، ونحن نرجوكم، أن لاتدعوا الجهلة النقاد، والرجال الذين بلاصدق، يقنعونكم بالظن أن هذا الحكم الذي صدر من قبلنا ضد فردريك المذكور كردة فعل، ومن دون مداولات ومشاورات طويلة مع إخواننا، ومع كثير آخر من الرجال المتعلمين، لأنني لاأتذكر وجود أية قضية أخرى مثلها قد نوقشت بمثل هذا الاتساع والمواظبة، أو وزنت بدقة في عقول الناس البارعين والمقدسين، وبلغ الأمر حداً أننا أثناء مؤتمراتنا السرية تولى واحد من اخواننا وظيفة المحامي عنه، وقام آخرون من جهة أخرى بالإدعاء ضده، في سبيل أنه بوساطة الإدعاء والردود الصادرة عن الإدعاء وعن الدفاع —كما هي العادة في المدارس— يمكن لحقيقة القضية أن تظهر من على الجانبين من الأعماق، غير أننا لم نستطع، من دون إيذاء للرب، واغضاب له بشكل جاد، ومن دون الاضرار بالكنيسة، أو من دون جرح ضمائرنا، أن نجد أية وسيلة أخرى،

غير الإجـراءات التي اتخذناها، وإن كنا مكرهين، وقـد أسفنا كثيراً لشقـاء المذنب المذكـور، وإننا بناء عليـه، قد استعـدينا، من أجل هذه القضيـة، أن نقف ثابتين حتى الموت، وفيهـا ومن أجلها جميـع إخواننا، ونحن كـذلك، على استعـداد للمـوت، وأن نقـاتل من دون وهن لصـالح الرب ولصـالح كنيسته».

وقـد جـرى نشر هذه الرسـالة كـاملة بين الهيئة الرهبـانيـة كلهـا، وبين الرهبـان بشكل عـام، حيث تخلوا عن الوقـوف إلى جـانب الامبراطور، ومالوا بشكل رائع إلى جـانب البابا، وصلّوا إلى الرب أن لايعـرض كنيسته للمعـاناة بأية طريقـة من الطرق، وهي الكنيسـة التي أسسهـا على صخـرة ثابتـة، ولكي لاتسقط بشكل أبدي، مـع أنها كـانت تترنـح آنذاك بعض الشيء.

حول الإجراءات التي تمت في غانوك أثناء إقامة الملك هناك

وفي الوقت نفسه، كـان قد مضى الآن على إقامة الملك، قـرابة الشهرين، على الحدود الدنيا لويلز، قـرب نهر يجري بين جبال سنودون Snowdon, حيث انشغل في بناء قلعـة، كـانت لاترام بأسـوارها ومـوقعهـا، وفي ٢٤- ايلول، رغب واحـد من نبـلاء الجيش، أن يخبر رفـاقـه، الذين كـانوا قلقين حول هذه القضية، فكتب إليهم كما يلي:

«**صحة**: صاحب الجلالة الملك مقيم مع جيشـه في غانوك Gannock, من أجل تحصين القلعـة التي بناها الآن، في مـوقع قوي جـداً هناك، ونحن مقيمون هناك في الخيـام، منشغلون بالحراسة والسهر، والصـوم، والصلاة، ووسط برد، وعـري، وأثناء الحراسة نفعل ذلك خـلال الخوف من أن يقوم الويلزيون بمهـاجمتنا فجأة أثناء الليل، وأما الصوم فنقـوم به بسبب النقص بالمؤن، لأن ربع الرغيف يكلف الآن خمسة بنسات، وأما الصلوات فنؤديها من أجل أن نعـود إلى الوطـن فـوراً ومن دون أذى، ونحن مضغـوط علينا

بالبرد وبالعري، لأن بيوتنا من الخيش، ونحن من دون ملابس للشتاء، وهناك ذراع قصير للبحر، فيه تيار للمد والجزر تحت القلعة المذكورة، حيث نحن مقيمون، ويشكل ذلك نوعاً من الموانيء، إليه تقدم أثناء إقامتنا سفن من ايرلاندا، وشيستر جالبة الامدادات، وذراع البحر هذا قائم بيننا وبين سنودون، حيث معسكر الويلزيين أنفسهم، وهو لدى ارتفاع التيار حوالي رمية سهم بالعرض، وفي يوم الاثنين التالي قبل عيد القديس ميكائيل، جاءت سفينة من ايرلندا، تحمل مؤناً للبيع لنا، وعندما كانت قادمة نحو مدخل الميناء، جرى توجيهها من دون حذر، أثناء تراجع البحر، فبقيت على القاع تحت قلعتنا المذكورة، لكن على الطرف المقابل، نحو الويلزيين، الذين اندفعوا على الفور، وقاموا بالهجوم عليها بحكم وقوفها على أرض جافة، وبناء عليه، لدى رؤيتنا لهذا الإجراء من الطرف على هذا الجانب، أرسلنا ثلاثمائة ويلزي من رجال حدودنا من شيشاير -Che shire ومن شروبشاير Shropshire, وذلك عبر الماء في قوارب، ومعهم بعض رماة القسي الزيارة، من أجل حماية السفينة المذكورة، ولدى رؤية الويلزيين لذلك، تراجعوا مسرعين إلى مخابئهم المعتادة والمعروفة جيداً في الجبال والغابات، وطاردهم فرساننا ومعهم أتباعهم لمسافة فرسخين، ومع أنهم كانوا على أقدامهم (لأنهم لم يجلبوا خيولهم عبر الماء معهم) فقد جرحوا وقتلوا كثيراً من الويلزيين، ثم عاد شعبنا بعدما هزموا أعداءهم، ومثلهم مثل أناس جشعين ومحتاجين، انشغلوا بالنهب ونشروا النار والسلب، خلال المنطقة، على الجانب الآخر من الماء، وكان من بين الأعمال الدنسة التي اقترفوها، قيامهم من دون احترام بنهب دير لطائفة السسترشيان اسمه أبيركونوي Aberconway, وسلبوه من كل مقتنياته حتى كؤوس القربان والكتب، وأحرقوا الأبنية العائدة له، وفي الوقت نفسه، حشد الويلزيون حشداً كبيراً من أبناء جلدتهم، واندفعوا بشكل مفاجيء، وبأصوات مرتفعة على رجالنا المحملين بالأسلاب، التي حصلوا عليها بأكثر الأساليب شراً، وكانوا محاقين بذنوبهم، وأرغموهم

على الفـرار، وجـــرحـوا وقتلوا الكثيرين وهم يتراجعــون نحـو السفينة، واختار بعض رجالنا الوثوق بالأمـواج، ومن ثم الموت غرقاً، وآثر وا ذلك على أن يقتلوا وفقـاً لإرادة أعدائهم، فألقـوا بأنفسهم طوعـاً وبإرادتهم بين الأمـواج، وهناك هلكوا، وأسروابعض فرسـاننا وهم أحيـاء، فسجنوهم، لكن عندما سمعوا بأننا قتلنا بعض نبلائهم، وفوق الجميع نافث Naveth ابن أودو، وكان شاباً وسيماً وشجاعـاً، ولذلك شنقوا هناك بعض فرساننا، وقطعـوا بعـد ذلك رؤوسهم، وشـوهـوهم بشكل مخيف، ومـزقـوا أخيراً أجسادهم التعيسة، وقطعـوا أطرافهم طرفاً طرفاً، ورمـوهم في الماء، انتقاماً من جشعهم الشرير، حيث أنهم لم يوفـروا الكنيسة، ولاسيما واحـدة كانت عائدة إلى الرهبان.

وسقط هناك في هذا الصراع من جـانبنا بعض الفـرسـان مـن حـاشيـة رتشارد ايرل أوف كـورنوول، وهم: ألان بوسسل Buscel, وآدم دي مـويا Moia, واللورد غيـوفـري سـتـورمي Sturmy ورابع هو ريمـوند، وكان غسكونيـاً من رمـاة القوس الزيار، وكـان الملك غـالبـاً مـا يستخـدمه في المبـاريات الرياضيـة، وجرى مقتل حـوالي المائة من الأتبـاع، وذلك إلى جـانب الذي غرقـوا، والعـدد نفسه من الويلزيين أو أكثـر، وفي الوقت نفسه تولى وولتر بيست Bissett, الذي كان على ظهـــر السفينة مع أتباعه، الدفاع عنها بشجاعة، وانخرط بقتال مستمر مع الويلزيين حتى منتصف الليل، الذيـن هاجموه بشـدة من جميع الجوانب، ولـولا أن رجـالنا اتخذوا من أطراف السفينة جـداراً، لسقطوا جميعـاً في أيدي العـدو، وأخيراً عندمـا بدأت ميـاه البحـر بالارتفـاع، شرعت السفينة بالتحـرك، وعندمـا صارت الآن بعيدة المنال، انسحب الويلزيون، وهم آسفـون لأن رجالنا قد جرى انتزاعهم من بين أيديهم وكان على ظهر هذه السفينة ستين برميلاً من الخمر، بالاضـافة إلى مـؤن كثيرة متشوق إليها وكـان بعضها مـوسمياً، كنا منهـا محرومين منذ وقت، وعنـدمـا جـاء الصبـاح، وتراجـع التيـار، رجع

الويلزيون مع البهجة، ظانين أنهم سوف يعتقلون رجالنا في السفينة، لكن بعون من الرب وتدبير، كانوا قد تمكنوا أثناء الليل، عندما كان التيار عالياً، من النجاة إلينا بوساطة قواربنا، وكان ذلك قبل وصول الويلزيين، تاركين السفينة لوحدها، ووصل الويلزيون على كل حال، ونقلوا منها كل الخمور تقريباً، والأشياء الأخرى التي كانت على ظهرها، وتركوها لدى ارتفاع التيار، وقد ألقوا النار بالسفينة، التي أهلكت شطراً منها، وجرى على كل حال انقاذ الشطر الآخر، الذي كان فيه سبعة براميل، وقد تمكنوا من سحبها إلى الشاطىء القريب.

ومع استمرارنا بالبقاء هناك مع الجيش، كنا في حاجة كبيرة لكثير من الأشياء، ولذلك غالباً ما قمنا بغارات مسلحة، وعرضنا أنفسنا لكثير من المخاطر العظيمة، من أجل أن نحصل لأنفسنا على الضروريات، وكنا نواجه كثيراً من الكمائن المتنوعة، ونتصدى لحملات من الويلزيين، وغالباً ما عانينا من تقلبات حظ الحرب، وألحقنا أضراراً بهم، فبعد احدى المناوشات، أحضرنا معنا، ونحن منتصرون، إلى معسكرنا حوالي مائة رأس مقطوعة من الويلزيين، وفي ذلك الوقت كانت هناك ندرة في المؤن، وحاجة كبيرة إلى جميع الضروريات، ولذلك عانينا من خسائر لاتعوض في كل من الرجال والخيول، وجاء وقت في الحقيقة لم يوجد فيه خمرة في بيت الملك، لابل في الحقيقة في الجيش كله، باستثناء برميل واحد فقط، وصار المقياس الواحد من القمح يكلف عشرين شلناً، وثور مرعى ثلاثة ماركات أو أربعة، وبيعت الدجاجة بثمانية بنسات، ونتيجة لذلك تلاشى الرجال وتلاشت الخيول، وهلك كثيرون من الحاجة».

قدوم البابا للاجتماع مع الملك الفرنسي في كلوني

وفي تلك الآونة نفسها من العام، ذهب البابا إلى كلوني، بناء على دعوة من الملك الفرنسي، الذي رغب بالاجتماع والتحادث معه، ولم يسمح لقداسته بالتوغل أكثر في فرنسا، وفي حوالي عيد القديس أندرو، قدم الملك

الفرنسي إليه ليلتقيه هناك، وكان ذلك بعـدما انتظره، لمدة خمسة عشر يوماً، وعقدا هناك اجتماعاً سرياً لمدة سبعـة أيام، ولم يطلع أحد على أسرار القضايا إلاّ هم: أي البابا، والملك الفـرنسي، وأمه السيـدة بلانشي، ومن المعتقد من دون شك أنهم تداولوا حـول تـرتيب سـلام بين الكنيسـة والامبراطورية، وحول الطريقـة التي يمكن بوساطتها تحقيق مصالحة مشرفـة، وكان الملك الفـرنسي قـد تـوصل إلى قـرار ثابت، بالانطلاق إلى القــدس مع كثير من النبـلاء الفرنسيين والمقـدمين، الذين حملوا الآن الصليب، لصـالح كل من الرب والملك، وكـــان لايمكنهم الارتحال بالبحـــر —مـــالم تتـم تهدئـة الامبراطور، ومصـالحتــه تمامـاً مع الكنيسـة— أو خــلال أراضيــه، دون التعرض لمخـاطر عظيمة، تلحق بالمسيحيـة كلها، لابل حتى إذا استطـاعوا فعل ذلـك، إنه لن يكـون من الموائم القتـــال في سبيـل المسيح في الأرض المقـدسة، في حين تركـوا خلفهم، في بلد مسيحي مثل ذلك الصراع المؤذي والمضر بين شخصين لهما مثل هاتين المرتبتين العاليتين، ومرة أخرى كان من المعتقد أنهم كـانوا يعالجون مسألة إعـادة تأسيس السلام بين ملكي فـرنسا وانكلترا، أو على الأقل إطالة الهدنة، في سبيل أن يتمكن الملك الفرنسي من المضي في حجـه في ظل أمـان أعظم، وفي نهاية هذا الاجتماع، وعندمـا كـان الملك الفرنسي على وشك المغـادرة، عيّـن يومـاً هو في اسبوعي الفصح من أجل مؤتمر مع قداسته، ينبغي أن يضمن حضور الامبراطور فردريك فيه.

وذهب الملك الفـــرنسي من هذا المكان، إلى مـدينة مـــاكــون Macon, وهي مدينة سقطت هذا العـام مع المقاطعة كلها تحت سلطتـه وحكمه وفق الطريقة التاليـة: عندما آل ذلك الميراث لأن تتملكه كونتسه مـاكون، قامت على الفـور بإرســال رســالة إلى الملك، بأن لديها الرغبـة في بيعـه جميع الحق الذي لها في المدينة المذكــورة والمقـاطعـة، في سبيل ارتداء الـزي الرهبـاني، ووافق الملك الفـرنسي على هذا العرض، واشترى المنطقة مقـابل مبلغ كبير من المال، أنفقتـه الكونتسه كله لصـالح الفقراء، وعلى أعمال تقويـة أخرى،

ومالبثت أن لبست الزي الرهباني، في دير للسيدات كانت السيدة بلانشي قد أسسته في بونتوي Pontoise, وبذلك خلفت وراءها ذكرى كانت مثلاً في التواضع إلى جميع الأجيال، ولكل النبلاء، وبشكل خاص إلى النساء.

موت ريموند كونت بروفانس

وسدّد في قرابة الوقت نفسه، ريموند كونت بروفانس دين الطبيعة، وكان رجلاً مشهوراً ومتميزاً، ذلك أنه تقلب على دولاب الحظ بشكل مدهش، وهو الذي كان مصدراً غير اعتيادي مدهشاً إلى جميع الأجيال في الجمال الفائق لبناته، التي إلى الصغرى منهن، ترك في كلماته الأخيرة، كونتيته، أي كونتية بروفانس بمثابة أعطية، لكن عندما سمع الملك الفرنسي بهذا أرسل خمسمائة من الفرسان النخبة، مزودين بالأسلحة وبالحاجات الضرورية الأخرى، ليتولوا الاستيلاء على كونتية بروفانس المتقدمة الذكر، بسبب أن الابنة الكبرى للكونت المتوفى أخيراً، كانت زوجته، كما تقدم ذكر ذلك، ذلك أنه عدّ الوصية المتقدم ذكرها للكونت ريموند باطلة وفارغة لأنها غير قانونية، ولدى سماع ملك انكلترا بوفاة الكونت، حركته مشاعر عواطفه لعمل مأتم جنائزي بأبهة عظيمة، وسط صدقات وافرة، وصلوات مخلصة، وشموع مضاءة، وأجراس تقرع، وبكل دقة منع في الوقت نفسه كل واحد من إعلان خبر هذا الحادث إلى زوجته الملكة، خشية أن يقهرها الأسى.

استيلاء المصريين على مدينة دمشق

في هذا العام، وفي الآونة التي تلت حلول عيد القديس ميكائيل، جرى الاستيلاء على مدينة دمشق، التي —كما قيل— كانت المدينة الرئيسية في سورية في العصور القديمة، وانتزاعها من الصليبيين، مما ألحق بهم أضراراً جسيمة واضطراباً عظيماً، وجاء الاستيلاء عليها من قبل المصريين الكفار

الخونة، وأعوانهم الخوارزمية، الذين كانوا الأعظم عداوة للاسم المسيحي، لأن هذه المدينة، وإن كانت مصبوغة بعقيدة محمد (صلى الله عليه وسلم)، كانت متحالفة مع الصليبيين، ولم تكن تؤذي أحداً منهم، وكانت نافعة جداً لهم وموائمة، من خلال التجارات المتبادلة والعلاقات القائمة فيما بينهم، لكن الآن، بعدما كانت مدينة صديقة، تحولت إلى مدينة غير صديقة تماماً، والأكثر عدوانية لهم، فقد جرى طرد سلطانها منها، وبصعوبة وجد مكاناً آمناً يتخبأ فيه في الأجزاء الشرقية من البلاد، وفي الوقت نفسه، أصبحت المدينة مع كل ما أحاط بها من جميع الأطراف خاضعة للمصريين وللخوارزمية.

عزم الملك الإنكليزي على العودة إلى إنكلترا بعد نهبه للمنطقة المعروفة بإسم أنغليزيا في ويلز

وفي اليوم التالي لعيد الرسولين: سمعان، وجود، كان الملك غير قادر، وغير راغب بالإقامة مدة أطول في غانوك، بسبب نقص المؤن، واقتراب حلول الشتاء، وجاء ذلك بعد إقامته هناك لمدة تقارب العشرة أسابيع، حيث قام بتحصين قلعته غانوك التي تقدم ذكرها، والتي كان قد بناها، وبعدما شحنها، أعدّ العدة للعودة إلى انكلترا، في سبيل أن يسترد هو صحته وكذلك جيشه، وكان الآن قانعاً تماماً بأن أعداءه الويلزيين قد لحقهم دمار لايمكن تعويضه، لأنه لدى وصوله قام الايرلنديون باجتياح أنغليزيا Anglezea كلها وهي المنطقة التي كانت المأوى ومكان الالتجاء للويلزيين، وقام قبل مغادرته بوضع السيف فيما بقي هناك بشكل وحشي، وحول إلى رماد كل انسان وكل شيء، إلى حد أن المنطقة كلها، بدت وكأنها منطقة واسعة مهجورة، وصحراء غير مزروعة، كما أنه أمر بملأ آبار الملح في ويتز Witz وتدميرها، وفي سبيل أن لايحصل الويلزيون على المؤن من المقاطعات المجاورة، كما اعتادوا أن يفعلوا، حتى في أيام الحرب، إما عن طريق الشراء، أو النهب، أو من خلال الصداقات،

أو القرابات، أو العلاقات، وتسبب بجعل سكان تلك المنطقة مع الذين خاضعين لهم يعانون من الفقر، ومحرومين بشكل خاص من الطعام، إلى حد أن المجاعة سيطرت على شيشاير Cheshire والمناطق المجاورة لها، حتى وصلت إلى درجة أن السكان لم يبق لديهم مايكفي لإطالة البقاء التعيس، كما أنه منع تحت طائلة عقوبة الموت وفقدان الممتلكات، جلب أي مؤن إليهم، أو السماح بجلبها من أجل البيع، من قبل الانكليز، أو من المناطق الايرلندية، وكانت قلعة غانوك هذه، مشحونة أيضاً بالرجال، وبالمؤن، وبآلات الحرب والأسلحة، وصارت بالفعل بمثابة شوكة في أعين الأشقياء الويلزيين، لابل أكثر الناس شقاء، حيث لم يعد بامكانهم العبور إلى انكلترا، من دون اعتراض من قبل رجال القلعة، الذي كانوا، بناء على أوامر الملك، مطاعين من قبل جميع المنطقة، ولم يعد بإمكان الويلزيين الإقامة في منطقتهم بسبب الحاجة.

مغادرة الملك غانوك بعد تحصين القلعة هناك

وبعدما تمكن الملك من حلّ جميع القضايا بشكل حكيم، رجع إلى انكلترا بأمان، وهو متوج بحسن الحظ، باستثناء أن سمعة أخيه، الايرل رتشارد، قد أظلمت إلى درجات عظيمة في هذه الحملة، وأخذت التقارير السيئة تنتشر حوله، فلقد ذكر في كل مكان، وفي كل من الجيش، وفي جميع أرجاء المملكة، بأن الايرل المذكور، قام بسبب استجابته العاطفية، وبسبب القرابة، لكن لإهانة الملك، وخسارته وضرره، فأعطى ابن اخته داود النصيحة، وأبدى نحوه كثيراً من الصداقة، أكثر مما ينبغي، ومما هو لائق، وتولى في احدى المرات بشكل سري رعاية داود المذكور، عندما كان مرهقاً، متأذياً، وفي وضع صحي سيء، في قلعته تينتايول Tintaiol, حتى يتمكن من استرداد صحته، وعندما شفي، قام بقوة أعظم ضد الملك، كما أنه رفع من شأن قضية المذكور بمشورته ومساعدته، لأن الملك رفض بمبادرة من الملكة، أن يمنحه شيستر مع المراتب الشرفية المرتبطة بها، وكان

ذلك عندما طلبها منه، ولقد قيل أيضاً، أن ذلك كان عندما قوبل بالرفض من الملك، من خلال تدخل الملكة عندما سأل منحه غسكوني، وغادر من عند الملك وهو مغضب، مع تهديدات غير معتادة في بوردو.

وينبغي —على كل حال— عدم تصديق هذه التأكيدات، لأن الملك عندما كان في حاجة إلى المال من أجل بناء القلعة في غانوك، وفي سبيل دعم الجيش، تحرك الايرل المذكور بعاطفته الأخوية، وأقرضه بكل كرم ثلاثة آلاف مارك، بضمانة مجوهراته، وبذلك أغلق فم المتكلمين بالشر، ثم عاد الملك من ويلز مع اقتراب حلول الشتاء، وبدأ زحفه في اليوم التالي لعيد القديسين سمعان وجود، في سبيل أن يتمكن —كما ذكرنا من قبل— هو وكذلك جيشه المنهك كثيراً، من استرداد أنفاسه، لكن مع نية العودة إلى العمل نفسه، بعد عبور حدة الشتاء.

وعلى هذا فإن الويلزيين التعساء، كانوا عندما حلت مصائب الشتاء عليهم، قد عسفت الحاجة بهم في جميع الأشكال، فقد كانوا بلا بيوت، ومحرومين من جميع أنواع المؤن، ولم يكن لديهم أدنى أمل في تحسن أوضاعهم، لأن أراضيهم بقيت غير مزروعة، ومتعفنة بإرادتهم، وهكذا كانوا مقهورين بالجوع وبالبرد، وبيأس عقلي وجسدي، ولذلك أخذوا يتلاشون ويموتون.

خلع موريس من الاشراف على القضاء في إيرلندا

وقام الملك بخلع موريس —الذي كان مشرفاً على القضاء في ايرلندا— من منصبه، لأنه كان غاضباً عليه كثيراً، ومنزعجاً منه، لأنه كان بطيئاً جداً في القدوم إلى مساعدته، لدى توفر رياح طيبة لديه حسبما رغب، وعيّن في مكانه وفوّض جون فتز— غيوفري، وتحمل موريس بصبر هذا كله، بسبب أنه منذ أن مات ابنه، ازدرى جميع أمجاد ومراتب هذا العالم.

إرسال نائب بابوي إلى فرنسا لرفع شأن القضية الصليبية

وفي العـام نفسـه، وبناء على طلب ملك فـرنسـا، الذي أعـاده الرب إلى الصحـة، وكأنها كانـت مع روح جديـدة، وبعـدمـا كـان قـد حمل شـارة الصليب، جـرى ارسال نائب بابوي إلى فـرنسـا من قبل البابـا، من أجـل العمل بشكل مؤثر أكثر، على رفع شأن القضية الصليبية بتبشيره.

وفي حـوالي الوقت نفسه، قـدم أسقف بيروت، الذي تقدم ذكـره مع أ. A, الذي كان واحـداً من الرهبان الدومينيـكان، من الأرض المقـدسـة، إلى انكلترا، وبعـد إخبـار الملك بالأحـوال ا لمأسـاوية في الأرض المقـدسـة ومعـاناتها، رجـاه إذا كـان من الممكن أن يسمـح له، برفع شأن القضيـة الصليبيـة في انكلترا عـن طريق التبشير، ولدى تقـدمهما بهذا الطلب إلى الملك، وتثبيتـاً لمصـداقيتهما، أرياه صكـاً كـانا قـد جلبـاه معهما من الأرض المقـدسـة، وغفـرانـاً كـانا قـد جلبـاه من بلاط رومـا، ولدى عـرض هذا الغفـران، قال الملك:

«مع أنكما قد تكونا صادقين، ورسـولين قادرين، مع ذلك، لقـد خدعنا مـراراً من قبل البـلاط الرومـاني، من خلال نـوابه البابويين وقسـاوسـته، الذين أرسلـوا لمثل هذا العمل نفسـه، والذين شغلوا أنفسـهم فقط في استخـراج المال، لذلك سوف من النادر أن تجـدا من يضع ثقتـه بكما»، وفي سبيـل أن ينالا حظوة الملك، ذهبا إلى القول، بأن جميع نبلاء فرنسا تقريباً قد حملوا الصليب، فقال الملك:

«لقـد حمل ملك فرنسـا الصليب، وإذا كانـت رعيته قـد تبعته، مـا هـو العجب في ذلك؟ إنني محـاط بأعدائـي، وملك فرنسـا مـوضع ريبة لـدي، وملك سكوتلنـدا أكثـر منه، وأمير ويلز في وضـع عـدائي مكشـوف ضـدي، والبابا يحمي الـذين يثـورون ضـدي، ولذلك إنني لا أرغب في إفـراغ أراضـي من جنـودها، ومـن أمـوالها، حتـى لاتكـون مجـردة من

قوتها»، وعند ذلك فقد الأسقف والراهب جميع آمالهما، وغادرا.

راعي دير كلوني يستخرج العشور من رئاسات رهبانه

وفي تلك الآونة، عندما كان البابا ضيفاً في دير كلوني، وقبل مغادرته من ذلك المكان، ليطلب اللجوء في ليون، حصل منه راعي دير كلوني على إجازة وتصريح، باستخراج العشر لعام واحد، من جميع الرهبان، في ذلك المكان، وجرى منح هذا لسببين، هما: أن الراعي المذكور كان قد قدم هدايا فخمة إلى البابا عندما كان في المنفى وقادماً إلى مناطق ماوراء الألب (لأنه كان قد أعطاه ثلاثين مهراً مجهزين بشكل جيد، والعدد نفسه من خيول التحميل)، ولأنه استقبله بشكل فخم وكريم، واستضافه ورعاه لقرابة العام، وكان هذا العشر سوف يتسلمه من جميع الأعضاء، دون الاهتمام باعتراض أي شخص عادل، ومن هذا المال كان البابا سيتسلم ثلاثة آلاف مارك، وسيعطي البقية لسداد دين كنيسة كلوني، المعروف أنها تحملته في سبيل تقدم قضية الكنيسة الرومانية، وقد عمل البابا هذه المنحة إلى راعي الدير، حتى يتمكن من أن يتخذ نفسه رباطاً عريضاً من جلده.

كيف حمل عدد من النبلاء شارة الصليب

ومباشرة شق الملك الفرنسي الطريق، وضرب المثل، وكأنه حامل الراية، ولذلك حمل عدد من النبلاء الفرنسيين الصليب، وكان من بين هؤلاء روبرت، وكونت أرتوي Artois, ودوق بيرغندي، ودوق برابانت، وكونتسة فلاندرز مع ولديها، وبطرس كونت بريتاني، وابنه ج. J, كونت بريتاني، وكونت بار، وكونتات: سواسون، والقديس بولص، ودروكس، وريثيل، وفيليب دي كورتني، ووولتر دي جويني Joigny, وجايلز دي ميلي Mailly, ومحامي بيثيون Bethune, وعدد كبير آخر من النبلاء، الذين تزايد تعدادهم يومياً، بحمل الملك شخصياً أعباء التبشير، ودعوتهم إلى ذلك، ونهض بعض الأساقفة بالحماس نفسه، في

سبيل أن يضربوا مثـــلاً تقــوياً للعلمانيين، فحملوا شـــارة الصليب على أكتـافهم، للانتقـــام لقضيـة المسيح، وكـان من بين هؤلاء رئيـس أسـاقفـة الريمـز، ورئيـس أسـاقفـة السين، ورئيس أسـاقفـــة بورجي Bourges, وأسقف لون Laon, وأسقف بوفوا Beauvais, وعدد كبير آخر، دعاهم المسيح يومياً، وأغراهم بالدخول في خدمته.

رواية بأن المسلمين قد سمموا الورق

ولدى سماع المسلمين بهذه الإجـراءات قـامـوا بكثير من الترتيبـات من أجل الدفـاع، وأبدعـوا خططاً شريـرة، فقـد قـامـوا بتسميم الورق، الذي عرفوا أنه سوف يرسل إلى البلدان المسيحية، ونتيجة لذلك، فإن عدداً كبيراً من الناس في فـرنسـا —وكـانوا على غير دراية بهذا الفعـل الشرير— قـد قتلوا، لكن مالبث أن تمّ اكتشـاف ذلك، فجرى الإعـلان بوساطة المنادين في المدن الرئيسيـة في فـرنسـا وانكلترا، من أجل تجنب هـذا الخطر بحـذر وعناية، وقـال أشخـاص آخرون، بأن التجـار قـد فعلوا ذلك من أجل بيع الورق القديم، والمخزون منذ زمن طويل، بشكل أحسن، وسعر أعلى.

تكريس رتشارد مستشار كنيسة إكستير لكرسي ذلك المكان

في حـوالي هذا الوقت، أي في حوالي أول كـانون الأول، جـرى تكريس المعلم رتشارد، مستشار كنيسة إكستير Exeter, وكان رجلاً بلا ملامة، وصـاحب أخـلاق حميـدة، وكـان متعلماً، وجـاء تكريسـه أسقفـاً لكنيسـة إكستير، وكان ذلك في ردنغ.

وفاة وولتر إيرل مارشال

في الرابع من كانون الأول، في هذا العـام، أوكما يقول آخرون، في الرابع والعشرين من تشرين الثـاني، ذهب وولتر إيرل مـارشال من طريق الجسـد كله في لندن، وكـان قـد دفن في تينتيرن Tintern قـرب ستريغـــــويل Strigoil, حيث جرى دفن عدد من أجداده النبلاء.

موت أنسلم أخو المذكور أعلاه

وبعد ذلك بـوقت قصير، وفي اليوم الثالـث، قبل يوم عيد الميـلاد، مات أنسلم، الأخ الأصغر التالي، المذكور أعـلاه، وبما أنهما معاً توفيا من دون أي أولاد، فإن ذلك الميراث الفخـم قـد توزع بطـرق مختلفـة، وآل إلى ملكيـة كثيرين، بسبب أخواتهما، اللتان إليهن آلت بشكل حاد.

شعارات النبالة التي ويالأسف انخفضت في إنكلترا وهؤلاء هم

— المارشال

— ايرل شيستر

— ايرل آروندیل

— ايرل مانديفيل

— ايرل هنتنغدون

— دوبني Daubney

— هوغ دي لاسي (في ايرلاندا)

— كونت ريموند (في بروفانس)

— وليم أوف لانكستر

— أوسبرت غيفارد

— وولتر بن غيلبرت دي بوهون مع أخيه

— الاسكندر آرسيك Arsic

— روبرت أوف روبسلي Ropesly

— روبرت دي بورغيت Burgate

— روبرت دي تيرنهام Turnham

— وليم
— نيقولا ⎬ دي ستوتفيل Stuteville
— يوستاس

— روجر دي مونتبيغنت Montbegunt

— فيليب دي أولكوت Ulecote

— فولكس دي بروت Breute

— رتشارد بيرسي Percy

— هنري دي تربلفيل Trubleville

— فيليب دوبني Daubeney

— رالف دي تربلفيل Trubleville

— رتشارد دي رفرز Rivers

— رتشارد بن روبرت تشيلشام وابنه رتشارد أوف دوفر

— ايرل أوف ووورويك Warwick

واقعة مدهشة تتعلق بـ و. W مارشال الكبير وأبنائه الخمسة

أصاب سوء حظ محزن ومبكي، لم يسمع بمثله من قبل، الأبناء الخمسة لـ و. W مارشال الكبير، الذين انتزعوا من بيننا — وفقاً لتسلسل تواريخ ميلادهم — من دون أولاد، في حين كان الازدهار مبتسماً لهم في وسط ممتلكاتهم، وفي بداية الحياة، وذلك تماشياً مع نبوءة أمهم، التي قالت

بأن: «كل واحـد منهم سـوف يكـون ايرلاً لايرليـة واحـدة»، وصحيح أن أنسلم لم يكن ممنوحـاً ايرلية، لكنها آلت إليـه، وهكذا برهنت أمهم على أنها كـاهنة متنبئة، وأنا لاأعتقد على كل حـال، بأن ذلك قـد وقع من دون إلهام لاهوتي، وبما أن هذه الواقعـة جـديرة بالذكـر، رأينا أن من المناسب اقحـام رواية عنها في هذا الكتـاب، فعندما كـان وليم المتقدم ذكـره —والذي كان محارباً وشجـاعـاً، ولقبـه الـ Moreschal (أي قهـرمـــان المريخ)— مشغولاً بالقتل والنهب في ايرلندا، وكان يحصل على أراض واسعة، استولى بالاغتصاب والقوة، وانتـزع من أسقف مقدس عزبتين، كانتـا عائدتين إلى كنيسته، واستحوذ عليهما، وكأنهما ملك له بإدعاء عادل، لأنه حصل عليهما في الحرب، وقام الأسقف، بعـد اصداره تحذيرات كثيرة له، التـي ردّ عليها الايرل بعجـرفـة، واستمر في استحـواذه على العـزبتين المذكـورتين، كما أنه تمسك بذنبه وأصر عليـه بتمرد، قام منفجراً باصـدار قرار الحرمان الكنسي ضـده، وكـان ذلك لسبب صحيـح، لكن الايرل استخف بهذا، وادعى أن القـرار صـدر في أيام الحرب، ولذلك كـدّس الأذى فـوق الأذى، وبسبب هذه الإجـراءات، قـام واحـــد اسمـه المعلم غيرفـاس Gervase دي ميلكيلي Melkeley بنظم شعـر حـوله، وتحدث وكأنه شخص الايرل قائلاً:

أنا في ايرلندا زحل، وفي انكلترا أشعة الشمس تحيط بي

وفي نورماندي أنا عطارد، لكن في فرنسا، المريخ إلى الأبد قد وجدني

ثم إن الايرل المذكور، احتفظ بهاتين العـزبتين تحت سلطته طوال حياته، وقـد مـات بعـد عـدة سنوات، ودفن في المعبـد الجديد في لندن، ووصلت أخبـار هذه الـواقعـة إلى علم الأسقف المذكـور (الـذي كـان أسقف فيرني Fernes, وكان راهبـاً من طائفة السسترشيان، كما أنـه كان ايرلندياً من حيث المولد، وكـان رجلاً صـاحب قداسـة مدهشـة) فقام بعد بـذل جهد شخصي كبير، فـذهب إلى الملك، الذي كـان في ذلك الوقت مقيماً في لندن،

وتقــدم بشكوى ثقيلة حـول الأذى المتقــدم ذكـره، الذي اقترف بحقــه، وأوضح أنه قـام بحـرمـان الايرل المذكـور كنسيـاً لهذا السبب، وهو سبب صحيح، ثم إنه توجّـه بالرجاء إلى الملك، أن يستخـدم سلطاته الملكية، وفي سبيل تحرير روح الايرل وليم المذكور، فيعيـد العزبتين إليـه، فبذلك يمكن للميت أن يحصل على منفعة التحليل، وأسف الملك وتأثر كثيراً لدى سماعه هذا، وطلـب من الأسقف الذهـاب إلى قبر الايرل وتحليله، واعــداً بـأنه شخصيـاً سـوف ينظر في ترضيـة تقـدم لـه، وبناء عليـه ذهب الأسقف إلى القبر، وقـام بحضـور الملك مع أشخـاص آخـرين كثـر، وتوجّـه بالحديث وكأنه يخاطب واحداً حياً في القبر، حيث قال:

«وليم، أنت الذي مدفون هنا، ومغلول بأغلال الحرمان الكنسي، إنه إذا ماجرت إعادة الممتلكات التي انتزعتهـا ظلماً من كنيستي مع ترضية كافية، بوساطة وكـالة الملك، أو بوساطة وريثك، أو أي واحـد من ورثتك، فإنني أحللك، وإذا كان الأمـر غير ذلك، إنني أقوم بتأكيد القـرار المذكور، حتى إذا ما ظللت متورطاً بذنوبك، فإنك سـوف تبقى في جهنم، رجلاً مداناً إلى الأبد»، ولدى سماع الملك هذا بات غـاضبـاً، وانتقد قسـوة وعدم اعتـدال الأسقف، وعلى هذا ردّ عليه الأسقف قـائلاً: «لاتندهش يامـولاي، إذا ما كنت منفعـلاً، لأنـه جـرد كنيستي من أعظم منافعهـا»، ثم إن الملك تكلم بشكل سري مع وليم الابـن الأكبر للايرل، ووريثـه في كـل ممتلكاته، وهو الذي تولى الآن الايرليــة، وكـذلك إلى بعض اخــوته، ورجـاهم بـإعـادة العـزبتين المتقدم ذكـرهما، اللتـان انتزعتـا منه بشكل غير عـادل، وذلك في سبيل تحرير روح والدهم، وعلى هذا رد وليم قائلاً:

«إنني غير مصـدق، كما ينبغي عليّ أن لاأصدق، بـأن والدي قد استـولى عليهن خطأ، لأن الذي أخــذ في وقت الحرب، أصبح ملكاً شرعيــاً، وإذا كان ذلك الأسقف العجوز والأحمق قد تفوه بالحكم بشكل غير عادل، من الممكن أن يقـذف عائـداً على رأسـه، وإنني لاأختار انقـاص الميراث الذي

عهد به إلي وتوليته، وقد مات والدي، وهو متملك لهاتين العزبتين، وقمت أنا، بموجب حق صحيح، بتملك الذي وجدته»، وعلى هذا القرار وافق جميع الإخوة، ولأن الملك كان في ذلك الوقت رجلاً صغير السن، ولأنه كان تحت الوصاية، ما كان له بأي حال من الأحوال أن يغضب مثل ذلك النبيل القوي، وعندما أصبح هذا معروفاً فيها بعد لدى الأسقف، ازداد حزنه بسبب تمرد الأولاد، وكان ذلك أكثر من الأذى الذي لحقه في المقام الأول من قبل الأب، ثم إنه ذهب إلى أمام الملك وقال له:

«إن الذي قد قلته، قد قلته، والذي قد كتبته كتبته بدون تراجع، وقرار العقوبة قد ثبت، والعقوبة نزلت من الرب على الفاعلين المجرمين، والجريمة التي جرى وصفها في المزمور قد فرضت بدرجة عالية على الايرل وليم الذي منه اشتكيت، ففي جيل واحد سوف يتم تدمير اسمه، وسوف يكون أولاده من دون نصيب في مباركة الرب، وسوف ذلك يزداد ويتضاعف، وسيموت بعضهم بوساطة ميتة محزنة، وسيجري توزيع ميراثهم، وكل هذا يامولاي الملك سوف تراه أثناء حياتك، لابل في مطلع حياتك»، وبعد فراغه من هذا الخطاب بشكل مؤلم صادر عن القلب، وكأنه ألهم بروح نبوءة، غادر الأسقف وانصرف في اليوم التالي، وهكذا كان ذلك النبيل وليم مارشال الذي وضع ثقته واعتمد على الذراع الجسدي، قد ترك مغلولاً بأغلال التكفير، وكبرهان شاهد على هذه الواقعة، حدث فيها بعد، بعد وفاة أولاده، عندما جرى تكريس كنيسة المعبد الجديد، في سنة ١٢٠٠، تمّ العثور على جسد الايرل المذكور على حاله، مخاط عليه بجلد ثور، وكان مهترئاً بشكل بشع أن تراه، ومقززاً للنفس، وتبع آخر الإخوة خطاه، وهو وولتر مارشال الذي بقي وحيداً، لأنه مع أنه كـ ر قد وعد بشكل مؤكـ. بقوة، بتقديم مورد مقداره ستة شلنات إلى دير القديسة مريم العائد إلى رهبان هارتفورد Hertford, وأعطى وعداً مكتوباً حول الموضوع نفسه، بسبب أن أخاه الايرل غيلبرت

قد توفي هناك، وماتزال أمعاؤه مدفونة هناك، قد نسي عهده ووعده، الذي عمله من أجل انقاذ أخيه، وبعدما تسبب بكثير من الازعاجات لرئيس رهبان الدير المذكور، برهن على نفسه بأنه مخادع ظاهر ومكشوف وعدواني.

كيف زحف الإمبراطور فردريك ضد الميلانيين

وكان البابا في هذه الآونة قد أقنع نبلاء ألمانيا، الذين إليهم يعود حق الانتخاب، ليقوموا بانتخاب امبراطور جديد عليهم، ووافق المقدم بينهم، وهو كونراد، رئيس أساقفة ثورنجيا، في التركيز على اللاندغريف أوف ثورنجيا، الذي رفض على كل حال، الاستجابة، أو القبول بمثل هذا العمل من التهور، حيث أنه كان راضياً بدوقيته، وفضّل أن يتمتع بالسلام والأمان، على أن يثق بالمخاطرات والمغامرات، واحتمالات الحرب، خاصة ضد الامبراطور فردريك، الذي غالباً ماجرب قدراته، والذي وجده مثل ثعلب مليئاً بالمكر، وقام البابا، على كل حال بتشجيعه، وحثه، ووعده بالحماية، وبحماية الكنيسة العالمية، وأرسل الميلانيون أيضاً، والايطاليون المتحالفون معهم، رسلهم الخاصين، وتوجهوا بالدعاء إلى حكمته الرزينة، ووعدوه بمساعدتهم الفعالة والمشورة في كل شيء، إذا ما وافق على هذا الانتخاب ليكون في مكان فردريك المذكور، الذي هو رجل مرتد، ومحروم كنسياً، ومخلوع، وواحد ممقوت من الرب ومن الكنيسة.

وعندما سمع الامبراطور فردريك بهذه الاجراءات، صرّ بأسنانه غضباً، وحزن لأنه رأى أعداءه يرفعون رؤوسهم معاداة له، ويكدسون الإهانة فوق الإهانة، والتهديد فوق التهديد ضده، وأملاً منه بأن يقوم بالانتقام كلياً، قام بتعبئة قواته، ولأنه كان عارفاً بتحركات أعدائه من قبل، قام بمكر بوضع كمين خلف عدوه، تحت قيادة ابنه هنري، ملك سردينيا، واستدرج الميلانيين إلى القتال، عندما كانوا على شك الانقضاض بطريقتهم المعتادة، وحمل الميلانيون متقدمين على شكل حشود غير عارفين بوجود الكمين،

واندفعوا غير هيابين، وبجرأة نحو الامبراطور فردريك، وتمركز ملك سردينيا بين الميلانيين وبين مدينتهم، وقاتلهم بحد السيف، حيث اقترف بينهم مذبحة كبيرة ومؤلمة، وعندما نظر سكان ميلانو نحو الخلف، وشاهدوا طرق التراجع مقطوعة، والمنافذ إلى مدينتهم مغلقة، أصيبوا باليأس، وسقط عدد منهم قتلى، حيث أنهم تركوا —على كل حال— نصراً دموياً إلى الامبراطور، وسقط من على الطرفين عدد لايحصى، ولدى سماع الناس بما حدث، بكوا بحزن عميق مثل هذا العدد الكبير من المسيحيين.

مقتل رئيس شمامسة يورك في ردهة الكنيسة

وأثار في هذه الآونة واحد من كهنة يورك بالإهانة والملامة، غضب واحد من الفرسان فأقدم على قتله في ردهة الكنيسة، ولم يكن الفارس من أصل متواضع، وقد اعتقل وألقي به في السجن، حيث انتظر انزال العقوبة لجريمته.

سوء معاملة الفرنسيين للبواتيين

وأثناء هذا الوقت كله، أصبح البواتيون التعساء، الذي لايستحقون الرحمة، لأن الخيانة مغروسة فيهم، ممقوتين في أعين الفرنسيين، إلى حد أنهم لم يتجرأوا، لابل لم يسمح لهم بإعطاء بناتهم بالزواج من دون إذن الفرنسيين، وبما أن السيادة عليهم كانت الآن بأيدي قوم يكرهونهم، سقطوا في أدنى الأوضاع وأسوأها، وعن استحقاق قطفوا ثمار طرائقهم، تحت نير العبودية المضاعف للمصريين، وقد أسفوا الآن لتسلمهم خيانياً تلك المبالغ الضخمة من الملكين، ولأنهم خدعوا وطردوا من أراضي سيدهم الطبيعي، الذي لأنه وجد اخلاصاً في أناس غير مخلصين، الذين في عطشهم للربح، سقطوا في المصيدة، أما قلاعهم التي كان من المفترض تدميرها بناء على إرادة أعدائهم، سمح لها مع صعوبات بالبقاء، بعد دفع مبلغ كبير، على شكل مال فدية، وجرى وضع حاميات فرنسية فيهن، لأنه:

سوف يبقى عبداً أبداً

الذي عقله للغنى يظل تواقاً

الإمتياز الذي حصل عليه أسقف لنكولن من البابا

وفي هذه الآونة، مع اقتراب الشتاء، كان روبرت أسقف لنكولن، مثل اسماعيل لايعرف الراحة، معارضاً لكثيرين، وهو نفسه معارضاً من قبل كثيرين جداً، فبعد كثير من النفقات والاضطراب، حصل على طلبه ضد الكهنة، حسبما ورد ذكر ذلك، في الرسالة التالية من البابا، الذي كافأه ببعض الهدايا الثمينة:

«**من أنوسنت، إلخ، إلى أخيه المحترم أسقف لنكولن، صحة ومباركات رسولية:** بين أشياء كثيرة غالباً ما تهاجم عقلنا —الذي هو غير جدير كما نحن، الذين بقدر من الرب نرأس على إدارة وتدبير الكنيسة العالمية— هذه الظروف التي تضغط علينا أثناء تأملاتنا المتوالية، وهي أن الكنائس التي هي مضطربة بالخلافات، ينبغي أن لاتنهار تحت النفقات التي جنتها منهن، وأن نهاية موائمة ينبغي أن توضع لذلك، وذلك وفقاً لجهود الفرقاء، تكون دائمة، ومن ذلك مسألة الخلاف الذي نشب بينك أنت شخصياً من جانب وبين عميد وهيئة الكهنوت في لنكولن من الجانب الآخر، وذلك فيما يتعلق بمراتبهم والامتياز العام العائد لهم ولأتباعهم ولبقية الكنائس، وكذلك فيما يتعلق بالزيارات التفتيشية، وتقويم واصلاح الأخلاق، وكذلك بالنسبة للعمداء، والكهنة ورجال الدين في جوقة المنشدين، وكذلك بالنسبة للقساوسة، والوكلاء والخوارنة وكهنوت الكنائس المذكورة، وأيضاً مايتعلق بالاحترام، والطاعة القانونية، التي ينبغي أن تقدم إليك من قبلهم، وأيضاً مايتعلق ببعض المراتب الأخرى، وقضايا عائدة إلى المكتب الأسقفي، وقمنا نحن بعد إرسال بعثات مختلفة إلى الجانب الأول ثم إلى الجانب الآخر، فحصلنا من الكرسي الرسولي أمام القضاة، ونتيجة لإجراءات تمت من قبلهم، على الرغبة بوضع نهاية لتلك القضية، ولقد

إرتأينا أن من المناسب وضعها تحت إشرافنا، وبما أنك قد ظهرت أمامنا مع قسيس الفئة الأخرى، وجرى العرض من قبلك، أنه بموجب منقبة منصبك الأسقفي، متوجب عليك القيام —بحكم الامتياز العام— بزيارات تفتيشية للهيئة الكهنوتية لكنيسة لنكولن، مع جميع الكنائس المرتبطة بها، مع التقدير لمراتبهم ولامتيازاتهم العامة، وعليك تأدية هذه الواجبات العائدة إلى مكتب الزيارات التفتيشية، وفقاً لصيغة القانون، وبما أن الهيئة الكهنوتية وكذلك الكنائس هم بموجب الامتياز العام خاضعين لك، فأنت ملزم بتقويم أخطاء العميد، وكذلك الكهنة جميعاً، ورجال الدين في جوقة المنشدين، وأيضاً القساوسة، والنواب والحجاب، وكهنة الكنائس المتقدمة الذكر، وأن تقوّم أخلاقهم، حتى لايجري طلب دمهم على يديك، وأن تقوم أيضاً بفحص جميع قضايا الأشخاص المتقدم ذكرهم وتقريرها، وذلك عندما ينشب خلاف فيما بينهم أنفسهم، أو ضد أي واحد يتولى معارضة عملك الأسقفي، أو آخرين ضدهم، سواء أكانت القضايا مدنية أو جرمية، عائدة إليك بشكل صحيح وعادي، وعائدة بالوقت نفسه إلى القضاء اللاهوتي، ولقد قام العميد والهيئة الكهنوتية —على عكس ماتقتضيه العدالة— بمعارضتك في هذه القضايا، وهكذا لم يعد بامكانك القيام بحرية، بتنفيذ الواجبات التي يتطلبها منصبك.

وعلاوة على ذلك، قد أضفت، أنه بحكم كونك رئيس كنيسة لنكولن، من المتوجب طلب موافقتك، قبل القيام بانتخاب العميد لكنيسة لنكولن، ومع ذلك فقد أكدوا من جانبهم أنهم يمتلكون الحرية، للقيام بإجراءات انتخاب العميد من دون طلب إذنك، وأنت طلبت اظهار العدالة بالنسبة لك حول هذه المسألة، ولقد قلت أيضاً أنه مع أن العميد لدى تثبيته، وكذلك الكهنة عندما تضفى الكهنوتية عليهم، عليهم بموجب الحق، تأدية قسم قانوني بالطاعة إليك، هم لم يقوموا بهذا الاحترام المتوجب، ولم يزعجوا أنفسهم حتى الآن للقيام بذلك، وعلاوة على ذلك لقد ادعيت، أنه

بموجب قانون الأسقفية، فإن عائدية العمادة، ومراتب الأوقاف الشاغرة، راجعة إليك بموجب الحق، ومع ذلك فإن العميد المتقدم ذكره، والهيئة الكهنوتية، قاموا معارضة منهم للعدالة، بمعارضتك في هذه القضايا، وبناء عليه طالبت بايضاح حقوقك في المسائل المتقدم ذكرها، وأن يجري تقويم ذلك بموجب قرار محدد، وأن يجري قبولك لمنصب الزيارات التفتيشية في الهيئة الكهنوتية في لنكولن، وفي الكنائس المرتبطة بها، مع تقدير للمراتب وللحقوق العامة، وأن يسمح لك باصلاح الأخطاء، وتقويم أخلاق جميع الفئات المتقدم ذكرها، دون الاهتمام بمعارضة العميد والكهنة، وأن يجري التفوه بقرار حول هذه القضايا، وأن يفرض الصمت عليهم إلى الأبد، مالم يكن بإمكانهم بموجب امتياز من الكرسي الرسولي، أو بموجب حق خاص الدفاع عن أنفسهم ضد الاعتراض المتقدم ذكره.

وقد سألت أيضاً بأن يدفع لك قدر كاف من المال، يجري منحه لك بموجب الزيارة التفتيشية للهيئة الكهنوتية، وكذلك النفقات التي تتحملها في هذه الزيارات ينبغي أن تسدد إليك، وأنه كلما قدمت إلى كنيسة لنكولن، عليهم قرع أجراس الكنائس لك، وأن يظهروا الاحترام لك، بحكم كونك أبيهم، وكذلك لاينبغي من الآن فصاعداً للعميد أن يرغم أي كاهن على أن يقسم يمين الطاعة الكهنوتية له، مالم تكن المكانة الأسقفية وسلطاتها متوقعة، وأن لايرغم أي كاهن أن يقسم على مراعاة أي من العادات التي هي مناقضة للمراسيم الكهنوتية، وأن لايجوز له من الآن فصاعداً، أن يصدر في تلك الهيئة، أية مراسيم يمكن أن تكون متعارضة مع الأحكام، وضد السلطات الأسقفية ومرتبتها.

ولقد طالبت أيضاً أنه بالنسبة للزيارات التفتيشية للأوقاف وللكنائس —مع التقدير لمراتبهم ولحقوقهم العامة— هي عائدة بموجب الحق إليك، وينبغي إرغام العميد بموجب قرار، على الاقلاع عن القيام بزيارات تفتيشية لهم، ولقد فند القسيس مع الآخرين من الفئة —على كل حال—

